٣٧٠

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

تأليف العلامة الفقيه المفسر

الأستاذ المحقق

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

نقله إلى العربية

الأستاذ محمد علي آذرشب

الجزء الأول

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة

لجماعة المدرسين بقم المشرفة

Princeton University Library
32101 057499350

Princeton University Library

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

Daftar
Inv# 72/5/1219

Makarim Shirazi

٣٧٠

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

لجنة التأليف بإشراف

الأستاذ المحقق

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الأول

نقحه وأخرجه

الأستاذ محمد علي آذرشب

مؤسسة النشر الإسلامي (التابعة
لجماعة المدرسين بقم المشرفة (إيران)

(RECAP)
BP130
.4
.M343
Juz 1

أعضاء لجنة التأليف

الأساتذة:

محمدرضا آشتياني
جعفر إمامي
داود إلهامي
أسدالله ايماني
عبدالرسول حسيني
سيد حسين شجاعي
سيد نورالله طباطبائي
محمود عبداللهي
محسن قرائتي
محمد محمدي

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL>

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ

المقدّمة

ماهوالتفسير؟

التفسير في اللغة الإبانة و إماطة اللثام.

وهل يحتاج القرآن الى إبانة و إماطة لثام... وهو «النور» و «الكلام المبين»؟!

لا، ليس على وجه القرآن لثام أو نقاب...بل إنّنا بالتفسير ينبغي أنّ نزيل اللثام عن روحنا، و نزيح الستار المسدول على بصيرتنا، كي ندرك مفاهيم القرآن و نعيش أجواءه.

من جهة أخرى، ليس للقرآن بُعدٌ واحدٌ... نعم، له بُعدٌ عامّ ميسّر للجميع، ينير الطريق، و يهدي البشرية الى سواء السبيل.

و هناك أيضاً أبعادٌ أُخرى، للعلماء والمفكرين، لأُولئك الطامحين الى مزيد من الارتواء... وهؤلاء يجدون في القرآن ما يروي ظمأهم الى الحقيقة، و يغرفون من بحره قدر سعة آنيتهم... و تتسع الآنية باتساع دائرة السعي والجهد والإخلاص.

هذه الأبعاد أطلقت عليها الأحاديث اسم «البطون» ... بطون القرآن... وهي لا تتجلّى للجميع، أو بعبارة أدقّ، لا تقوى كلُّ العيون على رؤيتها.

والتفسير يمنح العيون قوة، و يزيل من أمامها الحجب والأستار، و يمكّنها من رؤية تلك الأبعاد بدرجة و أُخرى.

و بعض أبعاد القرآن تنجلي بمرور الزمان من خلال نضج التجارب البشرية و نموّالكفاءات الفكريّة، وهذا ما أشار إليه «ابن عباس» إذ قال: **«القرآن يفسّره الزمان»**.

أضف الى ذلك أنّ **«القرآن يفسّر بعضه بعضاً»**، وهذا لا يتنافى مع كونه نوراً

وكلاماً مبيناً، لأنه كلٌ لا يتجزأ، يشكّل بمجموعه النور والكلام المبين.

° ° °

متى بدأ تفسير القرآن؟

تفسير القرآن بالمعنى الحقيقي بدأ من عصر رسول الله صلّى الله عليه وآله، بل من بدء نزول الوحي، لكنّه بدأ بشكل «علم مدوّن» من زمن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما تجمع على ذلك الروايات، و رجال هذا العلم يصلون بسلسلة أسانيدهم إليه، ولا عجب في ذلك فهو باب مدينة علم رسول الله صلّى الله عليه وآله.

و مئات التفاسير كتبت على مرّ التاريخ الإسلامي، بلغات مختلفة، و بأساليب ومناهج متنوعة، منها الأدبي، والفلسفي، والأخلاقي، والروائي، والتاريخي، والعلمي، وكلّ واحد منها تناول القرآن من زاوية تخصّص صاحبه.

بستان مثمر مزدان مزدهر... ولجه من ولج، واحدٌ شُغف بمناظره الشاعرية الخلاّبة.

وآخر عكف على ما فيه من علوم طبيعيّة ترتبط بتكوين النبات و نشاطه.

و ثالث ألفت نظره المواد الغذائيّة المستفادة منه.

و رابع اتّجه الى دراسة الخواصّ العلاجيّة في نباتاته.

و خامس اهتمّ بعطور أوراده.

وهكذا روّاد طريق التفسير القرآني، عكس كلٌّ منهم بما يملكه من مرآة خاصّة، مظهراً من مظاهر جمال القرآن و أسراره.

واضح أنّ كلّ هذه تفاسير للقرآن، ولكن ليست تفسيراً للقرآن، لأنّ كلّ واحد منها يميط اللثام عن بُعد من أبعاد القرآن، لا عن كلّ الأبعاد، ولو جمعناها لتجلّى من خلالها بعض أبعاد القرآن لاجميع أبعاده.

ذلك لأنّ القرآن كلامُ الله، و فيض من علمه اللامتناهي، وكلامه مظهرٌ لعلمه، وعلمه مظهرٌ لذاته، وكلّها لامتناهية.

من هنا، لا ينبغي أنّ نتوقع استطاعة البشر أنّ يروا كلّ أبعاد القرآن، لأنّ الكوز لا يسعُ البحر.

طبعاً، ممّا لاشكّ فيه أنّنا نستطيع أنّ نغرف من هذاالبحر الكبير... الكبير جداً... بقدر سعة آنية فكرنا، ومن هنا كان على العلماء فرض أن لايتوانوا في كلّ عصر وزمان عن كشف مزيد من حقائق القرآن الكريم، وأن يبذلوا جهودهم المخلصة في هذاالمجال ما استطاعوا، عليهم أن يستفيدوا ممّاخلّفه الأسلاف رضوان الله عليهم في هذاالمجال، ولكن لايجوز لهم أن يكتفوا به، فرسول الله صلّى الله عليه وآله قال عن كتاب الله العزيز: «لاتحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه».

* * *

خطرالتفسيربالرأي:

أخطر طريقة في تفسير القرآن هي أنّ يأتي المفسّر الى كتاب الله العزيز معلّماً، لا تلميذاً.

أي يأتي إليه ليفرض أفكاره على القرآن، و ليعرض أحكامه الناتجة عن البيئة والتخصّص العلمي، والاتّجاه المذهبيّ الخاص، والذوق الشخصي، باسم القرآن، و بشكل تفسير للقرآن، مثل هذاالشخص لا يتّخذالقرآن هادياً و إماماً، بل يتّخذه وسيلة لطرح كلامه و تبرير ذوقه و أفكاره.

هذا اللون من تفسير القرآن ـ أو قُل تفسيرالأفكار الشخصية بالقرآن ـ راج بين جماعة، وليس وراءه إلاّ الإنحراف... الإنحراف عن طريق الله ... والانزلاق في متاهات الضلال.

هذا ليس بتفسير و إنّما هو قسر وفرض و تحميل... ليس باستفتاء و إنّما هو إفتاء... ليس بهداية و إنّما هوالضلال ... إنّه مسخ و تفسير بالرأي، و نحن في منهجنا التفسيري سوف لانتجه ـ بإذن الله ـ الى ذلك، بل نتجه بكلّ قلوبنا و أفكارنا نحوالقرآن لنتتلمذ عليه، لاغير.

* * *

متطلّبات العصر:

لكلّ عصر خصائصه و ضروراته و متطلّباته، وهي تنطلق من الأوضاع الإجتماعية والفكرية السائدة في ذلك العصر.

ولكلّ عصر مشاكله وملابساته الناتجة عن تغيير المجتمعات والثقافات، وهو تغيير لا ينفك عن مسيرة المجتمع التاريخية.

المفكّر الفاعل في الحياة الإجتماعية هو ذلك الذي فهم الضرورات والمتطلّبات، و أدرك المشاكل والملابسات ... و بعبارة أُخرى هو الذي استوعب مسائل عصره.

أمّا أُولئك الّذين لا يدركون هذه المسائل إطلاقاً، أو لا يتفاعلون معها بسبب عدم انتمائهم الى عصرهم، أي بسبب فقدانهم عنصر «المعاصرة»، فهم الهامشيّون الذين لا يقدرون على التأثير ولا على المعالجة، بل يقفون دوماً متأسّفين و متحسّرين وشاكين و منتقدين، و يزداد تشاؤمهم و يأسهم باستمرار حتى يقعوا في طامّة «الانزواء الاجتماعي».

ذلك لأنّهم ما استطاعوا، أو ما أرادوا أن يستوعبوا احتياجات عصرهم ومشاكله.

هؤلاء يعيشون في ظلام مطبق، و بسبب عدم تفهّمهم لأسباب (الحوادث) وعللها و نتائجها، يفقدون أنفسهم أمام هجوم هذه الحوادث و يرتبكون و يخافون و يظلّون دون خطّة للمواجهة والدفاع، و إن أرادوا اتّخاذ خطوة يزلقون و يزلّون، لأنّ مسيرتهم في الظلام، وما أجل ما قاله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : **«العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»**.

رسالة العلماء في كلّ عصر أن يدركوا بوعي كامل هذه المسائل... هذه الاحتياجات، وهذا الفراغ الروحي والفكري والاجتماعي، و أن يسعوا لمعالجتها بشكل صحيح كي لا يفسحوا المجال للاطروحات المنحرفة أن تدخل الساحة و تملأ الفراغ و تقدّم الحلول الكاذبة.

من المسائل التي تلمّسناها بوضوح عطش الجيل الراهن لدرك المفاهيم الإسلاميّة والمسائل الدينيّة، و خلافاً لما يردّده اليائسون والمتشائمون إنّ هذا الجيل لا يتوق الى الفهم حسب، بل يتلهف الى أنّ يرى التطبيق العملي لهذه المفاهيم والمسائل.

من الواضح أنّ أمام هذا الجيل التوّاق مسائل غامضة و نقاط إبهام و مواضع تساؤل كثيرة، والخطوة الأُولى لتلبية هذه الحاجات إعادة كتابة التراث العلمي والفكري

الإسلامي بلغة العصر، و تقديم كلّ هذه المفاهيم السامية عن طريق هذه اللغة الى روح الجيل وعقله.

والخطوة الاخرى، استنباط الاحتياجات والمتطلّبات الخاصة بهذاالزمان من مبادئ الإسلام العامّة.

وهذا التفسير دوّن على أساس هذين الهدفين.

* * *

الأمثل بين التفاسير:

و اجهنا دوماً أسئلة وردت إلينا من مختلف الفئات وخاصّة الشباب المتعطّش إلى نبع القرآن عن التفسير الأفضل.

هذه الأسئلة تنطوي ضمنياً على بحث عن تفسير يبيّن عظمة القرآن عن تحقيق لا تقليد، ويجيب على ما في الساحة من احتياجات و تطلّعات و آلام و آمال... تفسير يجدي كلّ الفئات و يخلو من المصطلحات العلميّة المعقّدة.

في الواقع نحن نفتقر الى مثل هذاالتفسير، فالأسلاف والمعاصرون رضوان الله عليهم كتبوا في حقل التفسير كثيراً، لكنّ بعضها مكتوب بإسلوب خاصّ بعصرها لا يستفيد منه إلاّ العلماء والادباء، و بعضها مدوّن بمستوى علمي لا يدركه سوى الخواص، و بعضها تناول جانباً معيّناً من القرآن، و كأنّها باقة ورد اقتطفت من بستان مزدان، فهي قبس من هذاالبستان، وليست البستان... وهكذا.

من هنا لم نجد أمام هذه الأسئلة المتدفّقة علينا جواباً مقنعاً يرضي هذه الأرواح المتعطّشة التوّاقة.

آلينا على أنفسنا أنّ نجيب على هذاالسؤال عملياً ، فالكلام لا يرضي السائلين.

لكنّنا وجدنا أنفسنا في خِضَمّ الأشغال المتزايدة من جهة، و أمام القرآن... البحر الذي لا ساحل له... من جهة اخرى، فأنّى لنا أن نخوض عبابه دون عدّة و وقت و استعداد فكري و نفسي، لذلك وقفنا على ضفاف هذاالبحر الموّاج ننظر اليه بحسرة.

و فجأة، هدانا الله الى طريق الحلّ، وانقدحت في الذهن فكرة العمل الجماعي، فكان أن اجتمع معنا على الطريق عشرة من الفضلاء المخلصين الواعين كانوا حقّاً مصداق

«عشرة كاملة»، فبذلت المساعي الدائبة ليلاً ونهاراً لتثمر خلال مدّة أقصر ممّا توقّعناها هذا الذي يراه القارئ الكريم.

* * *

ولكي لا تبق نقطة غموض أمام القارئ الكريم نشرح باختصار منهج عملنا في هذاالتفسير.

قُسّمت الآيات الكريمة أولاً في الفروع المختلفة بين الاخوة، و بتوجيه موحّد ودرسوا المصادر المختلفة في التفسير لكبار المفسّرين، مثل:

١ - مجمع البيان للشيخ الطبرسي

٢ - أنوارالتزيل للقاضي البيضاوي

٣ - الدرّالمنثور لجلال الدين السيوطي

٤ - البرهان للمحدث البحراني

٥ - الميزان للعلاّمة الطباطبائي

٦ - المنار، تقرير دروس للشيخ محمد عبده

٧ - في ظلال القرآن للاستاذ سيد قطب

٨ - تفسير المراغي لأحمد مصطفى مراغي

٩ - مفاتيح الغيب للفخرالرازي

١٠ - روح الجنان لأبي الفتوح الرازي

١١ - اسباب النزول للواحدي

١٢ - تفسير القرطبي لمحمدبن أحمدالأنصاري القرطبي

١٣ - تفسير روح المعاني للعلاّمة شهاب الدين الآلوسي

١٤ - نورالثقلين لعبد علي بن جمعة الحويزي

١٥ - الصافي للملاّ محسن الفيض الكاشاني

١٦ - التبيان للشيخ الطوسي

و تفاسير أخرى...

ثمّ جمعنا ما عندنا من مفاهيم تتناسب مع متطلّبات عصرنا و احتياجاته، و

في الجلسات العامّة التي عقدناها يومياً أضفنا الى كلّ ذلك ما استجدّ في الأذهان من مسائل قرآنية، و بعد دراسات و مشاورات حول المباحث المختلفة، و مراجعة المصادر المختلفة، امليت الموضوعات و دوّنها الاخوان بسرعة، ثمّ راجعنا الكتابات و دقّقنا فيها بصبر وسعة صدر، وأعددناها للطبع، وبعدالطبع أُعيد النظر فيها.

و كانت نتيجة هذه الجهود ما يراه القارئ العزيز، و نرجو أن يكون بإذن الله نافعاً مفيداً للجميع.

* * *

خصائص هذاالتفسير:

لكي يدخل القرّاء الأعزاء الى هذاالتفسير بنظرة أوضح، وليجدوا فيه ما يريدونه بشكل أيسر، نذكر باختصار خصائص هذاالتفسير و مزاياه:

١ ـ لمّا كان القرآن «كتاب حياة» فإنّا لم نركّز ـ في التفسير ـ على المسائل الأدبية والعرفانيّة، بل بدلاً من ذلك عالجنا المسائل الحياتيّة الماديّة والمعنويّة وخاصّة المسائل الإجتماعيّة، و سعينا الى إشباعها بحثاً و تحليلاً، و خاصّة ما يرتبط من قريب بحياة الفرد والمجتمع.

٢ ـ في ذيل كلّ آية تناولنا تحت عنوان **(وقفات)** المسائل المطروحة في الآية، بشكل مستقل، كالربا، والرق، وحقوق المرأة، و فلسفة الحج، و أسرار تحريم القمار، والخمرة، ولحم الخنزير، و مسائل الجهاد الاسلامي، و أمثالها من الموضوعات، كي يستغني القارئ عن مراجعة الكتب الأُخرى في هذه المجالات.

٣ ـ عزفنا عن تناول البحوث ذات الفائدة القليلة، وأعطينا الأهميّة لمعاني الكلمات وأسباب النزول ممّا له تأثير في الفهم الدقيق لمعنى الآية.

٤ ـ عرضنا التساؤلات والشبهات والاعتراضات المطروحة حول اصول الإسلام و فروعه بمناسبة كلّ آية و ذكرنا الجواب عليها باختصار مثل شبهة الآكل والمأكول، والمعراج، و تعدد الزوجات، و سبب الاختلاف بين إرث المرأة والرجل، و دية المرأة والرجل، والحروف المقطعة في القرآن، ونسخ الأحكام، والغزوات الإسلاميّة، والاختبارات الالهيّة، و عشرات المسائل الأُخرى، كي لا تبق أيّة علامة استفهام عند

مطالعة تفسير الآيات.

٥ ـ أعرضنا عن استعمال المصطلحات العلمية المعقّدة التي تجعل الكتاب خاصّاً بفئة خاصّة من القرّاء، ولدى الضرورة تناولنا ذلك في هامش الكتاب من أجل استفادة المتخصّصين.

نسأل الله سبحانه أن يأخذ بأيدينا لما فيه رضاه، و يوفق كلّ العاملين لخدمة كتابه العظيم.

* * *

الصحوة الاسلامية المعاصرة وزيادة الحاجة الى تفسير القرآن:

تشهد أمتنا الإسلاميّة خلال هذه الأعوام صحوة إسلاميّة عامّة، تتمثل في رفض كلّ المستوردات الفكريّة والعودة الى الاسلام، لإقامة حياتها على أساس أحكام الرسالة الخاتمة.

هذه الصحوة تعود الى فشل كلّ الاطروحات الكافرة في تحقيق ما لوّحت به من تقدميّة و تحرّر و سعادة كما تعود أيضاً الى العواطف الإسلاميّة المتوغّلة في أعماق أبناء الأُمّة.

و يتحمّل العلماء الواعون في هذه المرحلة الحسّاسة مسئوليّات كبرى تفرض عليهم أنّ يعمّقوا هذاالتحرك الواعي بين صفوف الأُمّة و يجذّروه و يؤصّلوه، كي تكون المسيرة على بصيرة في حركتها و على يقظة في اتّخاذ قراراتها، وعلى ثقة من أنّها تسلك الطريق نحو أهدافها الإسلاميّة الكبرى دون زيغ أو انحراف أو التقاط.

و كتاب الله هدى و نور، فيه الإطار العامّ للمسيرة و فيه الزاد اللازم لمواصلة الطريق المستقيم نحو ربّ العالمين.

نسأل الله سبحانه أن نكون بهذا التفسير قد ساهمنا في إعلان كلمة القرآن بشأن واقعنا، و بشأن مستقبلنا، و بشأن ما يجب أن نفعله للخروج من الواقع المؤلم الذي تعيشه أمتنا.

و نسأله سبحانه أنّ يوفّق كلّ العاملين على إعلاء راية القرآن في العالم ويسدّد خطاهم و ينصرهم على أعدائهم.

نسأله جلّ وعلا أن يوفّق العلماء والمفكّرين الواعين الملتزمين الى قيادة هذا التحرك الإسلامي المتصاعد في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، قيادة أصيلة قائمة على هدى القرآن والسنّة.

و نتضرّع اليه أن يوفّقنا لإكمال بقيّة أجزاء هذاالتفسير و أن يتقبل من كلّ العاملين عليه، إنّه تعالى سميع مجيب.

وآخر دعوانا أنِ الحمدلله ربّ العالمين.

ناصرمكارم الشيرازي

قم ـ الحوزة العلمية ١٤٠٤ هـ

الجزء الأول من القرآن الكريم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الحمد

خصائصها:

لهذه السورة مكانة خاصة بين سائر سور القرآن الكريم و تتميز بالخصائص التالية:

١ ـ سياق السورة. تختلف سورة الحمد عن سائر سور القرآن فى لحنها و سياقها. فسياق السور الاخرى يعبّر عن كلام الله وسياق هذه السورة يعبّر عن كلام عباد الله. و بعبارة اخرى شاء الله فى هذه السورة ان يعلّم عباده طريقة خطابهم له ومناجاتهم اياه تبدأ هذه السورة بحمد الله والثناء عليه

و تستمر فى اقرار الايمان بالمبدأ والمعاد (بالله واليوم القيامة) و تنتهى بالتضرع والطلب.

الانسان الواعى المتيقظ يحسّ وهو يقرأ هذه السورة بانه يعرج على اجنحة الملائكة ويسمو فى عالم الروح والمعنوية و يدنو باستمرار من رب العالمين

هذه السورة تعبّر عن اتجاه الاسلام فى رفض الوسطاء بين الله والانسان هؤلاء الوسطاء الذين افتعلتهم المذاهب الزائفة المنحرفة، و تُعلّم البشر ان يرتبطوا بالله مباشرة دونما واسطة. فالمخلوق لايرى فى مضامين آيات السورة، سوى الله يخاطبه .. يناجيه.. يتضرّع اليه.. دونما واسطة حتى وان كانت الواسطة نبيّاً مرسلاً او ملكا مقرّبا. ومن العجيب أن يحتل هذا الارتباط المستقيم بين الخالق والمخلوق مكان الصدارة في كتاب الله العزيز!.

* * *

٢ ـ سورة الحمد أساس القرآن ـ فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال لجابر بن عبدالله الانصاري: «**اَلا أُعَلِّمُكَ أَفْضَلَ سُورَةٍ أَنْزَلَها اللهُ في كِتابِهِ؟**» **قالَ جابِرُ: بَلى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي يا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِيها. فَعَلَّمَهُ الْحَمْدَ أُمَّ الْكِتابِ، وَقالَ: هِيَ**

شِفاءٌ مِنْ كُلِّ داءٍ، اِلاّ السّامَ، وَالسّامُ الْمَوْتُ»[١].

و روي عنه (صلّى الله عليه وآله) أيضاً أنّهُ قالَ: وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ ما أنْزَلَ اللهُ في التَّوْراةِ، وَلا في الزَّبُورِ، وَلا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَها، وَهِيَ أُمُّ الْكِتابِ.[٢]

سبب أهمية هذه السورة يتضح من محتواها، فهي في الحقيقة عرض لكل محتويات القرآن. جانب منها يختص بالتوحيد وصفات الله، وجانب آخر بالمعاد و يوم القيامة، وقسم منها يتحدث عن الهداية والضلال باعتبارهما علامة التميز بين المؤمن والكافر. وفيها أيضاً اشارات الى حاكمية الله المطلقة، و الى مقام ربوبيته، ونعمه اللامتناهية العامة والخاصة (الرحمانية والرحيمية)، و الى مسألة العبادة والعبودية واختصاصها بذات الله دون سواه.

إنها تتضمن في الواقع توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الافعال، و توحيد العبادة.

و بعبارة اخرى: تتضمن هذه السورة مراحل الايمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، والاقرار باللسان، والعمل بالاركان. ومن المعلوم أن لفظ «الأم» يعني هنا الاساس والجذر.

ولعل ابن عباس ينطلق من هذاالفهم إذ يقول:
إن لكل شئ اساساً... وأساس القرآن الفاتحة.

ومن هذا المنطلق أيضاً قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيما روي عنه: أيُّما مُسْلِمٍ قَرَأَ فاتِحَةَ الْكِتابِ أُعْطِيَ مِنَ الأجْرِ كَأنَّما قَرَأَ ثُلُثَيِ الْقُرْآنِ، وَأُعْطِيَ مِنَ الأجْرِ كَأنَّما تَصَدَّقَ عَلى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ»[٣].

تعبير (ثلثي القرآن)، ربما كان اشارة الى أن القرآن ينطوي على ثلاثة أقسام: الدعوة الى الله، والإخبار بيوم الحساب، والفرائض والاحكام. و سورة الحمد تتضمن القسمين الاولين. و تعبير (أم القرآن) إشارة الى أن القرآن يتلخص من وجهة نظر أخرى

(١و٢) مجمع البيان، ونورالثقلين، مقدمة سورة الحمد.

(٣) مجمع البيان، بداية سورة الحمد.

في (الايمان والعمل) وقد جمعا في سورة الحمد.

• • •

٣ ـ سورة الحمد شرف النبي (صلّى الله عليه وآله) ـ القرآن الكريم يتحدث عن سورة الحمد باعتبارها هبة إلهية لرسوله الكريم، ويقرنها بكل القرآن إذ يقول:

«وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»[1] (الحجر، ٨٧)

نفس هذا المضمون رواه أمير المؤمنين علي (عليه السلام) عن الرسول (صلّى الله عليه وآله) قال: «إِنَّ اللهَ أَفْرَدَ الْإِمْتِنَانَ عَلَيَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَجَعَلَهَا بِإِزَاءِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَإِنَّ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أَشْرَفُ مَا فِي كُنُوزِ الْعَرْشِ»[2].

• • •

٤ ـ التأكيد على تلاوة هذه السورة ـ مما تقدم نفهم سبب تأكيد السنة بمصادرها الشيعية والسنية على تلاوة هذه السورة. فتلاوتها تبعث الروح والايمان والصفاء في النفوس، وتقرب العبد من الله، وتقوّي ارادته، و تزيد اندفاعه نحو تقديم المزيد من العطاء في سبيل الله، و تبعده عن ارتكاب الذنوب والانحرافات. ولذلك كانت أم الكتاب صاعقة على رأس ابليس كما ورد عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام):

«رَنَّ إِبْلِيسُ أَرْبَعَ رَنَّاتٍ، أَوَّلَهُنَّ يَوْمَ لُعِنَ، وَحِينَ أُهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَحِينَ بُعِثَ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَحِينَ نَزَلَتْ أُمُّ الْكِتَابِ»[3]

• • •

محتوى السورة:

كل واحدة من الآيات السبع في هذه السورة تشير الى حقيقة هامة:

«بِسْمِ اللهِ..» بداية لكل عمل، و تعلمنا الاستمداد من الباري تعالى لدى البدء بأي عمل.

---

(١) سيأتي تفسير «سبعا من المثاني» في ذيل الآية المذكورة. انظر: المجلد الحادي عشر من هذا التفسير.

(٢) تفسير البرهان، ج١، ص٢٦.

(٣) نور الثقلين، ج١ ص٤.

«اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» درس في عودة كل نعمة و رعاية الى الله تعالى، والفات الى حقيقة انطلاق كل هذه المواهب من ذات الله تعالى.

«اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» تبين هذه الحقيقة، وهي: إن خلق الله و رعايته وحاكميته تقوم على أساس الرحمة والرحمانية. وهذاالمبدأ يشكل المحور الاساس لنظام رعاية العالم.

«مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» استحضار للمعاد و يوم الجزاء، و لحاكمية الله على تلك المحكمة الكبرى.

«إِيّٰاكَ نَعْبُدُ وَ إِيّٰاكَ نَسْتَعِينُ» تبين التوحيد في العبادة، والتوحيد في الاستعانة بالاسباب.

«اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ» توضح حاجة العباد و رغبتهم الشديدة للهداية، وتؤكد حقيقة أن كل الوان الهداية إنما تصدر منه تعالى.

وآخر آية من هذه السورة ترسم معالم «الصِّرٰاطُ الْمُسْتَقِيمُ» و تميّز بين صراط الذين أنعم الله عليهم، و صراط الذين ضلّوا والذين استحقوا غضب الله عليهم.

يمكن تقسيم هذه السورة، من منظار آخر، الى قسمين: قسم يختص بحمدالله والثناء عليه، وقسم يتضمّن أدعية العباد.

و الى هذاالتقسيم يشير الحديث الشريف عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال:

«قٰالَ اللّٰهُ عَزَّوَجَلَّ قَسَّمْتُ فٰاتِحَةَ الْكِتٰابِ بَيْنِي وَ بَيْنَ عَبْدِي فَنِصْفُهٰا لِي وَ نِصْفُهٰا لِعَبْدِي وَ لِعَبْدِي مٰا سَأَلَ»

اِذٰا قٰالَ الْعَبْدُ «بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» قٰالَ اللّٰهُ جَلَّ جَلالُهُ بَدَأَ عَبْدِي بِاسْمِي وَ حَقٌّ عَلَيَّ اَنْ اُتِمَّ لَهُ اُمُورَهُ وَ اُبٰارِكَ لَهُ فِي اَحْوٰالِهِ»

«فَاِذٰا قٰالَ: «اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ» قٰالَ اللّٰهُ جَلَّ جَلالُهُ، حَمَدَنِي عَبْدِي وَ عَلِمَ اَنَّ النِّعَمَ الَّتِي لَهُ مِنْ عِنْدِي، وَ اَنَّ الْبَلاٰيٰا الَّتِي دَفَعْتُ عَنْهُ بِتَطَوُّلِي، اُشْهِدُكُمْ اَنِّي اُضِيفُ لَهُ اِلٰى نِعَمِ الدُّنْيٰا نِعَمَ الْآخِرَةِ وَ اَدْفَعُ عَنْهُ بَلاٰيٰا الْآخِرَةِ كَمٰا رَفَعْتُ عَنْهُ بَلاٰيٰا الدُّنْيٰا»

وَ اِذٰا قٰالَ: «اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» قٰالَ اللّٰهُ جَلَّ جَلالُهُ، شَهِدَ لِي عَبْدِي اَنِّي اَلرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ اُشْهِدُكُمْ لَاُوَفِّرَنَّ مِنْ رَحْمَتِي حَظَّهُ وَلَاُجْزِلَنَّ مِنْ عَطٰائِي نَصِيبَهُ.

فَاِذٰا قٰالَ: «مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» قٰالَ اللّٰهُ تَعٰالٰى: اُشْهِدُكُمْ كَمٰا اعْتَرَفَ بِاَنِّي اَنَا

مالِكُ يَوْمِ الدّينِ لَاُسَهِّلَنَّ يَوْمَ الْحِسابِ حِسابَهُ وَلَاَتَقَبَّلَنَّ حَسَناتِهِ، وَلَاَ تَجاوَزَنَّ عَنْ سَيِّئاتِهِ»

فَإذا قالَ: «إيّاكَ نَعْبُدُ» قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، صَدَقَ عَبْدي إيّايَ يَعْبُدُ أشْهِدُكُمْ لَاُثيبَنَّهُ عَلى عِبادَتِهِ ثَواباً يَغْبِطُهُ كُلُّ مَنْ خالَفَهُ في عِبادَتِهِ لي

فَإذا قالَ: «وَإيّاكَ نَسْتَعينُ» قالَ اللهُ تَعالى: بي اِسْتَعانَ عَبْدي، وَاِلَيَّ اِلْتَجأ، اُشْهِدُكُمْ لَاُعينَنَّهُ عَلى اَمْرِهِ وَلَاُغيثَنَّهُ في شَدائِدِهِ وَلَآخُذَنَّ بِيَدِهِ يَوْمَ نَوائِبِهِ»

فَإذا قالَ: «اِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقيمَ» الى آخر السورة قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: هٰذا عَبْدي وَلِعَبْدي ما سَألَ وَقَدِاسْتَجَبْتُ لِعَبْدي وَاَعْطَيْتُهُ ما اَمَّلَ وَآمَنْتُهُ مِمّا مِنْهُ وَجِلَ»[1].

* * *

لماذا سميت فاتحة الكتاب؟

«فاتِحَةُ الْكِتابِ»، اسم اتخذته هذه السورة في عصر رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، كما يبدو من الاخبار والاحاديث المنقولة عن النبي الاعظم.

وهذه المسألة تفتح نافذة على كثير من المسائل الاسلامية، وتلقي الضوء على قضية جمع القرآن، **وتوضح أن القرآن جُمع بالشكل الذي عليه الآن في زمن الرسول (صلّى الله عليه وآله)** خلافا لما قيل بشأن جمع القرآن في عصر الخلفاء، فسورة الحمد ليست أول سورة في ترتيب النزول، وتسميتها بفاتحة الكتاب تعود الى الموضع الذي اتخذته بين السور في الترتيب القرآني خلال عصر نزول الوحي.

وثمة أدلة أخرى تؤيد حقيقة جمع القرآن بالترتيب الذي بأيدينا اليوم في عصر الرسول (ص) و بأمره.

روى علي بن ابراهيم، عن الامام الصادق (عليه السلام)، اَنَّ رَسُولَ الله (صلّى الله عليه وآله) قالَ لِعَلّي (عليه السلام):

«يا عَلِيُّ اِنَّ الْقُرْآنَ خَلْفَ فِراشي في الصُّحُفِ وَالْحَريرِ وَالْقَراطيسِ، فَخُذُوهُ وَاجْمَعُوهُ وَلا تُضَيِّعُوهُ كَما ضَيَّعَتِ الْيَهُودُ التَّوْراةَ، وَانْطَلَقَ عَلِيٌّ (عَلَيْهِ السَّلامِ) فَجَمَعَهُ في

---

(١) عيون أخبار الرضا، نقلا عن الميزان، ج١، ص٣٩.

ثَوْبٍ اَصْفَرَ، ثُمَّ خَتَمَ عَلَيْهِ»[١].

و يروي (الخوارزمي) في المناقب عن (على بن رباح) أن على بن ابي طالب وابي بن كعب جمعا القرآن في عصر رسول الله (صلّى الله عليه وآله).

و روى (الحاكم) في (المستدرك) عن (زيدبن ثابت) قال: «كُنّا نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقاعِ»

ويقول السيد المرتضى (رحمه الله): «اِنَّ الْقُرْآنَ كانَ عَلىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) مَجْمُوعاً مُؤَلَّفاً عَلىٰ ما هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ»[٢].

و يروي الطبراني وابن عساكر عن الشعبي أن القرآن جمعه ستة من الانصار في عصر النبي (صلّى الله عليه وآله)[٣].

و يروي قتادة أنه سأل أنس عن جمع القرآن في عصر النبيى (صلّى الله عليه وآله) فَقالَ: أَرْبَعَةٌ مِنَ الْاَنْصارِهُمْ اُبَىُّ بْنُ كَعْبٍ، وَ مَعاذٌ، وَ زَيْدُبْنُ ثابِتٍ، وَ ابُو زَيْدٍ[٤] وهناك روايات اخرى يطول ذكرها.

على أي حال، اتخاذ سورة الحمد اسم (فاتحة الكتاب) دليل واضح على اثبات هذه المسألة، اضافة الى الادلة الاخرى المستفيضة في مصادر الشيعة والسنة.

* * *

سؤال:

وهنا يثارُ سؤال حول المشهور بين بعض العلماء بشأن جمع القرآن بعد عصر النبي (صلّى الله عليه وآله).

وفي الجواب نقول: ما روي بشأن جمع القرآن على يد عليّ بعد عصر الرسول، لم

---

(١) تاريخ القرآن، ابوعبدالله الزنجاني، ص٤٤.

(٢) مجمع البيان، ج١ ص١٥.

(٣) منتخب كنزالعمال، ج٢ ص٥٢.

(٤) صحيح البخاري، ج٦، ص١٠٢.

يكن القرآن وحده، بل مجموعة تتضمن القرآن وتفسيره وأسباب نزول الآيات، وما شابه ذلك مما يحتاجه الفرد لفهم كلام الله العزيز.

وأما ما فعله عثمان في هذاالصدد، فتدل القرائن أنه أقدم على كتابة قرآن واحد عليه علامات التلاوة والاعجام، منعا للاختلاف في القراءات، إذ لم يكن التنقيط معمولاً به حتى ذلك الوقت.

وما نراه من إصرار لدى جماعة على عدم جمع القرآن في عصر رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وعلى نسبة هذاالامر للخليفة عثمان أو للخليفة الاول أوالثاني، فانما يعود الى ظروف وملابسات وعصبيات تاريخية لسنا بصددها الآن.

و اذا رجعنا الى استقصاء طبيعة الاشياء في مجال جمع القرآن، ألفينا أنه من غيرالمعقول أن يترك النبيى (صلّى الله عليه وآله) هذه المهمة الكبيرة، بينما نجده يهتم بدقائق الامور المرتبطة بالرسالة.

أليس القرآن دستور الاسلام، وكتاب هداية البشرية، وأساس عقائدالاسلام وأحكامه؟

أليس من الممكن أن يتعرض القرآن - إن لم يجمع في عصرالرسول (صلّى الله عليه وآله) الى الضياع، و إلى الاختلاف فيه بين المسلمين؟!

(حديث الثقلين) المروي في المصادر الشيعية والسنية، حيث أوصى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بوديعته: كتاب الله، وعترته، يؤكد أيضا أن القرآن كان قد جُمع في مجموعة واحدة في عصرالرسول الاعظم.

أما اختلاف الروايات في عدد الصحابة الذين جمعواالقرآن خلال عصرالنبي، فلا يشكل عقبة في البحث، ومن الممكن أن تتجه كل رواية الى ذكر عدد منهم.

* * *

الآيات

١ ـ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ»
٢ ـ «اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»
٣ ـ «اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ»
٤ ـ «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»
٥ ـ «اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»
٦ ـ «اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»
٧ ـ «صِرَاطَ الَّذِينَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»

التفسير

١ ـ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ»

دأبت الأمم والشعوب على أن تبدأ كل عمل هام ذي قيمة باسم كبيرمن رجالها. والحجر الاساس لكل مؤسسة هامة يوضع باسم شخصية مرموقة في نظر أصحابها، أي ان أصحاب المؤسسة يبدأون العمل باسم تلك الشخصية.

ولكن، ما أفضل أن يبدأ العمل باسم وجود خالد قائم لايعتريه الفناء، لكي يتسم ذلك العمل بالبقاء والخلود!!

فكل ما في الكون يتجه الى الزوال والفناء، الا ما كان مرتبطا بالذات الابدية الخالدة.. ذات الله سبحانه.

خلود ذكر الانبياء سببه ارتباطهم بالله و بالقيم الانسانيّة الالهية الخالدة كالعدالة والحقيقة، وخلود اسم رجل في التاريخ مثل (حاتم الطائي)، يعود الى ارتباطه

بواحدة من تلك القيم هي (السخاء).

صفة الخلود والابدية يختص بها الله من بين سائر الموجودات، ومن هنا ينبغي أن يبدأ كل شيئ باسمه وتحت ظله و بالاستمداد منه. ولذلك كانت البسملة أول آية في القرآن الكريم.

والبسملة لاينبغي أن تنحصر في اللفظ والصورة، بل لابدّ أن تتعدّى ذلك الى الارتباط الواقعي بمعناها، وهذا الارتباط يخلق الاتجاه الصحيح و يصون من الانحراف، و يؤدي حتما الى نتيجة مطلوبة مباركة. ولذلك جاء في الحديث النبوي الشريف: «كُلُّ أمْرٍ ذِي بالٍ، لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ اسْمُ اللهِ، فَهُوَ أبْتَرٌ»[1]

وَ سَأَلَ عَبْدُاللهِ بْنُ يَحْيىٰ عَلِيّاً(ع) وَقَالَ يا أميرَالْمُؤْمِنِينَ! وَمَا تَفْسِيرُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ؟ قالَ: اِنَّ الْعَبْدَ اِذا أرادَ أنْ يَقْرَأ أوْيَعْمَلَ عَمَلاً فَيَقُولُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ فَإنَّهُ يُبارَكَ لَهُ فيهِ»[2].

ويقول الامام محمدبن على الباقر (عليه السلام)

«سَرَقُوا أكْرَمَ آيَةٍ فِي كِتابِ اللهِ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» وَيَنْبَغِي الاِتْيانُ بِهِ عِنْدَ افْتِتاحِ كُلِّ أمْرٍ عَظِيمٍ أوْ صَغِيرٍ لِيُبارَكَ فِيهِ»[3].

بعبارة موجزة: بقاء العمل وخلوده، يتوقف على ارتباطه بالله.

من هنا كانت الآية الاولى، التي انزلها الله على نبيّه الكريم، تحمل أمرا لصاحب الرسالة أن يبدأ مهمته الكبرى باسم الله: «إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...» (العلق، ١).

و لذلك أيضاً فان نوحا(ع) - حين يركب السفينة في ذلك الطوفان العجيب، و يمخر عباب الامواج الهادرة، و يواجه ألوان الاخطار على طريق تحقيق هدفه - يطلب من اتباعه أن يرددوا البسملة في حركات السفينة وسكناتها. «وَقالَ ارْكَبُوا فيها بِسْمِ اللهِ

---

(١) بحارالانوار، ج١٦، باب ٥٨. نقلا عن تفسيرالبيان، ج١، ص٤٦١.

(٢) بحارالانوار جلد ٩٢ باب ٢٩ ص٢٤٢.

(٣) الميزان، ج١ ص٢١.

مَجْراها و مُرْساها» (هود،٤١). وانتهت هذه السفرة المليئة بالاخطار بسلام و بركة كما يذكرالقرآن الكريم: «قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ » (هود،٤٨).

وسليمان (ع) يبدأ رسالته الى ملكة سبأ بالبسملة: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ...»[١]

و انطلاقامن هذا المبدأ تبدأ كل سورالقرآن بالبسملة، كي يتحقق هدفها الاصلي المتمثل بهداية البشرية نحوالسعادة.

و تنفرد سورة التوبة بعدم بدئها بالبسملة، لانها تبدأ باعلان الحرب على مشركي مكة وناكثي الايمان، واعلان الحرب لاينسجم مع وصف الله بالرحمن الرحيم.

* * *

تجدر الاشارة الى أن البسملة تقتصر على صيغة «بسم الله» ولا تقول فيها باسم الخالق أو باسم الرزاق وما شابهها من الصيغ. والسبب يعود الى أن كلمة (الله) ـ كما سيأتي ـ جامعة لكل أسماءالله و صفاته. أما الاسماء الاخرى لله فتشير الى قسم من كمالاته كالرحمة والخالقية.

اتضح مما سبق أيضاً أن قولنا «بِاسْمِ اللهِ» في بداية كل عمل يعني «الاستعانة» بالله، و يعني أيضاً «البدء» باسم الله. وهذان المعنيان يعودان الى أصل واحد، وان عمد بعض المفسرين الى التفكيك بينهما وتقدير كل واحد منهما في الكلام. فالمعنيان متلازمان، اي أبدا باسم الله واستعين بذاته المقدسة.

وطبيعي أن البدء باسم الله الذي تفوق قدرته كل قدرة، يبعث فينا القوة، والعزم، والثقة، والاندفاع، والصمود والامل أمام الصعاب والمشاكل، والاخلاص والنزاهة في الحركة.

وهذا رمز آخر للنجاح، حين تبدأ الاعمال باسم الله.

مهما اطلنا الحديث في تفسير هذه الآية فنحن مختصرون فالمعروف عن علي

---

(١) النمل، ٣٠

(عليه السلام) أنه بدأ يفسر لابن عباس آية البسملة في اول الليل، فأسفر الصبح وهو لم يتجاوز تفسير الباء منها. غير أننا ننهي البحث بحديث عنه (ع)، و ستكون لنا وقفات اخرى في هذا الصدد خلال بحوثنا القادمة

دَخَلَ عَبْدُاللهِ بْنُ يَحْيىٰ عَلىٰ اَميرِالْمُؤْمِنينَ (عَلَيْهِ السَّلام) وَبَيْنَ يَدَيْهِ كُرْسِيٌّ فَاَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهِ فَجَلَسَ عَلَيْهِ فَمالَ بِهِ حَتّىٰ سَقَطَ عَلىٰ رَأْسِهِ فَاَوْضَحَ عَنْ عَظْمِ رَأْسِهِ وَ سالَ الدَّمُ فَاَمَرَ اَميرُالْمُؤْمِنينَ (عَلَيْهِ السَّلام) بِماءٍ فَغَسَلَ عَنْهُ ذٰلِكَ الدَّمَ ثُمَّ قالَ اُدْنُ مِنّي فَوَضَعَ يَدَهُ عَلىٰ مَوْضِحَتِهِ ..... اَما عَلِمْتَ اَنَّ رَسُولَ اللهِ حَدَّثَني عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ: كُلُّ اَمْرٍ ذي بالٍ لَمْ يُذْكَرْ فيهِ بِسْمِ اللهِ فَهُوَ اَبْتَرُ فَقُلْتُ بَلىٰ بِاَبي اَنْتَ وَ أُمّي لا اَتْرُكُها بَعْدَها، قالَ اِذاً تَحْظىٰ بِذٰلِكَ وَ تَسْعَدُ .[1]

وَ قالَ الصّادِقُ (عَلَيْهِ السَّلام) وَلَرُبَّما تَرَكَ في افْتِتاحِ اَمْرٍ بَعْضُ شيعَتِنا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ فَيَمْتَحِنُهُ اللهُ بِمَكْرُوهٍ لِيُنَبِّهَهُ عَلىٰ شُكْرِ اللهِ تَعالىٰ وَالثَّناءِ عَلَيْهِ وَيَمْحُو فيهِ عَنْهُ وَصمَةَ تَقْصيرِهِ عِنْدَ تَرْكِهِ قَوْلَ بِسْمِ اللهِ .[2]

وقفات

١ ـ هل البسملة جزء من السورة؟

أجمع علماء الشيعة على أن البسملة جزء من سورة الحمد وكل سور القرآن. و كتابتها في مطالع السور أفضل دليل على ذلك، لأننا نعلم أن النص القرآني مصون عن أية إضافة وذكر البسملة معمول به منذ زمن النبى (صلّى الله عليه وآله).

أما علماء السنة فاختلفوا في ذلك، وصاحب المنار يجمع أقوالهم فيما يلى:

«أجمع المسلمون على أن البسملة من القرآن و أنها جزء آية من سورة النمل. واختلفوا في مكانها من سائر السور، فذهب الى أنها آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة ـ فقهاؤهم و قراؤهم ـ ومنهم: ابن كثير. و أهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائي

---

(١) بحارالانوار، ج٩٢، الباب ٢٩، ص ٢٤١ و ٢٤٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٤٠.

من القراء، و بعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة، والشافعي في الجديد و أتباعه، والثوري و أحمد في أحد قوليه، والامامية، ومن المروي عنهم ذلك من علماء الصحابة عليّ وابن عباس وابن عمر وابوهريرة، ومن علماء التابعين سعيدبن جبير وعطاء والزهري وابن المبارك. واقوى حججهم في ذلك اجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة سوى سورة البراءة (التوبة) مع الامر بتجريد القرآن عن كل ماليس منه. ولذلك لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة...»

ثم ينقل عن مالك والحنفية و آخرين، أنهم ذهبوا الى أن البسملة آية مستقلة نزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها.

وعن حمزة من قراء الكوفة وأحمد أنها من الفاتحة دون غيرها من سور القرآن.[١]

نقل هنا طائفة من الروايات المنقولة في هذا الصدد بطرق الشيعة والسنة، بالقدر الذى يتناسب مع هذا البحث التفسيرى:

١ - عَنْ مُعاوِيَةِبْنِ عَمّارٍ قالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِاللهِ (عَلَيْهِ السَّلام): إذا قُمْتُ لِلصَّلاةِ أَقْرَأُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ فِي فاتِحَةِ الْقُرْآنِ؟ قالَ «نَعَمْ» قُلْتُ: فَإِذا قَرَأْتُ فاتِحَةَ الْقُرْآنِ أَقْرَأُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ مَعَ السُّورَةِ؟ قالَ: نَعَمْ».[٢]

٢ - ما اخرجه الدار القطنى بسند صحيح عن علي (عليه السلام): «أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ السَّبْعِ الْمَثانِي، فَقالَ: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّما هِيَ سِتُّ آياتٍ فَقالَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ آية»[٣].

٣ - روى البيهقي بسنده عن ابن جبير، عن ابن عباس، قال: إِسْتَرَقَ الشَّيْطانُ مِنَ النّاسِ، أَعْظَمَ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. (اشارة الى شيوع عدم قراءتها في مطالع السور)[٤].

---

(١) تفسير المنار، ج١، ص٣٩ - ٤٠.

(٢) الكافى، ج٣، ص٣١٢.

(٣) الاتقان جلد ١ الصفحه ١٣٦ نقلاً عن البيان الصفحه ٤٤١.

(٤) البيهق، ج٢، ص٥٠.

أضف الى ذلك ، أن سيرة المسلمين جرت دوما على قراءة البسملة في مطالع السور لدى تلاوة القرآن، وثبت بالتواتر قراءة النبي لها. وكيف لا تكون جزءً من القرآن، والنبي والمسلمون يواظبون على قراءتها لدى تلاوتهم القرآن؟!

وأما ما ذهب اليه بعضهم من احتمال أن البسملة آية مستقلةوليست جزء من سورالقرآن، فهو احتمال واه ضعيف، لان مفهوم البسملة يشعر ببداية العمل، ولا يفصح عن معنى منفصل مستقل.

وفي اعتقادنا أن الاصرار على فصل البسملة عن السور تعصّب لا مبرر له ولا ينهض عليه دليل.

يبقى ايراد واحد، هو إن البسملة تحتسب في عدّ آيات سورالقرآن (عدا بسملة سورة الحمد)، بل يبدأ العدّ من الآية التالية للبسملة، والجواب على ذلك ما ذكره (الفخرالرازي) فى تفسيره الكبير،اذقال: لا يمنع أن تكون البسملة لوحدها آية في سورة الحمد، و أن تكون جزء من الآية الاولى في سائر سورالقرآن (أي إن مطلع سورة الكوثر مثلاً: بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر) يعتبر كله آية واحدة.

والمسألة ـ على أي حال ـ واضحة الى درجة كبيرة حتى روي: **«أنَّ مُعاوِيَةَ صَلّى بِالنّاسِ في فَتْرَةِ حُكُومَتِهِ فَلَمْ يَقْرَأْ الْبَسْمَلَةَ، فَصاحَ جَمْعٌ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ بَعْدَ الصَّلاةِ: اَسَرَقْتَ اَمْ نَسيتَ؟**[1].

٢ ـ لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالى:

كلمة (اسم) اول ماتطالعنا في البسملة من كلمات، وهو في رأي علماء اللغة من (السموّ) على وزن (العُلوّ)، ومعناه الارتفاع، و يفهم أن الشيئ بعدالتسمية يرتفع من مرحلة الخفاء الى مرحلة البروز والظهور، أو إنه يرتفع بالتسمية عن مرحلة الاهمال و يكتسب المعنىٰ.[2]

---

(١) البيهقي، ج٢، ص٤٩. والحاكم في المستدرك ج١، ص٢٣٣.

(٢) ذهب بعضهم الى أن (الاسم) من (السمة) على وزن (الهبة) من مادة (وسم) اي وضع علامة. لان ←

بعد كلمة الاسم نلتقي بكلمة (الله) **وهي أشمل اسماء ربّ العالمين** فكل اسم ورد لله في القرآن الكريم و سائرالمصادر الاسلامية يشير الى جانب معين من صفات الله. والاسم الوحيد الجامع لكل الصفات والكمالات الالهية، أوالجامع لكل صفات الجلال والجمال هو (الله).

ولذلك اعتبرت بقية الاسماء صفات لكلمة (الله) مثل: **(الغفور)** و **(الرحيم)** و **(السميع)** و **(العليم)** و **(البصير)** و **(الرزاق)** و **(ذوالقوة)** و **(المتين)** و **(الخالق)** و **(البارئ)**.

كلمة (الله) هي وحدها الجامعة، ومن هنا اتخذت هذه الكلمة صفات عديدة في آية كريمة واحدة، حيث يقول تعالى: **﴿هُوَاللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَالْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾** (الحشر، ٢٣)

أحد شواهد جامعية هذاالاسم أن الايمان والتوحيد لايمكن اعلانه إلا بعبارة (لا إله الآ الله)، و عبارة (لَا إِلهَ إِلَّا الْقَادِرْ: أو إِلَّا الخَالِقْ ... أو إِلَّا الرَّزَّاقْ) لا تفي بالغرض. ولهذا السبب يشار في الاديان الاخرى الى معبود المسلمين باسم (الله) فهذه التسمية الشاملة خاصة بالمسلمين.

* * *

٣ ـ الرحمة الالهية الخاصة والعامة:

المشهور بين جماعة من المفسرين أن صفة **(الرحمن)** تشير الى الرحمة الالهية العامة، وهي تشمل الاولياء والاعداء، والمؤمنين والكافرين، والمحسنين والمسيئين، فرحمته تعم المخلوقات، وخوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات، وكل العباد يتمتعون بموهبة الحياة، و ينالون حظهم من مائدة نعمه اللامتناهية. وهذه هي رحمته العامة الشاملة لكل الكون ولكل موجودات الكون.

و صفة **(الرحيم)** اشارة الى رحمته الخاصة بعباده الصالحين المطيعين، قداستحقوها

الاسم علامة المعنى. ولكن اكثر علماء اللغة رفضوا هذاالاشتقاق لان الواو لا تظهر في الجمع والتصغير (كما تظهر في المثال الواوى عادة) فنقول في الجمع اسماء، في التصغير، سميّ، و سميّة. فهو إذن ناقص واوى لا مثال واوي.

بايمانهم وعملهم الصالح. وَحَرُمَ منها المنحرفون والمجرمون.

دليلهم ـ المفسرين ـ الوحيد على ذلك ان صفة (الرحمن) ذكرت بصورة مطلقة في القرآن الكريم مما يدل على عموميتها، لكن صفة (الرحيم) ذكرت أحيانا مقيّدة، لدلالتها الخاصة، كقوله تعالى «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً» (الاحزاب، ٤٣)

و في رواية «عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) قَالَ: «وَاللّٰهُ إِلٰهُ كُلِّ شَيْءٍ اَلرَّحْمٰنُ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، اَلرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً».[1]

من جهة أخرى، كلمة (الرحمن) اعتبروها صيغة مبالغة، ولذلك كانت دليلا آخر على عمومية رحمته. واعتبروا (الرحيم) صفة مشبهة تدل على الدوام والثبات، وهي خاصة بالمؤمنين.

و ثمة دليل آخر، هو إن (الرحمن) من الاسماء الخاصة بالله، ولا تستعمل لغيره بينما (الرحيم) صفة تنسب لله ولعباده. فالقرآن وصف بها الرسول الكريم، حيث قال: «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (التوبة، ١٢٨)

و الى هذا المعنى اشار الامام الصادق (عليه السلام)، فيما روي عنه: «اَلرَّحْمٰنُ اِسْمٌ خَاصٌّ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، وَالرَّحِيمُ اِسْمٌ عَامٌّ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ»[2]

ومع كل هذا، نجد كلمة (الرحيم) تستعمل أحيانا كوصف عام. وهذا يعني أن التميز المذكور بين الكلمتين لايخلو من استثناء.

في دعاء عرفة ـ المنقول عن الحسين بن علي (ع) ـ وردت عبارة: «يَا رَحْمٰنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ رَحِيمَهُمَا».

نختتم هذا الموضوع بحديث عميق المعنى، «عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ (صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) قَالَ: «إِنَّ لِلّٰهِ عَزَّوَجَلَّ مِائَةَ رَحْمَةٍ، وَ إِنَّهُ أَنْزَلَ مِنْهَا وَاحِدَةً إِلَى الْأَرْضِ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ خَلْقِهِ، بِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَ يَتَرَاحَمُونَ، وَ أَخَّرَ تِسْعاً وَ تِسْعِينَ لِنَفْسِهِ يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[3].

---

(١) الكافي، وتوحيد الصدوق، ومعاني الاخبار (نقلاً عن الميزان)

(٢) مجمع البيان، ج١، ص٢١. (٣) نفس المصدر.

لِمَ لَمْ تَرِدْ بَقية صِفاتِ اللهِ فِي البَسْمَلَةِ؟

في البسملة ذكرت صفتان لله فقط هما: الرحمانية والرحيمية، فما هوالسبب؟

الجواب يتضح لو عرفنا أن كل عمل ينبغي أن يبدأ بالاستمداد من صفة تعم آثارها جميع الكون وتشمل كل الموجودات، وتنقذ المستغيثين في اللحظات الحساسة.

هذه حقيقة يوضحها القرآن إذ يقول: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» (اعراف، ١٥٦)، و يقول على لسان حملة العرش : «رَبَّنا وسِعتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً» (المؤمن،٧)

ومن جانب آخر نرى الانبياء واتباعهم يتوسلون برحمة الله في المواقف الشديدة الحاسمة. فقوم موسى تضرعوا الى الله أن ينقذهم من تجبر فرعون وظلمه، وتوسلوا اليه برحمته فقالوا: «وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ» (يونس،٨٦)

و بشأن هود و قومه، يقول القرآن: «فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا» (الاعراف،٧٢)

من الطبيعي أننا ـ حين نتضرّع الى الله ـ نناديه بصفات تتناسب مع تلك الحاجة. فعيسىٰ (عليه السلام) حين يطلب من الله مائدة من السماء، يقول: «اَللّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ... وَارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ» (المائدة،١١٤).

و نوح عليه السلام يدعو الله في حطّ رحاله: «رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» (المؤمنون،٢٩).

و زكريا نادى ربّه لدى طلب الولد الوارث قال: «رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ» (الانبياء،٨٩).

للبدء بأي عمل ينبغي ـ اذن ـ أن نتوسل برحمة الله الواسعة، رحمته العامة و رحمته الخاصة. وهل هناك أنسب من هذه الصفة لتحقق النجاح في الاعمال، وللتغلب على المشاكل والصعاب؟!

والقوة التي تستطيع أن تجذب القلوب نحو الله و تربطها به هي صفة الرحمة، إذ لها طابعها العام مثل قانون الجاذبية. و ينبغي الاستفادة من صفة الرحمة هذه لتوثيق العرى بين المخلوقين والخالق.

المؤمنون الحقيقيون يطهرون قلوبهم بذكر البسملة في بداية كل عمل من كل

علقة و ارتباط، و يرتبطون بالله وحده و يستمدون منه العون، و يتوسلون اليه برحمته التي وسعت كل شيئ.

والبسملة أيضاً تعلمنا أن أفعال الله تقوم أساساً على الرحمة. والعقاب له طابع استثنائي لا ينزل الاّ في ظروف خاصة، كما نقرأ في الادعية المروية عن آل بيت رسول الله: **«يا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ»**[1].

المجموعة البشرية السائرة على طريق الله ينبغي أن تقيم نظام حياتها على هذا الاساس أيضاً، وان تقرن مواقفها بالرحمة والمحبة، وان تترك العنف الى المواضع الضرورية، ١١٣ سورة من مجموع ١١٤ سورة قرآنية تبدأ بالتأكيد على رحمة الله، و سورة التوبة وحدها تبدأ باعلان الحرب والعنف بدل البسملة.

* * *

(١) دعاء الجوشن الكبير، الفقرة، ٢٠

الآية

٢ -«اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.»

التفسير

العالم مغمور في رحمته

بعد البسملة، أول واجبات العباد أن يستحضروا دوما مبدأ عالم الوجود، و نِعَمه اللامتناهية، هذه النعم التي تحيطنا و تغمر وجودنا، وتهدينا الى معرفة الله، وتدفعنا على طريق العبودية.

النعم دافعة على طريق العبودية، لان الانسان مفطور على أن يبحث عن صاحب النعمة، حينما تصله النعمة، و مفطور على أن يشكر المنعم على انعامه.

من هنا فان علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون في بحوثهم الاولية لهذا العلم الى «وجوب شكرالمنعم» باعتباره أمرأ فطريا وعقليا دافعا الى معرفة الله سبحانه.

وانما قلنا إن النعم تهدينا الى معرفة الله، لأن أفضل طريق واشمل سبيل لمعرفته سبحانه، دراسة أسرار الخليقة وخاصة مايدورحول ارتباط وجود النعم بحياة الانسان.

مما تقدم ابتدأت سورة الحمد بعبارة «اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»

ولفهم عمق هذه العبارة و عظمتها يلزمنا توضيح الفرق بين «الحمد» و «المدح» و «الشكر» والنتائج المترتبة على ذلك:

١ ـ «الحمد» في اللغة الثناء على عمل أو صفة طيبة مكتسبة عن اختيار، أي حينما يؤدي شخص عملا طيبًا عن وعي. أو يكتسب عن اختيار صفة تؤهله لاعمال الخير فاننا نحمده ونثني عليه.

و «المدح» هوالثناء بشكل عام، سواء كان لامر اختياري أو غير اختياري، كمدحنا جوهرة ثمنية جيلة. ومفهوم المدح عام، بينما مفهوم الحمد خاص.

أما مفهوم «الشكر» فاخص من الاثنين، و يقتصر على ما نبديه تجاه نعمة تغدق علينا من منعم عن اختيار[1].

ولو علمنا أن الالف واللام في (الحمد) هي لاستغراق الجنس، لعلمنا أن كل حمد وثناء يختص بالله سبحانه دون سواه.

ثناؤنا على الآخرين ينطلق من ثنائنا عليه لأن مواهب الواهبين كالانبياء والمصلحين والصالحين والمعلمين والاطباء المعالجين إنما هي في الاصل من ذاته المقدسة. و بعبارة أخرى حمد هؤلاء هو حمد لله والثناء عليهم ثناء على الله تعالى.

وهكذا الشمس حين تغدق علينا بأشعتها، والسحب بامطارها، والارض ببركاتها، كل ذلك ، منه سبحانه، ولذلك فكل الحمد له.

بعبارة أخرى، جملة (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ)، إشارة الى توحيد الذات، والصفات، والافعال (تأمل بدقة).

٢ ـ وصف (الله) بانه (رَبِّ الْعٰالَمين) هو من قبيل ذكر الدليل بعد ذكر الادعاء. وكأنّ سائلا يقول: لم كان كل حمد لله؟ فيأتي الجواب لانه (رب العالمين).

وفي موقع آخر يقول القرآن عن الباري سبحانه: «اَلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ...»[2]

و يقول أيضاً: «وَمٰا مِنْ دٰابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهٰا» [3]

٣ ـ يستفاد من (الحمد) أن الله سبحانه واهب النعم عن ارادة واختيار، خلافاً لاولئك القائلين إنّ الله كالشمس مجبر على أن يفيض بالعطاء!!

---

(١) «الشكر»، من وجهة نظر أخرى أوسع إطاراً، لأن الشكر يؤدى بالقول أحيانا و بالعمل أخرى. أما الحمد والمدح فبالقول غالباً.

(٢) السجدة،٧

(٣) هود،٦

٤ ـ جدير بالذكر أن الحمد ليس هو بداية كل عمل، بل هو نهاية كل عمل أيضاً كما يعلمنا القرآن.

يقول سبحانه بشأن أهل الجنة «دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (يونس،١٠).

٥ ـ أما كلمة «رب» في الاصل بمعنى مالك و صاحب الشيء الذي يهتم بتربيته و إصلاحه. وكلمة «ربيبة» وهي بنت الزوجة، مأخوذة من هذا المفهوم للكلمة. لان الربيبة تعيش تحت رعاية زوج أمها.

والكلمة بلفظها المطلق تعني ربّ العالمين، و إن أطلقت على غيرالله لزم أن تضاف، كأن نقول: رب الدار، و رب السفينة.[1]

و ذكر صاحب تفسير (مجمع البيان) معنى آخر للرب، وهوالسيد المطاع، ولكن لا يبعد أن يعود المعنيان الى أصل واحد.[2]

٦ ـ كلمة «عالمين» جمع «عالم»، والعالم: مجموعة من الموجودات المختلفة ذات صفات مشتركة، أو ذات زمان ومكان مشتركين، كان نقول: عالم الانسان، و عالم الحيوان، وعالم النبات. أو نقول عالم الشرق وعالم الغرب، وعالم اليوم، وعالم الامس. فكلمة العالم وحدها تتضمن معنى الجمع، وحين تجمع بصيغة «عالمين»، فيقصد منها كل مجموعات هذا العالم.

و يلفت النظر هنا أن كلمة عالم جُمعت هنا جمعا مذكراً سالماً، و نعرف أن جمع المذكر السالم يستعمل في العاقل عادة، ومن هنا ذهب بعض المفسرين الى أن كلمة «عالمين» اشارة الى المجموعات العاقلة في الكون كالبشر والملائكة. والجن. ولكن قد يكون هذا الاستعمال للتغليب، أي لتغليب المجموعات العاقلة على غير العاقلة.

٧ ـ صاحب المنار يقول: (و يؤثر عن جدنا الامام جعفر الصادق عليه الرضوان أن

---

(١) قاموس اللغة، ومفردات الراغب، وتفسير مجمع البيان، وتفسير البيان.

(٢) لابد من الالتفات الى أن (رب) من مادة (ربب)، لا من (ربو)، أي إنه مضاعف لاناقص.

المراد بـ (العالمين) الناس فقط)[١].

ولكن، لو استعرضنا مواضع استعمال (عالمين) في القرآن، لرأينا أن هذه الكلمة وردت في كثير من الآيات بمعنى بني الانسان، بينما وردت في مواضع أخرى بمعنى أوسع يشمل البشر وسائر موجودات الكون الاخرى، كقوله تعالى: «**فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ**» (الجاثية،٣٦) و كقوله سبحانه: قال فرعون: «**وَمٰا رَبُّ الْعٰالَمِينَ؟ قٰالَ: رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا**» (الشعراء،٢٣و٢٤).

وعن الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) في تفسير (ربّ العالمين) قال: «**رَبُّ الْعٰالَمِينَ هُمُ الْجَمٰاعٰاتُ، مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنَ الْجَمٰادٰاتِ وَالْحَيَوٰانٰاتِ**»[٢].

كلمة عالمين يمكن فهمها في إطارها الكونى الأوسع، و يمكن فهمها في إطار عالم (الانسان) ـ كما ورد في رواية الامام الصادق (عليه السلام) لان الكائن البشري أشرف المخلوقات، ولان الانسان هوالهدف الاساسى من هذه المجموعة الكبرى. وليس بين الفهمين أي تناقض.

٨ ـ جدير بالذكر أن هناك من قسم العالم الى: **عالم صغير و عالم كبير**. والمقصود من العالم الصغير هوالانسان، لانه لوحده ينطوي على مجموعة من نفس القوى المتحكمة في هذاالكون الفسيح. والانسان ـ في الواقع ـ عينيّة مصغرة لكل هذاالعالم.

الذي دعانا الى التوسّع في مفهوم كلمة (العالم) هو أن عبارة «رب العالمين» جاءت وكأنها دليل على عبارة (الحمدلله)، أي إننا نقول في سورة الفاتحة: إن الحمد مختص بالله تعالى لانه صاحب كل كمال و نعمة وموهبة في العالم.

وقفتان

١ ـ رفض الآلهة:

شهدالتاريخ البشري ألوان الانحرافات عن خط التوحيد، والصفة البارزة في

---

(١) المنار، ج١، ص٥١.

(٢) تفسير نورالثقلين، ج١، ص١٧.

هذه الانحرافات هوالاعتقاد بوجود آلهة متعددة لهذه العالم. وفكرة التعدد انطلقت من ضيق نظرة أصحابها الذين راحوا يعيّنون لكل جانب من جوانب الكون والحياة الهاً، وكان ربوبية العالمين لايمكن إناطتها لمصدر واحد!! و راحت بعض الامم تصنع **الآلهة لامور** جزئية كالحب والعقل والتجارة والحرب والصيد.

اليونانيّون مثلاً كانوا يعبدون اثنتي عشرة إلهةً وضعوها على قمه (أولمپ) وكل واحدة منها تمثل جانباً من صفات البشر![1].

والكلدانيّون اعتقدوا بإله الماء و إله القمر و إله الشمس و إله الزهرة، و أطلقوا على كل واحد منها اسما معينا، واتخذوا فوق ذلك «مردوخ» الهاً أكبر لهم.

والروم تعددت آلهتهم أيضاً، و راج سوق الشرك عندهم اكثر من أية أمة أخرى. فقد قسموا الآلهة الى مجموعتين: آلهة الأسرة و آلهة الحكومة. ولم يكونوا يكنون ولاء لآلهة الحكومة، (لعدم ارتياحهم من حكومتهم!)

ورد في التاريخ أن الروم اتخذوا لهم **ثلاثين ألف إلهاً** لكل مظهر من مظاهر الكون المشهودة إله، مثل إله الزراعة، و إله المطبخ، و إله مستودع الطعام، و إله البيت، و إله النار، و إله الفاكهة، و إله الحصاد، و إله شجرة العنب، و إله الغابة، و إله الحريق، و إله بوابة روما، و إله بيت النار.[2]

وفي عصر نزول القرآن كان في الجزيرة العربية و في كثير من مناطق العالم، آلهة تعبد من دون الله. كما كانت عبادة الافراد رائجة، و الى ذلك يشير القرآن في خطابه لليهود والنصارى إذ يقول: **«اِتَّخَذُوا اَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ اَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ»** (التوبة، ٣١).

بعبارة موجزة، حين تنحرف البشرية عن خط التوحيد تتورط في أوهام وخرافات ذات ألوان متعددة، فقد اتخذ هذاالانحراف فيما مضى صورة عبادة الآلهة المتعددة و عبادة الرهبان والاحبار، و يتخذاليوم صوراً أخرى. **وتتميز كل الصور بتشتت المجموعة** البشرية و تمزقها، **وانحطاطها في** العقل والارادة.

---

(١) اعلام قرآن، ص٢٠٢.

(٢) تاريخ «آلبرماله» ج١، الفصل الرابع.

خط التوحيد الذى دعا اليه الانبياء يتميز بنبذ الآلهة المتعددة، و هداية البشرية نحو الاله الواحد الاحد، و بذلك ينشأ المجتمع الموحِد الموحَّد. وانطلاقا من هذه لأهمية القصوى للقضاء على الآلهة المتعددة جاء التأكيد القرآني يقول: (اَلْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

هذا التأكيد يتلوه الانسان المسلم عشر مرات في صلواته اليومية ـ على الاقل ـ لتترسخ فكرة التوحيد، و فكرة رفض ربوبية كل الارباب والآلهة، غير ربوبيّة الله ربّ العالمين.

* * *

٢ـ ربوبية الله طُريق لمعرفة الله

كلمة (الرب)، و إن كانت تعني في الاصل المالك والصاحب، تتضمن معنى الصاحب المتعهّد بالتربية.

إمعان النظر في المسيرة التكاملية للموجودات الحية، و في التغييرات والتحولات التي تجري في عالم الجماد، و في الظروف التي تتوفّر لتربية الموجودات، و في تفاصيل هذه الحركات والعمليات، هو افضل طريق لمعرفة الله. والتنسيق اللا إرادي بين أعضاء جسدنا هو نموذج حيّ لذلك.

لو واجهنا في حياتنا ـ مثلاً ـ حادثة هامة تتطلب منّا أن ننهض أمامها بقوة وحزم، فانّ أوامر منسّقة تصدر خلال لحظة قصيرة الى جميع أجزاء جسدنا بشكل لا إرادي. و بسرعة خاطفة يشتد ضربان قلبنا و تنفسنا، و تتجهز كل قوانا، و تتدفق المواد الغذائية والاكسجين ـ المحمولة عن طريق الدم ـ الى جميع الخلايا، و تتاهب الاعصاب والعضلات للعمل والحركة السريعة، و ترتفع قدرة تحمّل الانسان للمتاعب والآلام، و يغادر النوم العيون، و يزول التعب من الاعضاء، و يزول الاحساس بالجوع.

من الذي أوجد هذاالتنسيق العجيب في هذه اللحظة الحساسة، و بهذه السرعة، بين جميع أجزاء وجودالانسان؟ هل هذه العناية والتربية ممكنة من غيرالله العالم القادر؟!

آيات القرآن الكريم تكثر من عرض نماذج لهذه التربية الالهية، سنتعرض لها في مكانها إن شاءالله تعالى، وكل واحدة منها دليل واضح على معرفة الله.

* * *

الآية

٣ ـ «الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.»

التفسير

معنى (ٱلرَّحْمٰن) و (الرَّحِيم) واتساع مفهومهما والفرق بينهما، شرحناه في تفسير البسملة، ولاحاجة الى التكرار. وما نضيفه هنا هو أن هاتين الصفتين تتكرران في البسملة والحمد، «والملتزمون» بذكر البسملة في السورة بعد الحمد يكررون هاتين الصفتين في صلواتهم اليومية الواجبة ثلاثين مرة. و بذلك يصفون الله برحمته ستين مرة يوميا.

وهذا في الواقع درس لكل جماعة بشرية سائرة على طريق الله، وتواقة للتخلق بأخلاق الله. إنه درس يبعد البشرية عن تلك الحالات التي شهدها تاريخ الرق في ظل القياصرة والاكاسرة والفراعنة.

القرآن يركز على علاقة الرحمة والرأفة بين رب العباد والعباد، حيث يقول: «قُلْ يٰا عِبٰادِيَ الَّذِينَ اَسْرَفُوا عَلٰىٓ اَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ اِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» (الزمر،٥٣)

هذه العلاقة نستحضرها مرات يوميا إذ نقول: (اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)، لنربي انفسنا تربية صحيحة في علاقتنا بالله، وفي علاقتنا بأبناء جنسنا.

* * *

الآية

٤ ـ «مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ».

التفسير:

مبدأ الإيمان بيوم القيامة:

هذه الآية تلفت الانظار الى أصل هام آخر من أصول الاسلام، هو يوم القيامة: (مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، و بذلك يكتمل محور المبدأ والمعاد، الذي يعتبر أساس كل

إصلاح أخلاقي واجتماعي في وجود الانسان.

تعبير (مَالِكِ) يوحى بسيطرة الله التامة وهيمنته المستحكمة على كل شيء وعلى كل فرد، في ذلك اليوم، حيث يحضر البشر في تلك المحكمة الكبرى للحساب، وتقف أمام مالكها الحقيقي للحساب، وترى كل مافعلته وقالته بل وحتى مافكرت به حاضرا، فلا يضيع أي شيء ـ مهما صغر ـ ولا يُنسى، والانسان ـ وحده ـ يحمل أعباء نتائج أعماله، بل نتائج كل سنّة استنها في الارض أو مشروع أقامه.

مالكية الله في ذلك اليوم، هي دون شك ليست ملكية اعتبارية، نظير ملكيتنا نحن للاشياء في هذا العالم. ملكيتنا هذه عقد يبرم بموجب تعامل ووثائق، وينفسخ بموجب تعامل آخر ووثائق أخرى. لكن ملكية الله لعالم الكون ملكية حقيقية، تتمثل في ارتباط الموجودات ارتباطا خاصا بالله. ولو انقطع هذا الارتباط لحظة لزالت الموجودات تماماً مثل زوال النور من المصابيح الكهربائية، حين ينقطع اتصالها بالمولّد الكهربائي.

بعبارة أخرى: مالكية الله نتيجة خالقيته وربوبيته. فالذي خلق الموجودات ورعاها وربّاها، وأفاض عليها الوجود لحظة بلحظة، هوالمالك الحقيقي للموجودات.

نستطيع أن نرى نموذجا مصغراً للمالكية الحقيقية، في مالكيتنا لاعضاء بدننا، نحن نملك ما في جسدنا من عين و أذن وقلب واعصاب، لا بالمعنى الاعتباري للملكية، بل بنوع من المعنى الحقيقي القائم على أساس الارتباط والاحاطة.

وقد يسأل سائل فيقول: لماذا وصفنا الله بأنه (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) بينما هو مالك الكون كله؟

والجواب هو إن الله مالك لعالم الدنيا والآخرة، لكن مالكيته ليوم القيامة أبرز وأظهر، لأن الارتباطات المادية والملكيات الاعتبارية تنفسخ كلها في ذلك اليوم، وحتى الشفاعة لا تتم يومئذ الا بأمرالله: «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» (الانفطار،١٩).

بتعبير آخر: قد يسارع الانسان في هذه الدنيا لمساعدة انسان آخر، ويدافع عنه بلسانه، ويحميه بأمواله، وينصره بقدرته وأفراده. وقد يشمله بحمايته من خلال مشاريع ومخططات مختلفة. لكن هذه الالوان من المساعدات غير موجودة في ذلك اليوم. من هنا

حين يوجه هذا السؤال الى البشر: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ يجيبون: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (المؤمن،١٦).

الايمان بيوم القيامة، و بتلك الحكمة الالهية الكبرى التي يحصى فيها كل شي إحصاءً دقيقاً، له الاثر الكبير في ضبط الانسان أمام الزلات، و وقايته من السقوط في المنحدرات و أحد أسباب قدرة الصلاة على أن تنهى عن الفحشاء والمنكر هو أنها تذكر الانسان بالمبدأ المطلع على حركاته و سكناته، و تذكره أيضاً بمحكمة العدل الالهي الكبرى.

التركيز على مالكية الله ليوم القيامة يقارع من جهة أخرى معتقدات المشركين و منكرى المعاد، لان الايمان بالله عقيدة فطرية عامة، حتى لدى مشركي العصر الجاهلي، وهذا ما يوضحه القرآن إذ يقول: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان،٢٥) بينما الايمان بالمعاد ليس كذلك فهؤلاء المشركون كانوا يواجهون مسألة المعاد بعناد واستهزاء ولجاج: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ (سبأ،٨).

و روي عن علي بن الحسين السجاد (عليه السلام): «أنّه كان إذا قرأ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يُكَرِّرُها حَتّى يَكادَ أنْ يَمُوتَ»[١].

أما تعبير ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾، فحيثما ورد في القرآن يعني يوم القيامة، و تكرر ذلك في اكثر من عشرة مواضع من كتاب الله العزيز، و في الآيات ١٧ و١٨ و١٩ من سورة الانفطار ورد هذا المعنى بصراحة.

وأما سبب تسمية هذا اليوم بيوم الدين، فلان يوم القيامة يوم الجزاء، و (الدين) في اللغة (الجزاء)، والجزاء أبرز مظاهر القيامة، في ذلك اليوم تكشف السرائر و يحاسب الناس عما فعلوه بدقة، و يرى كل فرد جزاء ما عمله صالحا أم طالحا.

و في حديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق يقول: «يَوْمُ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْحِسابِ»[٢] (والدين) استناداً الى هذه الرواية يعني (الحساب)، وقد يكون هذا التعبير

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص١٩.

(٢) مجمع البيان، ذيل الآية: مالك يوم الدين.

من قبيل ذكر العلة و ارادة المعلول. لان الحساب دوما مقدمة للجزاء.

من المفسرين من يعتقد أن سبب تسمية (يَوْمِ الدِّينِ) يعود الى أن كل إنسان يوم القيامة يتلقى جزاء ازاء دينه و معتقده. لكن المعنى الاول (اَلْحِسابُ وَالْجَزاءُ) يبدو أقرب الى الصحة.

* * *

الآية

٥ ـ «اِيّاكَ نَعْبُدُ وَاِيّاكَ نَسْتَعينُ».

التفسير

الانسان بين يدي الله

في هذه الآية يتغيّر لحن السورة، إذ يبدأ فيها دعاء العبد لربه والتضرّع إليه. الآيات السابقة دارت حول حمدالله والثناء عليه، والاقرار بالايمان والاعتراف بيوم القيامة، وفي هذه الآية يستشعر الانسان ـ بعد رسوخ أساس العقيدة ومعرفة الله في نفسه حضوره بين يدي الله.. يخاطبه و يناجيه، يتحدث اليه اولا عن تعبّده، ثم يستمدالعون منه وحده دون سواه: «اِيّاكَ نَعْبُدُ وَاِيّاكَ نَسْتَعينُ».

بعبارة أخرى: عند ما تتعمق مفاهيم الآيات السابقة في وجود الانسان، و تتنور روحه بنور ربّ العالمين، و يدرك رحمة الله العامة والخاصة، ومالكيته ليوم الجزاء، يكتمل الانسان في جانبه العقائدي. **وهذه العقيدة التوحيدية العميقة، ذات عطاء يتمثل أولا في** تربية الانسان العبد الخاص لله، المتحرر من العبودية للآلهة الخشبية والبشرية والشهوية، و يتجلّى ثانيا في الاستمداد من ذات الله تبارك و تعالى.

الآيات السابقة تحدثت في الواقع عن **توحيد الذات والصفات**، وهذه الآية تتحدث عن **توحيد العبادة وتوحيد الافعال**.

توحيدالعبادة: يعني الاعتراف بأن الله سبحانه هو وحده اللائق بالعبادة والطاعة والخضوع، و بالتشريع دون سواه، كما يعني تجنب أي نوع من العبودية والتسليم، لغير ذاته

المقدسة.

وتوحيدالافعال: هوالايمان بان الله هوالمؤثر الحقيقي في العالم (لا مُؤَثِّرَفي الْوُجُودِ إلاّ اللهُ). وهذا لا يعني انكارعالم الاسباب، و تجاهل المسببات، بل يعني الايمان بأن تأثير الاسباب، إنّما كان بأمرالله، فالله سبحانه هوالذي يمنح النارخاصية الاحراق، والشمس خاصية الانارة، والماءَ خاصية الإحياء.

ثمرة هذاالاعتقاد أن الانسان يصبح معتمدا على (الله)، دون سواه، و يرى أن الله هوالقادر العظيم، و يرى ماسواه زائلاً لاحول له ولا قوّة، و هو وحده سبحانه اللائق بالاتكال والاعتماد عليه في كل الامور.

هذا التفكير يحرر الانسان من الانشداد بأي موجود من الموجودات، و يربطه بالله وحده. و إن تحرك هذاالانسان على طريق البحث في عالم الاسباب، فانما يتحرك بأمرالله تعالى، ليرى فيها تجلّي قدرة الله، وهو «مُسَبِّبُ الْاَسْبابِ».

هذا المعتقد يسمو بروح الانسان و يوسّع آفاق فكره، ليرتبط بالابدية واللانهاية، و يحرر الكائن البشري من الاطر الضيقة الهابطة.

* * *

وقفات

١ ـ هوالمستعان وحده

تقدم المفعول على الفاعل يفيد الحصر ـ كما يذكر اصحاب اللغة، و تقدم «إيّاك » على «نَعْبُدُ» يدل على الحصر، أي اننا نعبدك دون سواك ، و نتيجة هذاالحصر، هي توحيد العبادة و توحيد الافعال،

نعم نحن محتاجون الى مساعدته حتى في العبودية والطاعة، ولذلك ينبغي أن نستعين به في ذلك أيضا، كي لا يتسرب الى أنفسنا انحراف العجب والرياء وامثالها من الانحرافات فتقضي على عبوديتنا.

بعبارة أخرى: حين نقول «إِيّاكَ نَعْبُدُ» فان هذه الجملة يشم منها رائحة الاستقلالية، لذلك نتبعها مباشرة بعبارة «اِيّاكَ نَسْتَعِينُ»، كي نجسّم حالة الامربين

الامرين (لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ)، في عباداتنا، ومن ثمّ في كل أعمالنا.

* * *

٢ ـ استعمال صيغ الجمع في تعبير الآيات، مثل: «نَعْبُدُ» و «نَسْتَعِينُ» تشير الى أن العبادة ـ خاصة الصلاة ـ تقوم على أساس الجمع والجماعة. على العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع والجماعة، حتى حين يقف على صعيد التضرّع الى الله، فما بالك بالاصعدة الاخرى!

وهذا الاتجاه في العبادة يعني رفض الاسلام لكل ألوان الفردية والانعزال.

الصلاة خاصة ـ ابتداء من اذانها وإقامتها حتى تسليمها ـ تدل على أن هذه العبادة هي في الاصل ذات جانب إجتماعي، أي أنها ينبغي أن تؤدّى بشكل جماعة. صحيح أن الصلاة فرادى صحيحة في الاسلام، لكن العبادة الفردية ذات طابع فرعي ثانوي.

* * *

٣ ـ الاستعانة به في كل الامور

يواجه الانسان في مسيرته التكاملية قوى مضادة داخلية (في نفسه)، و خارجية (في مجتمعه)، ويحتاج في مقاومة هذه القوى المضادة الى العون والمساعدة. ومن هنا يلزم على الانسان أن يكرر صباحاً ومساءاً عبارة «**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**» ليعترف أولا بعبوديته لله سبحانه، وليستمد العون منه في مسيرته الطويلة الشاقة. والانسان المستعين حقا، هو الذى تتضاءل أمام عينيه كلّ القوى المتجبّرة المتغطرسة، وكل الجواذب المادية الخادعة، و ذلك مالا يكون إلا حينما يرتفع الانسان الى مستوى القول: «**إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» (الانعام،١٦٢).

* * *

الآية

٦ ـ «اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

التفسير

السير على الصراط المستقيم

بعد أن يقرّ الانسان بالتسليم لربّ العالمين، و يرتفع الى مرحلة العبودية لله والاستعانة به تعالى، يتقدّم هذاالعبد بأول طلب من بارئه وهو الهداية الى الطريق المستقيم، طريق الطّهر والخير، طريق العدل والاحسان، طريق الايمان والعمل الصالح، ليهبه الله نعمة الهداية بعد أن وهبه جميع النعم الاخرى.

الانسان في هذه المرحلة مؤمن طبعا وعارف بربّه، لكنه معرّض دوما بسبب العوامل المضادة الى سلب هذه النعمة و الى الانحراف عن الصراط المستقيم. من هنا كان عليه لزاما أن يكرر عشر مرات في اليوم على الاقل طلبه من الله أن يقيه العثرات والانحرافات.

أضف الى ما تقدم أن الصراط المستقيم هو دين الله، وله مراتب و درجات ومهماسما الانسان في مراتبه فثمة مراتب أخرى أبعد و أرقى، والانسان المؤمن توّاق دوما الى السير حثيثا على هذاالسلّم الارتقائي، وعليه أن يستمد العون من الله في ذلك.

ثمة سؤال يتبادر الى الاذهان **عن سبب طلبنا من الله الهداية الى الصراط المستقيم، تُرى هل نحن ضالون** كي نحتاج الى هذه الهداية؟ وكيف يصدر مثل هذاالامر عن المعصومين وهم نموذج الإنسان الكامل؟!

وفي الجواب نقول:

أولا: الانسان معرض في كل لحظة الى خطرالتعثر والانحراف عن مسيرالهداية ـ كما اشرنا الى ذلك ـ ولهذا كان على الانسان أن يستمد العون من الله ليثبت قدمه على الصراط المستقيم.

ينبغي أن نتذكر دائما أن نعمة الوجود وجميع المواهب الالهية، تصلنا من المبدأ

العظيم تعالى لحظة بلحظة. و ذكرنا من قبل أننا وجميع الموجودات (بلحاظ معين) مثل مصابيح كهربائية. النور المستمر في هذه المصابيح يعود الى وصول الطاقة اليها لحظة بلحظة من المولد الكهربائي. فهذا المولّد ينتج كل لحظة طاقة جديدة و يرسلها عن طريق الاسلاك الى المصابيح لتتحول الى نور.

وجودنا يشبه نور هذه المصابيح. هذاالوجود، و إن بدا ممتدا مستمرا، هو في الحقيقة وجود متجدّد باستمرار يصل لحظة بلحظة من مصدرالوجود الخالق الفيّاض.

هذاالتجدّد المستمر في الوجود، يتطلب باستمرار هداية جديدة، ولو حدث خلل في الاسلاك المعنوية التي تربطنا بالله، كالظلم والخبث.. فان ارتباطنا ينقطع بالله، و ننحرف فجأة عن الصراط المستقيم.

نحن نتضرّع الى الله في صلواتنا أن لا يعتري ارتباطنا به مثل هذاالخلل، و أن نبق ثابتين على الصراط المستقيم.

ثانيا: الهداية هي السير على طريق التكامل، وهذا السير تدريجي، يقطع فيه الانسان مراحل النقصان ليصل الى المراحل العليا. و طريق التكامل - كما هو معلوم - غير محدود وهو مستمر حتى اللانهاية.

مما تقدّم نفهم سبب تضرّع حتى الانبياء والائمة لله أن يهديهم «الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»، فالكمال المطلق لله تعالى، وجميع ما سواه يسيرون على طريق التكامل، فما الغرابة في أن يطلب المعصومون من ربهم درجات أعلى؟!

نحن نصلّي على محمد وآل محمد، والصلاة تعني طلب رحمة الهية جديدة لمحمد وآل محمد، ومقام أعلى لهم.

والرسول (صلّى الله عليه وآله) قال: «رَبِّ زِدْنِي عِلْماً». (طه، ١١٤)

والقرآن الكريم يقول: «وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى» (مريم، ٧٦).

و يقول: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» (محمد، ١٧).

ولمزيد من التوضيح نذكر الحديثين التاليين:

١ ـ عن أميرالمؤمنين علي (عليه السلام)، قال في تفسير «اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»: أي «أَدِمْ لَنَا تَوْفِيقَكَ الَّذِي أَطَعْنَاكَ بِهِ فِي مَا مَضَى مِنْ أَيَّامِنَا، حَتَّى نُطِيعَكَ فِي

مُسْتَقْبَلِ اَعْمارِنا»[١]

٢ ـ وقال الامام جعفربن محمدالصادق (عليه السلام): «يَعْني اَرْشِدْنا لِلُزُومِ الطَّريقِ الْمُؤَدّي اِلىٰ مَحبَتِكَ، وَالْمُبَلِّغ اِلىٰ جَنَّتِكَ، وَالْمانِعِ مِنْ اَنْ نَتَّبِعَ اَهْواءَنا فَنَعْطَبَ، اَواَنْ نَاْخُذَ بِآرائِنا فَنَهْلَكَ»[٢].

• • •

ماهوالصراط المستقيم؟

هذا الصراط كما يبدو من تفحص آيات الذكر الحكيم، هو دين التوحيد والالتزام بأوامر الله. ولكنه ورد في القرآن بتعابير مختلفة.

فهوالدين القيم و نهج إبراهيم كما جاء في قوله تعالى: «قُلْ اِنَّني هَداني رَبّي اِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ديناً قِيَماً مِلَّةَ اِبْراهيمَ حَنيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكينَ» (الانعام، ١٦١).

وهو أيضاً رفض عبادة الشيطان والاتجاه الى عبادة الله وحده، كما في قوله: «اَلَمْ اَعْهَدْ اِلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ اِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ وَاَنِ اعْبُدُوني هٰذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ» (يس، ٦١-٦٢).

كما عبّرالقرآن عن الهداية الى الصراط المستقيم بأنها الاعتصام بالله: «وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيمٍ» (آل عمران، ١٠١).

يلزمنا أن نذكر أنّ الطريق المستقيم هو طريق واحد لا اكثر، لانه لا يوجد بين نقطتين اكثر من خطّ مستقيم واحد، يشكل أقصر طريق بينهما. من هنا كان الصراط المستقيم في المفهوم القرآني، هوالدين الالهي في الجوانب العقائدية والعملية، ذلك لان هذا الدين أقرب طريق للارتباط بالله تعالى. ومن هنا أيضاً فان الدين الحقيقي واحد لا اكثر «اِنَّ الدّينَ عِنْدَاللهِ الْاِسْلامُ» (آل عمران، ١٩).

سنرى فيما بعد إن شاءالله أن للاسلام معنى واسعاً يشمل كل دين توحيدي في عصره، أي قبل أن ينسخ بدين جديد.

---

(١) معاني الاخبار، وتفسير الامام الحسن العسكري، نقلا عن تفسير الصافي ذيل الآية المذكورة.

(٢) معاني الاخبار و تفسير الامام الحسن العسكري، نقلا عن تفسيرالصافي.

من هذا يتضح أن التفاسير المختلفة للصراط المستقيم، تعود كلها الى معنى واحد.

فقد قالوا: انه الاسلام.

وقالوا: انه القرآن.

وقالوا: انه الانبياء والائمة.

وقالوا: انه دين الله، الذي لايقبل سواه.

وكل هذه المعاني تعود الى نفس الدين الإلهي في جوانبه الاعتقادية والعملية.

والروايات الموجودة في المصادر الاسلامية في هذا الحقل، تشير الى جوانب متعددة من هذه الحقيقة الواحدة، و تعود جميعاً الى أصل واحد منها:

عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الْاَنْبِيَاءِ، وَهُمُ الَّذِينَ اَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ»[1].

وعن جعفربن محمدالصادق (عليه السلام) - في تفسيرالآية: «اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» قال: «اَلطَّرِيقُ هُوَ مَعْرِفَةُ الْإِمَامِ»[2].

وعنه أيضاً: «وَاللهِ نَحْنُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ»[3].

وعنه أيضاً: «اَلصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ اَمِيرُالْمُؤْمِنِينَ» (عليه السلام)[4].

ومن الواضح أن النبي (صلّى الله عليه وآله) وعليا (عليه السلام)، و ائمة اهل البيت (عليهم السلام)، دعوا جميعاً الى دين التوحيد الالهي، والالتزام به عقائديا و عمليا.

و «الراغب» يقول في مفرداته: الصراط المستقيم، فكلمة الصراط تنطوي على معنى الاستقامة. ووصفه بالمستقيم تأكيد على هذه الصفة.

* * *

(١و٢و٣و٤) تفسير نورالثقلين، ج١، ص٢٠ - ٢١.

الآية

٧ ـ «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ».

التفسير:

خطان منحرفان!

هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور في الآية السابقة، إنه صراط المشمولين بأنواع النعم (مثل نعمة الهداية، ونعمة التوفيق، ونعمة القيادة الصالحة، ونعمة العلم والعمل والجهاد والشهادة) لا المشمولين بالغضب الالهي، ولا الضائعين التائهين نتيجة انحراف أفكارهم وسوء فعالهم: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ».

في هذه الآية حثّ ضمني للانسان على طلب طريق «الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ»، وعلى اجتناب طريق «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» وطريق «الضَّالِّينَ»، و بذلك يتبين للانسان طريق الهداية بوضوح.

* * *

وقفتان

١ ـ من هم «الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»؟

الذين أنعم الله عليهم، تبيّنهم الآية الكريمة إذ تقول: «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً» (النساء، ٦٩).

والآية ـ كما هو واضح ـ تقسم الذين أنعم الله عليهم على أربع مجاميع: الانبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

لعل ذكر هذه المجاميع الاربع، إشارة الى المراحل الاربع لبناء المجتمع الانساني السالم المتطوّر المؤمن:

المرحلة الاولى ـ مرحلة نهوض الانبياء بدعوتهم الالهية.

والثانية- مرحلة نشاط الصديقين، الذين تنسجم أقوالهم مع أفعالهم، لنشر الدعوة.

والثالثة- مرحلة الكفاح بوجه العناصر المضادة الخبيثة في المجتمع. و في هذه المرحلة يقدم الشهداء دمهم لارواء شجرة التوحيد.

والمرحلة الرابعة- هي مرحلة ظهور «الصالحين» باعتباره نتيجة للمساعي والجهود المبذولة.

نحن - إذن - في سورة الحمد نطلب من الله - صباحاً مساءاً - أن يجعلنا في خط هذه المجاميع الاربع: خط الانبياء، وخط الصديقين، وخط الشهداء، وخط الصالحين. ومن الواضح أنّ علينا أن ننهض في كل مرحلة زمنيّة بمسؤوليتنا و نؤدي رسالتنا.

* * *

٢ - من هم «اَلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» ومن هم «اَلضَّالِّينَ».؟

يتضح من الآية الكريمة أن «اَلْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ» و «اَلضَّالِّينَ» مجموعتان لامجموعة واحدة، واما الفرق بينهما ففيه ثلاثة أقوال:

١ - يستفاد من استعمال التعبيرين في القرآن أن «المغضوب عليهم» أسوأ و أحطّ من «الضالين»، **أي إن الضالين هم التائهون العاديّون، والمغضوب عليهم هم التائهون المتعنتون أو المنافقون** و لذلك استحقوا لعن الله وغضبه.

قال تعالى: **«وَ لٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ»** (النحل،١٠٦).

وقال سبحانه: **«وَ يُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَ اَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ»** (الفتح،٦).

«**اَلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**» إذن يسلكون - اضافة الى كفرهم - طريق اللجاج والعناد ومعاداة الحق، ولا يألون جهدا في توجيه ألوان التنكيل والتعذيب لقادة الدعوة الالهية.

يقول سبحانه: **« وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ... ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْاَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ»** (آل عمران،١١٢)

٢ ـ ذهب جمع من المفسرين الى أن المقصود من «الضَّالِّينَ» المنحرفون من النصارى، و «المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» المنحرفون من اليهود.

هذا الفهم ينطلق من مواقف هذين الفريقين تجاه الدعوة الاسلامية. فالقرآن يصرح مراراً أن المنحرفين من اليهود كانوا يكنون عداء وحقدا عميقين للاسلام.

مع إن علماء اليهود كانوا من مبشّري ظهورالاسلام، لكنهم تحوّلوا الى اعداء الدّاء للاسلام لدى انتشار الدعوة، لاسباب عديدة لامجال لذكرها، منها تعرّض مصالحهم المادية للخطر. **(تماما مثل موقف الصهاينة اليوم من الاسلام والمسلمين).**

تعبير «اَلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» ينطبق تماما على هؤلاء اليهود، لكن هذا لايعني حصر مفهوم المغضوب عليهم بهذه المجموعة من اليهود، بل هو من قبيل تطبيق الكلي على الفرد.

أما منحرفو النصارىٰ فلم يكن موقفهم تجاه الاسلام يبلغ هذاالتعنت، بل كانوا ضالين في معرفة الحق. والتعبير عنهم بالضالين هو أيضاً من قبيل تطبيق الكلي على الفرد.

الاحاديث فسرت «اَلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» بِاليهود، و «الضَّالِّينَ» بمنحرفي النصارى، والسبب في ذلك يعود الى ما ذكرناه.[1]

٣ ـ من المحتمل أن «الضَّالِّينَ» إشارة الى التائهين الذين لا يصرّون على تضليل الآخرين، بينما «اَلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» هم الضالون المضلون الذين يسعون الى جرّ الآخرين نحوالانحراف.

الشاهد على ذلك حديث القرآن عن أولئك «اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ»، (هود، ١٩) إذ يقول: «**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**» (الشورى، ١٦).

و يبدو أن التفسير الاول أجمع من التفسيرين التاليين، بل إن التفسيرين التاليين مصداقان للتفسير الاول. ولا دليل لتحديد نطاق المفهوم الواسع للآية

والحمدلله رب العالمين

(نهاية سورة الحمد)

---

(١) راجع تفسير نورالثقلين، ج ١، ص ٢٣ ـ ٢٤.

سُورَةُ الْبَقَرَة

مدنية، وعدد آياتها ٢٨٦ آية

محتوى سورة البقرة:

هذه السورة اطول سور القرآن، ومن المؤكد أنها لم تنزل مرة واحدة. بل في مناسبات عديدة، حسب متطلبات المجتمع الاسلامي في المدينة. و تتميز بشمولها لمبادي العقيدة ولكثير من الاحكام العملية (العبادية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية). ففي هذه السورة:

١ ـ موضوعات حول التوحيد ومعرفة الخالق، عن طريق استقراء أسرار الكون.

٢ ـ جولات في عالم المعاد والبعث والنشور مقرونة بأمثلة حسيّة، مثل قصة ابراهيم واحياء الطير، وقصة العزير.

٣ ـ آيات ترتبط باعجاز القرآن وأهمية كتاب الله العزيز.

٤ ـ سرد مطول حول وضع اليهود والمنافقين ومواقفهم الخاصة من القرآن والاسلام وشدة ضررهم في هذا المجال.

٥ ـ استعراض لتاريخ الانبياء، وخاصة ابراهيم وموسى (عليهما السلام)

٦ ـ بيان لاحكام اسلامية مختلفة مثل: الصلاة، والصوم، والجهاد، والحج، والقبلة، والزواج والطلاق، والتجارة والدين، والربا، والانفاق، والقصاص، وتحريم بعض الاطعمة والاشربة، والقمار، والوصية، وأمثالها.

وأما تسميتها بالبقرة، فمأخوذة من قصة بقرة بنى إسرائيل، التي سيأتي شرحها في الآيات ٦٧ ـ ٧٣ إن شاء الله.

* * *

فضيلة هذه السورة:

وردت في فضيلة هذه السورة بل في أفضليتها نصوص عديدة منها:

روي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ سُوَرِ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:

«اَلْبَقَرَةُ» قيلَ: اَيُّ آيَةِ الْبَقَرَةِ اَفْضَلُ؟ قالَ:« آيَةُ الْكُرْسِيِّ»[١].

أفضلية هذه السورة تعود على ما يبدو الى جامعيتها. وأفضلية آية الكرسي تعود الى محتواها التوحيدي، و سيأتي ذكر ذلك في تفسيرها باذن الله. وهذا لايتنافى مع أفضلية سور أخرى من جهات أخرى. و روى علي بن الحسين (عليه السلام) عن النبى (صلّى الله عليه وآله) اَنَّهُ قالَ:

«قالَ رَسُولُ اللهِ (صلّى الله عليه وآله): مَنْ قَرَءَ اَرْبَعَ آياتٍ مِنْ اَوَّلِ الْبَقَرَةِ، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَآيَتَيْنِ بَعْدَها، وَثَلاثَ آياتٍ مِنْ آخِرِها، لَمْ يَرَ فى نَفْسِهِ وَمالِهِ شَيْئاً يَكْرَهُهُ وَلا يَقْرَبُهُ الشَّيْطانُ، وَلا يَنْسَى الْقُرْآنَ»[٢].

من اللازم هنا أن نعيد التأكيد على هذه الحقيقة، وهي إن ما ذكر من ثواب و فضيلة وجزاء لتلاوة بعض السور والآيات الخاصة، لايعني ـ اطلاقا ـ قراءتها بشكل أوراد، ولا الاكتفاء بترديد ألفاظها، بل التلاوة للفهم، والفهم من أجل التفكير، والتفكير لغرض العمل. ومن الملاحظ أن كل فضيلة ذكرت لآية أو سورة إنما تتناسب كثيراً مع محتوى تلك السورة والآية.

في فضيلة سورة النور ذكر أن من يواظب على قرائتها يصونه الله و اولاده من (الزنا) و ذلك لان محتوى هذه السورة يتضمن تعاليم في حقل مكافحة الانحرافات الجنسية، مثل حث العزاب على الزواج، والامر بالحجاب و بغضّ الابصار عما يثير الشهوة، والتحذير من اشاعة الفاحشة والقذف، وكذلك الامر باجراء الحد الشرعي على الزاني والزانية.

ومن الطبيعي أن محتوى هذه السورة ـ ان دخل حيّز التنفيذ ـ يصون المجتمع والاسرة من الزنا. وهكذا تلك الآيات المذكورة من سورة البقرة، ستكون لها تلك الفضائل حتما إن قرأها الانسان و تشبّعت نفسه بمحتواها، خاصة وانها جميعا تدور حول محور التوحيد والايمان بالغيب ومعرفة الله، والحذر من وساوس الشيطان.

صحيح أن قراءة القرآن عمل مثاب عليه في أي حال من الاحوال، لكن الثواب الاساس يترتب على التلاوة المقرونة بالتفكير والعمل.

(١و٢) نورالثقلين، ج١، ص٢٦. ومجمع البيان، ج١، ص٣٢.

الآيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

١ - «الٓمٓ».

٢ - «ذٰلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ».

التفسير:

تحقيق في الحروف المقطعة في القرآن:

تسع وعشرون سورة من سورالقرآن تبدأ بحروف مقطعة، وهذه الحروف ـ كما هو واضح من اسمها ـ لا تشكل كلمة مفهومة.

هذه الحروف من أسرارالقرآن، وذكر المفسرون لها تفاسير عديدة، واضاف لها العلماء المعاصرون تفاسير جديدة من خلال تحقيقاتهم.

جدير بالذكر أن التاريخ لم يحدثنا أن عرب الجاهلية والمشركين عابوا على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وجودَ هذه الحروف المقطعة في القرآن. ولم يتخذوا منها وسيلة للطعن والاستهزاء. وهذا يشير الى أنهم لم يكونوا جاهلين تماما بأسرار وجودالحروف المقطعة.

اخترنا من التفاسير الكثيرة لهذه الحروف، عددا من التفاسير باعتبار مسنديتها وانسجامها مع آخر الدراسات في هذا المجال. وسنذكر هذه التفاسير بالتدريج في بداية هذه السورة، و سورة آل عمران، وسورة الاعراف، ان شاءالله. و نبدأ الآن بأهمها:

هذه الحروف اشارة الى أن هذاالكتاب السماوي، بعظمته وأهميّته التي حيرت فصحاء العرب وغيرالعرب، وتحدت الجن والانس في عصر الرسالة وكل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسرة في متناول الجميع.

ومع أن القرآن يتكون من هذه الحروف الهجائية والكلمات المتداولة، فان ما

فيه من جمال العبارة وعمق المعنى يجعله ينفذ الى القلب والروح، ويملأ النفس بالرضا والاعجاب، ويفرض احترامه على الافكار والعقول.

في القرآن من الفصاحة والبلاغة مالا يخفى على أحد، وليس هذا مجرّد ادّعاء، فخالق الكون تحدّى بهذا الكتاب جميع (الجن والانس)، ليأتوا بمثله «وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ ظَهيراً»، (الاسراء، ٨٨) ولكنهم عجزوا جميعا عن ذلك، وتلك دلالة على أن هذاالكتاب لم يصدر عن فكر بشر.

وكما إن الله تعالى خلق من التراب موجودات، كالانسان بما فيه من أجهزة معقدة محيّرة، وكانواع الطيور الجميلة الرائقة، والاحياء المتنوعة، والنباتات والزهور المختلفة، وكما إننا ننتج من هذاالتراب نفسه ألوان المصنوعات، كذلك الله سبحانه خلق من هذه الحروف الهجائية المتداولة، موضوعات ومعان سامية، في قوالب لفظية جميلة، وعبارات موزونة، واسلوب خاص مدهش معجز، وهذه الحروف الهجائية موجودة تحت تصرف الانسان، لكنه عاجز عن صنع جمل وعبارات شبيهة بالقرآن.

* * *

الادب في العصر الجاهلي:

من المهم أن نذكر هنا أن العصر الجاهلي كان عصرا ذهبيا للادب العربي. فالوثائق المتوفرة بأيدينا تشير الى أن العرب الحفاة الجفاة الجاهليين، كانوا يتمتعون بذوق أدبي رفيع. وما وصلنا من شعر ونثر من تلك الفترة، يشير الى قدرة أولئك على التعبير الجميل الدقيق، ويحتل دروة الفصاحة في الادب العربي.

وكان للادب سوق رائجة تدلّ على اهتمام العرب بلغتهم وآدابها، و(سوق عكاظ) وأمثالها من الاسواق الادبية تعكس هذاالاهتمام بوضوح.

والسوق المذكور كان يشهد ـ اضافة الى المعاملات الاقتصادية والقضايا الاجتماعية ـ حركة ادبية تعرض خلالها افضل مقطوعات الشعر والنثر، ويتم فيها انتخاب أفضل ما قيل من النظم خلال العام، و(المعلقات السبع) أو (العشر) نموذج لذلك، وكانت القصيدة الفائزة تعدّ فخراً كبيراً للشاعر ولقبيلته.

في مثل هذاالعصر من الانتعاش الادبي، يتحدى القرآن الناس أن يأتوا بمثله،

ولكنهم عجزوا (سنذكر مزيدا من اعجاز القرآن في مجال التحدي لدى تفسير الآية ٢٣ من هذه السورة)

* * *

شاهد ناطق:

الشاهد الناطق على هذاالمنحىٰ من تفسير الحروف المقطعة، حديث عن الامام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) حيث يقول: «**كَذَّبَ قُرَيْشٌ وَالْيَهُودُ بِالْقُرْآنِ وَ قالُوا هٰذا سِحْرٌ مُبِينٌ، تَقَوَّلَهُ، فَقالَ اللهُ: «الٓمٓ، ذٰلِكَ الْكِتابُ...» : أَيْ يا مُحَمَّدُ، هٰذَاالْكِتابُ الَّذِي أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ هُوَالْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ الَّتِي مِنْها أَلِفٌ وَلامٌ وَمِيمٌ، وَهُوَ بِلُغَتِكُمْ وَحُرُوفِ هِجائِكُمْ فَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ...**»[1].

وثم شاهد آخر عن الامام علي بن موسى الرضا في قوله: «**ثُمَّ قالَ إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَ تَعالىٰ أَنْزَلَ هٰذَا الْقُرْآنَ بِهٰذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَداوَلُها جَمِيعُ الْعَرَبِ، ثُمَّ قالَ: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَاالْقُرْآنِ...**»[2].

وهناك ملاحظة تؤيد ما ذهبنا اليه في تفسير معنى الحروف المقطعة، وهي ان هذه الحروف في السور الاربع والعشرين التي ذكرناها، يتلوها مباشرة ذكر لعظمة القرآن، وهذا يدل على الارتباط بين الحروف المقطعة وعظمة القرآن. وعلى سبيل المثال نذكر الآيات التالية:

١ ـ «**الٓر، كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**» (هود:٢-١)

٢ ـ «**طسٓ، تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ مُبِينٍ**» (النمل: ٢-١)

٣ ـ «**الٓمٓ، تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ**» (لقمان،٢-١)

٤ ـ «**الٓمٓصٓ، كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ**» (الاعراف،٢-١)

* * *

بعدالبسملة وذكر الآية الاولى من سورة البقرة يقول تعالى: «**ذٰلِكَ الْكِتابُ لا**

---

(١) تفسير البرهان، ج١، ص٥٤.

(٢) توحيد الصدوق، ص١٦٢، ط سنة ١٣٧٥ هـ.ق

رَيْبَ فِيهِ».قد يشير هذاالتعبير الى أن الله وعد نبيّه أن ينزّل عليه كتاباً يهتدي به من طلب الحق، ولا يشك فيه من كان له قلب أو القى السمع وهو بصير، وها هو سبحانه قد وفى بوعده الآن.

وقوله «لَا رَيْبَ فِيهِ» ليس ادعاءً، بل تقريرا لحقيقة قرآنية مشهودة، هي إن القرآن يشهد بذاته على حقّانيته. و بعبارة اخرى فان مظاهر الصدق والعظمة والانسجام والاستحكام وعمق المعاني و حلاوة الالفاظ والعبارات وفصاحتها من الوضوح بدرجة تبعد عنه كلّ شك.

من المشهود أن مرّالعصور وكرّالدهور لم يقلل من طراوة القرآن، بل إن حقائق القرآن، ازدادت وضوحا بتطور العلوم و بانكشاف أسرار الكائنات. وكلما ازداد العلم تكاملاً ازدادت آيات القرآن جلاء وسطوعا.

سنوضح هذه الحقيقة اكثر باذن الله في مواضع أخرى من هذاالتفسير.

* * *

وقفات

١ ـ لماذاالاشارة الى البعيد؟

نعلم أن كلمة (**ذلك إشارة الى البعيد** في لغة العرب. وقرب القرآن من أيدي الناس يقتضى أن تكون الاشارة للقريب.

السبب في استعمال اسم الاشارة للبعيد يعود الى بيان سموّالقرآن و رفعته، حتى كأنه ـ في عظمته ـ يحتل نقطة الذروة في هذاالوجود. ومثل هذاالاستعمال شائع في ساير اللغات ايضاً حين يراد الاشارة الى شخص ذي منزلة كبيرة مثلاً.

في بعض مواضع القرآن وردت أيضاً كلمة(تلك)، وهي اسم إشارة للبعيد أيضاً، مثل: «**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ**» (لقمان،٢). والسبب فيه ما ذكرنا

* * *

٢ ـ معنى الكتاب:

«الكِتَابُ» يعني المكتوب والمخطوط، ولا شك أن المراد منه في الآية كتاب الله الكريم.

وهنا يثار سؤال حول سبب استعمال كلمة الكتاب للقرآن وهو آنئذ لم يكتب كلّه.

و في الجواب نقول: استعمال هذه الكلمة لا يستلزم أن يكون القرآن كله مكتوبا. لان اسم القرآن يطلق على كل هذاالكتاب، وعلى أجزائه أيضاً.

أضف الى ذلك أن «الكتاب» يطلق أحيانا بمعنى أوسع، ليشمل كل ما يليق أن يكتب و يظهر مكتوبا، و إن لم يكتب حين اطلاق اسم الكتاب عليه. ففي آية أخرى نقرأ: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ» (ص،٢٩). ومن المؤكد أن القرآن لم يكن بشكل كتاب مدوّن بين الناس قبل نزوله.

و ثمة احتمال آخر وهو إن التعبير بالكتاب يشير الى كتابة القرآن في «اللوح المحفوظ».[1]

* * *

٣ ـ ماهي الهداية؟

كلمة (الهداية) لها عدة معاني في القرآن الكريم، وكلها تعود أساساً الى معنيين:

١ ـ الهداية التكوينية: وهي قيادة رب العالمين لموجودات الكون، وتتجلى هذه الهداية في نظام الخليقة والقوانين الطبيعية المتحكمة في الوجود. و واضح أن هذه الهداية تشمل كل موجودات الكون.

يقول القرآن على لسان موسى (عليه السلام): «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ» (طه،٥٠).

٢ ـ الهداية التشريعية: وهي التي تتم عن طريق الانبياء والكتب السماوية، وعن طريقها يرتفع الانسان في مدارج الكمال، وشواهدها في القرآن كثيرة منها قوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» (الانبياء،٧٣).

* * *

(١) راجع المجلد الحادي عشر من هذاالتفسير، ذيل الآية ٣٩ من سورة الرعد.

٤ ـ لماذا اختصت هداية القرآن بالمتقين؟

واضح أن القرآن هداية للبشرية جمعاء، فلماذا خصت الآية الكريمة المتقين بهذه الهداية؟

السبب هو أن الانسان لايتقبل هداية الكتب السماوية و دعوة الانبياء، ما لم يصل الى مرحلة معينة من التقوى (مرحلة التسليم أمام الحق وقبول ما ينطبق مع العقل والفطرة).

بعبارة أخرى: الافراد الفاقدون للإيمان على قسمين:

قسم يبحث عن الحق، و يحمل مقدارا من التقوى يدفعه لأن يقبل الحق أنّىٰ وجده.

و قسم لجوج متعصب قد استفحلت فيه الاهواء، لا يبحث عن الحق، بل يسعى في إطفاء نوره حيثما وجده.

ومن المسلم به أن أفراد القسم الاول هم الذين يستفيدون من القرآن أو أيّ كتاب سماوي آخر، أما القسم الثاني فلاحظّ لهم في ذلك.

و بعبارة ثالثة: كما إنّ «فاعليّة الفعل» شرط في الهداية التكوينية وفي الهداية التشريعية، كذلك «قابلية القابل» شرط أيضا.

الارض السبخَةُ لا تثمر وإن هطل عليها المطر آلاف المرات، إذ لابدّ أن تكون الارض مستعدة لاستثمار ماء المطر المحيي.

وساحة الوجود الانسانى لا تتقبّل بذر الهداية مالم تنظّف من اللجاج والتعصب والعناد. ولذلك قال سبحانه فى كتابه العزيز انه: «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ»

الآيات

٣ ـ «اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ».
٤ ـ «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».
٥ ـ «أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

التفسير

في بداية هذه السورة قسم القرآن الناس حسب ارتباطهم بخط الاسلام على ثلاثة أقسام:

١ ـ **المتقون:** وهم الذين تقبّلوا الاسلام في جميع أبعاده.

٢ ـ **الكافرون:** ويقعون في النقطة المقابلة للمتقين، ويعترفون بكفرهم، ولا يأبون أن يظهروا عداءهم للاسلام في القول والعمل.

٣ ـ **المنافقون:** وهم ذو والشخصيتين: شخصية اسلامية أمام المسلمين، وشخصية معادية للاسلام أمام أعداء الدين. شخصيتهم الاصلية هي الكفر طبعاً، وإن تظاهروا بالاسلام.

المجموعة الثالثة تضرّ بالاسلام ـ دون شك ـ اكثر من المجموعة الثالثة، ولذلك فان القرآن يقابلهم بشدّة اكثر كما سنرى.

هذه المسألة لاتختص بالإسلام طبعاً، كل المذاهب في العالم لها مؤمنون معتقدون، او معارضون صريحون، او منافقون محافظون. كما أنها لاتختص بزمان معين، بل هي سارية في كل العصور.

الآيات المذكورة تدور حول المجموعة الاولى وتطرح خصائصهم في خمسة عناوين هي:

١ ـ الإيمان بالغيب

«الغيب والشهود» نقطتان متقابلتان. عالم الشهود هو عالم المحسوسات، وعالم

الغيب هو ماوراء الحس. لان «الغيب» في الاصل يعني ما بطن وخفي. وقيل عن عالم ماوراء المحسوسات «غيب» لخفائه عن حواسّنا. التقابل بين العالمين مذكور في آيات عديدة كقوله تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ» (الحشر،٢٢).

الإيمان بالغيب هو بالضبط النقطة الفاصلة الاولى بين المؤمنين بالأديان السماوية، و بين منكري الخالق والوحي والقيامة. ومن هنا كان الإيمان بالغيب في رأس قائمة خصائص المتقين.

المؤمنون خرقوا طوق العالم المادي، واجتازوا جدرانه. إنهم بهذه الرؤية الواسعة مرتبطون بعالم كبير لامتناه.بينما يصرّ معارضوهم على جعل الانسان مثل سائر الحيوانات، محصورا في موقعه العالم المادى. وهذه الرؤية المادية تقمّصت في عصرنا صفات العلمية والتقدمية والتطورية!

لو قارنا بين فهم الفريقين و رؤ يتهما، لعرفنا أن: «المؤمنين بالغيب» يعتقدون أن عالم الوجودا كبروأوسع بكثيرمن هذاالعالم الذى نحسه، وخالق عالم الوجود هذا له مالا نهاية له من العلم والقدرة والادراك ، وانه ازليّ و ابديّ. وانه صممّ هذاالعالم وفق تخطيط دقيق مدروس. و يعتقدون أن الانسان ـ بمايحمله من روح إنسانية ـ يسمو بكثيرعلى سائرالحيوانات. و أن الموت ليس بمعنى العدم والفناء، بل هو مرحلة من مراحل التكامل الانساني، ونافذة تطل على عالم أوسع واكبر.

بينما الانسان المادي يعتقد أن عالم الوجود محدود بهذا الذي نحسه ونراه. وأن العالم وليد مجموعة من القوانين الطبيعية العمياء الخالية من أي هدف أو تخطيط أو عقل أو شعور. والإنسان جزء من الطبيعة، ينتهي وجوده بموته، يتلاشى بدنه، و تندمج أجزاؤه مرة أخرى بالمواد الطبيعية. فلا بقاء للانسان، وليس ثمة فاصلة كبيرة بينه و بين سائر الحيوانات.[١]

ما أكبر الهوة التي تفصل بين هاتين الرؤ يتين للكون والحياة! وما أعظم الفرق بين ما تفرزه كل رؤ ية، من حياة اجتماعية وسلوك ونظام!

---

(١) نقلا عن: «محمد والقرآن»

الرؤية الاولى تربيّ صاحبها على أن ينشد الحق والعدل والخير ومساعدة الآخرين، والثانية لا تقدّم لصاحبها أي مبرّر على ممارسة هذه الامور اللهم الاّ ما كان له منها فائدة في حياته المادية. من هنا يسود في حياة المؤمنين الحقيقيين التفاهم والاخوة والطّهر والتعاون، بينما تهيمن على حياة الماديين روح الاستعمار والاستغلال وسفك الدماء والنهب والسلب. ولهذاالسبب نرى القرآن يتخذ من «الايمان بالغيب» نقطة البداية في التقوى.

يدورالبحث في كتب التفسير عن المقصود بالغيب، أهو إشارة الى ذات الباري تعالى، أم انه يشمل ـ أيضاً ـ الوحي والقيامة وعالم الملائكة وكل ماهو وراء الحس؟ ونحن نعتقد أن الآية أرادت المعنى الشامل لكلمة الغيب، لان الايمان بعالم ماوراء الحس ـ كما ذكرنا ـ أول نقطة افتراق المؤمنين عن الكافرين،اضافة الى ذلك، تعبير الآية مطلق ليس فيه قيد يحدده بمعنى خاص.

بعض الروايات المنقولة عن أهل البيت (عليهم السلام) **تفسّر الغيب في الآية، بالمهدي الموعود المنتظر** (سلام‌الله‌عليه) وهذا لاينافي ما ذكرناه بشأن معنى الغيب. لان الروايات الواردة في تفسير الآيات تبين غالباً مصاديق خاصة، للآيات، دون أن تحدد الآيات بهذه المصاديق الخاصة، وسنرى في صفحات هذاالتفسير امثلة كثيرة لذلك. والروايات المذكورة بشأن تفسير معنى الغيب، تستهدف في الواقع توسيع نطاق معنى الايمان بالغيب، ليشمل حتى الايمان بالمهدي المنتظر (عليه السلام) ويمكننا القول أن الغيب له معنى واسع قد نجد له بمرور الزمن مصاديق جديدة.

* * *

٢ـ الارتباط بالله:

الصفة الاخرى للمتقين هي إنهم «**يُقِيمُونَ الصَّلاةَ**».

«**الصلاة**» باعتبارها **رمز الارتباط بالله**، تجعل المؤمنين المنفتحين على عالم ماوراء الطبيعة، على ارتباط دائم بالخالق العظيم. هؤلاء المؤمنون لاينحنون الا أمام الله. ولا يستسلمون الاّ لرب السماوات والارض، أي لايخضعون للاوثان، ولا يستسلمون أمام

الجبابرة والطواغيت.

مثل هذاالانسان يشعر أنه أسمى من جميع المخلوقات الاخرى، إذ إنه منح لياقة الحديث مع ربّ العالمين، وهذاالاحساس اكبرعامل في تربية الموجود البشري.

الانسان الذى يقف خمس مرات يوميًا أمام الله، يتضرع اليه و يناجيه، ينطبع فكره وعمله وقوله بطابع إلهي، ومثل هذاالانسان لاينهج طريقاً فيه سخط الله (على أن يكون تضرعه لله صادراً عن أعماق قلبه ومنطلقاً من تمام وجوده)[1].

* * *

٣ـ الارتباط بالناس:

المتقون ـ اضافة الى ارتباطهم الدائم بالخالق ـ لهم ارتباط وثيق ومستمر بالمخلوقين، ومن هنا كانت الصفة الثالثة التي يبيّنها لهم القرآن أنهم «**مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**».

يلاحظ أن القرآن لايقول: ومن أموالهم ينفقون، بل يقول: «**مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**»، و بذلك، وسّع نطاق الإنفاق ليشمل المواهب المادية والمعنوية.

فالمتقون لاينفقون أموالهم فحسب، بل ينفقون من علمهم ومواهبهم العقلية وطاقاتهم الجسميّة ومكانتهم الاجتماعية، و بعبارة أخرى ينفقون من جميع إمكاناتهم لمن له حاجة إلى ذلك، دون أن يترقّبوا من إنسان جزاءً.

الملاحظة الاخرى: ان الإنفاق قانون عام في عالم الخليقة، وخاصة في التركيب العضوي لكل موجود حي. قلب الانسان لايعمل لنفسه فقط، بل ينفق ما عنده لجميع خلايا البدن. الدماغ والرئة وسائر أجهزة البدن تنفق دائمًا من ثمار عملها، والحياة الجماعية ـ أساساً ـ لامفهوم لها دونما إنفاق.[2]

الارتباط بالناس ـ هو في الحقيقة ـ نتيجة للارتباط بالله. فالانسان المرتبط بالله

---

(١) بشأن أهمية الصلاة وآثارها التربو ية الكبرى، راجع تفسير الآية ١١٤ من سورة هود (في المجلد التاسع من هذاالتفسير)

(٢) راجع بشأن الإنفاق واهميته وآثاره المجلد الثاني من هذاالتفسير، ذيل الآيات ٢٦١ ـ ٢٧٤ من سورة البقرة.

يؤمن أن كل ما لديه من نِعَم إنما هي مواهب إلهية مودعة لديه لفترة زمنيّة معينة. ومن هنا فلا يزعجه الإنفاق بل يسره ويفرحه، لانه بالانفاق قسّم مال الله بين عبادالله، و بقيت له نتائج هذاالعمل و بركاته المادية والمعنوية. وهذاالتفكير يطهر روح الانسان من البخل والحسد ويحول الحياة من ساحة لتنازع البقاء الى مسرح للتعاون حيث يشعر كل فرد بأنه مسؤول أن يضع ما لديه من مواهب تحت تصرف كل المحتاجين، مثل شمس تفيض بأشعتها على الموجودات دون أن تتوقع من أحد جزاء.

في حديث عن الامام جعفربن محمدالصادق (عليه السلام) بشأن تفسير الآية (وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ) يقول: «إنَّ مَعْناهُ وَ مِمّا عَلَّمْناهُمْ يَبُثُّونَ»[1].

بديهي أن الرواية لا تريد أن تجعل الإنفاق مختصا بالعلم، بل إن الامام الصادق يريد، بذكر هذا اللون من الا نفاق، أن يوسّع مفهوم الانفاق كي لايكون مقتصرا على الجانب المالي كما يتبادر الى الاذهان لاول وهلة.

ومن هنا يتضح ضمنياً أن الانفاق المذكور في الآية، لايقتصر على الزكوات الواجبة والمستحبة، بل يتسع معناه ليشمل كل مساعدة بلامقابل.

* * *

٤ ـ الخاصية الرابعة للمتقين، الايمان بجميع الانبياء و برسالاتهم الالهية: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» وفي هذاالتعبير القرآني إشارة الى أن المتقين يؤمنون بعدم وجود أيّ اختلاف في مبادي دعوة الانبياء و أسس رسالاتهم، و بأنهم جميعاً هداة البشرية نحو صراط مستقيم واحد، جاء الواحد منهم ليكمل الشوط الذي قطعه سلفه في قيادة البشرية نحو كمالها المرسوم. هؤلاء المتقون يرفضون أن تكون الأديان الالهية وسيلة للتفرقة والنفاق، بل على العكس من ذلك يؤمنون بأنّها وسيلة للإرتباط والإنشداد بين أبناء البشر.

هؤلاء الذين يحملون مثل هذه الرؤية ومثل هذاالإدراك، يطهّرون أرواحهم من التعصب، و يؤمنون بما جاء به جميع الانبياء لهداية البشر وتكاملهم، و يحترمون كل

---

(١) مجمع البيان، ونورالثقلين، في تفسير الآية المذكورة.

دعاة وهداة طريق التوحيد.

الايمان برسالات الانبياء السابقين، لايمنع طبعاً من انتهاج رسالة آخر الأنبياء في الفكر والعمل، لأن هذه الرسالة هي آخر حلقة من السلسلة التكاملية للاديان، وعدم انتهاجها يعني التخلف عن المسيرة التكاملية للبشرية.

٥ـ «الايمان بيوم القيامة» آخر صفة في هذه السلسلة من الصفات التي قررها القرآن للمتقين. «وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

إنهم يوقنون بأن الانسان لم يخلق هملاً وعبثا. فالخليقة عينت للكائن البشري مسيرة تكاملية لا تنتهي إطلاقا بموته، إذ لو كان الموت نهاية المسير لكانت حياة الانسان عبثا لاطائل تحته.

و إنهم يقرّون بأن عدالة الله المطلقة في انتظار الجميع، ولا شيئ من أعمال البشر في هذه الدنيا يبقى بدون جزاء.

هذا اللون من التفكير يبعث في نفس حامله الهدوء والسكينة، ويجعله يتحمل أعباء المسؤولية ومشاقها بصدر رحب، و يقف أمام الحوادث كالطود الاشمّ، و يرفض الخضوع للظلم. وهذا التفكير يملأ الانسان ثقة بأن الأعمال ـ صالحها و طالحها ـ لها جزاء وعقاب، و بأنه ينتقل بعد الموت الى عالم أرحب خال من كل ألوان الظلم، يتمتع فيه برحمة الله الواسعة والطافه الغزيرة.

الايمان بالآخرة يعني افتراق حاجز عالم المادة والدخول الى عالم أسمى. و يعنى أن عالمنا هذا مزرعة لذلك العالم الاسمى ومدرسة اعدادية له، و أنّ الحياة في هذا العالم ليست هدفاً نهائيًا، بل تمهيد و إعداد للعالم الآخر.

الحياة في هذا العالم شبيهة بحياة المرحلة الجنينية، فهي ليست هدفاً لخلقة الانسان، بل مرحلة تكاملية من أجل حياة أخرى. ومالم يولد هذا الجنين سالماً خاليا من العيوب، لا يستطيع أن يعيش سعيدا في الحياة التالية.

الايمان بيوم القيامة له أثر عميق في تربية الانسان. يهبه الشجاعة والشهامة، لأن اسمى وسام يتقلده الانسان في هذا العالم، هو وسام «الشهادة» على طريق هدف مقدس إلهي والشهادة أحبّ شيىء للانسان المؤمن، و بداية لسعادة أبدية خالدة.

الايمان بيوم القيامة يصون الانسان من ارتكاب الذنوب. بعبارة أخرى، يتناسب ارتكابنا للذنوب مع إيماننا بالله واليوم الآخر تناسبا عكسياً، فكلما قوي الايمان قلت الذنوب. يقول الله سبحانه لنبيّه داود: «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» (سورة ص، آية ٢٦)

نسيان يوم الحساب أساس كل طغيان وظلم و ذنب، و بالتالي أساس استحقاق العذاب الشديد.

* * *

آخر آية تدور حولها بحوثنا، تشير الى النتيجة التي يتلقاها المؤمنون ذووالصفات المذكورة، تقول «أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ... وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

ربّ العالمين ضمن لهؤلاء هدايتهم وفلاحهم وعبارة (مِّن رَّبِّهِمْ) إشارة الى هذه الحقيقة.

و استعمال حرف (على) في عبارة «عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ» يوحي بأن الهداية الالهية مثل سفينة يركبها هؤلاء المتقون لتوصلهم الى السعادة والفلاح. (لان حرف ـ على ـ يوحي غالباً معنى الاستعلاء).

واستعمال كلمة «هدى» في حالة نكرة يشير الى عظمة الهداية التي شملهم الله بها.

و تعبير «هُمُ الْمُفْلِحُونَ» يفيد الانحصار كما يذكر علماء البلاغة، أي إن الطريق الوحيد للفلاح هو طريق هؤلاء المفلحين.[1]

وقفتان

١ـ مواصلة طريق الايمان والعمل:

الآيات المذكورة استعملت دوماً الفعل المضارع، الذي يشير عادة الى الاستمرار

---

(١) صاحب «المنار» يصر على أن تكرار كلمة «اولئك» في الآية يفيد الاشارة الى مجموعتين: الاولى ـ أولئك الذين يتصفون بالايمان بالغيب، و باقامة الصلاة، و بالانفاق. والثانية ـ هم المؤمنون بالوحي السماوي و بالآخرة. نحن نستبعد كثيرا هذا التفسير، لان الصفات الخمس المذكورة مترابطة لا يمكن التفكيك بينها، و كلها تصف مجموعة واحدة.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ـ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ـ يُنْفِقُونَ ـ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. وهذا يعني أن المتقين والمؤمنين الحقيقيين هم الذين يواصلون مسيرتهم الحياتية بثبات واستمرار، دون تعثر أو تلكؤ أو توقف.

هؤلاء ينطلقون منذالبدء بروح البحث عن الحق، وهذا يؤدي بهم الى تلبية دعوة القرآن، والقرآن بعد ذلك يوجد فيهم الخصائص الخمس المذكورة.

* * *

٢ ـ ماهي حقيقة التقوى؟

التقوى من الوقاية، أي الحفظ والصيانة[1]، وهي بعبارة أخرى جهاز الكبح الداخلي الذي يصون الانسان أمام طغيان الشهوات.

لهذا السبب وصف أميرالمؤمنين علي (عليه‌السلام) التقوى بأنها الحصن الذي يقي الانسان أخطار الانزلاق إذ قال: «اِعْلَمُوا عِبادَاللهِ اَنَّ التَّقْوىٰ دارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ»[2].

وفي النصوص الدينية والادبية تشبيهات كثيرة تجسّم حالة التقوى، فعن علي (عليه‌السلام) قال: «اَلا وَ إِنَّ التَّقْوىٰ مَطايا ذُلَلٍ، حُمِلَ عَلَيْها أَهْلُها، وَأُعْطُوا أَزِمَّتَها، فَاَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ»[3].

و عبدالله بن المعتز شبّه التقوى بحالة رجل يسير على طريق شائكة، و يسعى الى أن يضع قدمه على الارض بتأنٍ وحذر، كي لاتخزه الاشواك ، أو تتعلق بثيابه، يقول:

خَلِ الذُّنُوبَ صَغيرَها ... وَ كَبيرَها فَهُوَ التُّقىٰ
وَاصْنَعْ كَماشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يَرىٰ
لا تَحْقِرَنَّ صَغيرَةً ... إِنَّ الْجِبالَ مِنَ الْحَصىٰ![4]

---

(١) يقول الراغب في مفرداته: الوقاية حفظ الشئ مما يؤذيه و يضرّه، والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف، لذلك يسمى الخوف تارة تقوى بينما الخوف سبب للتقوى. وفي عرف الشرع، التقوى حفظ النفس عمّا يُؤثم. و «كمال التقوى» اجتناب المشتبهات.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

(٤) تفسير ابوالفتوح الرازي، ج١ص٦٢.

هذا التشبيه يفيد أيضاً أن التقوى لا تعنى العزلة والانزواء عن المجتمع، بل تعني دخول المجتمع، وخوض غماره، مع الحذر من الإصابة بلوثته إن كان المجتمع ملّوثا.

بشكل عام، حالة التقوى والضبط المعنوي، أوضح آثار الايمان بالله واليوم الآخر. ومعيار فضيلة الانسان وافتخاره، ومقياس شخصيته في الاسلام، حتى أضحت الآية الكريمة: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ» (الحجرات، ١٤) شعارا إسلاميا خالداً.

يقول عليّ (عليه السلام): «إِنَّ تَقْوىَ اللهِ مِفْتَاحُ سَدادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعادٍ، وَعِتْقٌ من كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ»[1].

جدير بالذكر أن التقوى ذات شعب وفروع، منها التقوى المالية والاقتصادية، والتقوى الجنسية، والاجتماعية، والتقوى السياسية...

الآيتان

٦ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».
٧ - «خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

التفسير

المجموعة الثانية: الكافرون المتعنتون

هذه المجموعة تقف في النقطة المقابلة تماما للمتقين، والآيتان المذكورتان قبلهما بيّنتا باختصار صفات هؤلاء.

الآية الاولى تقول إن الإنذار لا يجدي نفعاً مع هؤلاء، فهم متعنتون في كفرهم، على خلاف المجموعة الاولى التي تنصاع لنداء الحق.

هذه المجموعة غارقة في ضلالها و ترفض الانصياع للحق حتى ولو اتضح لديها. من هنا كان القرآن غير ذي أثر في هؤلاء. وهكذا الوعد والوعيد، لانهم يفتقدون الارضية

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٠.

الروحية اللازمة لقبول الحق والاستسلام له.

* * *

الآية الثانية تشير الى سبب هذا اللجاج والتعصب وتقول: «خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلىٰ اَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ»، ولذلك استحقوا أن يكون «لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ».

أجهزة استقبال الحقائق معطوبة عند هؤلاء.. العين التي يرى المتقون فيها آيات الله، والاذن التي يسمعون بها نداء الحق، والقلب الذي يدركون به الحقائق، كلها قد تعطلت وتوقفت عن العمل لدى الكافرين. هؤلاء لهم عيون وآذان وعقول، لكنهم يفتقدون قدرة «الرؤية» و «الادراك» و«السمع». لان انغماسهم في الانحراف وعنادهم ولجاجهم، كلها عناصر تشكل حجاباً أمام أجهزة المعرفة.

الانسان قابل للهداية طبعاً ـ إن لم يصل الى هذه المرحلة ـ مهما بلغ به الضلال. أما حينما يبلغ في انحرافه درجة يفقد معها حسّ التشخيص «فلات حين نجاة» لانه افتقد أدوات الوعي والفهم، ومن الطبيعي أن يكون في انتظاره عذاب عظيم.

* * *

وقفات

١ ـ سلب قدرة التشخيص ومسألة الجبر

أول سؤال يطرح في هذا المجال يدور حول مسألة الجبر، التي قد تتبادر الى الاذهان من قوله تعالى: «خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلىٰ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ...»، فهذا الختم يفيد بقاء هؤلاء في الكفر إجباراً، دون أن يكون لهم اختيار في الخروج من حالتهم هذه. أليس هذا بجبر؟ و إذا كان جبراً فلماذا العقاب؟

القرآن الكريم يجيب على هذه التساؤلات و يقول: إن هذا الختم وهذا الحجاب هما نتيجة اصرار هؤلاء ولجاجهم وتعنتهم أمام الحق، و إستمرارهم في الظلم والطغيان والكفر. يقول تعالى: «بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ» (النساء، ١٥٥) و يقول: «كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ» (المؤمن، ٣٥) و يقول أيضاً: «اَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ وَاَضَلَّهُ اللهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشاوَةً» (الجاثية، ٢٣).

كل هذه الآيات تقرر أن السبب في سلب قدرة التشخيص، وتوقف أجهزة

الادراك عن العمل يعود الى الكفر والتكبر والتجبر واتباع الهوى واللجاج والعناد أمام الحق. هذه الحالة التي تصيب الانسان، هي في الحقيقة ردّ فعل لاعمال الانسان نفسه.

من المظاهر الطبيعية في الموجود البشري، أن الانسان لو تعوّد على انحراف واستأنس به، يتخذ في المرحلة الاولى شكلاً «حالة» ثمّ يتحول الى «عادة» وبعدها يصبح «ملكة» و «جزءً» من تكوين الإنسان حتى يبلغ أحياناً درجة لايستطيع الانسان أن يتخلّى عنها أبداً. لكن الإنسان اختار طريق الإنحراف هذا عن علم ووعي، ومن هنا كان هوالمسؤول عن عواقب أعماله، دون أن يكون في المسألة جبر. تماما مثل شخص فقأ عينيه وسدّ أذنيه عمدا، كي لايسمع ولايرى.

ولو رأينا أن الآيات تنسب الختم واسدال الغشاوة الى الله، فذلك لأن الله هوالذى منح الانحراف مثل هذه الخاصية. (تأمّل بدقّة).

عكس هذه الظاهرة مشهود أيضا في قوانين الطبيعة، أي إن الفرد السائر على طريق الطهر والتقوى والاستقامة يجد يدالله تمتد اليه لتقوّي حاسّة تشخيصه وادراكه ورؤيته، هذه الحقيقة توضحها الآية الكريمة: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً**» (الانفال،٢٩).

في حياتنا اليومية صور عديدة لأفراد ارتكبوا عملا محرّماً، فتألموا لما فعلوه واعترفوا بذنبهم، لكنهم استأنسوا تدريجيا بفعلهم، وزالت من نفوسهم حساسيتهم السابقة تجاه الذنب، ووصل أمرهم في مراحل تالية الى أنهم يجدون اللذة والانشراح في الانحراف، وقد يضفون عليه صفة الواجب الانساني! أو الواجب الديني!!

وفي تاريخنا الاسلامي ظهر مجرمون سفاكون مولعون بازهاق الارواح والتنكيل بالمسلمين، ومع ذلك كانوا يضعون لأعمالهم الاجرامية تبريرات دينية، كان يقولوا مثلا إن الله سلطنا على هؤلاء الناس المذنبين لنظلمهم، فهم مستحقون لذلك!!

* * *

٢ ـ لماذا يصرّ الانبياء على هداية هؤلاء، إذا كانوا لايهتدون؟

وهذا سؤال آخر يُطرح في اطار الآيات المذكورة. والجواب عليه يتضح لو عرفنا أن العقاب الالهي يرتبط بمواقف الانسان العملية وسلوكه الفعلي، لا بما يُكنّه في قلبه من زيغ وضلال فقط. من هنا كان لابد من توجيه الدعوة حتى الى هؤلاء الذين لا يهتدون.

بعد ذلك يستحق الفرد العقاب تبعا لموقفه من الدعوة.بعبارة أخرى لابدّ من «إتمام الحجّة» قبل العقاب.

بعبارة موجزة: الثواب والعقاب يتوقفان حتماً على العمل بعد إنجازه، لا على الارضية الفكرية والروحية الداخلية للفرد.

أضف الى ماسبق: أن الانبياء بُعثوا للناس جميعا، وهؤلاء الذين «طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ» قليلون في المجتمع، أما الاكثرية فهم التائهون الذين يتقبّلون الهداية ضمن برنامج تعليمي تربوي صحيح.

* * *

٣ـ الختم على القلوب

في الآيات المذكورة وآيات أخرى، عبّر القرآن عن عملية سلب حسّ التشخيص والادراك الواقعي للافراد بالفعل «ختم»، وأحيانا بالفعل «طبع» و «ران».

في اللغة، «خَتَمَ» الاناء بمعنى سدّه بالطين أو غيره، وأصلها من وضع الختم على الكتب والابواب كي لا تُفتح، والختم اليوم مستعمل في الاستيثاق من الشيئ والمنع منه، كختم سندات الاملاك والرسائل السرية الهامة.

و«طبع» بمعنى ختم أيضاً.

أما «ران»، فمن «الرين» وهو صدأ يعلواالشيئ الجليّ، واستعمل القرآن هذه الكلمة في حديثه عن قلوب الغارقين في أوحال الفساد والرذيلة: «كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (المطففين،١٤).

المهم أن الانسان ينبغي أن يكون حَذِرا لدى صدورالذنب منه، فيسارع الى غسله بماء التوبة والعمل الصالح، كي لا يتحول الى صفة ثابتة مختوم عليها في القلب.

في حديث عن الامام محمدبن علي الباقر (عليه السلام): «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ اِلاَّ وَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، فَاِذَا اَذْنَبَ ذَنْباً خَرَجَ فِي تِلْكَ النُّكْتَةِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَاِذَا تَابَ ذَهَبَ ذٰلِكَ السَّوَادُ،فَاِنْ تَمَادىٰ فِي الذُّنُوبِ زَادَ ذٰلِكَ السَّوَادُ حَتّىٰ يُغَطِّيَ الْبَيَاضَ، فَاِذَا غُطِّيَ الْبَيَاضُ لَمْ يَرْجِعْ صَاحِبُهُ اِلىٰ خَيْرٍ أَبَداً، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**».[1]

---

(١) أصول الكافي، ج٢، باب الذنوب، ح٢٠، ص٢٠٩.

٤ـ المقصود من «القلب» في القرآن

لماذا نسب إدراك الحقائق في القرآن الى القلب، بينما القلب ليس بمركز للادراك بـل مضخة لدفع الدم الى البدن؟!

الجواب على ذلك، أن القلب في القرآن له معان متعددة منها:

١ - بمعنى العقل والادراك كقوله تعالى: **«إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ»** (ق،٣٧).

٢ - بمعنى الروح والنفس كقوله سبحانه: **«وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ»** (الاحزاب، ١٠).

٣ - بمعنى مركز العواطف، كقوله: **«سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ»** (الانفال،١٢) وقوله: **«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ»** (آل عمران،١٥٩).

لمزيد من التوضيح نقول:

في وجود الانسان مركزان قويّان هما:

١ - مركز الادراك ، و يتكون من الدماغ وجهاز الاعصاب. لذلك نشعر أننا نستقبل المسائل الفكرية بدماغنا حيث يتم تحليلها وتفسيرها. (وان كان الدماغ والاعصاب في الواقع وسيلة وآلة للروح).

٢ - مركز العواطف، وهو عبارة عن هذا القلب الصنوبري الواقع في الجانب الايسر من الصدر. والمسائل العاطفية تؤثر أول ما تؤثر على هذا المركز حيث تنقدح الشرارة الاولى.

حينما نواجه مصيبة فاننا نحسّ بثقلها على هذا القلب الصنوبري، وحينما يغمرنا الفرح فاننا نحسّ بالسرور والانشراح في هذا المركز (لاحظ بدقّة).

صحيح أن المركز الاصلي للادراك والعواطف هو الروح والنفس الانسانية، لكن المظاهر و ردود الفعل الجسمية لها مختلفة. ردود فعل الفهم والادراك تظهر أولاً في جهاز الدماغ، بينما ردود فعل القضايا العاطفية كالحب والبغض والخوف والسكينة

والفرح والهمّ تظهر في القلب بشكل واضح و يحسّها الانسان في هذا الموضع من الجسم.

مما تقدم نفهم سبب ارتباط المسائل العاطفية في القرآن بالقلب (العضو الصنوبري المخصوص)، وارتباط المسائل العقلية بالقلب (أي العقل أوالدماغ).

أضف الى ما تقدم أنّ عضوالقلب له دور مهم في حياة الانسان و بقائه، و توقفه لحظة يؤدي الى الموت، فماذا يمنع أن تنسب النشاطات الفكرية والعاطفية اليه؟!

* * *

٥ ـ لماذا جاءت «قُلُوبُهُمْ» و «أَبْصارُهُمْ» بصيغة الجمع، و «سَمْعُهُمْ» بصيغة المفرد؟

يتكرر في القرآن استعمال القلب والبصر بصيغة الجمع: قلوب وابصار، بينما يستعمل السمع دائماً بصيغة المفرد، فما السرّ في ذلك ؟

قبل الاجابة لابد من الاشارة الى أن القرآن استعمل السمع والبصر بصيغة المفرد ايضاً كقوله تعالى: «وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشاوَةً» (الجاثية،٢٣).

الشيخ الطوسي في تفسير «التبيان» ذكر نقلا عن لغوي معروف، أن سبب ذلك قد يعود الى أحد أمرين:

أولاً: إن كلمة «السمع» قد تستعمل باعتبارها اسم جمع، ولا حاجة عندئذ الى جمعها.

ثانياً: إن كلمة «السمع» لها معنى المصدر، والمصدر يدل على الكثير والقليل، فلا حاجة الى جمعه.

و يمكننا أن نضيف الى ماسبق تعليلاً ذوقياً وعلمياً هو أن الادراكات القلبية والمشاهدات العينية تزيد بكثير على «المسموعات»، والفيزياء الحديثة تقول لنا إن الامواج الصوتية المسموعة معدودة لا تتجاوز عشرات الآلاف، بينما أمواج النور والألوان المرئية تزيد على الملايين. (تأمل بدقة).

* * *

الآيات

٨ - «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ».
٩ - «يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».
١٠ - «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ».
١١ - «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ».
١٢ - «أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ».
١٣ - «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ».
١٤ - «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ».
١٥ - «اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».
١٦ - «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

التفسير

المجموعة الثالثة: المنافقون

هذه الآيات تبين - باختصار وعمق - الخصائص الروحية للمنافقين و أعمالهم.

الاسلام واجه في عصر انبثاق الرسالة مجموعة لم تكن تملك الاخلاص اللازم للايمان، ولا القدرة اللازمة للمعارضة.

هذه المجموعة المذبذبة ذات الشخصيتين كانت نافذة في صفوف المسلمين، وكانت تشكل خطرا كبيرا على الاسلام والمسلمين. كان تشخيصهم صعبا لانهم متظاهرون بالاسلام، غير أن القرآن بيّن بدقة مواصفاتهم و أعطى للمسلمين في كل القرون والاعصار معايير حيّة لمعرفتهم.

الآيات المذكورة قبلها بيّنت في مطلعها الخط العام للنفاق والمنافقين: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ».

* * *

هؤلاء يعتبرون عملهم المذبذب هذا نوعا من الشطارة والدهاء «يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا» بينما لا يشعر هؤلاء أنهم يسيئون بعملهم هذا الى أنفسهم، و يبدّدون بانحرافهم هذا طاقاتهم، ولا يجنون من ذلك إلاّ الخسران والعذاب الالهي. «وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

في الآية التالية يبيّن القرآن أن النفاق في حقيقته نوع من المرض. الانسان السالم له وجه واحد فقط، و في ذاته انسجام كامل بين الروح والجسد، لأن الظاهر والباطن، والروح والجسم، يكمل أحدهما الآخر. إذا كان الفرد مؤمنا فالايمان يتجلى في كل وجوده، واذا كان منحرفاً فظاهره و باطنه يدلان على انحرافه. و ازدواجية الجسم والروح مرض آخر و علّة إضافية. إنه نوع من التضاد والانفصال في الشخصية الانسانية: «في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ».

إقتضت سنّة الله في الكون أن يتيسّر الطريق لكل سالك ،وأن تتوفر سبل التقدم لكل من يجهد أن يضع قدمه على طريق. و بعبارة أخرى: تركيز أعمال الانسان وأفكاره في خط معين، تدفع هذا الانسان نحو الانغماس والرسوخ في ذلك الخط «فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً»

والكذب رأس مال المنافقين، يبرّرون به ما في حياتهم من متناقضات، وفي ختام الآية إشارة الى هذه الحقيقة: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ».

* * *

ثم تستعرض الآيات خصائص المنافقين، و تذكر أولاً أنهم يتشدّقون بالاصلاح، بينما هم يتحركون على خط التخريب والفساد: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ،

قالُوا: إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِنْ لا يَشْعُرُونَ».

ذكرنا سابقا أنّ الانسان، لو تمادى في الغيّ والضلال، يفقد قدرة التشخيص، بل تنقلب لديه الموازين، و يصبح الذنب والاثم جزءً من طبيعته. والمنافقون أيضاً باصرارهم على انحرافهم يتطبّعون بخط النفاق، و تتراءى لهم أعمالهم بالتدريج وكأنها أعمال إصلاحية، ومن هنا جاء التعبير القرآني: «وَلٰكِنْ لا يَشْعُرُونَ» ليقرّر هذه الحقيقة.

* * *

علامتهم الاخرى: اعتدادهم بأنفسهم واعتقادهم أنهم ذووا عقل وتدبير، و أن المؤمنين سفهاء و بسطاء: «وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النّاسُ، قالُوا: أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ؟!!».

وهكذا تنقلب المعايير لدى هؤلاء المنحرفين، فيرون الانصياع للحق واتباع الدعوة الالهية سفاهة، بينما يرون شيطنتهم و تذبذبهم تعقّلا و دراية!! غير أن الحقيقة عكس ما يرون: «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلٰكِنْ لا يَعْلَمُونَ».

أليس من السفاهة أن لايضع الانسان لحياته خطاً معيناً، و يبقى يتلوّن بألوان مختلفة؟! أليس من السفاهة أن يضيّع الانسان وحدة شخصيته، و يتجه نحو ازدواجية الشخصية و تعدّد الشخصيات في ذاته، و يهدر بذلك طاقاته على طريق التذبذب والتآمر والتخريب، وهو مع ذلك يعتقد برجاحة عقله؟!

* * *

العلامة الثالثة لهؤلاء، هي تلوّنهم بألوان معينة تبعاً لما تفرضه عليهم مصالحهم، فهم انتهازيون يظهرون الولاء للمؤمنين ولأعدائهم من الشياطين: «وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا: آمَنّا، وَإِذا خَلَوْا إِلىٰ شَياطِينِهِمْ قالُوا: إِنّا مَعَكُمْ، إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ»!.

يؤكدون لشياطينهم أنهم معهم، وأن ولاءهم للمؤمنين ظاهري، هدفه الاستهزاء.

و بلهجة قويّة حاسمة يردّ القرآن الكريم على هؤلاء و يقول: «اَللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ».[1]

---

(١) يعمهون، من «العَمَه» أي التردّد في الامر، و أيضاً بمعنى عمى القلب والبصيرة بسبب التحيّر (راجع: ←

الآية الاخيرة توضّح المصير الاسود المظلم لهؤلاء المنافقين، وخسارتهم في مسيرتهم الحياتية الضالة: **«أولئكَ الّذينَ اشتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ، وَمَا كانُوا مُهْتَدِينَ»**.

* * *

وقفات

١ـ ظهور النفاق وأسبابه

حينما تندلع الثورة في منطقة معينة، فان مصالح الفئة الظالمة الناهبة المستبدة تتعرض للخطر حتماً، خاصة إذا كانت الثورة مثل ثورة الاسلام تقوم على أساس الحقّ والعدالة. هذه الفئة تسعى للاطاحة بالثورة عن طريق السخرية والاستهزاء أولاً، ثم بالاستفادة من القوة المسلحة والضغوط الاقتصادية، والتضليل الاجتماعي.

وحين تبدو في الافق علامات انتصار الثورة، تعمد فئة من المعارضين الى تغيير مواقفها، فتستسلم ظاهريا، و تتحول في الواقع الى مجموعة معارضة سرية.

هؤلاء يسمّون «منافقين» لانطوائهم على شخصيتين مختلفتين (المنافق مشتقة من النفق: وهو الطريق النافذ في الارض المحفور فيها للاستتار أو الفرار)، وهم أخطر أعداء الثورة، لان مواقفهم غير واضحة، والامة الثائرة لا تستطيع أن تعرفهم و تطردهم من صفوفها، لذلك يتغلغلون في صفوف الناس المخلصين الطيبين، و يتسلمون أحيانا المناصب الحساسة في المجتمع.

ثورة الاسلام في عصرها الاول واجهت مثل هذه المجموعة. فبعد الهجرة المباركة وضعت أول لبنة للدولة الاسلامية في المدينة المنورة، وازداد الكيان الاسلامي الوليد قوة بعد انتصار المسلمين في غزوة «بدر». وهذه الانتصارات عرضت للخطر مصالح زعماء المدينة، وخاصة اليهود منهم، لأن اليهود كانوا يتمتعون في المدينة بمكانة ثقافية واقتصادية مرموقة. و هؤلاء أنفسهم كانوا يبشّرون قبل البعثة النبوية المباركة بظهور النبي.

كما كان في المدينة أفراد مرشحون للزعامة والملكية، لكن الهجرة النبوية بدّدت

مفردات الراغب، و تفسير المنار، و قاموس اللغة).

أماهم هؤلاء المتضررون من الدعوة رأوا أن الجماهير تندفع نحوالاسلام، وتنقاد الى النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) حتى عمّت الدعوة ذويهم و أقاربهم. فانها روا أمام الدين الجديد، ولم يروا بدّاً من الاستسلام والتظاهر بالاسلام، تجنباً لمزيد من الاخطار الاقتصادية والاجتماعية وحذرا من الابادة، خاصة وأن قوة العربي تتمثل في قبيلته، والقبائل أسلمت للدين الجديد، لكن هؤلاء راحوا يخططون خفية للاطاحة بالاسلام.

بعبارة موجزة، إن ظاهرة «النفاق» في المجتمع،تعود الى عامل انتصار الثورة وسيطرة الرسالة الثورية على المجتمع، و الى انهزام المعارضين واضطرارهم الى الاستسلام أمام الدعوة.

* * *

٢ـضرورة معرفة المنافقين في كل مجتمع

ظاهرة النفاق والمنافقين لاتختص ـ دون شك ـ بعصرالرسالة الاول، بل هي ظاهرة عامة تظهر بشكل وآخر في كل المجتمعات. من هنا لابد للجماعة المسلمة ان تعرف اوصافهم كما جاء في القرآن، كي تحبط مؤامراتهم وتقف بوجههم. في الآيات السابقة وفي سوره المنافقين **وهكذا في النصوص الاسلامية وردت للمنافقين اوصاف مختلفة منها:**

١ ـ **كثرة الضجيج والادعاءات الفارغة**، أو بعبارة أخرى كثرة القول وقلة العمل المفيد المتزن.

٢ ـ **التلوّن والتذبذب**،فمع المؤمنين يقولون «آمنا» ومع المعارضين يقولون «إنامعكم».

٣ ـ **الانفصال عن الامة**، وتشكيل الجمعيات السرية وفق خطط مبيتة.

٤ ـ **المكر والخداع والكذب والتملق والنكول والخيانة.**

٥ ـ **التعالي على الناس، وتحقيرهم، واعتبارهم بلهاء سفهاء، الى جانب الاعتداد بالنفس.**

على أي حال، إزدواجية الشخصية، والتضاد بين المحتوى الداخلي والسلوك الخارجي في وجود المنافقين، يفرز ظواهر عديدة بارزة مشهودة في أعمالهم وأقوالهم و سلوكهم الفردي والاجتماعي.

وما أجمل تعبير القرآن في حقّ هؤلاء إذيقول: **«فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»**، و أي مرض أسوأ

من ازدواجية الظاهر والباطن، ومن التعالي على الناس؟!!

هذا المرض مثل سائر الامراض، التي تصيب القلب، تظهر علائمه بوضوح على جميع أعضاء الانسان.

في مجلدات هذا التفسير شرح أوفى لحالة النفاق والمنافقين لدى البحث في الآيات ١٤١ ـ ١٤٣ من سورة النساء (المجلد الرابع).

وفي الآيات ٤٩ ـ ٥٧ من سورة التوبة (المجلد السابع).

وفي الآيات ٦٢ ـ ٨٥ من سورة التوبة أيضاً (المجلد الثامن).

* * *

٣ـ سعة معنى النفاق

النفاق في مفهومه الخاص ـ كما ذكرنا ـ صفة أولئك الذين يظهرون الاسلام، و يبطنون الكفر. لكن النفاق له معنى عام واسع يشمل كل ازدواجية بين الظاهر والباطن، وكل افتراق بين القول والعمل. من هنا قد يوجد في قلب المؤمن بعض ما نسميه «خيوط النفاق».

في الحديث النبوي: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كانَ مُنافِقاً وَإنْ صامَ وَصَلّى وَزَعَمَ أنَّهُ مُسْلِمٌ: مَنْ إذَا ائْتُمِنَ خانَ، وَإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا وَعَدَ أخْلَفَ**».[1]

الحديث لايدور هنا طبعاً عن المنافق بالمعنى الخاص، بل عن الذي في قلبه خيوط من النفاق، تظهر على سلوكه باشكال مختلفة، وخاصة بشكل رياء، كما جاء في الحديث عن الامام الصادق (عليه السلام): «**اَلرِّياءُ شَجَرَةٌ لا تُثْمِرُ إلاّ الشِّرْكَ الْخَفِيَّ، وَأصْلُها النِّفاقُ**»[2].

وفي نهج البلاغة نصّ رائع في وصف المنافقين عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) يقول فيه:[3]

«**أوصيكُمْ عِبادَاللهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَأحَذِّرُكُمْ أهْلَ النِّفاقِ، فَإنَّهُمُ الضّالُّونَ**

---

(١) سفينة البحار، ج٢، ص٦٠٥.

(٢) سفينة البحار، ج١، مادة (رئى).

(٣) ننقل نص الخطبة مع هوامشها كما جاءت في نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ص٣٨١(م).

الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ[١]، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً[٢]، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ، قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ[٣] وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ[٤]، وَ يَدِبُّونَ الضَّرَاءَ وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَ قَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَ فِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ[٥]، حَسَدَةُ الرَّخَاءِ[٦]، وَ مُؤَكِّدُو الْبَلَاءِ، وَ مُقْنِطُو الرَّجَاءِ، لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ[٧] وَإِلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوٍدُمُوعٌ[٨] يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ[٩] وَيَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ: إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا[١٠]، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا..»

* * *

٤ـ مؤامرة المنافقين

المنافقون يشكّلون أخطر تجمع معارض، لا على الاسلام فحسب، بل على كل رسالة ثورية تقدمية. هؤلاء ينفذون بين صفوف المسلمين، ويستغلّون كل فرصة للتآمر.

يتحدّث القرآن عن تآمر هؤلاء في صدرالاسلام و يذكر نماذج من أعمالهم.

---

(١) الزالون من زلّ أي أخطأ. والمزلون من أزله إذا أوقعه في الخطأ.

(٢) يفتنون أي يأخذون في فنون من القول لا يذهبون مذهباً واحداً. و يعمدونكم أي يقيمونكم بكل عماد. والعماد: ما يقام عليه البناء. أي إذا ملتم عن أهوائهم أقاموكم عليها بأعمدة من الخديعة حتى توافقوهم. والمرصاد محل الإرتقاب. و يرصدونكم: يقعدون لكم بكل طريق ليحوّ لوكم عن الإستقامة.

(٣) دويّة أي مريضة من الدّوى بالقصر وهوالمرض. والصفاح ـ جمع صفحة ـ:والمراد منها صفاح وجوههم، ونقاوتها: صفاؤها من علامات العداوة و قلوبهم ملتهبة بنارها.

(٤) يمشون مشي التستر. ويدبون: أي يمشون على هيئة دبيب الضراء،أي يسرون سريان المرض في الجسم أو سريان النقص في الأموال والانفس والثمرات.

(٥) الداء العياء ـ بالفتح ـ : الّذى اعي الاطباء ولا يمكن منه الشفاء.

(٦) حسدة: جمع حاسد، أي يحسدون على السعة، وإذا نزل بلاء بأحد أكدّوه وزادوه. و اذا رجى أحد شيئاً أوقعوه في القنوط واليأس.

(٧) الصريع: المطروح على الارض، أي إنهم كثيراً ما خدعوا أشخاصا حتى أوقعوهم في الهلكة.

(٨) الشجو: الحزن، أي يبكون تصنعاً متى أرادوا.

(٩) يتقارضون: كل واحد منهم يثني على الآخر ليثني الآخر عليه، كأن كلاً منهم يسلف الآخر دينا ليؤديه اليه، وكل يعمل للآخر عملاً يرتقب جزاءه عليه.

(١٠) ألحفوا: بالغوا في السؤال وألحوا. و إن عذلوا أي لاموا كشفوا أي فضحوا من يلومونه.

يذكر مثلا استهانة هؤلاء بشخصية المؤمنين، و بما يقدمه المؤمنون على قدر طاقتهم من صدقات فيقول: «اَلَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ اِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (التوبة،٧٩).

و يتخذون أحيانا في اجتماعاتهم السرّية قرارات بشأن قطع مساعدتهم المالية لأصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، كي يتفرقوا و يبتعدوا عن الرسالة والرسول: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلٰى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتّٰى يَنْفَضُّوا، وَلِلّٰهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ» (المنافقون،٧).

كما يتخذون القرارات باخراج المؤمنين من المدينة: «لَئِنْ رَجَعْنَا اِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ» (المنافقون،٨).

وكانوا يتخلفون عن الجهاد بمبررات مختلفة، و يتركون الرسول في ساعات الشدّة. وهم مع ذلك كانوا خائفين من انفضاح أمرهم وانكشاف سرّهم.

بسبب هذه المواقف العدائية التآمرية ركز القرآن على التنديد بالمنافقين في مواضع عديدة، واحتوت سورة المنافقين عرضاً مفصّلاً لوضعهم. كما تضمنت سورة التوبة والحشر و سور أخرى حملات شديدة على المنافقين، و تحدثتْ ثلاث عشرة آية من سورة البقرة عن صفاتهم وعواقب مكرهم.

* * *

٥ـ خداع الضمير

المنافقون يشكلون مشكلة كبرى للمسلمين، ذلك لأن المسلمين مكلفون ـ من جهة ـ باحتضان كلّ من يظهر الاسلام و بالامتناع عن تفتيش عقائد الافراد، و مسؤولون ـ من جهة أخرى ـ عن الحذر من مؤامرات المنافقين وتحركاتهم المشبوهة التي يستهدفون منها الوقوف بوجه الرسالة، وان اتخذت هذه التحركات صفة إسلامية ظاهرية.

المنافقون يظنّون أنهم بعملهم هذا يستطيعون أن يخدعوا المسلمين و يمرروا عليهم مؤامراتهم، بينما هؤلاء يخدعون أنفسهم.

التعبير القرآني «يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا» يوضّح مفهوماً دقيقاً، فكلمة يخادعون تعني الخداع المشترك ، وتبين أن هؤلاء المنافقين كانوا يعتقدون ـ لعمى

بصيرتهم ـ أنّ النبي خدّاع توسّل بالدين والنبوّة و جمع حوله السذّج من الناس ليكون له حكم وسلطان، ومن هنا راح المنافقون يتوسلون بخدعة لمقابلة خدعة النبي! فالتعبير القرآني المذكور يوضّح إذن لجوء المنافقين الى الخدعة، و يبين كذلك نظرة هؤلاء الخاطئة الى النبي الاعظم (ص).

ثم تردّ الآية الكريمة على هؤلاء وتقول: «وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»، فالفعل «يخدعون» يوضّح أن الخداع من جانب المنافقين فقط، و تؤكد الآية أيضاً أنهم يخدعون أنفسهم دون أن يشعروا، لأنهم يبددون بأفعالهم هذه طاقاتهم العظيمة على طريق الإنحراف، و يحرمون أنفسهم من السعادة التي رسم الله طريقها لهم، و يغادرون الدنيا وهم صفر اليدين من كل خير، مثقلون بأنواع الذنوب والآثام.

لا يمكن لأحد أن يخدع الله طبعاً لانه سبحانه عالم بالجهر ومايخفى، و تعبير «يخادعون الله» إما أن يكون المقصود به يخادعون الرسول والمؤمنين، لان من يخدع الرسول والمؤمنين فكانه خدع الله (في القرآن مواضع كثيرة عظم فيها الله رسوله والمؤمنين إذ قرن اسمهم باسمه). و إما أن يكون نقص العقل وسوء الفهم قد بلغ بالمنافقين حداً تصوروا معه أنهم قادرون على أن يخفوا على الله شيئاً من أعمالهم (شبيه ذلك ورد في آيات أخرى من كتاب الله العزيز).

على أي حال، الآية المذكورة تشير بوضوح الى حقيقة خداع الضمير والوجدان، وان الانسان المنحرف الملوث كثيراً ما يعمد الى خداع نفسه ووجدانه للتخلص من تأنيب الضمير، و يصبح بالتدريج مقتنعاً بأن قبائحه ليست عملاً انحرافياً، بل هي أعمال إصلاحية «إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ»، و بذلك يخدعون أنفسهم و يستمرون في غيّهم.

ذكر أنّ أحد القادة الامريكيين وجّه اليه سؤال حول سبب القاء القنبلة الذرية على مدينتين (هيروشيما وناكازاكي) اليابانيتين ممّا أدّى إلى مقتل مأتى الف انسان برئ أو إصابتهم بالعاهات، فقال: نحن فعلنا ذلك من أجل السلام! ولولم نفعل ذلك لطالت الحرب أكثر ولذهب ضحيتها عدد أكبر من القتلى!!

المنافقون في كل عصر وفي عصرنا هذا، يتشبثون بمثل هذه الاقاويل لخداع الناس وخداع أنفسهم، فهذا الزعيم الامريكي يضع أمامه طريقين فقط هما: استمرار

الحرب أو القصف الذري للمدن الآمنة، متناسيا طريقاً ثالثاً وهوالكف عن الاعتداء على الشعوب وعلى ثرواتهم!و مما تقدم يتضح أن النفاق وسيلة لخداع الضمير وشلّ مفعوله، وما أخطر عملية شل الضمير الانساني، الذي يعتبر الواعظ الداخلي والرقيب اليقظ الامين والمندوب الالهي في نفس الانسان!!

• • •

٦ـ التجارة الخاسرة

شبّه القرآن الكريم في مواضع عديدة عمل الانسان في الحياة الدنيا بالتجارة. ونحن في الحياة الدنيا تجار نأتي الى هذا المتجر الكبير برأس مال وهبه لنا الله سبحانه، وعناصره العقل والفطرة والعواطف والطاقات الجسمية المختلفة ومواهب عالم الطبيعة، ثم قيادة الانبياء. جمع يربحون و يفوزون و يسعدون، وجمع لايجنون ربحاً، بل أكثر من ذلك يفقدون رأس مالهم، و يفلسون بكل ما لهذه الكلمة من معنى. المجاهدون في سبيل الله من أفراد الجمع الأول، و يقول عنهم الله تعالى: «**يا أيّها الّذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**» (الصف،٩و١٠).

والمنافقون من أبرز نماذج الجمع الثاني، فبعد أن يذكر القرآن أعمالهم التخريبية المتلبسة بظاهر الاصلاح والتعقّل يقول عنهم: «**أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين**».

كان بمقدور هؤلاء أن ينتخبوا أفضل طريق لحياتهم لانهم كانوا يعيشون الى جانب ينبوع الوحي الصافي و في جوّ مفعم بالصدق والاخلاص والايمان. لكنهم فوّتوا على أنفسهم هذه الفرصة الفريدة العظيمة، و أضاعوا ما وهبهم الله من هداية فطرية في ذواتهم، ومن هداية تشريعية في إطار نور الوحي، واشتروا الضلالة وسلكوا طريقا خالوا أنهم يستطيعون به أن يقضوا على الدعوة و يصلوا الى مآربهم الخبيثة.

- وكان في هذه المقايضة الخاطئة خسارتان:

الاولى، ضياع ثرواتهم المادية والمعنوية. والثانية، فشلهم في تحقيق أهدافهم المشؤومة. فالاسلام سرعان ما ضرب بجرانه في أرجاء الارض وانفضحت خطط المنافقين.

الآيات

١٧ - «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ».

١٨ - «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ».

١٩ - «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ».

٢٠ - «يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

التفسير

مثالان رائعان لوصف حالة المنافقين

بعد أن بين القرآن صفات المنافقين وخصائصهم، يقدّم مثالين متحركين لتجسيم وضعهم:

١ - «مَثَلُهُمْ» المنافقين «كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً» في ليلة مظلمة، كي يهتدى بها الى طريق و يبلغ مقصده.«فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ».

لقد ظنّ هؤلاء أنهم قادرون على أن يحققوا أهدافهم بما لديهم من إمكانات إنارة محدودة.

لكن نارهم سرعان ما انطفأت بسبب عوامل جوّية، أو بسبب نفاد الوقود، وظلّوا حائرين لا يهتدون سبيلا.

ثم تضيف الآية الكريمة أن هؤلاء فقدوا كل وسائل فهم الحقائق: «صُمٌّ بُكْمٌ

عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ».

والمثال المذكور يصوّر بدقّة عمل المنافقين على ساحة الحياة الانسانية. فهذه الحياة مملوءة بطرق الإنحراف والضلال، وليس فيها سوى طريق مستقيم واحد للهداية، وهذا الطريق مليْ بالمزالق والأعاصير. ولا يستطيع الفرد أن يهتدي من بين الطرق الملتوية الى الصراط المستقيم، كما لايستطيع أن يتجنب المزالق و يقاوم أمام الاعاصير، إلاّ بنورالعقل والايمان، و بمصباح الوحي الوهّاج.

وهل تستطيع الشعلة المحدودة الموقتة التي يضيئها الانسان، أن تهدي الكائن البشري في هذا الطريق الشائك الطويل؟!

هؤلاء الذين سلكوا طريق النفاق، ظنوا أنهم قادرون بذلك أن يحافظوا على مكانتهم ومصالحهم لدى المؤمنين والكافرين. وأن ينضمّوا الى الفئة الغالبة بعد نهاية المعركة. كانوا يخالون أن عملهم هذا ذكاء وحنكة. و أرادوا أن يستفيدوا من هذا الذكاء وهذه الحنكة، كضوء يشقّ لهم طريق الحياة و يوصلهم الى مآربهم. لكن الله سبحانه ذهب بنورهم وفضحهم، إذ قال لرسوله: **«اِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا: نَشْهَدُ اِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ، وَاللهُ يَعْلَمُ اِنَّكَ لَرَسُولُهُ، واللهُ يَشْهَدُ اِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ»** (المنافقون،١و٢).

والقرآن الكريم يفضح المنافقين لدى الكافرين أيضاً، و يبين كذبهم و نكوثهم إذ يقول: **«اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِاِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ اَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ اُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ اَحَداً اَبَداً، وَاِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ اِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. لَئِنْ اُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْاَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ»** (الحشر،١١و١٢).

جدير بالذكر أن القرآن استعمل عبارة «اِسْتَوْقَدَ ناراً» أي إنهم استفادوا للانارة من «النار» ذات الدخان والرماد والحريق، بينما يستنير المؤمنون بنورالايمان الخالص و بضوئه الساطع.

باطن المنافقين ينطوي على النار، وان تظاهروا بنورالايمان. و إذا كان ثمة نور فهو ضعيف في قوته و قصير في مدته.

هذا النور الضعيف الموقّت، إما أن يكون إشارة إلى نورالضمير والفطرة التوحيدية،

أو إشارة إلى إيمان سابق لهؤلاء المنافقين، أسدلت عليه ستائر مظلمة على أثر التقليد الأعمى والتعصب المقيت واللجاج والعداء، فتحولت ساحة حياتهم لا إلى ظلمة، بل الى «ظلمات» في التعبير القرآني.

و هؤلاء سيفقدون في النهاية قدرة الرؤية الصحيحة والاستماع الصحيح والنطق الصحيح، وهذه نتيجة طبيعية - كما ذكرنا سابقاً - للاستمرار على الإنحراف والإصرار على الغيّ.

على أي حال هذا التشبيه يوضّح واحدة من حقائق النفاق، وهي إن عمر النفاق والتذبذب لا يدوم طويلاً. قد يستطيع المنافقون لمدة قصيرة أن يتمتعوا بمصونية الإسلام والإيمان، و بصداقة الكفار سِراً. لكن هذه الحالة مثل شعلة ضعيفة معرضة لالوان العواصف، سرعان ما تنطفئ، و يظهر الوجه الحقيقي للمنافقين، و يظلون منفورين مطرودين حائرين، مثل انسان يتخبّط في ظلام دامس.

* * *

لابدّ من الإشارة الى ما ورد في تفسير الآية الكريمة: «**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً**» (يونس،٥).

عن الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قال: «اَضَاءَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كَمَا تَضِيءُ الشَّمْسُ، فَضَرَبَ اللهُ مَثَلَ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) الشَّمْسَ وَمَثَلَ الْوَصِيِّ اَلْقَمَرَ».[1]

وهذا يعني أن نور الايمان والوحي يغمر العالم كلّه. ولا يمتلك منه المنافقون شيئاً.

* * *

في المثال الثاني صوّر القرآن حياة المنافقين بشكل ليلة ظلماء مخوفة خطرة، يهطل فيها مطر غزير، و ينطلق من كل ناحية منها نور يكاد يخطف الابصار، ويملأ الجوّ صوت مهيب مرعب يكاد يمزّق الآذان. وفي هذا الجوّ تمشي مجموعة مسافرة في واد فسيح لا ملجأ فيه ولا ملاذ، لا تستطيع أن تحتمي من المطر الغزير ولا من الرعد والبرق، ولا تهتدي

---

(١) نور الثقلين، ج١، ص٣٦.

الى طريق لشدّة الظلام. هذه الصورة يرسمها القرآن على النحوالتالي: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا».

هؤلاء يحسّون كلّ لحظة بخطر، لانهم يطوون صحراء لاجبال فيها ولا أشجار تحميهم من خطر الرعد والبرق والصواعق. ونحن نعلم أن خطر الصاعقة يتجه الى كل ارتفاع على الارض. لكن الارض التي يسير عليها هؤلاء خالية من أي ارتفاع سوى مرتفع أجسامهم، ومن هنا فخطر الصاعقة يهددهم كل آن بتحويلهم إلى رماد!

(أهمية هذا المثال تتضح لدى أهل الحجاز - حيث الصحارى المنبسطة - أكثر من وضوحها لدى أهالي المناطق الجبلية).

نعم، هؤلاء حيارى مضطربون، لايجدون طريقا يسلكونه، ولا دليلاً يهتدون به. خطر صوت الرعد يهدّد أسماعهم، ونورالبرق يكاد يذهب بأبصارهم «وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

المنافقون مثل هؤلاء المسافرين، يعيشون بين المؤمنين المتزايدين المتدفقين كالسيل الهادر وكالمطر الغزير، لكنهم لم يتخذوا لهم ملجأ آمناً يقيهم من شرّ صاعقة العقاب الالهي.

نهوض المسلمين بواجبهم الجهادي المسلح بوجه أعداء الاسلام، يشكل صواعق وحمماً تنزل على رؤوس المنافقين. وتسنح أحياناً لهؤلاء المنافقين فرصة للهداية واليقظة، لكن هذه الفرصة لا تلبث طويلاً، اذ تمرّ كما يمرّ نورالبرق، ويعود الظلام يطبق عليهم، ويعودون الى ضلالهم وحيرتهم.

إنتشار الاسلام بسرعة كالبرق الخاطف قد أذهلهم. وآيات القرآن التي تفضح أسرارهم صعقتهم، وفي كل لحظة يحتملون أن تنزل آية تكشف عن مكائدهم ونواياهم. وهذا ما تعبّر عنه الآية الكريمة: «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ» (التوبة، ٦٤).

والمنافقون خائفون أيضا أن يأذن الله بمحاربتهم، وأن يحثّ القوة الاسلامية

المتصاعدة على مجابهتهم، لانهم كانوا يواجهون مثل هذه التهديدات القرآنية، كقوله تعالى: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا» (الاحزاب، ٦٠-٦١).

مثل هذه الآيات كانت تنزل كالرعد والبرق على المنافقين، وتتركهم في خوف وذعر وحيرة في المدينة، وتضعهم أمام خطر الإبادة أوالإخراج من المدينة كلّ حين.

هذه الآيات ـ و إن كانت تتحدث عن المنافقين في عصر نزول الوحي ـ تمتد لتشمل كلّ المنافقين في التاريخ، لان خط النفاق يقف دوماً بوجه الخط الثوري الصادق الصحيح. و نحن نرى بأعيننا اليوم مدى انطباق ما يقوله القرآن على منافقي عصرنا بدقّة. نرى حيرتهم وخوفهم واضطرابهم، ونرى تعاستهم و بؤسهم وانفضاحهم تماماً مثل تلك المجموعة المسافرة الهائمة في صحراء مقفرة وفي ليلة ظلماء موحشة.

أما بشأن الفرق بين المثالين فثمة تفسيران:

الأول: إن قوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي...» يصور حالة المنافقين الذين انخرطوا في صفوف المؤمنين عن اعتقاد حقيقي، ثم تزعزعوا واتّجهوا نحوالنفاق. أما قوله: «كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ...» فيمثل حالة المنافقين الذين كانوا منذالبداية في صف النفاق، ولم يؤمنوا بالله قط.

الثاني: أن المثال الاول يتحدث عن حال الافراد، و لذلك يقول: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ....» والثاني يجسّد وضع الاجواء المخيفة المرعبة الخطرة التي تحدق بهؤلاء المنافقين، ومن هنا جاء التشبيه بالجوّ المظلم الممطر المليء بالخوف والذعر والاضطراب.

* * *

الآيتان

٢١ - «يا أيّها النّاس اعبُدُوا رَبّكُمُ الّذي خلقكُمْ والّذين مِنْ قبلِكُمْ لعلّكُمْ تتّقُونَ»

٢٢ - «الّذي جعل لكُمُ الأرْضَ فِراشاً والسّماء بناءً وأنْزلَ مِنَ السّماءِ ماءً فأخْرجَ بِهِ مِنَ الثّمراتِ رِزْقاً لكُمْ فلا تجعلُوا لِلّهِ أنداداً وأنْتُمْ تعْلمُونَ»

التفسير

فيما سبق من آيات بيّن الله سبحانه حال ثلاث مجموعات هي: مجموعة المتقين، و مجموعة الكافرين، ومجموعة المنافقين، فالمتقون هم المشمولون بالهداية الالهية، والمنافقون هم الذين طبع الله على قلوبهم، والمنافقون هم المرضى الذين زادهم الله مرضا، وفقدوا قدرة التشخيص نتيجة أعمالهم.

أما الآيات المذكورة فدعت الناس الى انتخاب طريق المجموعة الاولى، والى عبادة الله الواحد الاحد.

* * *

وفي الآية الكريمة: «يا أيّها النّاسُ اعبُدُوا رَبّكُمُ الّذي خلقكُمْ والّذين مِنْ قبلِكُمْ لعلّكُمْ تتّقُونَ» عدة ملاحظات نشير اليها فيما يلي:

١ - قوله تعالى: «يا أيّها النّاسُ» تكرر في القرآن عشرين مرة تقريباً، وهو نداء عام شامل يشير الى أن القرآن لايختص بعنصر أو قبيلة أو طائفة أو فئة خاصة، بل يوجّه دعوته الى البشرية عامة لعبادة الله، و للثورة على كل الوان الشرك والانحراف عن طريق التوحيد.

٢ - يركّز القرآن، في دعوته الى عبادة الله و الى شكرالله، على نعمة خلق البشر.

وهي نعمة تتجلى فيها قدرة الله كما يتجلى فيها علم الله وحكمته و كذلك رحمته العامة والخاصة. لان الموجود البشري سيّدالموجودات، ومظهر علم الله وقدرته اللامتناهية ونعمه الكثيرة الواسعة.

أولئك الذين يستنكفون عن عبادة الله والخضوع له، غافلون غالباً عن العظمة المنطوية في خلقهم وخلق الذين من قبلهم، وعن اليد المدبّرة المقدّرة التي أوجدت هذاالخلق، واودعت فيه النعم الدقيقة المدروسة المتجلية في جسم الانسان و روحه.

فالتذكير بهذه النعم دليل لمعرفة الله، ومحرك للشكر على هذه النعم.

٣ ـ نتيجة هذه العبادة هي التقوى: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» فعباداتنا لا تزيدالله عظمة وجلالاً، كما أن إعراضنا عن العبادة لا ينقص من عظمة الله شيئاً. هذه العبادات مدرسة لتعليم التقوى، والتقوى هي الإحساس الداخلي والإندفاع الذاتي، وهي معيار قيمة الإنسان وميزان تقيم شخصيته.

٤ ـ عبارة: «اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» لعلها ردّ على استدلال المشركين الذين برروا عبادتهم للأصنام بتمسكهم بسنة آبائهم. والآية الكريمة تشير بهذه العبارة الى أن الله الواحد الاحد، خالق البشر وخالق آبائهم، وكل شرك يعتري المسيرة البشرية في حاضرها و سالفها هو إنحراف عن الخط الصحيح.

* * *

نِعَم الارض والسماء

الآية التالية استعرضت قسماً آخر من النعم الالهية التي تستحق الشكر، ذكرت أولاً خلق الارض: «اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً».

فهذه الكرة السائرة بسرعة مذهلة في الفضاء، قد سخرت للانسان كي يمتطيها و يستقر عليها دون أن تؤثر عليه حركتها.

و تتجلى عظمة نعمة الارض أكثر حين نلاحظ خاصية الجاذبية التي تؤمّن لنا امكانية الإستقرار وانشاء الإبنية والمزارع، وسائر مستلزمات الحياة على هذه الارض. فلو انعدمت هذه الخاصية لحظة واحدة لتناثر ـ كل ما يقوم على هذه الارض من انسان وحيوان ونبات ـ في الفضاء!

تعبير «فِراش» يصوّر بشكل رائع مفهوم الإستقرار و الإستراحة، كما يصوّر اضافة الى ذلك مفهوم الإعتدال والتناسب في الحرارة. هذه الحقيقة يعبّر عنها الامام علي بن الحسين (عليه السلام) مفسرا هذه الآية إذ يقول:

(جَعَلَها مُلائِمَةً لِطِباعِكُمْ، مُوافِقَةً لِأجْسادِكُمْ وَلَمْ يَجْعَلْها شَديدَةَ الْحَماءِ وَالْحَرارَةِ فَتُحرِقَكُمْ، وَلا شَدِيدَةَ البُرودةِ فَتُجْمِدَكُمْ، وَلا شَديدَةَ طيبِ الرّيح فَتَصدَعَ هاماتِكُمْ، وَلا شَديدَةَ النّتنِ فَتُعْطِبَكُمْ، وَلا شَديدَةَ اللّينِ كَالْماءِ فَتُغْرِقَكُمْ، وَلا شَديدَةَ الصَّلابَةِ فَتَمْتَنِعَ عَلَيْكُمْ فِي دُورِكُمْ وَابْنِيَتِكُمْ وَقُبُورِمَوْتاكُمْ ... فَلِذٰلِكَ جَعَلَ الْأرْضَ فِراشاً لَكُمْ!)[1].

ثم تتعرض الآية الى نعمة السماء فتقول: «وَالسَّماءَ بِناءً».

كلمة «سَماء» وردت في القرآن بمعان مختلفة، وكلها تشير الى العلو، واقتران كلمة «سَماء» مع «بِناء» يوحي بوجود سقف يعلوالبشر على ظهر هذه الارض. بل إن القرآن صرّح بكلمة «سَقْف» في بيان حال السماء إذ قال: «وَجَعَلْنا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً» (الانبياء، ٣٢).

لعل هذا التعبير القرآني يشير الى استغراب اولئك الذين يفهمون موقع الارض في الفضاء، فيتساءلون عن هذاالسقف.. عن مكانه وكيفيته. ولعل هذا التعبير يعيد ـ بادي الرأي ـ الى الأذهان فرضية بطلميوس التي تصور الكون على أنه طبقات من الأفلاك متراكمة بعضها فوق بعض مثل طبقات قشور البصل!! من هنا لابدّ من توضيح لمفهوم السماء والبناء والسقف في التعبيرات القرآنية.

ذكرنا أن سماء كل شيئ أعلاه، واحد معاني السماء «جَوّ الأرْض»، وهوالمقصود في الآية الكريمة. وجوّ الارض هوالطبقة الهوائية المكثفة المحيطة بالكرة الأرضية، و يبلغ سمكها عدة مئات من الكيلومترات.

لو أمعنّا النظر في الدور الحياتي الاساس الذي تؤديه هذه الطبقة الهوائية لفهمنا مدى إستحكام هذاالسقف و أهميته لصيانة البشر.

---

(١) نورالثقلين، ج١ ص٤١.

هذه الطبقة الهوائية مثل سقف شفّاف يحيط بكرتنا الأرضية من كل جانب، و قدرة إستحكامه تفوق قدرة أضخم السدود الفولاذية، على الرغم من أنه لايمنع وصول أشعة الشمس الحيوية الحياتية الى الارض!

لولم يكن هذاالسقف لتعرضت الارض دوماً الى رشق الشهب والنيازك السماوية المتناثرة، ولَما كان للبشر أمان ولا استقرار على ظهر هذا الكوكب وهذه الطبقة الهوائية التي يبلغ سمكها عدة مئات من الكيلومترات[1] تعمل على إبادة كل الصخور المتجهة الى الكرة الارضية، وقليل جدا من هذه الصخور تستطيع أن تخترق هذاالحاجز وتصل الارض لتنذر أهل الارض دون أن تعكّر صفو حياتهم.

من الشواهد الدالة على أن أحد معاني السماء هو «جوالارض» حديث عن الامام جعفربن محمدالصادق (عليه‌السلام) يتحدث فيه الى «المفضّل» عن السماء فيقول:

«فَكِّرْ في لَوْنِ السَّماءِ وَما فِيهِ مِنْ صَوابِ التَّدْبِيرِ فَإِنَّ هٰذَااللَّوْنَ اَشَدُّ الاَلْوانِ مُوافِقَةً لِلْبَصَرِ وَتَقْوِيَةً....»[2].

ومن الواضح أن زرقة السماء ليست الاّ لون الهواء الكثيف المحيط بالارض. ولهذا فان المقصود بالسماء في هذاالحديث هو جوّالارض نفسه.

واضيفت كلمة الجو الى السماء في قوله تعالى: **«أَلَمْ يَرَوْا اِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ في جَوِّ السَّماءِ»** (النحل،٧٩).

وحول معاني السماء الاخرى تحدثنا بشكل أوفى في ذيل الآية٢٩ من هذه السورة.

بعد ذلك تطرقت الآية الى نعمة المطر: **«وَاَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً»** .. ماءً يحيى الارض و يخرج منها الثمرات.

عبارة **«وَاَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً»** تؤكد مرة أخرى أن المقصود من «السماء»

---

(١) تذكر كثير من الكتب أن سمك الجوّ المحيط بالارض، يبلغ مائة كيلومتر، و يبدو أن المقصود بهذاالسمك هوالطبقة الجوية الكثيفة، لان العلم الحديث أثبت أن الهواء موجود بشكل رقيق متباعد الجزئيات على بعد مئات الكيلومترات.

(٢) بحارالانوار، ط الجديد ج٣ ص١١١.

هنا هو جوّالارض، لاننا نعلم أن المطر ينزل من الغيوم، والغيوم بخار متناثر في جوّالارض.

الامام علي بن الحسين (عليه السلام) يتحدث عن نزول المطر في تفسير هذه الآية فيقول: (يُنْزِلُهُ مِن أَعْلَىٰ لِيَبْلُغَ قُلَلَ جِبالِكُم وَتِلالَكُمْ وَهِضابَكُمْ وَأَوْهادَكُمْ، ثُمَّ فَرَّقَهُ رِذاذاً وَوابِلاً وَهَطْلاً لِتَنْشَفَهُ أَرَضُوكُمْ، وَلَمْ يَجْعَلْ ذٰلِكَ الْمَطَرَ نازِلاً عَلَيْكُمْ قِطْعَةً واحِدَةً فَيُفْسِدَ أَرَضِيكُمْ وَأَشْجارَكُمْ وَزُرُوعَكُمْ وَثِمارَكُمْ).[1]

ثم تشير الآية الى نعمة الثمرات التي تخرج من بركة الامطار لتكون رزقا لبني البشر «فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ».

واخراج الثمرات مدعاة للشكر على رحمة رب العالمين لعباده، ومدعاة للاذعان بقدرة ربّ العالمين في اخراج ثمر مختلف ألوانه، من ماء عديم اللون، ليكون قوتا للانسان والحيوان، لذلك عطف عليها قوله تعالى: «فَلا تَجْعَلُوا لِلّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

فهذه الانداد المفتعلة وما تعبدون من دون الله، لم يخلقوكم ولا خلقوا آباء كم، ولا خلقوا ما ترونه حولكم من مظاهر كونية ونعم موفورة.

و «الانداد» جمع «نِد» على وزن ضدّ، و هوالشبيه والشريك ، وواضح أن هذاالشبه قائم في أذهان المشركين وليس أمرًا واقعيًا.

و بعارة أدق ندّالشي و نديده ـ كما يقول الراغب في المفردات ـ مشاركه في جوهره، و ذلك ضرب من المماثلة، أي المماثلة في جوهرالذات.

* * *

وقفة

الشرك في أشكال مختلفة ـ لابد من التأكيد على أن الشرك بالله، لا ينحصر باتخاذ الاوثان الحجرية والخشبية آلهة من دون الله كما يفعل الوثنيون، أوالقول بان الله ثالث ثلاثة كما تقول النصارى. بل إن للشرك معنى أوسع وصوراً متنوعة اكثر ضمورا وخفاء. و بشكل عام كل اعتقاد بوجود أشياء لها نفس تأثير الله في الحياة هو نوع من الشرك . وهذا ما يعبّر عنه ابن عباس إذ يقول:

---

(١) تفسير نورالثقلين، ج١، ص٤١.

(الانداد) هوالشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ليلة ظلماء، وهوأن يقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتي!... ويقول: لولا كلبه هذا لاتانا اللصوص البارحة!... وقول الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئت... هذا كله به شرك)[1].

مثل هذه التعابير التي يشمّ منها رائحة الشرك رائجة ـ مع الاسف ـ بين المسلمين.

عن الامام جعفر بن محمد الصادق في تفسير قوله تعالى: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ» (يوسف،١٠٦) قال:

«قَوْلُ الرَّجُلِ لَوْلاَ فُلاَنٌ لَهَلَكْتُ، وَلَوْلاَ فُلاَنٌ لاَصَبْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَوْلاَ فُلاَنٌ لَضَاعَ عِيَالِي»[2].

* * *

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١، ص٥٣.

(٢) سفينة البحار، ج١، ص٦٩٧.

الآيتان

٢٣ - «وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَىٰ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»

٢٤ - «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ»

التفسير

القرآن معجزة خالدة

ظاهرة الكفر والنفاق، التي دارت حولها موضوعات الآيات السابقة، تنشأ أحيانا عن عدم فهم محتوى النبوة ومعجزة الرسول (صلّى الله عليه وآله). والآيات التي نحن بصددها تعالج هذه المسألة وتركز على المعجزة القرآنية الخالدة كي تزيل كل شك وترديد في رسالة نبي الاسلام (صلّى الله عليه وآله). تقول الآية:

«وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَىٰ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ»[1].

وبهذا الشكل تحدى القرآن كل المنكرين أن يأتوا بسورة من مثله.

كي يكون عجزهم دليلاً واضحاً على أصالة هذا الوحي السماوي وعلى الجانب الالهي للرسالة والدعوة.

ولاجل أن يؤكد هذا التحدي يدعوهم أن لايقوموا بهذا العمل منفردين بل «وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ اِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ».

---

(١) ذهب بعض المفسرين الى أن الضمير في (مثله) يعود على النبي كما يعود الضمير في (عبدنا) عليه أيضاً. ويصبح المعنى حينئذ: لوكنتم في شك من الوحي فأتوا بشخص أمّي مثل محمد يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن. لكن هذا الاحتمال بعيد، إذ ورد في موضع آخر: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ) الطور، ٣٤، وفي موضع آخر أيضاً. (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) يونس، ٣٨، وهذه دلالة على أن الضمير في (مثله) يعود على القرآن.

كلمة «شهداء» تشير الى الفئة التي كانت تساعدهم في رفض رسالة النبي (صلّى الله عليه وآله)، و عبارة «مِنْ دُونِ اللهِ» اشارة الى عجز جميع البشرية عن الا تيان بسورة قرآنيـة ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، والى قدرة الله وحده على ذلك.

و عبارة «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» تستهدف حثهم في هذاالتحدي، ومفهومها: لو عجزتم عن هذاالعمل فذلك دليل كذبكم، فانهضوا إذن لا ثبات ادعائكم.

* * *

طبيعة التحدي تقتضي أن يكون صارخاً الى أبعد حدّ ممكن، و أن يكون محفّزا للعدو ما أمكن، و بعبارة أخرى أن يثيرالحميّة فيه، كي يجنّد كل طاقاته لعملية المجابهة، حتى إذا فشل وايقن بعجزه علم أنه أمام ظاهرة الهية لابشرية.

من هنا فسياق الآيات التالية، يركز على عنصر الا ثارة و يقول: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجارَةُ» وهذه النار ليست حديث مستقبل، بل هي واقع قائم، فقد «أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ».

جمع من المفسرين قالوا: إن المقصود بالحجارة: الاصنام الحجرية، واستشهدوا لذلك بالآية الكريمة: «إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» (الانبياء، ٩٨).

جمع آخر قالوا: (الحجارة) اشارة الى صخور معدنية كبريتية تفوق حرارتها حرارة الصخور الاخرى.

وهناك من المفسرين من يعتقد أن المقصود من هذاالتعبير، الفات النظر الى شدة حرارة جهنم، أي إن حرارة جهنم وحريقها يبلغ درجة تشتعل فيها الصخور والاجساد كما يشتعل الوقود.

و يبدو من ظاهر الآيات المذكورة، أن نار جهنم تستعر من داخل الناس والحجارة. ولا يصعب فهم هذه المسألة لو علمنا أن العلم الحديث أثبت أن كل أجسام العالم تنطوي في أعماقها على نار عظيمة (او بعبارة أخرى على طاقة قابلة للتبديل الى نار)، ولا يلزم أن نتصور نار جهنم شبيهة بالنار المشهودة في هذاالعالم.

في موضع آخر يقول تعالى: «نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» (الهمزه، ٦-٧). خلافا لنيران هذاالعالم التي تنفذ من الخارج الى الداخل.

وقفات

١ـ لماذا يحتاج الانبياء الى المعجزة؟

نعلم أن منصب النبوة أعظم منصب منحه الله لخاصة أوليائه. فكل المناصب عادة تمنع صاحبها القدرة للحكم على أبدان الافراد، الآ منصب النبوة، فالنبي يحكم على الاجسام والقلوب في مجتمعه. من هنا كان مقام النبوة لا يبلغه مقام في سموّه، ومن هنا أيضاً كان أدعياء النبوّات الكاذبة أحطّ الناس وأشدّهم انحرافا.

والناس هنا أمام أمرين إما أن يؤمنوا بدعوات النبوة جميعًا أو أن يرفضوها جميعا، لو قبلوها جملة لتحولت ساحة الاديان الى فوضى وهرج ومرج. ولو رفضوها جملة لكان عاقبة ذلك الضلال والضياع.

فالدليل على مبدأ البعثة ذاته يفرض إذن أن يكون الانبياء الصادقين مجهزين بالدليل على نبوتهم كي يتميز الصادقون من الكاذبين. أي أن يكونوا مجهزين بالمعجزة الدالة على صدق ادعائهم.

و «المعجزة» ـ كما هو واضح من لفظها ـ عمل خارق يأتي به النبي و يعجز عن الاتيان به الاخرون.

على النبي صاحب المعجزة أن يتحدى الناس بمعجزته، و أن يعلن لهم أن معجزته دليل على صدق دعواه.

***

٢ ـ القرآن معجزة نبي الاسلام الخالدة

القرآن كتاب يسمو على أفكار البشر، ولم يستطع أحد حتى اليوم أن يأتي بمثله، وهو معجزة سماوية كبرى.

هذا الكتاب الكريم يعتبر ـ بين معاجز النبي (صلّى الله عليه وآله) ـ أقوى سند حيّ على نبوة الرسول الخاتم لانه معجزة **«ناطقة»** و **«خالدة»** و **«عالمية»** و **«معنوية»**.

معاجز الانبياء السابقين لم تكن ناطقة، أي إنها كانت بحاجة الى وجود النبي لكي يتحدث للناس عن معجزته و يتحداهم بها، و معاجز النبي الخاتم ـ عدا القرآن ـ

هي من هذااللون. أما القرآن فمعجزة ناطقة. لايحتاج الى تعريف، يدعو لنفسه بنفسه، يتحدى بنفسه المعارضين و يدينهم و يخرج منتصرا من ساحة التحدى.وهويتحدى اليوم جميع البشر كما كان يتحداهم في عصرالرسالة. انه دين ومعجزة، انه قانون، ووثيقة تثبت الهية القانون.

٣ـ الخلودوالعالمية

القرآن حطم سدود «الزمان والمكان» و تعالى على الزمان والمكان، لان معاجز الانبياء السابقين ـ وحتى معاجز النبي الخاتم غيرالقرآن ـ مسجلة على شريط معين من الزمان، وواقعة في مساحة معينة من المكان، وأمام جمع معدود من الناس، مثل معاجز عيسى (عليه السلام) في حديثه في المهد وفي إحيائه الموتى. وواضح أن الاحداث المرتبة بزمان ومكان معينين تصبح صورتها باهتة كلما ابتعدنا عن ظروفها الزمانية والمكانية. وهذا من خصائص الامور الزمنية.

لكن القرآن لا يرتبط بالزمان والمكان، فهويطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهلية قبل قرون، بل إن مرور الزمن زادالبشرية قدرة في العلم والامكانات، لتستفيد منه اكثر من ذي قبل. ذلك لانه لا يرتبط بزمان أو مكان. و بديهي أن الدين العالمي الخالد بحاجة الى مثل هذه الوثيقة العالمية الخالدة.

أما الصفة «المعنوية» للقرآن فنفهمها حين ننظر الى معاجز الانبياء السابقين، ونرى أنها كانت غالبا «جسمية»، مثل: شفاء الامراض الجسمية المستعصية، و تحدث الطفل في المهد... وكانت تتجه نحو تسخيرالاعضاء البدنية. أماالقرآن، فيسخرالقلوب والنفوس، و يبعث فيها الاعجاب والاكبار. إنه يتعامل مع الارواح والافكار والعقول البشرية، وواضح امتياز مثل هذه المعجزة على المعاجز الجسمية.

* * *

٤ـ هل تحدى القرآن؟

القرآن تحدى البشرية في مواضع عديدة من سوره منها:

١ ـ «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» (الاسراء،٨٨).

٢ ـ «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ» (هود، ١٤-١٣).

٣ ـ «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (يونس، ٣٨).

٤ ـ الآية الثالثة والعشرين من سورة البقرة التي يدور حولها بحثنا.

القرآن تحدى بصراحة وقوة في هذه الآيات جميع البشرية، وفي هذه الصراحة والقوة دلالة حيّة على حقّانيته. ولم يكتف في تحديه بدعوة الناس الى أن يأتوا بمثله، بل حفّزهم و شجعهم على ذلك، و عبارات التحفيز نجدها في قوله تعالى:

«إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ... قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ... وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ.. قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ.. لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ.. فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ... فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا..».

هذا التحفيز والحثّ والتحضيض لم يصدر ضمن اطار معركة أدبية أو عقائدية، بل ضمن إطار معركة «سياسية» «اقتصادية» «اجتماعية»، ضمن إطار معركة حياة أو موت، يرتبط بمصيرها وجود هذا الكيان الجديد. وعجز المعارضين أمام هذا التحدّي الحياتي الصارخ، يبيّن بشكل أوضح أبعاد المعجزة القرآنية.

جدير بالذكر أن تحدي القرآن لا ينحصر بزمان أو مكان، بل ان هذا التحدّي قائم حتى يومنا هذا.

٥ـ هل جيئ بمثله؟

الجواب على هذا السؤال يتضح لو ألقينا نظرة على الظروف والملابسات التي عاصرت نزول القرآن، و على تاريخ ما ذكر من محاولات لكتابة ما يشبه القرآن.

غير خفيّ أن الرسالة في عصر النزول وما بعده، واجهت خصوما ألدّاء من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين. وهؤلاء توسّلوا بكل ما لديهم من قوة وحيلة للوقوف بوجه الدعوة. حتى إن بعض المنافقين اتصل بامبراطور الروم للتآمر على الاسلام، و

بلغ الامر بهؤلاء المتآمرين أن شيّدوا «مسجد ضرار» في المدينة، وحدثت على أثر ذلك وقائع تحدثنا عنها سورة التوبة.

من الطبيعي أن هؤلاء الاعداء الالداء يتربصون بالمسلمين الدوائر، و يتحينون كل فرصة للاضرار بالمسلمين. ولوكان هؤلاء قد حصلوا على كتاب يجيب على تحدي القرآن، لتهافتوا عليه ونشروه وطبّلوا له و زمّروا، أو لسعوا في حفظه على الاقل.

ولذلك نرى أن التاريخ احتفظ بأسماء أولئك الذين يحتمل احتمالاً ضعيفا أنهم عارضوا القرآن، مثل:

عبدالله بن المقفع، فقد قيل أنه عارض القرآن بكتابه «الدرة اليتيمة»، بينما لانعثر في هذاالكتاب الموجود بين أيدينا اليوم على إشارة الى هذه المعارضة، ولا نعرف لماذا وجهت التهمة الى ابن المقفع بهذاالكتاب؟

والمتنبي، أحمدبن الحسين الكوفي الشاعر ذكر في زمرة المعارضين واصحاب النبوءات، بينما تؤكد دراسات حياة المتنبي و أدبه، أنه كان ينطلق في شعره غالباً من روح الخيبة في بلوغ المناصب الرفيعة، ومن الحرمان العائلي.

وابوالعلاء المعرّي، اتهم بهذا أيضاً، ونقلت عنه أشعار تنم عن رفضه لبعض مسائل الدين، لكنه لم يرفع صوته يوماً بمعارضة القرآن، بل نقلت عنه عبارات في عظمة كتاب الله العزيز سنشير اليها فيما بعد.

أما مسيلمة الكذاب من أهل اليمن فقد عارض القرآن، و أتى بآيات... أقرب الى الهزل منها الى الجد، ومن ذلك:

١ ـ ما قاله معارضا سورة «الذاريات»: والمبذرات بذرا والحاصدات حصدا والذاريات قمحا والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا والثاردات ثردا واللاقمات لقما اهالة وسمنا.[١]

٢ ـ من النماذج الأخرى لاياته: يا ضفدع نقيّ فانّك نعم ما تنقين، لا وارداً تنفرين، ولا ماء تكدرين.[٢]

---

(١) اعجازالقرآن، الرافعي. (٢) نقلاً عن كتاب «اعجازالقرآن» للخطيب ج١ ص٤٨٣.

٦ ـ شهادات حول القرآن

يجدر بنا أن ننقل جملا من أقوال المشاهير بشأن القرآن بمن فيهم اولئك الذين اتهموا بمعارضة القرآن:

١ ـ ابوالعلاء المعري (المتهم بمعارضة القرآن) يقول:

واجمع ملحد ومهتد ان هذاالكتاب الذى جاءبه محمد كتاب بهر بالاعجاز، ولقى عدوه بالارجاز، ما حذى على مثال، ولا اشبه غريب الامثال، ... ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة، وجاء كالشمس، لو فهمه الهضب لتصدع، وان الآية منه او بعض الآية لتعرض فى افصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألى في جنح غسق، والظهرة البادية فى جدوب.[1]

٢ ـ الوليدبن المغيـرة المخزومي ـ وهو رجل عرف بين عرب الجاهلية بكياسته وحسن تدبيره، ولذلك سمي «ريحانة قريش»، سمع آيات من سورة «غافر» فرجع الى قوم من بنى مخزوم فقال لهم:

«والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هومن كلام الانس ولا من كلام الجن، وان له لحلاوة، و إن عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر، و إن أسفله لمغدق، وانه ليعلو ومايعلى عليه»[2].

٣ ـ العالم المؤرخ البريطاني «كارليل» يقول حول القرآن: «لو القينا نظرة على هذاالكتاب المقدس لرأينا الحقائق الكبيرة، و خصائص اسرارالوجود، مطروحة بشكل ناضج في مضامينه، مما يبين بوضوح عظمة القرآن. وهذه الميزة الكبرى خاصة بالقرآن، ولا توجد في أي كتاب علميّ وسياسي واقتصادي آخر. نعم، قراءة بعض الكتب تترك تأثيراً عميقاً في ذهن الانسان، ولكن هذاالتأثير لايمكن مقارنته بتأثير القرآن. من هنا

---

(١) رسالة الغفران ص٢٦٣.

(٢) مجمع البيان، ج١٠، سورة المدثر.

ينبغي أن نقول: المزايا الاساسية للقرآن، ترتبط بما فيه من حقائق وعواطف طاهرة، ومسائل كبيرة، ومضامين هامة لا يعتريها شك وترديد. و ينطوي هذاالكتاب على كل الفضائل اللازمة لتحقيق تكامل البشرية وسعادتها».[1]

٤ ـ جان ديفن بورت مؤلف كتاب: «الاعتذار الى محمد والقرآن».

يقول: «القرآن بعيد للغاية عن كل نقص، بحيث لايحتاج الى أدنى إصلاح أو تصحيح، و قد يقرؤه شخص من أوله الى آخره دون أن يحسّ بأي ملل»[2]. و يقول: «لاخلاف في أن القرآن نزل بأبلغ لسان وافصحه، و بلهجة قريش اكثرالعرب أصالة و ادبا... وملئ بابلغ التشبيهات واروعها»[3].

٥ ـ غورة الشاعر الالماني يقول: «قد يحسّ قـرّاء القرآن للوهلة الاولى بثقل في العبارات القرآنية، لكنه ما أن يتدرج حتى يشعر بانجذاب نحوالقرآن، ثم اذا توّغل فيه ينجذب ـ دون اختيار ـ الى جماله الساحر»[4] وفي موضع آخر يقول: «لسنين طويلة، أبعدنا القساوسة عن فهم حقائق القرآن المقدس وعن عظمة النبي محمد، ولكن كلما خطونا على طريق العلم تنزاح من أمام اعيننا حُجُب الجهل والتعصب المقيت، وقريبا سيلفت هذاالكتاب الفريد أنظار العالم، و يصبح محور أفكار البشرية»!

و يقول كذلك: «كنا معرضين عن القرآن، ولكن هذاالكتاب ألفت أنظارنا، وحيّرنا، حتى جعلنا نخضع لما قدمه من مبادئ و قوانين علمية كبرى»!

٦ ـ «و يل ديورانت» المورخ المعروف يقول: «القرآن أوجد في المسلمين عزة نفس وعدالة وتقوى لانرى لها نظيراً في أية بقعة من بقاع العالم».

٧ ـ والمفكر الفرنسي «جول لابوم» في كتاب «تفصيل الآيات» يقول: «العلم انتشر في العالم على يدالمسلمين، والمسلمون أخذواالعلوم من (القرآن) وهو بحرالعلم، و فرّعوا منه أنهارا جرت مياهها في العالم...»

---

(١) من مقدمة كتاب «التنظمات الحضارية في الامبراطورية الاسلامية».

(٢) نفس المصدر، ص١١١.

(٣) نفس المصدر، ص٩١.

(٤) عن كتاب «الاعتذار الى محمد والقرآن».

٨ ـ والمستشرق البريطاني دينورت يقول: «يجب أن نعترف أنّ العلوم الطبيعية والفلكية والفلسفة والرياضيات التي شاعت في اوربا، هي بشكل عام من بركات التعاليم القرآنية، ونحن فيها مدينون للمسلمين، بل إن اوربا من هذه الناحية من بلاد الاسلام».[١]

٩ ـ والدكتورة لورا واكسيا واغليري استاذة جامعة نابولى تقول في كتاب «تقدم الاسلام السريع»: «كتاب الاسلام السماوي نموذج للاعجاز.. (القرآن) كتاب لايمكن تقليده، واسلوبه لا نظير له في الآداب، و التأثير الذي يتركه هذاالاسلوب في روح الانسان ناشئ عن امتيازاته وسموّه... كيف يمكن لهذاالكتاب الاعجازي أن يكون من صنع محمد، وهو رجل اميّ ؟!....

نحن نرى في هذاالكتاب كنوزا من العلوم تفوق كفاءة اكثرالناس ذكاء واكبرالفلاسفة و أقوى رجال السياسة والقانون.

من هنا لايمكن اعتبارالقرآن عمل انسان متعلّم عالم».[٢]

* * *

---

(١) المعجزة الخالدة.

(٢) تقدم الاسلام السريع «نقلاً عن محمد والقرآن...».

الآية

٢٥ - «وَبَشِّرِ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هٰذَا الَّذي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً، وَلَهُمْ فيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فيهَا خَالِدُونَ».

التفسير

خصائص نعم الجنة

آخر آية في بحثنا السابق تحدثت عن مصير الكافرين، وهذه الآية تتحدث عن مصير المؤمنين، كي تتضح الحقيقة أكثر بالمقارنة بين الصورتين، على الطريقة القرآنية في التوضيح.

المقطع الاول في الآية يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

نعلم أن البساتين التي تفتقد الماء الدائم، و تسقى بين حين وحين ليس لها حظ كبير من النظارة. فالنظارة تطفح على البساتين التي تمتلك ماء سقي دائم مستمر لاينقطع أبدا. ومثل هذه البساتين لايعتريها جفاف ولا تهددها شحة ماء. وهذه هي بساتين الجنة.

و بعد الاشارة الى ثمار الجنة المتنوعة تقول الآية: «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هٰذَا الَّذي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ».

ذكر المفسرون لهذا المقطع من الآية تفاسير متعددة:

قال بعضهم: المقصود من قولهم «هٰذَا الَّذي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ» هو أن هذه النعم أغدقت علينا بسبب ما أنجزناه من عمل في الحياة الدنيا، و غرسنا بذوره من قبل.

وقال بعض آخر: عندما يؤتى بالثمار الى أهل الجنة ثانية، يقولون هذاالذي تناولناه من قبل، ولكنهم حين يأكلون هذه الثمار يجدون فيها طعما جديداً و لذة أخرى.

فالعنب أوالتفاح الذي نتناوله في هذه الحياة الدنيا مثلاً له في كل مرة نأ كله نفس طعم المرة السابقة، أما ثمارالجنة فلها فى كلّ مرّة طعم و إن تشابهت أشكالها، وهذه من امتيازات ذلك العالم الذي يبدو أنه خال من كل تكرار!

و قال آخرون: المقصود من ذلك أنهم حين يرون ثمار الجنة يلقونها شبيهة بثمار هذه الدنيا، ولكنهم حين يتناولونها يجدون فيها طعما جديداً لذيذاً.

و يجوز أن تكون عبارة الآية متضمنة لكل هذه المفاهيم والتفاسير، لان الفاظ القرآن تنطوي أحيانا على عدة معان.[1]

ثم تقول الآية: «وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً»، أي متشابها في الجودة والجمال. فهذه الثمار بأجمعها فاخرة بحيث لايمكن ترجيح إحداها على الاخرى: خلافا لثمار هذاالعالم المختلفة في درجة النضج والرائحة واللون والطعم.

وآخر نعمة تذكرها الآية هي نعمة **«الازواج المطهرة»** من كل أدران الروح والقلب والجسد.

أحد منغصات نعم الدنيا زوالها. فصاحب النعمة يقلقه زوال هذهالنعمة، ومن هنا فلا تكون هذهالنعم عادة باعثة على السعادة والاطمئنان. أما نعم الجنة ففيها السعادة والطمأنينة لانها خالدة لا يعتريها الزوال والفناء. والى هذه الحقيقة تشير الآية في خاتمتها و تقول: «وَهُمْ فيها خالِدُونَ»

* * *

وقفات

١ـ«الايمان»و«العمل»

في كثير من الآيات القرآنية يقترن ذكرالايمان بذكر العمل الصالح، حتى كأن الاثنين متلازمان دونما افتراق. والحق كذلك، لان الايمان والعمل يكمل بعضها الآخر.

لو نفذ الايمان الى أعماق النفس لتجلت آثاره في الاعمال حتما. مثله كمثل مصباح لو أضاء في غرفة لشع نوره من كل نوافذ الغرفة. و مصباح الايمان كذلك لو شعّ في

---

(١) في بحث «استعمال اللفظ في اكثر من معنى» أثبتنا امكان هذاالامر.

قلب إنسان، لسطع شعاعه من عين ذلك الانسان واذنه ولسانه و يده ورجله.

يقول تعالى في الآية الحادية عشرة من سورة الطلاق: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً».

و يقول في الآية الخامسة والخمسين من سورة النور:

«وَعَدَاللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ».

فالايمان بمثابة جذر شجرة والعمل الصالح ثمرتها. ووجودالثمر السليم دليل على سلامة الجذر. و وجودالجذر السليم يؤدي الى نموّ الثمرالطيب.

من الممكن أن يصدر عمل صالح أحيانا عن أفراد ليس لهم إيمان، ولكن ذلك لايحدث باستمرار حتما. فالذي يضمن بقاء العمل الصالح هوالايمان المتغلغل في أعماق وجودالانسان، الايمان الذي يضع الانسان دوما أمام مسؤولياته.

* * *

٢ـالازواج المطهرة

مما يلفت النظر في هذه الآية أن الوصف الوحيد الذي استعمله القرآن لمدح الازواج في جنات النعيم هو انها «مطهرة». وهي اشارة الى أن اول شرط في الزوجة هو «الطهر». وكل ما سواه من الشروط والاوصاف ثانوي.

روي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) انه قال: «إِيَّاكُمْ وَخَضْراءَ الدِّمَنْ. قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا خَضْراءُ الدِّمَنْ؟ قال: اَلْمَرْأَةُ الْحَسْناءُ فِي مَنْبَتِ السُّوءِ»[١].

* * *

٣ـالنعم المادية والمعنوية في الجنة

ذكرالقرآن الكريم أنواع النعم المادية في الجنة مثل: جنات تجري من تحتها الانهار، ومساكن طيبة، وازواج مطهرة، وثمار متنوعة، و خلاّن متحابين. ولكنه ذكر الى جانب هذه النعم المادية نعما أهم منها هي النعم المعنوية التي لا نستطيع أن نفهم عظمتها بمقاييسنا، كقوله: «وَعَدَاللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٤، ص١٩.

خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَالْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (التوبة،٧٢).

وفي آية أخرى يقول سبحانه بعد ذكرالنعم المادية: «رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» (البيّنة،٨).

لو بلغ الانسان هذه المرتبة حيث يرضى الله عنه و يرضى عن الله، لأحسّ بلذّة لأترق اليها لذّة، ولهانت في نظر هذاالانسان سائراللذات، عندها يرتبط هذاالانسان بالله ولا يفكر بما سواه، وهي مرتبة يعجز القلم واللسان عن وصف سموّها و أبعادها.

بعبارة موجزة: كما ان للمعاد جانباً روحيًا وجانباً جسمياً، كذلك نِعم الجنة ذات جانبين أيضاً، كي تكون جامعة وقابلة لاستفادة أهل الجنة جميعا، كلٌّ على قَدَر كفاءته و لياقته.

* * *

الآية

٢٦ - «إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مّا بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمّا الّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ماذا أَرادَ اللهُ بِهٰذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ».

سبب النزول

ذكر جمع من المفسرين عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية هو اعتراض المنافقين على ما ورد من أمثلة في الآيات السابقة «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً... أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ...»، وقالوا إن الله أسمى من أن يضرب مِثلَ هذه الأمثال، و بذلك راحوا يشككون في الرسالة و في القرآن. وفي هذه الظروف نزلت الآية الكريمة المذكورة.

قال آخرون: عند نزول الآيات التي تضرب الامثال بالذباب والعنكبوت، بدأ المشركون ينتقدون و يسخرون.

* * *

التفسير

هل الله يضرب المثل؟!

الفقرة الاولى من الآية تقول: «إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها».

ذلك لان المثال يجب أن ينسجم مع المقصود، بعبارة أخرى، المثال وسيلة لتجسيد الحقيقة. حين يقصد المتحدث التحقير، و بيان ضعف الادعياء، فان بلاغة الحديث تستوجب انتخاب موجود ضعيف للتمثيل به، كي يتضح ضعف أولئك.

في الآية ٧٣ من سورة الحج، مثلا، يقول سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ

وَالْمَطْلُوبُ».

يلاحظ في هذا المثال أن الذباب و أمثاله احسن وسيلة لتجسيد ضعف هؤلاء.

و هكذا في الآية ٤١ من سورة العنكبوت، حين يريد القرآن أن يجسد ضعف المشركين في انتخابهم أولياء من دون الله، يشبههم بالعنكبوت التى تتخذ لنفسها بيتا، وهو أضعف البيوت و اهونها: «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

من المؤكد، أن القرآن لو ساق الامثلة في هذه المجالات على الكواكب والسماوات لما أدّى الغرض في التصغير والتحقير، ولما كانت أمثلته متناسبة مع أصول الفصاحة والبلاغة.

الهدف هو إيصال الفكرة، والامثلة يجب أن تتناسب مع موضوع الفكرة، ولذلك فهو سبحانه يضرب الامثلة بالبعوضة فما فوقها.

وما المقصود من «فَمَا فَوْقَهَا»، للمفسرين في هذا رأيان:

الاول: «فوقها» في الصغر، لأن المقام مقام بيان صغر المثال. وهذا مستعمل في الحوار اليومي. نسمع مثلاً رجل يقول لآخر: ألا تستحي أن تبذل كل هذا الجهد من أجل دينار واحد؟! فيجيب الآخر، لا، بل أكثر من ذلك أنا مستعد لا بذل هذا الجهد من أجل نصف دينار! فالزيادة هنا في الصغر.

الثانى: «فوقها» في الكبر. أي إن الله يضرب الامثال بالصغير و بالكبير، حسب مقتضى الحال.

لكن الرأي الاول يبدو أنسب.

ثم تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ».

فهؤلاء، بايمانهم و تقواهم، بعيدون عن اللجاجة والعناد والحقد للحقيقة. و يستطيعون أن يروا الحق بجلاء و يدركوا أمثلة الله بوضوح.

«وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ: مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهٰذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً».

هؤلاء يعترضون على هذه الامثلة لانها لا تهدي الجميع، و يزعمون أنها لوكانت من عندالله لاهتدى بها الناس جميعا، ولما ادّت الى ضلال أحد!

فيجيبهم الله بعبارة قصيرة تحسم الموقف و تقول: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ».

فكل هذه الامثلة من الله، وكلها نور و هداية، لكنها تحتاج الى العين الباصرة التي تستفيد منها، و مخالفة المخالفين تنطلق من نقص فيهم، لا من نقص في الآيات الالهية.[1]

* * *

وقفات

١ـ أهمية المثال في بيان الحقائق

الامثلة المناسبة لها دور جساس عظيم في التوضيح والاقناع والإفهام.

المثال المناسب قد يقرّب طريق الفهم الى الاذهان بحيث نستعيض به عن الاقتحام في الاستدلالات الفلسفية المعقدة.

و أهم من ذلك، نحن لا نستطيع أن نستغني عن الامثلة المناسبة في تعميم ونشر الموضوعات العلمية الصعبة بين عامة الناس.

ولا يمكننا أن ننكر دورالمثال في إسكات الافراد المعاندين اللجوجين المتعنتين.

على كل حال، تشبيه «المعقول» بـ «المحسوس» أحدالطرق المؤثرة في تفهيم المسائل العقلية، على أن يكون المثال ـ كما قلنا ـ مناسبا، والاّ فهو مضلّ وخطر.

من هنا نجد في القرآن أمثلة كثيرة رائعة شيقة مؤثّرة، ذلك لأنه كتاب لجميع البشر على اختلاف عصورهم و مستوياتهم الكفرية. انه كتاب في غاية الفصاحة والبلاغة.[2]

* * *

---

(١) جمع من المفسرين قالوا: إن عبارة (يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً...) ليس حكاية عن لسان المشركين، بل هو حديث الله. و يكون المعنى بذلك «أن الله يجيب على هؤلاء المعترضين الذين قالوا: (مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً)؟، و يقول سبحانه: إن الله يضل به كثيرا و يهدى به كثيرا، ولكن لا يضل الا الفاسقين. (أما التفسير الاول فيبدو أنه أصح)

(٢) حول دور الامثال في حياة البشر، راجع الآية ١٧ من سورة الرعد في المجلدالعاشر من هذاالتفسير.

٢ـ لماذا التمثيل بالبعوضة؟

المعاندون اتخذوا من صِغَر البعوضة والذبابة ذريعة للاستهزاء بالامثلة القرآنية. لكنهم لو أنصفوا و أمعنوا النظر في هذا الجسم الصغير، لرأوا فيه من عجائب الخلقة وعظيم الصنع والدقة ما يحيّر العقول والألباب.

يقول الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) بشأن خلقة هذا الحيوان الصغير:

«انما ضَرَبَ اللهُ الْمَثَلَ بِالْبَعُوضَةِ لِأَنَّ الْبَعُوضَةَ عَلىٰ صِغَرِ حَجْمِها خَلَقَ اللهُ فِيها جَمِيعَ ما خَلَقَ فِي الْفِيلِ مَعَ كِبَرِهِ وَزِيادَةَ عُضْوَيْنِ آخَرَيْنِ فَأَرادَ اللهُ سُبْحانَهُ اَنْ يُنَبِّهَ بِذٰلِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ لُطْفِ (لَطِيفِ) خَلْقِهِ وَ عَجِيبِ صَنْعَتِهِ»[1].

يريد الله سبحانه بهذا المثال أن يبين للمؤمنين دقّة الصنع في الخلق، التفكير في هذا الموجود الضعيف على الظاهر، والشبيه بالفيل في الواقع، يبيّن للانسان عظمة الخالق.

خرطوم هذا الحيوان الصغير يشبه خرطوم الفيل، أجوف، ذو فتحة دقيقة جدا، وله قوة ماصة تسحب الدم.

منح الله هذا الحيوان قوة هضم و تمثيل و دفع، كما منحه أطرافا واذنا و أجنحة تتناسب تماما مع وضع معيشته. هذه الحشرة تتمتع بحساسية تشعر فيها بالخطر بسرعة فائقة و تفرّ عند ما يداهمها عدوّ بمهارة عجيبة، وهي مع صغرها وضعفها يعجز عن دفعها كبار الحيوانات.

اميرالمؤمنين علي (عليه السلام) يقول في هذا الصدد: «كَيْفَ وَلَوِ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوانِها مِنْ طَيْرِها وَبَهائِمِها وَما كانَ مِنْ مُراحِها وَسائِمِها، وَاَصْنافِ اَسْناخِها وَ اَجْناسِها، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِها وَ اَكْياسِها، عَلىٰ اِحْداثِ بَعُوضَةٍ ما قَدَرَتْ عَلىٰ اِحْداثِها، وَلا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ اِلىٰ اِيجادِها، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُها فِي عِلْمِ ذٰلِكَ وَتاهَتْ، وَعَجِزَتْ

---

(١) تفسير البرهان ج١ ص ٧٢.

قُوَاهَا وَ تَنَاهَتْ، وَ رَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا»[1].

٣ـ هداية الله وإضلاله

ظاهر عبارة الآية المذكورة يوحي بأن الهداية والضلال جبريان و مرتبطان بارادة الله. بينما العبارة الاخيرة من الآية توضح أن الهداية والضلال ينطلقان من أعمال الانسان نفسه.

لمزيد من التوضيح نقول: إن أعمال الانسان وتصرفاته لها نتائج وثمار معيّنة. لو كان العمل صالحا فنتيجته مزيد من التوفيق والهداية في السير نحوالله و مزيد من أداء الاعمال الصالحة. يقول تعالىٰ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً» (الانفال،٢٩).

و إن اتجه الانسان نحوالمنكرات، يزداد ظلام قلبه، و تزداد سرعته في ارتكاب المحرمات، وقد يبلغ به الامر الى أن ينكر خالقه، قال تعالى: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُونَ» (الروم، ١٠). وقال أيضاً: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» (الصف،٥).

والآية التي يدور حولها بحثنا شاهد آخر على ذلك حيث يقول تعالى: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ».

مما تقدم يتضح أنَّ الانسان حُرّ في انتخاب الطريق، وهذه حقيقة يقبلها ضمير كل إنسان. ثم على الانسان بعد ذلك أن ينتظر النتائج الحتمية لأعماله.

بعبارة موجزة: الهداية والضلالة ـ في المفهوم القرآني ـ لايعنيان الاجبار على انتخاب الطريق الصحيح أوالخاطئ، بل إن الهداية تعني توفر سبل السعادة، والإضلال: يعني زوال الارضية المساعدة للهداية، دون أن يكون هناك إجبار في المسألة.

توفرّ السبل (الذى نسميه التوفيق)، و زوال هذه السبل (الذي نسميه سلب

(١) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، الخطبة ١٨٦، ص٢٧٥.

التوفيق)، هما نتيجة أعمال الانسان نفسه. فلو منح الله فردا توفيق الهداية أو سلب من أحد هذا التوفيق، فانما ذلك نتيجة الاعمال المباشرة لهذا الفرد أو ذاك.

يمكن التمثيل لهذه الحقيقة بمثال بسيط: حين يمرّ الانسان قرب هاوية خطرة، فانه يتعرّض لخطر الانزلاق والسقوط فيها كلما اقترب منها اكثر.

كما أن احتمال سقوطه في الهاوية يقلّ كلما ابتعد عنها اكثر الحالة الاولى هداية والثانية ضلال.

من مجموع ما ذكرنا يتضح الجواب على ما يثار من أسئلة في حقل الهداية والضلال.

* * *

٤ ـ «الفاسقون» هم المنحرفون عن طريق العبودية، لان الفسق في اللغة إخراج النوى من التمر، ثم انتقل الى الخروج عن طريق الله.

* * *

الآية

٢٧ ـ «اَلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَاللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَاللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

التفسير

الخاسرون الحقيقيون

هذه الآية الكريمة توضح مواصفات الفاسقين بعد أن تحدثت الآية السابقة عن إضلال هذه الفئة، و تذكر لهم ثلاث صفات:

١ ـ إنهم «يَنْقُضُونَ عَهْدَاللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ».

هؤلاء لهم مع الله عهود و مواثيق، مثل عهد التوحيد و عهدالربوبية وعهد عدم اتباع الشيطان وهوى النفس. لكنهم نقضوا كل هذه العهود، وتمرّدوا على أوامرالله، واتبعوا أهواهم وما أراده الشيطان لهم.

طبيعة هذاالعهد: يثار سؤال حول العهد المبرم بين الله والانسان، فالعهد عقد ذو جانبين. وقد يقول قائل: متى أبرمتُ مع الله عهدا من العهود المذكورة؟

الجواب على هذاالسؤال يتضح لو عرفنا أن الله سبحانه أودع في أعماق النفس الانسانية شعوراً خاصا وقوى خاصة يستطيع بها أن يهتدي الى الطريق الصحيح، و يتجنب مزالق الشيطان و أهواء النفس، و يستجيب لداعي الله.

هذه القوى الفطرية يعبرّ عنها القرآن بالعهد الالهي، و هو في الحقيقة «عهد تكويني» لا تشريعي أو قانوني. يقول تعالى: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَأَنِ اعْبُدُونِي هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»؟! (يس، ٦٠و٦١).

و واضح أن الآية تشير الى فطرة التوحيد والعبودية والميل الى الاتجاه نحوالتكامل في النفس الانسانية.

الدليل الآخر على هذا الاتجاه في فهم العهد الالهي، ما جاء في أول خطب نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): حيث قال: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ».

بتعبير آخر، كل موهبة يمنحها الله للانسان يصحبها عهد طبيعي بين الله والانسان موهبة العين يصحبها عهد يفرض على الانسان أن يرى الحقائق، وموهبة الاذن تنطوي على عهد مدوّن في ذات الخلقة يفرض الاستماع الى نداء الحق... و بهذا يكون الانسان قد نقض العهد متى ما غفل عن استثمار القوى الفطرية المودعة في نفسه، أو استخدم الطاقات الموهبة له في مسير منحرف.

الفاسقون، ينقضون بعض هذه العهود الفطرية الالهية أو جميعها.

٢ ـ الصفة الاخرى لهؤلاء الفاسقين هي أنهم «.. يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ..».

أكثر المفسرين ذهبوا الى أن القطع المذكور في الآية يعني قطع الرحم. لكن مفهوم الآية ـ في نظرة أعمق ـ أعم من ذلك، وما قطع الرحم إلا أحد مصاديقها، لان الآية تتحدث عن قطع الفاسقين، لِكل ارتباط أمرالله به أن يوصل، بما في ذلك ارتباط الرحم، و ارتباط الصداقة، والارتباط الاجتماعي، والارتباط بهداة البشرية الى الله، والارتباط بالله. ولا دليل على حصر الآية بارتباط الرحم.

بعض المفسرين ذهبوا الى أن الآية تشير الى قطع الارتباط بالأنبياء والمؤمنين. و بعضهم فسرّها بالارتباط بأئمة أهل البيت (عليهم السلام)[1]. و واضح أن هذه التفاسير تبيّن جزءً من المفهوم الكلي للآية.

٣ ـ علامة الفاسقين الثالثة هي الفساد «.. وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ».

ومن الواضح أن يكون هؤلاء مفسدين، لأنهم نسواالله وعصوه، وخلت نفوسهم من كل عاطفة إنسانية حتى تجاه أرحامهم، هؤلاء لا يتحركون إلاّ على خط مصالحهم و

---

(١) نورالثقلين، ج١، ص٤٥، لمزيد من التوضيح في هذاالمجال راجع المجلد العاشر من هذاالتفسير ذيل الآية ٢١ من سورة الرعد.

أهدافهم الذاتية الدنيّة، ولا يهمّهم على هذا الطريق أن يعيشوا في الارض فسادا و أن يرتكبوا كل لون من الانحراف.

و تؤكد الآية في الخاتمة أن «أُولٰئِكَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ».

و أي خسران أكبر من تبديد كل القوى المادية والمعنوية المودعة في الانسان الرامية لاسعاده، و إهدارها على طريق الشقاوة والتعاسة والانحراف؟! نعم هؤلاء الفاسقون الخارجون عن خط إطاعة الله خاسرون حقاً.

* * *

وقفتان

١ـ أهمية صلة الرحم في الاسلام

الآية المذكورة أعلاه، وان تحدثت عن كل ارتباط أمرالله به أن يوصل، يشكل الارتباط الرحمي دون شك أحد مصاديقها.

أعار الاسلام اهتماماً بالغا بصلة الرحم و بالتودد الى الأهل والأقارب، و نهى بشدّة عن قطع الارتباط بالرحم.

رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يصوّر أهمية صلة الرحم بقوله: «صِلَةُ الرَّحِمِ تَعْمُرُ الدِّيٰارَ وَتَزِيدُ فِي الأَعْمٰارِ، وَإِنْ كٰانَ أَهْلُهٰا غَيْرَ أَخْيٰارٍ»[١].

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) قال: «صِلْ رَحِمَكَ وَلَوْ بِشَرْبَةِ مٰاءٍ، وَأَفْضَلُ مٰا يُوصَلُ بِهِ الرَّحِمُ، كَفُّ الأَذىٰ عَنْهٰا»[٢].

الامام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) يحذّر ولده من صحبة خمس مجموعات، إحداها قطاع الرحم، ويقول: «... وَإِيّٰاكَ وَمُصٰاحِبَةَ الْقٰاطِعِ لِرَحِمِهِ فَإِنِّي وَجَدْتُهُ مَلْعُوناً فِي كِتٰابِ اللهِ»[٣].

و يقول سبحانه: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحٰامَكُمْ أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ» (محمد، ٢٢).

السبب في كل هذا التأكيد الاسلامي على الرحم هو إن عملية إصلاح المجتمع

(١و٢و٣) سفينة البحار (مادة رحم).

و تقوية بنيته وصيانة مسيرة تكامله وعظمته في الحقول المادية والمعنوية، تفرض البدء بتقوية اللبنات الاساسية التي يتكون منها البناء الاجتماعي. وعند استحكام اللبنات وتقويتها يتم إصلاح المجتمع ذاتيا.

الاسلام مارس هذه العملية على النحو الاكمل في بناء المجتمع الاسلامي القوي الشامخ، و أمر باصلاح الوحدات الإجتماعية. والكائن الانساني لا يأبى عادة أن ينصاع الى مثل هذه الأوامر اللازمة لتقوية أوامر ارتباط أفراد الاسرة لاشتراك هؤلاء الافراد في الرحم والدم.

و واضح أن المجتمع يزداد قوة و عظمة كلما ازداد التماسك والتعاون والتعاضد في الوحدات الاجتماعية الصغيرة المتمثلة بالاسرة. و الى هذه الحقيقة قد يشير الحديث الشريف: «صلة الرحم تعمر الديار».

٢ـ القطع بدل الوصل

ذكرت الآية الكريمة: أنّ الْفاسِقينَ «يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» وفي هذا الصدد يثار سؤال يقول: هل القطع ممكن قبل الوصل؟

والجواب هو أن المقصود بالوصل استمرار الروابط التي اقرّها الله سبحانه بينه و بين عبادة، أو بين عباده مع بعضهم، بشكل طبيعي و فطري.

بعبارة أخرى، إن الله سبحانه أمر بالحفاظ على هذه الروابط الفطرية والطبيعية و بصيانتها، لكنّ المذنبين يقطعونها (تأمل بدقة).

* * *

الآيتان

٢٨ ـ «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

٢٩ ـ «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

التفسير

نعمةُ الحياة

القرآن في الآيتين المذكورتين يلفت أنظار البشر الى عظمة الخالق عن طريق ذكر بعض النعم الالهية و بعض المظاهر المدهشة للخلقة. و بذلك يكمل الأدلة التي أوردها في الآيتين (٢١و٢٢) من هذه السورة حول معرفة الله.

القرآن يبدأ في أدلته من نقطة لا تقبل الانكار، و يركز على مسألة (الحياة) بكل ما فيها من تعقيد و غموض. و يقول: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ».

و في هذه العبارة تذكير للانسان بما كان عليه قبل الحياة.. لقد كان ميتا تماما مثل الاحجار والاخشاب ولم يكن فيه أي أثر للحياة: لكنه الآن يتمتع بنعمة الحياة، و بنعمة الشعور والادراك .

من الذى منح الانسان نعمة الحياة؟ هل ان الكائن البشري هوالذي منح نفسه الحياة؟! كل إنسان منصف لا يتردد أن يجيب: أن هذه الحياة موهوبة للانسان من لدن عالم قادر.. عالم برموز الحياة وقوانينها المعقدة.. و قادر على تنظيمها. إذن كيف يكفر هذا الانسان بمن أحياه بعد موته؟!

اجمعت العلماء اليوم أن مسألة الحياة أعقد مسألة في عالمنا هذا. لان لغز الحياة لم ينحل حتى اليوم على الرغم من كل ما حققه البشر من تقدّم هائل في حقل العلم والمعرفة.

قد يستطيع العلم في المستقبل أن يكتشف بعض أسرار الحياة.. لكن السؤال يبقى قائماً بحاله:
كيف يكفر الانسان بالله وينسب هذه الحياة بتعقيداتها وغموضها و اسرارها الى صنع الطبيعة العمياء الصمّاء الفاقدة لكل شعور و إدراك ؟!

من هنا نقول إن ظاهرة الحياة في عالم الطبيعة أعظم سند لاثبات وجود الله تعالى. والقرآن يركز في الآية المذكورة على هذه المسألة بالذات. و هي مسألة تحتاج الى مزيد من الدراسة والتعمق، لكننا نكتفي هنا بهذه الاشارة.

بعد التذكير بهذه النعمة، تؤكد الآية على دليل واضح آخر وهو «الموت» «ثم يميتكم».

ظاهرة «الموت» يراها الانسان في حياته اليومية، من خلال وفاة من يعرفهم ومن لا يعرفهم، و هذه الظاهرة تبعث أيضاً على التفكير. من الذي قبض ارواحهم؟ ألا يدلّ سلبُ الحياةِ منهم على أن هناك من منحهم هذه الحياة؟

نعم.. إن خالق الحياة هو خالق الموت ايضاً، والى ذلك تشير الآية الكريمة: «ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» (الملك، ٢).

بعد أن ذكرت الآية هذين الدليلين الواضحين على وجود الله، تناولت المعاد والحياة بعد الموت: «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ».

و يأتي ذكر المعاد في سياق هذه الآية ليبين أن مسألة الحياة بعد الموت (المعاد) مسألة طبيعية جدا لاتختلف عن مسألة إحياء الانسان في هذه الدنيا. وهل بمقدور انسان أن ينكر إمكان المعاد وهو يرى أنه خلق من عناصر ميتة؟!

وهكذا، و بعبارة موجزة رائعة يفتح القرآن أمام الانسان سجل حياته منذ ولادته وحتى بعثه.

و في نهاية الآية يقول تعالى: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». والمقصود بالرجوع هو الرجوع الى نعم الله تعالى يوم القيامة. والرجوع غير البعث. والقرآن يفصل بين الاثنين كما في قوله تعالى: «وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» (الانعام، ٣٦).

قد يكون الرجوع في الآية الكريمة إشارة الى معنى أدقّ، هو إن جميع الموجودات تبدأ مسيرة تكاملها من نقطة العدم التي هي نقطة «الصفر» و تواصل السير نحو

«اللانهاية» التي هي ذات الله سبحانه وتعالى. من هنا فان هذه المسيرة لا تتوقف لدى الموت؛ بل تستمر في الحياة الاخرى على مستوى أسمى.

***

بعد ذكر نعمة الحياة والاشارة الى مسألة المبدأ والمعاد، تشير الآية الى واحدة أخرى من النعم الالهية السابقة و تقول: «**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**».

و بهذا تعيّن الآية قيمة الانسان في هذه الارض، و سيادته على ما فيها من موجودات. ومنها نستطيع أن نفهم المهمة العظيمة الثقيلة الموكولة الى هذا المخلوق في ساحة الوجود.

وفي القرآن آيات أخرى تؤكد على مكانة الانسان السامية، و توضّح أن هذاالكائن هوالهدف النهائي من خلق كل موجودات الكون:

«**وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**»(الجاثيه، ١٣).

و ثمة آيات اخرى تحدثت عن هذاالمفهوم بالتفصيل كقوله تعالى:[١]

«**وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ...**» (ابراهيم، ٣٢).

«**وَ سَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ...**» (ابراهيم، ٣٢).

«**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...**» (ابراهيم، ٣٣).

«**وَسَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ...**» (الجاثية، ١٢).

«**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ...**» (ابراهيم، ٣٣).

و تعود الآية الى ذكر أدلة التوحيد و تقول: «**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**».

الفعل «استوى» من «الاستواء» وهوالتسلط والاحاطة الكاملة والقدرة على الخلق والتدبير. وكلمة «ثم» في الآية لا تعني لزاما التأخير الزماني، بل تعني أيضاً التأخير في البيان والتوالي في ذكر الحقائق.

---

(١) هنـاك دراسة أو فى لهذا المفهوم في الجزء العاشر من هذا التفسير، ذيل الآية ٢ من سورة الرعد، و ذيل الآيتين ٣٢ و٣٣ من سورة ابراهيم.

وقفات

١ـ التناسخ أوعودة الارواح

الآية المذكورة أعلاه من الآيات التي ترفض بوضوح فكرة التناسخ. فالمعتقدون بالتناسخ يؤمنون بأن الانسان يعود بعدالموت ثانية الى هذه الحياة، بعد أن تحلّ روحه في جسم آخر (و نطفة أخرى)، و يحيا في هذه الدنيا حياة أخرى. وقد تتكرر هذه العودة مرات. و تكرر هذه الحياة يسمى بالتناسخ أو عودة الارواح.

الآية تصرح بعدم وجود اكثر من حياة واحدة بعدالموت، هى حياة البعث والنشور. و بعبارة أخرى توضح الآية أن للانسان حياتين و مماتين لا اكثر وكان الانسان ميتا يوم كان جزءاً من الطبيعة غيرالحية، ثم أحياه الله يوم ولد، ثم يميته، ثم يعيده. ولو كان التناسخ صحيحاً لكان للانسان اكثر من مماتين و حياتين.

هذاالمفهوم مذكور في آيات أخرى أيضاً، سنشير اليه في موضعه.[١]

فكرة التناسخ إذن مرفوضة قرآنيا، كما انها مرفوضة عقليا، وهي نوع من الرجعية والانتكاس في قانون التكامل.[٢]

جدير بالذكر أن هذه الآية لا تشير الى الحياة البرزخية (الحياة بين الموت والنشور). بل الى الحياة بعدالموت في هذه الدنيا (إحياء الانسان بعد تكونه من مواد طبيعيّه ميتة)، ثم الموت بعد هذه الحياة الدنيوية، ثم الحياة الاخرى، واستمرار المسيرة التكاملية نحوالله.

* * *

٢ـ السماوات السبع

كلمة «سماء» تشير الى جهة عليا، و لها مفهوم واسع ذو مصاديق مختلفة. ولذلك كان لها استعمالات عديدة في القرآن الكريم:

---

(١) موضوع «الرجعة» لا يعارض هذاالمفهوم، لانه محدود بعدد خاص من الاشخاص، وليس بقانون عام. والآية المذكورة تتحدث عن قضية عامة.

(٢) در سناهذه المسألة في كتاب «عود ارواح و ارتباط با أرواح» = عودالارواح والارتباط بالارواح.

١ ـ اطلقت أحيانا على «الجهة العليا» المجاورة للارض كقوله تعالى: «اَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ اَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها في السَّماءِ» (ابراهيم، ٢٤).

٢ ـ وعنى بها القرآن تارة المنطقة البعيدة عن سطح الارض: «وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً» (ق،٩).

٣ ـ عبّر القرآن بها في موضع آخر عن (الغلاف الجوي) المحيط بالارض: «وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً» (الانبياء،٣٢). لان هذا الغلاف يقي الكرة الارضية من الصخور السماوية (النيازك) التي تتجه الى الارض ليلا ونهارا بفعل جاذبية الارض، لكن اصطدام هذه الصخور بجوّ الارض يؤدي الى اشتعالها ومن ثم تحوّلها الى رماد.

٤ ـ و اراد القرآن بالسماء في موضع آخر (الكرات العليا): «ثُمَّ اسْتَوىٰ اِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ» (فصلت، ١١).

نعود الآن الى «السماوات السبع» لنرى ما المقصود من هذا العدد. تعددت آراء المفسرين والعلماء المسلمين في ذلك.

١ ـ منهم من قال إنها[١] السيارات السبع في اصطلاح الفلكيين القدماء: أي عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل والقمر والشمس.

٢ ـ ومنهم من قال إن المقصود بها هو الطبقات المتراكمة للغلاف الجوي المحيط بالكرة الارضية.

٣ ـ ومنهم من قال إن العدد (سبعة) لايراد به هذا العدد المعروف، بل يراد به الكثرة، أي إن معنى «السماوات السبع» هو السماوات والكرات الكثيرة في الكون. ولهذا نظير في كلام العرب و في القرآن، كقوله تعالى: «وَلَوْ اَنَّ ما فِي الْاَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ اَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ اَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ» (لقمان،٢٧).

---

(١) منهم من قسّم كرات المنظومة الشمسية العشر (تسع سيارات معروفة اضافة الى سيارة كانت موجودة بين المريخ والمشتري، ثم تهشمت وظلت بقاياها تدور في نفس المدار) الى مجموعتين: مجموعة تحت مدار الارض (عطارد والزهرة) ومجموعة خارج مدار الارض وفوقه، وهي سبع سيارات. و لعلهم بهذا أرادوا تفسير السماوات السبع بالكرات السبع الخارجية. (تأمل بدقّة).

وواضح أن المقصود بالسبعة في هذه الآية ليس العدد المعروف، لان علم الله لا ينتهي حتى ولو أن البحر يمده من بعده الالآف المؤلفة من الابحر.

٤ ـ الاصح في رأينا أن المقصود بالسماوات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد. و تكرر هذه العبارة في آيات الذكر الحكيم يدل على أن العدد المذكور في هذه الآيات لا يعنى الكثرة، بل يعنى العدد الخاص بالذات.

و يستفاد من آيات أخرى أن كل الكرات والسيارات المشهودة هي جزء من السماء الاولى، و ثمة ستة عوالم أخرى خارجة عن نطاق رؤيتنا ووسائلنا العلمية اليوم. وهذه العوالم السبعة هي التي عبّر عنها القرآن بالسماوات السبع.

يقول تعالى: «وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ» (فصلت،١٢).

و يقول أيضاً: «اِنّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ» (الصافات،٦).

و يتضح من هاتين الآيتين أن ما نراه وما يتكون منه عالم الافلاك هو جزء من السماء الاولى، وماوراء هذه السماء ست سماوات أخرى ليس لدينا اليوم معلومات عن تفاصيلها.

نحن نرى اليوم أنه كلما تقدمت العلوم الناقصة للبشر اكتشفت عجائب ومجاهيل عظيمة. علم الفلك تقدّم الى مرحلة بعيدة جدا في الرصد عن طريق التلسكوبات، ثم توقفت قدرة الرؤية الى اكثر من ذلك.

أبعد ما اكتشفته دوائر الارصاد الفلكي العالمية حتى الآن مسافة في الكون تعادل الف مليون (مليار) سنة ضوئية. والراصدون يعترفون أن أقصى ما اكتشفوه هو بداية الكون لا نهايته. وما يدريك أن العلم سيكتشف في المستقبل سماوات و عوالم أخرى!

من الافضل أن نسمع هذاالحديث عن لسان مرصد عالمي كبير.

* * *

٣ـ عظمة الكائنات

مرصد «بالومار» يصف عظمة الكون كالآتي:

«... قبل نصب مرصد بالمور، كان العالم في نظرنا لا يزيد على خمسمائة سنة

ضوئية. لكن هذاالناظور وسّع عالمنا الى الف مليون سنة ضوئية. واكتشف على أثر ذلك ملايين المجرات الجديدة التي يبعد بعضها عنا الف مليون سنة ضوئية. أما بعد هذه المسافة فيتراءى لنا فضاء عظيم مهيب مظلم لا نبصر فيه شيئاً، أي ان النور لاينفذ اليه كي يؤثر على صفحة التصوير في المرصد.

ومن دون شك أن هذاالفضاء المهيب المظلم يحتوي على مئات الملايين من المجرات التى تحافظ بجاذبيّتها على هذاالعالم المرئى.

كل هذاالعالم العظيم المرئي الحاوي على مئات آلاف الملايين من المجرات ليس الاجزءاً صغيراً جداً من عالم أعظم. ولسنا واثقين من عدم وجود عالم آخر غير هذاالعالم الاعظم». [1]

* * *

(١) نقلاً عن مجلة «فضاء» العدد ٥٦ ، فروردين ١٣٥١.

الآيات

٣٠ ـ «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ. قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

٣١ ـ «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

٣٢ ـ «قَالُوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».

٣٣ ـ «قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

التفسير

الانسان خليفة الله في الارض

الآيات السابقة ذكرت أن الله سبحانه خلق ما في الارض جميعاً للانسان، وفي هذه الآيات تقرير صريح لخلافة الانسان وقيادته، و توضيح لمكانته المعنوية التي استحق بها كل هذه المواهب.

في هذه الآيات عرض لخلقة آدم (أبوالبشر)، و في الآيات ٣٠ الى ٣٩ تركيز على ثلاث مسائل أساسية هي:

١ ـ اخبار الله ملائكته بشأن خلافة الانسان في الارض، ومادار في المشهد من حوار.

٢ ـ الطلب من الملائكة أن يكرموا و يعظموا الانسان الاول، وهذا ما نجده في مواضع عديدة من القرآن الكريم بمناسبات مختلفة.

٣ ـ شرح وضع آدم وحياته في الجنة والحوادث التي أدت الى خروجه من الفردوس، ثم توبة آدم، وحياته هو و ذريته في الارض.

الآيات المذكورة تتحدث عن المرحلة الاولى، حين شاء الله أن يخلق على ظهر الأرض موجوداً، يكون فيها خليفته، و يحمل أشعة من صفاته، وتسمو مكانته على مكانة الملائكة، و شاء سبحانه أن تكون الارض ونعمها وما فيها من كنوز ومعادن وامكانات تحت تصرف هذا الانسان.

مثل هذا الموجود بحاجة الى قسط وافر من العقل والشعور والادراك والكفاءة الخاصة، كي يستطيع أن يتولى قيادة الموجودات الارضية.

والخليفة في قوله: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً»، هو النائب عن الغير. أما هذا الغير الذي ينوب الانسان عنه فاختلفت فيه أقوال المفسرين.

منهم من قال انه خليفة الملائكة الذين كانوا يسكنون من قبل على ظهر الارض. ومنهم من قال انه خليفة بشر آخرين أو موجودات أخرى كانت تعيش قبل ذلك على الارض.

و ذهب بعضهم الى أن الخليفة اشارة الى أن كل جيل من البشر يخلف الجيل السابق.

والحق أن المقصود بالخليفة هو خليفة الله ونائبه على ظهر الارض، كما ذهب الى ذلك كثير من المحققين. لان سؤال الملائكة بشأن هذا الموجود الذي قد يفسد في الارض و يسفك الدماء يتناسب مع هذا المعنى، لان نيابة الله في الارض لا تتناسب مع الفساد وسفك الدماء.

مسألة «تعليم الاسماء» لآدم التي سيأتي شرحها، وهكذا سجود الملائكة لآدم من أدلة ما ذهبنا اليه في تفسير معنى الخليفة.

الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يشير أيضا الى هذا المعنى في تفسير هذه الآيات إذ يقول: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَلَّمَ آدَمَ اَسْمَاءَ حُجَجِهِ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ وَهُمْ اَرْوَاحٌ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ اَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بِاَنَّكُمْ اَحَقُّ بِالْخِلافَةِ فِي الأَرْضِ لِتَسْبِيحِكُمْ وَتَقْدِيسِكُمْ مِنْ آدَمَ فَقَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَقَفُوا عَلَىٰ عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَاللهِ عَزَّ ذِكْرُهُ فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونُوا

خُلَفاءَ اللهِ في اَرْضِهِ وَحُجَجِهِ عَلىٰ بَرِيَّتِهِ ثُمَّ غَيَّبَهُم عَنْ اَبْصارِهِمْ وَ اسْتَعْبَدَهُمْ بِوِلايَتِهِمْ وَ مَحَبَّتِهِمْ وَ قالَ لَهُمْ اَلَمْ اَقُلْ لَكُمْ إِنّي اَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰاتِ وَالأرْضِ وَاَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»[1].

ثم تذكر الآية سؤال الملائكة الذي وجّهوه لرب العالمين مستفسرين لا معترضين: «**قالُوا اَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ**»؟

الله سبحانه أجاب الملائكة جوابا مغلقا اتضح في المراحل التالية: «**قالَ اِنّي أَعْلَمُ مالا تَعْلَمُونَ**».

الملائكة كانوا عالمين ـ كما يبدو من تساؤلهم ـ أن هذاالانسان موجود يفسد في الارض و يسفك الدماء، فكيف عرفوا ذلك ؟!

قيل إن الله سبحانه أوضح للملائكة من قبل على وجه الاجمال مستقبل الانسان، و قيل إن الملائكة فهموا ذلك من خلال عبارة «في الارض»، لانهم علموا أن هذاالانسان يخلق من التراب، والمادة لمحدوديتها هي حتما مركز للتنافس والنزاع. وهذاالعالم المحدود المادي لا يستطيع أن يشبع طبيعة الحرص في الانسان. وهذه الدنيا لو وضعت بأجمعهافي فم الانسان فقد لا تشبعه. وهذا الوضع ـ إن لم يقترن بالالتزام والشعور بالمسؤولية ـ يؤدي الى الفساد وسفك الدماء.

بعض المفسرين ذهب الى أنّ تنبؤالملائكة يعود الى تجربتهم السابقة مع مخلوقات سبقت آدم، وهذه المخلوقات تنازعت وسفكت الدماءوخلفت في الملائكة انطباعا مرّاً عن موجودات الارض.

هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض مع بعضها. وقد يكون موقف الملائكة من استخلاف آدم ناشئا عن هذه الاسباب الثلاثة معاً.

الملائكة بيّنوا حقيقة من الحقائق. ولذلك لم ينكرالله عليهم قولهم، بل أشار الى أن

---

(١) «الميزان» ج١، ص١٢١ نقلاً عن معاني الاخبار، وهذاالحديث وان كان يوضح اكثر مكانة الانبياء والائمة ـ لا ينحصر بهذه الصفوة المقدسة بل انهم المصداق الاتم والاكمل لهذا الموضوع.

ثمة حقائق أخرى الى جانب هذه الحقيقة، حقائق ترتبط بمكانة الانسان في الوجود؛ وهذا ما لم تعرفه الملائكة.

الملائكة يعلمون أن الهدف من الخلقة هوالعبودية والطاعة. وكانوا يرون في أنفسهم مصداقا كاملاً لذلك، فهم في العبادة غارقون. و لذلك فهم ـ اكثر من غيرهم ـ للخلافة لائقون! غير عالمين أن بين عبادة الانسان المليء بألوان الشهوات، والمحاط بأشكال الوساوس الشيطانية وعبادتهم، وهم خالون من كل هذه المؤثرات، بونشاسع. اين عبادة هذا الموجود الكائن في وسط الامواج العاتية، من عبادة تلك الموجودات التي تعيش على ساحل آمن ؟!

الملائكة في بودقة الاختبار

كان آدم يملك ـ بفضل الله ـ قابلية خارقة لفهم الحقائق. وشاء الله أن ينقل هذه القابلية من مرحلة القوة الى مرحلة الفعل، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: **«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا»**.

اختلف المفسرون في تفسير «تعليم الاسماء»، ومن المؤكد أن المقصود من ذلك ليس هو تعليم الاسماء دون المعاني. فذلك لا يكسب آدم فخرا، بل المقصود هو معاني الاسماء والمفاهيم والمسميات.

هذا العلم بالكون و بأسرار الموجودات وخواصها، كان مفخرة كبيرة لآدم طبعا.

عن ابي العباس قال: **سألتُ الامامَ الصادق عليه السلام عن قولِ الله: وعلّمَ آدمَ الاسماءَ كلها، ماذا علّمه؟ قال: «الْأَرَضِينَ والجبال والشعابَ والاودية ثم نظر الى بساط تحته فقال: وهذا البساط مما علّمهُ»**[١]

علم الاسماء إذن لم يكن يشبه «علم المفردات»، بل كان يرتبط بفلسفة الاسماء واسرارها وكيفياتها وخواصها. والله سبحانه منح آدم هذا العلم ليستطيع أن يستثمر المواهب المادية والمعنوية في الكون على طريق تكامله.

---

(١) الميزان، ج١ ص١١٩.

كما منح الله آدم قابلية التسمية، ليستطيع أن يضع للاشياء أسماء، و بذلك يتحدث عن هذه الاشياء بذكر اسمها لا باحضار عينها. وهذه نعمة كبرى، نفهمها لو عرفنا أن علوم البشرية تنتقل عن طريق الكتب والمدوّنات. وما كان هذاالتدوين مقدورا لولا وضع الاسماء للاشياء وخواصها.

«ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ: أَنْبِئُوني بِأَسْماءِ هٰؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ..»

وأمام هذا الاختبار تراجع الملائكة لانهم لم يملكوا هذه القدرة العلمية التي منحها الله لادم، «قالُوا: سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيمُ».

وهكذا أدركت الملائكة تلك القدرة التي يحملها آدم، التي تجعله لائقا لخلافة الله على الارض. و فهمت مكانة هذاالكائن في الوجود.

و حان الدور لآدم كي يشرح أسماء الموجودات واسرارها أمام الملائكة: «قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

وهنا اتضح للملائكة أن هذاالموجود هو وحده اللائق لاستخلاف الارض.

عبارة «ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» اشارة الى أن الملائكة كانوايخفون شيئاً لم يظهروه في أقوالهم. قال بعض المفسرين إنها إشارة الى حالة استكبار ابليس الذى كان يومئذ بين الملائكة. وكان يكتم إصراره على عدم الخضوع لآدم.

ومن المحتمل أيضاً أن تكون العبارة إشارة الى ما كان يبطنه الملائكة من اعتقاد بأنهم أليق من غيرهم للخلافة الالهية على الارض. فهم أشاروا الى مثل هذاالاعتقاد ولم يصرّحوا به.

* * *

جواب على سؤالين

و يبق سؤالان في هذاالمجال، الأول يدور حول تعليم الله لآدم، كيف تمّ ذلك؟ ولو قُدّر أن يكون هذاالتعليم من نصيب الملائكة لنالوا نفس فضيلة آدم، فهل هناك مفخرة يمتلكها آدم ولا تمتلكها الملائكة؟

أما بشأن كيفية التعليم فالجواب هو إن هذاالتعليم تكويني، أي إن الله أودع

هذاالعلم في وجود آدم بالقوة، و دفعه خلال مدة قصيرة الى المرحلة الفعلية.

إطلاق كلمة «تعليم» في القرآن على «التعليم التكويني» ورد في موضع آخر من القرآن، كقوله تعالى: «عَلَّمَهُ الْبَيانَ» (الرحمن،٤) وواضح أن الله سبحانه علّم الانسان البيان في مدرسة الخلقة، أي منحه الكفاءة والخصائص الفطرية اللازمة للبيان والكلام.

أما الشطر الآخر من هذاالسؤال فيتبين جوابه لو علمنا أن الملائكة كانت لهم خلقة خاصة، ما كانت تؤهلهم لتلقي كل هذه العلوم. إنهم مخلوقون لهدف آخر، لا لهذا الهدف، وهذه الحقيقة فهمها الملائكة و تقبلوها بعد أن مرّوا بتلك التجربة المذكورة في الآية. و لعلهم اعتقدوا في البداية أنهم يحملون الكفاءة اللازمة لهذاالهدف، لكن الله بيّن لهم الفرق بين كفاءتهم وكفاءة آدم بتجربة تعليم الاسماء.

أما السؤال الثاني فيرتبط بالضمير «هم» في قوله تعالى: «ثم عرضهم» و «أسمائهم» و باسم الاشارة «هؤلاء» في الآية. فالمعروف أنّ «هم» و «هؤلاء» يستعملان في العاقل، وهذا لاينسجم مع تفسير «الاسماء» بأنها اسرار الخلقة وفهم خواص جميع الموجودات.

والجواب هو إن استعمال الضمير «هم» واسم الاشارة «هؤلاء» لايختص بالعاقل، بل قد يستعملان في جمع مكّون من عاقل وغير عاقل، وقد يستعملان في جمع غير عاقل. كقوله تعالى: «رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ» (يوسف،٤) والضمير «هم» في الآية يعود على الكواكب والشمس والقمر التي رآها يوسف.

* * *

الآيات

۳۴ ـ «وَ اِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلاّٰ اِبْلِيسَ أَبىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ».

۳۵ ـ «وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ اَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ».

۳۶ ـ «فَاَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فِيهِ وَ قُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْاَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ اِلىٰ حِينٍ».

التفسير

آدم في الجنة

ينتقل القرآن الى فصل آخر من موضوع عظمة الانسان، و يقول: «وَاِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلاّٰ اِبْلِيسَ اَبىٰ وَاسْتَكْبَرَ، وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ».

يبدو للوهلة الاولىٰ أن مسالة السجود لآدم جاءت بعد تجربة الملائكة المذكورة في الآيات السابقة و بعد تعليم الاسماء. ولكن لو أمعنّا النظر في آيات القرآن الكريم لألفينا أن موضوع السجود جاء بعد اكتمال خلقة الانسان مباشرة، وقبل امتحان الملائكة.

يقول تعالى: «فَاِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ»، السجود إذن جاء مباشرة بعد نفخ الروح في الانسان، وهذا المعنى جاء في الآية ۷۲ من سورة (ص)[1].

ثمة دليل آخر على هذه المسألة هو أن استجابة الملائكة لامرالله بالسجود، لو كانت بعد اتضاح مكانة آدم، لما اعتبرت مفخرة للملائكة.

---

(۱) الى هذا أشار أيضا الآلوسي في روح المعاني، والفخرالرازي في التفسير الكبير.

على أي حال، الآية المذكورة تقرير قرآني واضح صريح لشرف الانسان وعظمة مكانته. فكل الملائكة يؤمرون بالسجود له بعد اكتمال خلقته.

حقا، إن هذا الموجود، اللائق لخلافة الله على الأرض، والمؤهل لهذاالشوط الكبير من التكامل و تربية أبناء عظام كالانبياء وخاصة النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) و اوصياءه، يستحق كل احترام.

* * *

وقفتان

١ـ لماذا أبىٰ إبليس؟

«الشيطان» اسم جنس شامل للشيطان الاول و لجميع الشياطين. أما «ابليس» فاسم علم للشيطان الذي وسوس لآدم. و ابليس ـ كما صرح القرآن ـ ما كان من جنس الملائكة وان كان في صفوفهم، بل كان من طائفة الجن وهي مخلوقات مادية. قال تعالى: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ» (الكهف، ٥٠).

باعثه على الامتناع عن السجود كبرٌ و غرور وتعصب خاص استولى عليه. اعتقد أنه أفضل من آدم، ولا ينبغي أن يصدر له أمر بالسجود لآدم، بل ينبغي أن يؤمر آدم بالسجود له، و سيأتي شرح ذلك في تفسير الآية ١٢ من سورة الاعراف.[1]

كفر إبليس كان أيضاً يعود الى نفس السبب، فقد اعتقد بعدم صواب الأمر الالهي، و بذلك لم يعصِ فحسب، بل انحرف عقائديا. وهكذا ذهبت أدراج الرياح كل عباداته و طاعاته نتيجة كبره وغروره. وهكذا تكون دوما نتيجة الكبر والغرور.

و عبارة «كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» تشير إلى أن إبليس كان قبل صدور الامر الالهي اليه بالسجود، قد انفصل عن مسير الملائكة و طاعة الله، و أسرَّ في نفسه الاستكبار والجحود. لعله عزم في قرارة نفسه أن لا يخضع لو صدرت اليه أوامر بالخضوع والسجود. ومن المحتمل آن تكون عبارة «مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» إشارة الى ذلك . و ورد هذاالمعنى في حديث عن الامام الحسن العسكري. قَالَ إِبْلِيسُ: لَئِنْ أَمَرَنِي اللهُ بِالسُّجُودِ لِهٰذَا

---

(١) راجع المجلد السادس من هذاالتفسير.

لَعَصَيْتُهُ إِلىٰ اَنْ قالَ: ثُمَّ قالَ اللهُ تَعالىٰ لِلْمَلائِكَةِ: اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا فَأَخْرَجَ اِبْليسُ ما كانَ في قَلْبِهِ مِنَ الْحَسَدِ فَأَبىٰ اَنْ يَسْجُدَ»[١].

* * *

٢ ـ هل كان السجود لله أم لآدم؟

لا شك أن السجود يعني «العبادة» لله، إذ لامعبود غيرالله، و توحيدالعبادة يعني أن لا نعبد إلاّ الله.

من هنا فان الملائكة لم يؤدوا لآدم قطعا «سجدة عبادة». بل كان السجود لله من أجل خلق هذا الموجود العجيب. أو كان سجود الملائكة لآدم سجود «خضوع» لا عبادة.

جاء في «عيون الاخبار» عن الامام علي بن موسى الرضا (ع): «كانَ سُجُودُهُمْ لِلّهِ تَعالىٰ عُبُودِيَّةً، وَلِآدَمَ إِكْرامٌ وَطاعَةٌ، لِكَوْنِنا في صُلْبِهِ»[٢].

* * *

بعد هذاالمشهد ومشهد اختبار الملائكة، أُمر آدم و زوجه أن يسكنا الجنة، كما جاء في قوله تعالى: «وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما، وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ»[٣].

يستفاد من آيات القرآن أن آدم خُلق للعيش على هذه الارض. لكنّ الله شاء أن يسكنه قبل ذلك الجنّة، وهي روضة خضراء موفورة النعمة في هذا العالم، وخالية من كل ما يزعج آدم.

لعل مرحلة مكوث آدم في الجنة كانت مرحلة تحضيرية من أجل تأهيل آدم لتحمل مسؤوليات المستقبل، ولتفهيمه أهمية حمل هذه المسؤوليات والتكاليف الالهية في تحقيق سعادته، ولا عطائه صورة عن الشقاء الذي يستتبع إهمال هذه التكاليف، ولتنبيهه

---

(١) تفسير الميزان، ج١، ص١٢٥.

(٢) نورالثقلين، ج١، ص٥٨.

(٣) الرغد على وزن الصمد يعني الكثير والواسع والهنيّ، و عبارة «حيث شئتما» تعني: من أي مكان شئتما في الجنة، أو من أي نوع شئتم من فاكهة الجنة.

بالمحظورات التي سيواجهها على ظهرالارض.

وكان من الضروري أيضاً أن يعلم آدم بامكان العودة إلى الله بعد المعصية. فمعصية الله ـ لا تسدّ الى الأبد ـ أبواب السعادة أمامه، بل يستطيع أن يرجع و يعاهدالله أن لا يعود لمثلها، وعند ذاك يعود الى النعم الالهية.

ينبغي أن ينضج في هذاالجوّ الى حدٍ معيّن، و أن يعرف أصدقاءه و أعداءه، و يتعلم كيف يعيش على ظهرالارض. نعم، كانت هذه مجموعة من التعاليم الضرورية التي تؤهله للحياة على ظهرالارض.

كانت هذه مقدمات تأهيلية يحتاجها آدم و أبناء آدم في حياتهم الجديدة. ولعل الفترة التي قضاها آدم في الجنة قبل أن ينهض بمسؤولية الخلافة على الارض كانت تدريبية و تمرينية.

* * *

وهنا رأى «آدم» نفسه أمام أمر إلهي يقضي بعدم الاقتراب من الشجرة، لكن الشيطان أبى إلا أن ينفذ بقسمه في إغواء آدم و ذريته، فطفق يوسوس لآدم و يعده و زوجه ـ كما يبدو من سائر آيات القرآن الكريم ـ بالخلود و باتخاذ شكل الملائكة، و أقسم أنه لهما من الناصحين. (الاعراف، ٢٠و٢١).

تقول الآية بعد ذلك : **«فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ»**[١].

نعم.أُخرجا من الجنة حيث الراحةُ والهدوءُ والبعد عن الالم والتعب والعناء، على أثر وسوسة الشيطان.

وصدر لهما الامر الالهي بالهبوط **«وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ»**.

وهنا، فهم آدم أنه ظلم نفسه، و أخرج من الجوّ الهادي الملي بنعم الجنة بسبب

---

(١) مرجع الضمير في «عنها» إما أن يعود على «الجنة» ويكون معنى «مما كانا فيه» في هذه الحالة: من مقامهما الذي كانا فيه. وإما أن يعود على «الشجرة» فيكون معنى الآية: إن الشيطان أزلهمابوسيلة الشجرة، وأخرجهما من الجنة التي كانا فيها.

استسلامه لوسوسة الشيطان. وهبط في جوّ مفعم بالتعب والمشقة والعناء. مع أن آدم كان نبيا ومعصوماً، فان الله يؤاخذ الانبياء بترك الاولى ـ كما سنرى ـ كما يؤاخذ باقي الافراد على ذنوبهم. وهو عقاب شديد تلقاه آدم جرّاء عصيانه.

* * *

وقفات

١ـ ماهي جنة آدم؟

يبدو أن الجنة التى مكث فيها آدم قبل هبوطه الى الارض، لم تكن الجنة التي وعد بها المتقون. بل كانت من جنان الدنيا، وصقعا منعماً خلاّبا من أصقاع الارض. و دليلنا على ذلك :

اولاً ـ الجنة الموعودة في القيامة نعمة خالدة، والقرآن ذكر مرارا خلودها، فلا يمكن إذن الخروج منها.

ثانيا ـ إبليس الملعون ليس له طريق للجنة، وليس لوسوسته مكان هناك .

ثالثاً ـ وردت عن أهل البيت (عليهم السلام) روايات تصرّح بذلك .

منها ما روي عن الامام جعفر بن محمدالصادق (عليه السلام) أنه سئل عن جنة آدم، فقال: «**جَنَّةٌ مِنْ جَنّاتِ الدُّنْيا، يَطْلَعُ فيهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَلَوْ كانَ مِنْ جِنانِ الآخِرَةِ ما خَرَجَ مِنْها أبَداً**»[1].

من هذا يتضح أن هبوط آدم و نزوله الى الارض لم يكن مكانيا بل مقاميا. أي إنه هبط من مكانته السامية ومن تلك الجنة المزدانة.

من المحتمل أيضا أن تكون هذه الجنة غير الخالدة في إحدى الكواكب السماوية، و في بعض الروايات الاسلامية إشارة الى أن هذه الجنة في السماء. غير أنّ من الممكن أن يكون المقصود بالسماء في هذه الروايات «المقام الرفيع» لا «المكان المرتفع».

على كل حال، توجد شواهد كثيرة على أن هذه الجنة هي غير جنة الخلد

---

(١) كتاب الكافي، نقلا عن تفسير نورالثقلين، ج١، ص٦٢.

الموعودة. لأن جنة آدم بداية مسيرالانسان وجنة الخلد نهايتها. وهذه مقدمة لأعمال الانسان ومراحل حياته، و تلك نتيجة أعمال الانسان ومسيرته.

* * *

٢ـ ماهوذنب آدم؟

المكانة التي ذكرها القرآن لآدم سامية رفيعة، فهو خليفة الله في الارض ومعلم الملائكة، وعلى درجة كبيرة من التقوى والمعرفة، وهوالذي سجدت له ملائكة الله المقربين. ومن المؤكد أن آدم هذا لا يصدر عنه ذنب، إضافة الى أنه كان نبيا، والنبي معصوم.

من هنا يطرح سؤال عن نوع العمل الذي صدر عن آدم. وتوجد لذلك ثلاثة تفسيرات يكمل بعضها الآخر.

١ ـ ما ارتكبه آدم كان «تركاً للاولى» أو بعبارة أخرى كان «ذنبا نسبيا»، ولم يكن «ذنبا مطلقا».

الذنب المطلق، هوالذنب الذي يستحق مرتكبه العقاب أياً كان، مثل الشرك والكفر والظلم والعدوان. والذنب النسبي هوالذي لا يليق بمرتكبه أن يفعله لعلوّ منزلة ذلك الشخص، و إن كان ارتكابه مباحاً بل مستحبا أحيانا من قبل الافراد العادين. على سبيل المثال، نحن نؤدي الصلاة بحضورالقلب تارة و بعدم حضورالقلب تارة أخرى. وهذه الصلاة تتناسب و شأننا، لكن مثل هذه الصلاة لا تليق بأفراد عظام مثل رسول الله (صلّى الله عليه وآله). صلاة الرسول ينبغي أن تكون بأجمعها اتصالاً عميقاً بالله تعالى، و إن فعل الرسول غير ذلك فلا يعني أنه ارتكب محرّما، بل يعني أنه ترك الاولى.

و آدم كان يليق به أن لا يأكل من تلك الشجرة، و إن كان الأكل منها غير محرّم بل «مكروها».

٢ ـ نهي الله لآدم إرشادي، مثل قول الطبيب: لا تأكل الطعام الفلاني فتمرض. والله سبحانه قال لآدم: لا تقرب هذه الشجرة فتخرج من الجنة. و آدم في أكله من الشجرة خالف نهيا إرشاديا.

٣ ـ الجنة التي مكث فيها آدم لم تكن محلا للتكليف، بل كانت دورة اختبارية و

تمهيدية لآدم كي يهبط بعدها الى الارض. وكان النهي ذا طابع اختبارى.[1]

***

٣ـ المقارنة بين معارف القرآن والتوراة

اكبر مفاخر آدم و أعظم نقاط قوته التي جعلته زبدة الكون و مسجود الملائكة هي ـ كما يظهر من الآيات ـ تعليمه الاسماء واطلاعه على حقائق الكون و اسراره.

واضح أن آدم خُلق لهذه العلوم، و أبناء آدم ـ إن أرادوا التكامل ـ عليهم أن يستزيدوا من هذه العلوم، و تكاملهم يتناسب مرادفا مع معلوماتهم عن أسرار الخليقة.

نعم القرآن يصرّح بأن عظمة آدم هي في هذه النقطة. ولكن التوراة تذهب الى أن سبب خروج آدم من الجنة و خطيئته الكبرى هو اتجاهه نحوالعلم و تمييزه بين الصالح والطالح!

في الفصل الثاني من «سفرالتكوين» جاء في التوراة: «وَ أَخَذَ الرَّبُّ الْإِلٰهُ آدَمَ وَ وَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَ يَحْفَظَهَا. وَ أَوْصَى الرَّبُّ الْإِلٰهُ آدَمَ قَائِلاً مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً. وَ أَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا. لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتاً تَمُوتُ. وَ قَالَ الرَّبُّ الْإِلٰهُ لَيْسَ جَيِّداً أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ فَأَصْنَعُ لَهُ مُعِيناً نَظِيرَهُ. وَ جَبَلَ الرَّبُّ الْإِلٰهُ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ حَيْوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَ كُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ. فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا وَ كُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءٍ جَمِيعَ الْبَهَائِمِ وَ طُيُورَ السَّمَاءِ وَ جَمِيعَ حَيْوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَ أَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِيناً نَظِيرَهُ. فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الْإِلٰهُ سُبَاتاً عَلَى آدَمَ فَنَامَ فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَ مَلَأَ مَكَانَهَا لَحْماً. وَ بَنَى الرَّبُّ الْإِلٰهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَ أَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ هٰذِهِ الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَ لَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هٰذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ. لِذٰلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَ أُمَّهُ وَ يَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَ يَكُونَانِ جَسَداً وَاحِداً. وَ كَانَا كِلَاهُمَا عُرْيَانَيْنِ آدَمُ وَ امْرَأَتُهُ وَ هُمَا لَا يَخْجَلَانِ».

---

(١) لمزيد من التوضيح في هذاالمجال، راجع المجلد السادس من هذاالتفسير، ذيل الآيات ١٩ ـ ٢٢ من سورة الاعراف، والمجلد الثالث عشر ذيل الآية ١٢١ من سورة طه.

وجاء في الفصل الثالث:

«وَ كانَتِ ٱلحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَواناتِ ٱلْبَرِّيَّةِ ٱلَّتِي عَمِلَها ٱلرَّبُّ ٱلإِلهُ فَقالَتْ لِلْمَرْأَةِ أَحقاً قالَ اللهُ لا تَأْكُلا مِنْ كُلِّ شَجَرِ ٱلْجَنَّةِ. فَقالَتِ ٱلْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ ٱلْجَنَّةِ نَأْكُلُ. وَأَمّا ثَمَرُ ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي فِي وَسَطِ ٱلْجَنَّةِ فَقالَ اللهُ لا تَأْكُلا مِنْهُ وَلا تَمَسّاهُ لِئَلّا تَمُوتا فَقالَتِ ٱلْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ لَنْ تَمُوتا. بَلِ اللهُ عالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُما وَتَكُونانِ كَاللهِ عارِفَيْنِ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ. فَرَأَتِ ٱلْمَرْأَةُ أَنَّ ٱلشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ وَأَنَّها بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ ٱلشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِها وَأَكَلَتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَها أَيْضاً مَعَها فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُما وَعَلِما أَنَّهُما عُرْيانانِ. فَخاطا أَوْراقَ تِينٍ وَصَنَعا لِأَنْفُسِهِما مَآزِرَ».

«وَسَمِعا صَوْتَ ٱلرَّبِّ ٱلإِلهِ ماشِياً فِي ٱلْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ ٱلنَّهارِ. فَٱخْتَبَأَ آدَمُ وَإِمْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ ٱلإِلهِ فِي وَسْطِ شَجَرِ ٱلْجَنَّةِ. فَنادَى ٱلرَّبُّ ٱلإِلهُ آدَمَ وَقالَ لَهُ أَيْنَ أَنْتَ. فَقالَ سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي ٱلْجَنَّةِ فَخَشِيتُ لِأَنِّي عُرْيانٌ فَٱخْتَبَأْتُ. فَقالَ مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيانٌ. هَلْ أَكَلْتَ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لا تَأْكُلَ مِنْها. فَقالَ آدَمُ ٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتِي جَعَلْتَها مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ ٱلشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ. فَقالَ ٱلرَّبُّ ٱلإِلهُ لِلْمَرْأَةِ ما هٰذا ٱلَّذِي فَعَلْتِ. فَقالَتِ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ. فَقالَ ٱلرَّبُّ ٱلإِلهُ لِلْحَيَّةِ لِأَنَّكِ فَعَلْتِ هٰذا مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ ٱلْبَهائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ ٱلْبَرِّيَّةِ عَلى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُراباً تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيّامِ حَياتِكِ. وَأَضَعُ عَداوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ ٱلْمَرْأَةِ وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِها. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ. وَقالَ لِلْمَرْأَةِ تَكْثِيراً أُكَثِّرُ أَتْعابَ حَبَلِكِ. بِٱلْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاداً. وَإِلى رَجُلِكِ يَكُونُ ٱشْتِياقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ. وَقالَ لِآدَمَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ ٱمْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي أَوْصَيْتُكَ قائِلاً لا تَأْكُلْ مِنْها مَلْعُونَةٌ ٱلأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْها كُلَّ أَيّامِ حَياتِكَ. وَشَوْكاً وَحَسَكاً تُنْبِتُ لَكَ وَتَأْكُلُ عُشْبَ ٱلْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزاً حَتّى تَعُودَ إِلَى ٱلأَرْضِ ٱلَّتِي أُخِذْتَ مِنْها. لِأَنَّكَ تُرابٌ وَإِلى تُرابٍ تَعُودُ.

وَدَعا آدَمُ ٱسْمَ ٱمْرَأَتِهِ حَوّا لِأَنَّها أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. وَصَنَعَ ٱلرَّبُّ ٱلإِلهُ لِآدَمَ

وَٱمْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَ أَلْبَسَهُمَا.

وَقَالَ ٱلرَّبُّ ٱلإِلٰهُ هُوَ ذَا ٱلإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفاً ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَ، وَٱلآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ ٱلْحَيٰوةِ أَيْضاً وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى ٱلأَبَدِ. فَأَخْرَجَهُ ٱلرَّبُّ ٱلإِلٰهُ مِنْ جَنَّةِ عِدْنٍ لِيَعْمَلَ ٱلأَرْضَ ٱلَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. فَطَرَدَ ٱلإِنْسَانَ وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ ٱلْكَرُوبِيمَ وَ لَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحَرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ ٱلْحَيٰوةِ»!!.

من هذه «الاسطورة التافهة»، التي تعرضها التوراة الحالية باعتبارها واقعا تاريخيا يتبين لنا رأي التوراة الحالية في سبب خروج آدم من الجنة، فهو على رأي هذه الاسطورة معرفة آدم بالخير والشر، و ذنبه الاكبر هو الاتجاه نحو العلم والمعرفة!!

و إن لم يمدّ آدم يده الى «شجرة الخير والشر» لبقي جاهلاً حتى بقبح التعرّي، ولما أخرج من الجنة، بل كان فيها خالدا.

فياعجبا، لم إذن حزن آدم على خروجه من الجنة إذا كان خروجه قد اقترن باكتسابه العلم والمعرفة و بتمييزه بين الخير والشر، إنها صفقة رابحة تلك التي حصل عليها آدم، فلماذا هو نادم عليها؟!

و يتضح من ذلك أنّ اسطورة التوراة تقع في النقطة المقابلة للاتجاه القرآني الذي يرى أن مكانة الانسان ومقامه وسرّ خلقته تكمن في «تعليمه الاسماء».

أضف إلى ما سبق أن هذه الاسطورة تتضمّن مفاهيم مشينة مخجلة بشأن الله سبحانه و بشأن المخلوقات، كل واحدة منها تثير الدهشة اكثر من غيرها، وهي عبارة عن:

١ ـ نسبة الكذب الى الله تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا (كما جاء في الجملة ١٧ من الاصحاح الثاني: أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت)!

٢ ـ نسبة البخل الى الله سبحانه (كما جاء في الجملة ٢٢ من الاصحاح الثالث: وقال الرب الاله هو ذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والآن لعله يمدّ يده و يأخذ من شجرة الحياة أيضاً و يأكل و يحيا الى الابد)!.

٣ ـ إمكان وجود الشريك لله تعالى (كما في العبارة السابقة: قد صار كواحد

منا!!).

٤ ـ نسبة الحسد الى الله (و يستفاد ذلك من العبارة السابقة أيضاً).

٥ ـ تجسيم الله سبحانه (.. و سمعا صوت الرب الاله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار)!

٦ ـ نسبة الجهل الى الله بالحوادث التي تقع قريبا منه (كما تقول هذه التوراة: فاختبأ آدم و امرأته من وجه الربّ الاله في وسط شجرالجنة. فنادى الرب الاله آدم وقال له: اين أنت؟!!)

(ولا بد من التأكيد هنا أن هذه الخرافة لم تكن في التوراة المنزلة، بل أضيفت فيما اضيف الى التوراة).

٤ـ المقصود من الشيطان في القرآن

كلمة الشيطان من مادة «شطن» و «الشاطن» هوالخبيث والوضيع. والشيطان تطلق على الموجود المتمرد العاصي، إنسانا كان أو غير إنسان، و تعني أيضاً الروح الشريرة البعيدة عن الحق. و بين كل هذه المعاني قدر مشترك .

والشيطان اسم جنس عام، وابليس اسم علم خاص، و بعبارة أخرى، الشيطان كل موجود مؤذٍ مغوٍ طاغ متمرّد، إنسانا كان أم غير إنسان. و ابليس اسم الشيطان الذي أغوى آدم و يتربص هو وجنده الدوائر بأبناء آدم دوماً.

من مواضع استعمال هذه الكلمة في القرآن يفهم أن كلمة الشيطان تطلق على الموجود المؤذي المضر المنحرف الذي يسعى الى بث الفرقة والفساد والاختلاف. مثل قوله تعالى:

«إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ...» (المائده،٩١).

وفي استعمال فعل المضارع «يريد» دلالة على استمرار إرادة الشيطان على هذاالنحو.

والاستعمال القرآني لكلمة شيطان يشمل حتى أفراد البشر المفسدين المعادين للدعوة الالهية، كقوله تعالى:

«وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ». (الأنعام،١١٢)

كلمة الشيطان أطلقت على إبليس أيضا بسبب فساده وانحرافه.

والميكروبات المضرّة تشملها كلمة الشيطان أيضا، كما ورد عن علي أميرالمؤمنين (عليه السلام): «لٰا تَشْرَبُوا الْمٰاءَ مِنْ ثُلْمَةِ الْإِنٰاءِ وَلٰا مِنْ عُرْوَتِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطٰانَ يَقْعُدُ عَلَى الْعُرْوَةِ وَالثُّلْمَةِ»[1].

و روي عن الامام جعفربن محمدالصادق (عليه السلام): «وَلٰا يُشْرَبُ مِن أُذُنِ الْكُوزِ، وَلٰا مِنْ كَسْرِهِ إِنْ كٰانَ فِيهِ، فَإِنَّهُ مَشْرَبُ الشَّيٰاطِينَ»[2].

وعن رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «لٰا يُطَوِّلَنَّ أَحَدُكُمْ شٰارِبَهُ فَإِنَّ الشَّيْطٰانَ يَتَّخِذُهُ مَخْبأً يَسْتَتِرُ بِهِ»[3]

ومن الواضح أننا لانقصد أن معنى كلمة الشيطان هوالميكروب اينما وردت هذه الكلمة، بل نقصدأن الكلمة لها معاني متعددة، احد مصاديقها الواضحة «ابليس» و جنده و أعوانه. و مصداقها الآخر أفرادالبشر المفسدون المنحرفون. ووردت في مواضع أخرى بمعنى الميكروبات المؤذية (تأمل بدقة)!

* * *

٥-لماذاخلق الشيطان؟!

يثار أحيانا سؤال عن سبب خلق هذا الموجود المضل المغوي. وفي الجواب نقول:

أولاً ـ لم يخلق الله الشيطان، شيطانا. والدليل على ذلك وجوده بين ملائكة الله وعلى الفطرة الطاهرة. لكنه بعد تحرره أساء التصرف، وعزم على الطغيان والتمرّد. إنه إذن خلق طاهراً، وسلك طريق الانحراف مختارا.

ثانياً ـ وجود الشيطان لا يسبب ضررا للافراد المؤمنين، ولطلاب طريق الحق، في منظار نظام الخليقة. بل إنه وسيلة لتقدمهم وتكاملهم، إذ إن التطوّر والتقدّم يتم من خلال صراع الاضداد.

(١و٢) كتاب الكافي، ج٦، كتاب الاطعمة والاشربة، باب الاواني

(٣) كتاب الكافي، ج٦، ص٤٨٧ ح١١.

بعبارة أوضح: قوى الانسان و طاقاته الكامنة لا تتاهب ولا تتفجر إلاّ حينما يواجه الانسان عدوا قوياً. هذا العدوّ يؤدّي الى تحريك طاقات الانسان و بالتالي الى تقدّمه و تكامله.

الفيلسوف المعاصر «تويمبي» يقول: «لم تظهر في العالم حضارة راقية الاّ بعد تعرّض شعب من الشعوب الى هجوم خارجي قوي. وهذا الهجوم يؤدي الى تفجير النبوغ والكفاءات، لصنع مثل هذه الحضارة».

* * *

الآيات

٣٧ - «فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».
٣٨ - «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».
٣٩ - «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

التفسير

عودة آدم الى الله

بعد حادثة وسوسة ابليس، وصدور الامر الالهي لآدم بالخروج من الجنة، فهم آدم أنه ظلم نفسه، و أنه أخرج من ذلك الجوّ الهادئ المنعّم على أثر إغواء الشيطان، ليعيش في جوّ جديد مليء بالتعب والنصب. وهنا أخذ آدم يفكر في تلافي خطئه، فاتجه بكل وجوده الى بارئه وهو نادم أشدّ الندم.

وادركته رحمة الله في هذه اللحظات كما تقول الآية «فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

«التوبة» في اللغة بمعنى «العودة»، وهي في التعبير القرآني، بمعنى العودة عن الذنب، إن نُسبت الى المذنب. و إن نسبت كلمة التوبة الى الله فتعني عودته سبحانه الى الرحمة التي كانت مسلوبة عن العبد المذنب. ولذلك فهو تعالى «توّاب» في التعبير القراني.

بعبارة أخرى «توبة» العبد عودته الى الله، لان الذنب فرار من الله والتوبة رجوع اليه. و توبة الله، إغداق رحمته على عبده الآيب.[1]

---

(١) ولذلك، توبة العبد تتعدى بحرف الجر (الى)، و توبة الله تتعدى بـ (على)، فيقال في الاولى «تاب ←

صحيح أن آدم لم يرتكب محرّما، ولكن ترك الاولى يعتبر معصية منه. ولذلك سرعان ما تدارك الموقف، و عاد الى خالقه.

و سنتحدث فيما بعد عن المقصود بـ «الكلمات» في الآية.

* * *

على أيّ حال، لقد حدث ما حدث، و توبة آدم قد قُبلت، لكن الاثر الوضعي للهبوط في الارض لم يتغير، كما يذكر القرآن: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً، فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

* * *

وقفات

١ـ الكلمات التي تلقاها آدم

تعددت الآراء في تفسير «الكلمات» التي تلقاها آدم من ربه.

المعروف أنها الكلمات المذكورة في الآية ٢٣ من سورة الأعراف: «قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

وقال آخرون أن المقصود من الكلمات هذا الدعاء:

«اَللَّهُمَّ لا إِلَهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَ بِحَمْدِكَ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي إِنَّكَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ».

اَللَّهُمَّ لا إِلَهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ و بِحَمْدِكَ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَارْحَمْنِي إِنَّكَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

اَللَّهُمَّ لا إِلَهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَ بِحَمْدِكَ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

وهذا ما نقل في رواية عن الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام).[١]

اليه» و في الثانية «تاب عليه». راجع التفسير الكبير للفخرالرازي و تفسيرالصافي، ذيل آيات بحثنا.

(١) مجمع البيان، ذيل الآيات التي نحن بصددها.

مثل هذه التعابير ذكرها القرآن على لسان يونس وموسى (عليهما السلام). يونس ناجى ربّه فقال: «سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ» (الانبياء،٨٧). وموسى أيضاً: «قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْلِي فَغَفَرَ لَهُ» (القصص، ١٦).

و في روايات وردت عن طرق أهل البيت (عليهم السلام) أن المقصود من «الكلمات» أسماء أفضل مخلوقات الله وهم: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ـ عليهم افضل الصلاة والسلام ـ وآدم توسل بهذه الكلمات ليطلب العفو من ربّ العالمين فعفا عنه.

هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض مع بعضها، ولعلّ آدم تلقى من ربّه كل هذه الكلمات، كي يحدث فيه تغيير روحي تام بعد أن يعي حقيقة هذه الكلمات، وليشمله بعد ذلك لطف الله ورحمته.

* * *

٢ـ سبب تكرار جملة «اهْبِطُوا»

الامر بالهبوط تكرر في الآيتين: ٣٦ و٣٨ من هذه السورة، أي قبل توبة آدم وحواء و بعدها. للمفسرين رأيان في سبب التكرار، بعضهم قالوا للتأكيد، وآخرون قالوا إن موضوع الجملة الاولى يختلف عن موضوع الجملة الثانية.

والظاهر أن الجملة الثانية توضح لآدم مسألة عدم إنتفاء الهبوط في الارض بعد قبول التوبة، و عدم الانتفاء هذا يعود إما إلى أن آدم قد خلق منذ البداية لهذا الهدف، أو لأن هذا الهبوط أثر وضعي لعمله. وهذا الاثر الوضعي لا يتغير بالتوبة.

* * *

٣ـ من هم المخاطبون في جملة «اهْبطُوا»؟

الضمير في «اهبطوا» للجمع، بينما عدد المخاطبين إثنان فقط هما آدم و زوجه. والجمع هنا ناظر الى النتيجة التي تستتبع هبوط آدم وحواء في الارض. فابناؤهما واجيال البشر بعدهما سيستقرون على هذه المعمورة.

* * *

الآية

٤٠ ـ «يا بَني إسرائيلَ اذكُروا نِعمَتيَ الّتي أنعَمتُ عَلَيكُم وَ أوفُوا بِعَهدي أُوفِ بِعَهدِكُم وَ إيّايَ فَارهَبُونِ».

التفسير

ذكر النعم الالهية

مرت بنا في الايات السابقة قصة خلافة آدم في الأرض، وموقف الملائكة منه، ثم نسيانه العهد الالهي وهبوطه الى الأرض، و بعد ذلك توبته.

ومن أحداث قصة آدم، اتضح أن الساحة الكونية تنطوي دوما على قوتين قوة الحق وقوة الباطل. وهاتان القوتان متقابلتان ومتصارعتان، ومن اتبع الشيطان في هذا الصراع فقد اختار طريق الباطل، ومصيره الابتعاد عن الجنة والسعادة، و معاناة المصائب والآلام، ومن ثمّ الندم. ومن التزم بأوامر الله ونواهيه وتغلب على وساوس الشيطان واتباعه، فقد سار على طريق الحق، و ابتعد عن نكد العيش وضنكه وآلامه.

لما كانت قصة بني اسرائيل ابتداءً من تحررهم من السيطرة الفرعونية واستخلافهم في الأرض، و مرورا بنسيان العهد الالهي، وانتهاءً بسقوطهم في حضيض الانحراف والعذاب والمشقة، تشبه الى حد كبير قصة آدم، بل هي فرع من ذلك الاصل العام، فان الله سبحانه في آية بحثنا وعشرات الآيات الاخرى التالية، بيّن مقاطع من حياة بني اسرائيل و مصيرهم، لاكمال الدرس التربوي الذي بدأ بقصة آدم.

يوجه القرآن خطابه الى بني اسرائيل و يقول: **«يا بَني إسرائيلَ اذكُروا نِعمَتِيَ الّتي أنعَمتُ عَلَيكُم وَ أوفُوا بِعَهدي أُوفِ بِعَهدِكُم وَ إيّايَ فَارهَبُونِ»**.

الاوامر الثلاثة التي تذكرها الآية الكريمة وهي: ذكر النعم الالهية، والوفاء

بالعهد، والخوف من الله، تشكل المنهج الالهي الكامل للبشرية.

ذكر النعم الالهية يحفّز الانسان للاتجاه نحو معرفة الله سبحانه وشكره. **واستشعار العهد الالهي** الذي يستتبع النعم الالهية يدفع الكائن البشري الى النهوض بمسؤولياته وواجباته. ثم **الخوف من الله وحده ـ دون سواه ـ** يمنح الانسان العزم على تحدّي كل العقبات، التي تقف بوجه تحقيق اهدافه والالتزام بعهده. لان التخوف الموهوم من هذا و ذاك أهم موانع الالتزام بالعهد الالهي. و ظاهرة الخوف كانت متغلغلة في أعماق نفوس بني اسرائيل نتيجة السيطرة الفرعونية الطويلة عليهم.

* * *

وقفات

١ ـ اليهود في المدينة

يحتل الحديث عن اليهود قسماً هاما من سورة البقرة، التى هى أول سورة نزلت في المدينة كما صرح بذلك بعض العلماء لأنّ اليهود كانوا أشهر مجموعة من أهل الكتاب في المدينة، وكانوا قبل ظهور النبي (صلّى الله عليه وآله) ينتظرون رسولاً بشّرت به كتبهم الدينية، كما انهم كانوا يتمتعون بمكانة اقتصادية مرموقة، و لذلك كله كان لليهود نفوذ عميق في المدينة.

مع ظهور الاسلام، باعتباره الرسالة التي تقف بوجه مصالحهم اللامشروعة وانحرافاتهم و غَطْرَسَتِهِم، فانهم وقفوا بوجه الدعوة، و بدأوا يحوكون ضدها المؤامرات التي لازالت مستمرة حتى اليوم، وبعد أربعة عشر قرنا من البعثة النبوية المباركة.

الآية المذكورة و آيات تالية انحت باللائمة الشديدة على اليهود، وهزت عواطفهم بذكر مقاطع حساسة من تاريخهم، بحيث لو كان لأحدهم قليل من الموضوعية لإستيقظ واتجه نحو الاسلام. كما إن هذا السرد لتاريخ اليهود درس ملي بالعبر للمسلمين.

وسنقف في آيات تالية باذن الله عند دروس من تاريخ اليهود، مثل نجاتهم من فرعون، وانفلاق البحر لهم، و غرق الفرعونيين، و ميعاد موسى في جبل الطور، و عبادة بني اسرائيل للعجل في غياب موسى، والامر بالتوبة وقتل النفس، و نزول النعم الخاصة الالهية، وامثالها من الدروس.

٢ـ ميثاق بني اسرائيل

ميثاق بني اسرائيل الالهي يتكون من اثني عشر بنداً، عشر منها ذكرت في آيتين متواليتين من هذه السورة:

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، وَذِي الْقُرْبَى، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ... وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ: لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» [١]

وبندان ذكرا في الآية الكريمة:

«وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي، وَعَزَّرْتُمُوهُمْ..» [٢]

وهما: الايمان بالانبياء و مؤازرتهم.

كانَ بنو اسرائيل قد وعدوا بالنعيم إن وفوا بعهودهم، **«وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»** لكنهم نقضوا الميثاق، ولا يزالون حتى اليوم ينقضونه. وكان نتيجة ذلك التشتيت والتشريد، و سيبقون كذلك ماداموا ناكثين. واذا رأينا لهم يوماً جولة بفضل الدعم الاستكباري لهم، فان هذه الجولة سرعان ما ستخبو ان شاءالله أمام صولة ابناء الاسلام.. وها نحن نرى في الافق ارهاصات ذلك .. متمثلة في الصحوة الاسلامية التي تدفع بالشباب أن يتخلوا عن المدارس الفكرية المنحرفة والاتجاهات القومية والعنصرية الكافرة، و يدخلوا في دين الله أفواجا.

٣ـ وفاء الله بعهده

نعم الله تستتبعها دوما قيود و شروط، والى جانب كل نعمة، مسؤولية وشرط.

---

(١) البقرة، ٨٣ و٨٤ .

(٢) المائدة، ١٢ .

عن الامام جعفربن محمدالصادق (عليه السلام) في قول الله عزّوجل اوفوا بعَهْدي قال: قال بولاية اميرالمؤمنين (عليه السلام) «**أوفِ بِعَهْدِكُمْ أوفِ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ**»[١].

ولا عجب إنْ وردالايمان بولاية علي (عليه السلام) في هذاالحديث، باعتباره جزءاً من العهد. لان الايمان بالانبياء ومؤازرتهم، من بنود العهد مع بني إسرائيل، و يستتبع ذلك الايمان بخلفاء الانبياء باعتبارهم امتدادالمسألة القيادة والولاية. وهذه المسألة ينبغي تحققها بشكل يتناسب مع زمانها.موسى في زمانه كان يتولى مسؤولية القيادة والولاية، والرسول الخاتم هوالذي كان يتولى هذه المسؤولية في عصره، ثم تولاّها في زمن تال علي بن ابي طالب (عليه السلام).

جملة «**إيّايَ فَارْهَبُونِ**» تأكيد على كسر كل حواجز الخوف القائمة في طريق الوفاء بالعهد الالهي، وعلى الخوف من الله وحده دون سواه، وهذاالحصر يتضح من تقديم ضميرالنصب المنفصل «**إيّاي**» على جملة «**فَارْهَبُونِ**».

***

٤ ـ لماذا سمي اليهود «بني اسرائيل»؟

«اسرائيل» أحد أسماء يعقوب والد يوسف، وفي سبب تسمية يعقوب بهذاالاسم، ذكر المؤرخون غيرالمسلمين عللاً ممزوجة بالخرافة.

ورد في «قاموس الكتاب المقدس»: «أن اسرائيل تعني **الشخص المنتصر على الله**»!! و يقول: «وهذه الكلمة لُقِبَ بها يعقوب بن اسحاق بعد أن صرع الملك الالهي».

و يقول تحت عنوان «يعقوب»: إنه أثبت مقاومته و استقامته و ايمانه، و في هذه الحالة غيّرالله اسمه الى «اسرائيل»، و وعده أن يكون أبا لكل الطوائف.. ثم مات بعد أن هرم، ودفن كما يدفن السلاطين الدنيويون و أطلق اسم يعقوب و إسرائيل على جميع قومه».

و يقول تحت كلمة «اسرائيل»: «لهذا الاسم معان كثيرة، يقصد به أحيانا نسل

---

(١) تفسير نورالثقلين المجلدالاول الصفحة ٧٢.

اسرائيل و نسل يعقوب»[١]

أما علماؤنا كالمفسر المعروف «الطبرسي» فيقول في «مجمع البيان» : إن اسرائيل هو يعقوب ابن اسحاق بن ابراهيم (عليه السلام)، و إن «اسر» تعني «العبد» و «ئيل» بمعنى الله، فيكون معنى اسرائيل عبدالله.

واضح أن ما تتحدث عنه التوراة من مصارعة بين يعقوب والملك الالهي، أو بين يعقوب والله، خرافة وسخافة لا تتناسب اطلاقا مع الكتاب الالهي، وهي اوضح دليل على تحريف التوراة الموجودة.

* * *

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص٥٣ و ٩٥٧.

الآيات

٤١ـ «وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً، وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ».

٤٢ـ «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

٤٣ـ «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ».

سبب النزول

روي عن الامام محمدبن علي الباقر (عليه السلام): في سبب نزول هذه الآية قال: «كَانَ حَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ أَشْرَفَ وَآخَرُونَ مِنَ الْيَهُودِ، لَهُمْ مَأْكَلَةٌ عَلَى الْيَهُودِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، فَكَرِهُوا بَطْلَانَهَا بِأَمْرِ النَّبِيِّ (صلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ)، فَحَرَّفُوا لِذٰلِكَ آيَاتٍ مِنَ التَّوْرَاةِ فِيهَا صِفَتُهُ وَذِكْرُهُ فَذٰلِكَ الثَّمَنُ الَّذِي أُرِيدَ فِي الْآيَةِ».[1]

• • •

التفسير

جشع اليهود.

الآيات المذكورة أعلاه تتطرق الى تسعة عن بنود العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل.

يقول تعالى: «وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ»، فالقرآن مصدق لما مع اليهود من كتاب. أي إن البشائر التي زفتها التوراة والكتب السماوية الاخرى، بشأن النبي الخاتم، والاوصاف التي ذكرتها لهذا النبي ولكتاب السماوي، تنطبق على محمد (صلّى الله عليه وآله)، وعلى القرآن المنزل عليه. فلماذا لا تؤمنون به؟!.

---

(١) تفسير مجمع البيان المجلد الاول ذيل الآية.

ثم يقول سبحانه: «وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ»، أي-لاعجب أن يكون المشركون والوثنيون في مكة ـ كفاراً بالرسالة، بل العجب فى كفركم، بل في كونكم روّاداً للكفر، و سباقين للمعارضة. لانكم أهل كتاب، وكتابكم يحمل بشائر ظهور هذاالنبي، وكنتم لذلك تترقبون ظهوره. فما عدى مما بدى؟ ولماذا كنتم اول كافر به؟!

أنه تعنتهم الذى لولاه لكانوا أول المؤمنين برسالة النبي الخاتم(صلّى الله عليه وآله).

المقطع الثالث من الآية يقول: «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً».

آيات الله، لا يمكن ـ دون شك ـ معاوضتها، بأي ثمن، قليلاً كان أم كثيرا.وفى تعبير هذه الآية إشارة الى دناءة هذه المجموعة من اليهود، التي تنسى كل التزاماتها من اجل مصالحها التافهة. هذه الفئة، التي كانت قبل البعثة من المبشرين بظهور نبي الاسلام (صلّى الله عليه وآله)،و بكتابه السماوي، انكرت بشارات التوراة وحرفتها، حين رأت مصالحها معرضة للخطر، وعلمت أن مكانتها الاجتماعية معرضة للانهيار، ان فهم الناس الحقيقة.

في الحقيقة، لو قدمت الدنيا باجمعها لشخص ثمنا لانكار آية واحدة من آيات الله، لكان ثمناً قليلاً، لأنّ هذه الحياة فانية والحياة الاخرى هي دارالبقاء والخلود. فما بالك بانسان يُضحي بهذه الآيات الالهية في سبيل مصالحه التافهة؟!.

في المقطع الرابع تقول الآية: «وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ»، والخطاب موجه الى زعماء اليهود الذين يخشون أن ينقطع رزقهم، و أن يثور المتعصبون اليهود ضدّهم، وتطلب منهم أن يخشواالله وحده، أي أن يخشوا عصيان أوامره سبحانه.

* * *

في البند الخامس من هذه الاوامر ينهى الله سبحانه عن خلط الحق بالباطل «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ».

وفي البند السادس ينهى عن كتمان الحق: «... وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

كتمان الحق، مثل خلط الحق بالباطل ذنب وجريمة. والآية تقول لهم: قولوا

الحق ولو على أنفسكم، ولا تشوهوا وجه الحقيقة بخلطها بالباطل و إن تعرضت مصالحكم الآنية للخطر.

***

البند السابع والثامن والتاسع من هذه الأوامر يبينه قوله تعالى: «وَ اَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَآتُوا الزَّكٰاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرّٰاكِعِينَ».

البند الاخير يأمر بالصلاة جماعة، غير أن «الركوع» هوالذي ذكر دون غيره من أجزاء الصلاة، و لعل ذلك يعود الى أنّ صلاة اليهود كانت خالية من الركوع، تماماً، بينما احتل الركوع مكان الرّكن الاساسي في صلاة المسلمين.

ومن الملفت للنظر أنّ الآية لم تقل «أدّوا الصلاة»، بل قالت: «أقيمُواالصَّلاٰةَ»، وهذاالحث يحمّل الفرد مسؤوليّة خلق المجتمع المصلي، ومسؤولية جذب الآخرين نحوالصلاة.

بعض المفسرين قال إن تعبير «أقيمُوا» اشارة الى اقامة الصلاة كاملة، وعدم الاكتفاء بالاذكار والاوراد، و أهم أركان كمال الصلاة حضورالقلب والفكر لدى الله سبحانه، و تأثير الصلوة على المحتوى الداخلي للانسان.[1]

هذه الاوامر الاخيرة تتضمن في الحقيقة: أولاً بيان ارتباط الفرد بخالقه (الصلاة)، ثمّ ارتباطه بالمخلوق (الزكاة)، و بعد ذلك ارتباط المجموعة البشرية مع بعضها على طريق الله!.

وقفة

هل القرآن يصدّق ُما جاء في التوراة والانجيل؟!

في مواضع عديدة يصرّح القرآن بتصديقه لما جاء في الكتب الالهية السابقة، كما جاء في الآية المذكورة: «مُصَدِّقاً لِمٰا مَعَكُمْ» وكما جاء في الآيتين ٨٩ و١٠١ من سورة البقرة: «مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَهُمْ». و في الآية ٤٨ من سورة المائدة: «وَاَنْزَلْنٰا اِلَيْكَ الْكِتٰابَ

---

(١) المنار، ج٢، ص٢٩٣، ومفردات الراغب مادة «قوم»

بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ».

بعض دعاة اليهودية والنصرانية. استدلوا بهذه الآيات لاثبات عدم تحريف التوراة والانجيل. وقالوا: ان التوراة والانجيل في عصر نبي الاسلام لا يختلفان حتما عمّا عليه الآن. و إن أصابهما تحريف فهذاالتحريف يعود الى فترة سابقة على ذلك العصر. ولما كان القرآن قد ايّد صحة التوراة والانجيل الموجودين في عصر نبي الاسلام، فعلى المسلمين أن يعترفوا بصحة هذين الكتابين الموجودين، بين ظهرانينا اليوم.

الجواب

يؤكد القرآن في مواضع عديدة وجود علائم نبي الاسلام و دينه في تلك الكتب المحرفة، التي كانت موجودة في ايدى اليهود والنصارى آنذاك . وهذا يعني وجود حقائق في تلك الكتب لم تمتد اليها يدالتحريف، ذلك لان التحريف لايعني تغيير كل نصوص تلك الكتب السماوية، بل إن تلك الكتب كانت تحمل بين طياتها حقائق، ومن تلك الحقائق علامات النبي الخاتم (ولا زالت بعض هذه البشائر مشهودة في الكتب الموجودة الآن).

بعثة النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) وكتابه السماوي تصديق لما جاء في تلك الكتب من علامات، أي تحقيق عملي لتلك العلامات. وكلمة التصديق بمعنى (التحقيق العملي) وردت في مواضع اخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى لنبيّه ابراهيم (عليه السلام): «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا» (الصافات، ١٠٥).

أي أنك قد حققت عمليا رؤياك .

و تصرح الآية ١٥٧ من سورة الاعراف بان الرسول الاعظم (صلّى الله عليه وآله) تحقيق عملي لما يجدونه مكتوبا في التوراة والانجيل: «اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ...» (الاعراف، الآية ١٥٧).

على أي حال، ليس في الآيات المذكورة دلالة على تصديق جميع محتويات التوراة والانجيل، بل دلالتها تقتصر على «التصديق العملي» لما جاء في الكتب الموجودة بيداليهود والنصارى بشأن النبي الخاتم وكتابه. هذا، الى جانب وجود آيات عديدة في القرآن

تتحدث عن تحريف اليهود والنصارى لآيات التوراةوالانجيل، وهو شاهد حيّ صريح على مسألة التحريف.

شاهد حيّ آخر

«فخرالاسلام» الذي كان من **كبار قساوسة المسيحين**، ومن الذين اكتسبوا مراتب كبيرة في الدراسات الكنسية يتحدث فى مقدمة كتابه «انيس الاعلام» عن انتقاله من المسيحية الى الاسلام فيقول:

«.. بعد بحث طويل وعناء كبير وتجوال في المدن، عثرت على قسيس كبير متميز في زهده وتقواه، كان يرجع اليه الكاتوليك بما فيهم سلاطينهم، تعلمت عليه زمنا مذاهب النصارى، وكان له طلاب كثيرون، ولكنه كان ينظر اليّ من بينهم نظرة خاصة، وكانت كل مفاتيح البيت بيدي، الا مفتاحا واحداً لغرفة صغيرة، احتفظ به عنده...

وفي يوم اعتلّت صحة القسيس، فقال لي: قل للطلاب إني لا استطيع التدريس اليوم. حينا جئت الطلاب وجدتهم منهمكين في نقاش حول معنى «فارقليطا» في السريانية، و «پريكلتوس» في اليونانية... واستمر بينهم النقاش، وكل كان يدلي برأيه...

بعد أن عدت الى الاستاذ سألني عما كان يدور بين الطلاب، فأخبرته، فقال لي: وما رأيك ؟

قلت: اخترت الرأي الفلاني.

قال القسيس: ما قصرّت في عملك ، ولكن الحقّ غير ذلك . لان حقيقة هذاالامر لا يعلمها الا الراسخون في العلم، وقليل ماهم. اكثرت في الالحاح عليه أن يوضح لي معنى الكلمة. فبكى بكاءً مرّاوقال: لم أخف عليك شيئا... إن لفهم معنى هذه الكلمة أثرا كبيرا، ولكنه إن انتشر فسنتعرض للقتل! فان عاهدتنى أن لا تفشيه فسأخبرك ... فأقسمت بكل المقدسات أن لا أذكر ذلك لاحد، فقال: إنه اسم من اسماء نبي المسلمين، و يعني «أحمد» و «محمد».

ثم أعطاني مفتاح الغرفة وقال: افتح الصندوق الفلاني، وهاتِ الكتابين اللذين

فيه، جئت اليه بالكتابين وكانا مكتوبين باليونانية والسريانية على جلد، و يعودان الى عصر ما قبل الاسلام.

الكتابان ترجما «فارقليطا» بمعنى أحمد ومحمّد، ثم أضاف الاستاذ: علماء النصارى كانوا مجمعين قبل ظهوره أن «فارقليطا» بمعنى «أحمد ومحمّد»، ولكن بعد ظهور محمد(ص)، غيّروا هذاالمعنى حفظا لمكانتهم و رئاستهم و أوّلوه، واخترعوا له معنى آخر لم يكن على الاطلاق هدف صاحب الانجيل.

سألته عما يقوله بشأن دين النصارى؟ قال: **لقد نسخ بمجيء الاسلام، و كرر ذلك ثلاثاً**، ثم قلت:

ماهي **طريقة النجاة والصراط المستقيم في زماننا هذا؟ قال: إنما هي باتباع محمد(ص).**

قلت: وهل التابعون له ناجون؟

قال: أي والله، وكرر ذلك ثلاثاً.

ثم بكى الاستاذ وبكيت كثيرا ثم قال: اذا اردت الآخرة والنجاة فعليك بدين الحق.. وانا أدعو لك دائماً، شرط أن تكون شاهدا لي يوم القيامة أني كنت في الباطن مسلما، ومن أتباع محمد (صلّى الله عليه وآله) ... وما من شك أن الاسلام هو دين الله اليوم على ظهر الارض»[1].

وكما يلاحظ فان هذه الوثيقة الهامة تصرّح بما فعله علماء اهل الكتاب بعد ظهور نبي الاسلام (صلّى الله عليه وآله) من تحريف لتفسير اسم النبي وعلاماته، تحقيقا لمصالحهم الشخصية.

ooo

(١) نقلا باختصار عن «الهداية الثانية» مقدمة كتاب «أنيس الاعلام».

الآيات

٤٤ـ «اَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ اَنْفُسَكُمْ وَ اَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ اَفَلَا تَعْقِلُونَ؟!».

٤٥ـ «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَ اِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ اِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ».

٤٦ـ «اَلَّذِينَ يَظُنُّونَ اَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَ اَنَّهُمْ اِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

التفسير

«اَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ اَنْفُسَكُمْ»؟!

هذاالسؤال الاستنكاري ـ و إن كان موجها الى بني اسرائيل كما يتبين من سياق الآيات السابقة والتالية ـ له حتماً مفهوم واسع يشمل الآخرين أيضاً.

قال «الطبرسى» في «مجمع البيان»: هذه الآية خطاب لعلماء اليهود.. و بخهم الله تعالى على ما كانوا يفعلون من أمرالناس بالايمان بمحمد (صلّى الله عليه وآله) وترك انفسهم في ذلك.

وقال أيضاً: كان علماء اليهود يقولون لاقربائهم من المسلمين اثبتوا على ما انتم عليه ولا يؤمنون هم.

لذلك كانت الآية الاولى من الآيات التي يدور حولها بحثنا تحمل توبيخا لهذاالعمل: «اَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ اَنْفُسَكُمْ، وَاَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ، اَفَلَا تَعْقِلُونَ»؟!

منهج الدعاة الى الله يقوم على أساس العمل اولاً ثم القول. فالداعية الى الله يبلغ بعمله قبل قوله، كما جاء في الحديث عن الامام جعفربن محمدالصادق (عليه السلام): «كُونُوا دُعَاةَ النَّاسِ بِاَعْمَالِكُمْ وَلَا تَكُونُوا دُعَاةً بِاَلْسِنَتِكُمْ»[1].

(١) سفينة البحار،مادة «عمل».

التأثير العميق للدعوة العملية يأتي من قدرة مثل هذه الدعوة على فتح منافذ قلب السامع، فالسامع يثق بما يقوله الداعية العامل، و يرى أن هذاالداعية مؤمن بما يقول و أن ما يقوله صادر عن القلب. والكلام الصادر عن القلب ينفذ الى القلب. وافضل دليل على ايمان القائل بما يقوله، هوالعمل بقوله قبل غيره، كما يقول علي (عليه السلام): **«أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَاللهِ ما أَحُثُّكُمْ عَلىٰ طاعَةٍ اِلاَّ وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْها، وَلا أَنْهاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ اِلاَّ وَأَتَناهىٰ قَبْلَكُمْ عَنْها»**[١].

وفي حديث عن الامام جعفربن محمدالصادق (عليه السلام): **«مِنْ أَشَدِّ النّاسِ عَذاباً يَوْمَ الْقِيامَةِ مَنْ وَصَفَ عَدْلاً وَ عَمِلَ بِغَيْرِهِ»**.[٢]

علماء اليهود كانوا يخشون من انهيار مراكز قدرتهم و تفرّق عامة الناس عنهم، إن اعترفوا برسالة خاتم الانبياء، و لذلك حرّفوا ما ورد بشأن صفات نبي الاسلام في التوراة.

والقرآن يحث على الاستعانة بالصبر والصلاة للتغلب على الاهواء الشخصية والميول النفسية، فيقول في الآية التالية: **«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ»** ثم يؤكد أن هذه الاستعانة ثقيلة لاينهض بعبئها الاالخاشعون: **«وَ اِنَّها لَكَبِيرَةٌ اِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ»**.

وفي الآية الاخيرة من هذه المجموعة وصف للخاشعين: **«اَلَّذِينَ يَظُنُّونَ اَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ اَنَّهُمْ اِلَيْهِ راجِعُونَ»**.

كلمة **«يَظُنُّونَ»** من مادة «ظنّ» و قد تأتي بمعنى اليقين[٣]. وفي هذاالموضع تعني الايمان واليقين القطعي. لان الايمان بلقاء الله والرجوع اليه، يحيي في قلب الانسان حالة الخشوع والخشية والاحساس بالمسؤولية، وهذا أحد آثار تربية الانسان على الايمان بالمعاد، حيث تجعل هذه التربية الفرد ماثلا دوما أمام مشهد المحكمة الكبرى، و تدفعه الى النهوض بالمسؤولية و الى الحق والعدل.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٥.

(٢) تفسير نورالثقلين، ج١، ص٦٤.

(٣) يقول الراغب في المفردات: الظن اسم لما يحصل عن أمارة حتى قويت اذت الى العلم، ومتى ضعفت جدا لم يتجاوز حدّالتوهم.

و يحتمل أن يكون استعمال «الظن» في الآية للتأكيد، أي إن الانسان لو ظنّ بالآخرة فقط، فظنه كاف لأن يصده عن ارتكاب أي ذنب. وهو تقريع لعلماء اليهود و تأكيد على أنهم لا يمتلكون إيمانا باليوم الآخر حتى على مستوى الظن، فلو ظنوا بالآخرة لأحسّوا بالمسؤولية، وكفّوا عن هذه التحريفات.[1]

* * *

وقفتان

١ـ ماهولقاءالله؟

عبارة «لقاءالله» وردت مرارا في القرآن الكريم، و تعني باجمعها الحضور على مسرح القيامة. من البديهى أن المقصود بلقاءالله ليس هو اللقاءالحسيّ، كلقاء افرادالبشر مع بعضهم، لان الله ليس بجسم، ولا يحده مكان، ولا يرى بالعين. بل المقصود مشاهدة آثار قدرة الله وجزاءه وعقابه و نعمه و عذابه على ساحة القيامة، كما ذهب الى ذلك جمع من المفسرين.

أو إن المقصود الشهود الباطني والقلبي، لان الانسان يصل درجة كأنه يرى الله ببصيرته أمامه، بحيث لا يبق في نفسه أي شك و ترديد.

هذه الحالة قد تحصل للافراد نتيجة الطهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس في هذه الدنيا. و في «نهج البلاغة» نقرأ: أن «ذعلب اليمانى» وهو من فضلاء اصحاب الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، سأل علياً: **ـ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟**

اجابه علي: **أَفَأَعْبُدُ مالا أرىٰ؟!**

وحين طلب ذعلب مزيداً من التوضيح قال الامام:

«لا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشاهَدَةِ الْعِيانِ، وَلٰكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقائِقِ الإِيمانِ»[2].

هذاالشهود الباطني ينجلي للجميع يوم القيامة، ولا يبقى أحد الاّ وقد آمن ايمانا

(١) المنار، ج١، ص٣٠٢، والميزان، ج١، ص١٥٤. وتفسير روح المعاني، ج١، ص٢٢٨. و في آيات أخر إشارة الى هذاالمعنى كقوله تعالى: «فَمَنْ كانَ يَرْجُولِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً» (الكهف/١٠).

(٢) نهج البلاغة، الكلام ١٧٩.

قاطعا، لوضوح آثار عظمة الله وقدرته في ذلك اليوم.

* * *

٢ـ سبيل التغلب على الصعاب

ثمة منطلقان اساسيان للتغلب على الصعاب والمشاكل، أحدهما منطلق قوي داخلي، والآخر منطلق مستحكم خارجي.

اشارت الآية الى هذين المنطلقين بعبارة «الصوم» و «الصلاة». فالصبر هو حالة الصمود والاستقامة والثبات في مواجهة المشاكل، والصلاة هي وسيلة الارتباط بالله حيث السندُ القويّ المكين.

كلمة «الصبر» فسرت في روايات كثيرة بالصوم، لكنها لا تنحصر حتما. بل الصوم احد المصاديق الواضحة البارزة للصبر. لان الانسان يحصل في ظل هذه العبادة الكبرى على الارادة القوية والايمان الراسخ والقدرة على التحكم في الميول والرغبات.

روى بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: أن النبي (صلّى الله عليه وآله) كان إذا أحزنه أمر استعان بالصلاة والصوم.[1]

و عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) انه قال: «**مٰا يَمْنَعُ اَحَدَكُمْ اِذٰا دَخَلَ عَلَيْهِ غَمٌّ مِنْ غُمُومِ الدُّنْيٰا اَنْ يَتَوَضّٰأَ ثُمَّ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ يَدْعُو اللهَ فِيهِمٰا، اَمٰا سَمِعْتَ اللهَ تَعٰالى يَقُولُ: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاٰةِ**»[2].

التوجه الى الصلاة والتضرّع الى الله سبحانه يمنح الانسان طاقة جديدة تجعله قادراً على مواجهة المشاكل.

وفي كتاب «الكافي» عن الصادق (عليه السلام): «**كٰانَ عَلِيٌّ (عليه السلام) اِذٰا هٰالَهُ اَمْرٌ فَزِعَ اِلَى الصَّلاٰةِ ثُمَّ تَلاٰ هٰذِهِ الْآيَةَ: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاٰةِ**».

نعم، الصلاة تربط الانسان بالقدرة اللامتناهية التي لا يقهرها شيئ. وهذا الاحساس يبعث في الانسان قوة وشهامة على تحدّي المشاكل والصعاب.

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان، ذيل الآية المذكورة. (٢) نفس المصدر.

الآيتان

٤٧ - «يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ».

٤٨ - « وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلاهُمْ يُنْصَرُونَ».

التفسير

أوهام اليهود.

في هذه الآيات خطاب اخر الى بني اسرائيل فيه تذكير بنعم الله: «يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ».

هذه النعم سابغة واسعة النطاق، ابتداء من الهداية والايمان، وانتهاء بالنجاة من فرعون ونيل العظمة والاستقلال.

ثم تشير الآية من بين كل هذه النعم الى نعمة التفضيل على بقية البشر، وهي نعمة مركبة من نعم مختلفة، و تقول: «وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ».

لعل بعضاً تصور أن هذاالتفضيل صفة أبدية مستمرة على مرّالعصور. لكن دراسة سائر آيات القرآن تبين أن هذاالتفضيل هو تفضيل بني اسرائيل على غيرهم من افراد مصرهم ومنطقتهم، لا تفضيلاً مطلقا. فالقرآن الكريم يخاطب المسلمين في آية أخرى و يقول: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ..» (آل عمران، ١١٠).

كما يتحدث القرآن عن وراثة بني اسرائيل للارض فيقول: «وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَها» (الاعراف، ١٣٧).

و واضح أن هذه الوراثة لم تكن تشمل آنذاك جميع العالم، والمقصود من الآية مشارق المنطقة التي كانوا يعيشون فيها ومغاربها، من هنا فالتفضيل على العالمين هو تفضيلهم على

افراد منطقتهم.

الآية التالية ترفض أوهام اليهود، التي كانوا يتصورون بموجبها أن الانبياء من أسلافهم سوف يشفعون لهم، أو أنهم قادرون على دفع فدية و بدل عن ذنوبهم، كدفعهم الرشوة في هذه الحياة الدنيا.

القرآن يخاطبهم و يقول: «**وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً. وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ. وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ.وَلاهُمْ يُنْصَرُونَ**».

الحاكم أوالقاضي في تلك المحكمة الالهية، لا يقبل سوى العمل الصالح، كما تقول الآية الكريمة: «**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلابَنُونَ إِلّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**» (الشعراء،٨٨و٨٩).

هذه الآية الثامنة والاربعون من سورة البقرة، تشير في الواقع الى ما يجري من محاولات في هذه الحياة الدنيا لانقاذ المذنب من العقاب.

في الحياة الدنيا قد يتقدم إنسان لدفع غرامة عن انسان مذنب لانقاذ هذا المذنب من العقاب، أما في الآخرة (**لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ**).

و ربّما يقدّم المذنب فى هذه الحياة شفعاء لينقذوه مما ينتظره من مصير، لكن الانسان لا تقبل منه في الآخرة شفاعة.

واذا لم تُجدِ الشفاعة يتقدم الانسان في الحياة الدنيا بدفع (العدل) وهو بدل الشيء من جنسه، اما في الآخرة ف (**لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ**).

واذا لم تنفع الوسائل المذكورة كلها، يستصرخ اصحابه لينصروه و يخلصوه من الجزاء، و في الآخرة لا يقوم بنجاتهم أحد (**وَلاهُمْ يُنْصَرُونَ**).

فالسبيل الوحيد للنجاة يوم القيامة، هوالايمان والتقوى والاستعانة بلطف الباري تعالى.

تاريخ الشرك و تاريخ المنحرفين من أهل الكتاب، مليء بافكار خرافية تدور حول محورالتوسل بمثل الامور التى ذكرتها الآية الكريمة للفرار من العقاب الاخروي. صاحب المنار يذكر مثلا، أن الناس في بعض مناطق مصر ـ في قديم الايام ـ كانوا يدفعون مبلغا من المال الى الذي يتعهد غسل الميت، و يسمون هذا المبلغ أجرة الإنتقال الى الجنة.[1]

---

(١) المنار، ج١، ص٣٠٦.

و في تاريخ اليهود نقرأ أنهم كانوا يقدمون القرابين للتكفير عن ذنوبهم، و ان لم يجدوا قربانا كبيراً يكتفون بتقديم حمامتين![1]

وفي التاريخ القديم كانت جماعة تدفن مع الميت حليه واسلحته، ليستفيد منها في الحياة الاخرى.[2]

* * *

القرآن ومسألة الشفاعة

العقاب الالهي في هذه الحياة الدنيا و في الآخرة، لا ينزل بساحة الانسان دون شك من أجل الانتقام. بل ان العقوبات الالهية تشكل عنصر الضمان في تنفيذ القوانين، و تؤدي في النتيجة الى تقدم الانسان و تكامله. من هنا يجب الاحتراز عن أي شئ يضعف من قوة عنصر الضمان هذا، كي لا تنتشر بين الناس الجرأة على ارتكاب المعاصي والذنوب.

من جهة أخرى، لا يجوز غلق باب العودة والاصلاح بشكل كامل في وجه المذنبين، بل يجب فسح المجال لهم لاصلاح أنفسهم و للعودة الى الله والى الطهر والتقوى.

«الشفاعة» بمعناها الصحيح تستهدف حفظ هذا التعادل. إنها وسيلة لعودة المذنبين والملوثين بالخطايا، و بمعناها الخاطئ تشجع على ارتكاب الذنوب.

أولئك الذين لم يفرقوا بين المعنى الصحيح والخاطي لمسألة الشفاعة، أنكروا هذه المسألة بشكل كامل، واعتبروها شبيهة بالوساطات التي تقدم الى السلاطين والحكام الظالمين.

وثمة مجموعة كالوهابيين استندوا الى الآية الكريمة: **«لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ»**، فانكروا الشفاعة تماما، دون الالتفات الى سائر الآيات في هذا المجال.

اعتراضات المنكرين لمسألة الشفاعة يمكن تلخيصها بما يلي:

---

(١) المنار، ج١، ص٣٠٦.

(٢) الميزان، ج١، ص١٥٦.

١ ـ الاعتقاد بالشفاعة، يضعف روح السعي والمثابرة في نفس الانسان.

٢ ـ الاعتقاد بالشفاعة، انعكاس عن ظروف المجتمعات المتأخرة والاقطاعية.

٣ ـ الاعتقاد بالشفاعة، يؤدي الى التشجيع على ارتكاب الذنوب و ترك المسؤوليات.

٤ ـ الاعتقاد بالشفاعة، نوع من الشرك بالله، وهو معارض للقرآن!

٥ ـ الاعتقاد بالشفاعة، يعني تغيير احكام الله و تغيير ارادته واوامره!

ولكن كل هذه الاعتراضات ناتجة ـ كما سنرى ـ عن الخلط بين الشفاعة بمفهومها القرآني، والشفاعة بمعناها المنحرف الرائج بين الجهلة من الناس.

لما كانت هذه المسألة في جانبها الايجابي والسلبي ذات أهمية بالغة، فعلينا أن ندرسها بالتفصيل من حيث مفهومها و فلسفتها، وارتباطها بعالم التكوين، و موقعها في القرآن والحديث، وصلتها بالتوحيد والشرك ، كي يزول كل إبهام يرتبط بالآية المذكورة وسائر الآيات في حقل الشفاعة.

* * *

١ ـ المفهوم الحقيقي للشفاعة:

كلمة «الشفاعة» من «الشفع» بمعنى «الزوج» و «ضم الشئ الى مثله»، يقابلها «الوتر» بمعنى «الفرد». ثم اطلقت على انضمام الفرد الاقوى والاشرف الى الفرد الاضعف لمساعدة هذا الضعيف ولها في العرف والشرع معنيان متباينان كل التباين:

الف: إن الشفاعة تعني أن الشفيع يستفيد من مكانته و شخصيته ونفوذه، لتغير رأي صاحب قدرة بشأن معاقبة من هم تحت سيطرته.

والشفيع قد يرعب صاحب القدرة هذا، أو قد يستعطفه، او قد يغير افكاره بشأن ذنب المجرم واستحقاقه للعقاب.. وامثال هذه الاساليب.

الشفاعة بهذا المعنى هي ـ بعبارة موجزة ـ لا تعني حدوث اي تغيير في المحتوى النفسي والفكري للمجرم أو المتهم. بل إن كل التغييرات والتحولات تتوجه نحو الشخص الذي تقدم اليه الشفاعة (تأمل بدقة).

هذا اللون من الشفاعة ليست له مكانة في المفهوم الديني على الاطلاق. لان الله

سبحانه وتعالى منزه عن الخطأ ولذلك لا يمكن تغيير رأيه، ولا يحمل تلك العواطف الموجودة في نفس الانسان كي يمكن اثارة عواطفه، و لا يهاب نفوذ شخص كي ينصاع لأوامره، ولا يدور ثوابه وعقابه حول محور غير محور العدالة.

ب: المفهوم الآخر للشفاعة يقوم على أساس تغيير موقف «المشفوع له». أي إن الشخص المشفوع له يوفّر في نفسه الظروف والشروط التي تؤهّله للخروج من وضعه السيّء الموجب للعقاب، و ينتقل ـ **عن طريق الشفيع الى وضع مطلوب حَسَن يستحق معه العفو والسماح.** والايمان بهذا النوع من الشفاعة ـ كما سنرى ـ يرتبي ألإنسان و يصلح الافراد المذنبين، و يبعث فيهم الصحوة واليقظة. والشفاعة في الاسلام لها هذا المفهوم السامي.

و سنرى أن كل الاعتراضات والانتقادات والحملات التي توجه الى مسألة الشفاعة، انما تنطلق من فهم الشفاعة بالمعنى الاول المنحرف، ولا تلتفت الى المعنى الثاني المنطقي المعقول البنّاء.

هذا تفسير مقتضب للونين من ألوان الشفاعة احدهما «تخديرى»، والآخر «بنّاء».

* * *

٢ ـ الشفاعة في عالم التكوين

التفسير الصحيح والمنطقي للشفاعة بالمفهوم الذي مرّبنا، نرى له مصاديق كثيرة في عالم التكوين والخلقة، (اضافة الى عالم التشريع). الطاقات الاقوى في هذا العالم تنضم الى الأضعف منها لتسيرها نحو أهداف بنّاءة.

الشمس تشرق والامطار تتساقط، لتفجرّ القوّة الكامنة في جسد البذرة النباتية و لتحركها نحو الانبات، ونحو شقّ جسم التربة والخروج الى الفضاء الذي استمدت البذرة منه طاقات النموّ والتكامل.

هذه الظواهر هي في الحقيقة شفاعة تكوينية على صعيد قيامة الحياة الدنيا. ولو انطلقنا من هذه النماذج الكونية في الشفاعة، لفهم الشفاعة على صعيد التشريع، لا بتعدنا عن الانحراف، و سنوضح ذلك قريبا.

* * *

٣ـمستندات الشفاعة:

القرآن الكريم تحدث في ثلاثين موضعاً عن مسألة «الشفاعة» (بهذاللفظ)، وهناك اشارات اخرى الى هذه المسألة دون ذكر لفظها.

يمكن تقسيم آيات الشفاعة في القرآن الى المجموعات التالية.

المجموعة الاولى ـ آيات ترفض الشفاعة بشكل مطلق كقوله تعالى: «اَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاكُمْ مِنْ قَبْلِ اَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لٰا بَيْعٌ فِيهِ وَلٰا خُلَّةٌ وَلٰا شَفٰاعَةٌ» (البقرة، ٢٥٤)، و كقوله تعالى: «وَلٰا يُقْبَلُ مِنْهٰا شَفٰاعَةٌ» (البقرة، ٤٨).

هذه الآيات رفضت كل الطرق المتصورة لانقاذ المجرمين غيرالايمان والعمل الصالح، سواء كان طريق دفع العوض المادي. أو طريق الصداقة والخلة، أو طريق الشفاعة.

و يقول تعالى بشأن بعض المجرمين: «فَمٰا تَنْفَعُهُمْ شَفٰاعَةُ الشّٰافِعِينَ» (المدثر، ٤٨).

المجموعة الثانية ـ آيات تحصر الشفاعة بالله تعالى، كقوله سبحانه: «مٰالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلٰا شَفِيعٍ» (السجده، ٤)، و «قُلْ لِلّٰهِ الشَّفٰاعَةُ جَمِيعاً» (الزمر، ٤٤).

المجموعة الثالثة ـ آيات تجعل الشفاعة متوقفة على إذن الله تعالى كقوله: «مَنْ ذَاالَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ اِلاّٰ بِاِذْنِهِ» (البقرة، ٢٥٥)، و قوله: «وَلٰا تَنْفَعُ الشَّفٰاعَةُ عِنْدَهُ اِلاّٰ لِمَنْ اَذِنَ لَهُ» (السبأ، ٢٣).

المجموعة الرابعة ـ آيات تبين شروطا خاصة للمشفوع له. هذه الشروط تتمثل أحيانا في رضا الله سبحانه: «وَلٰا يَشْفَعُونَ اِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ» (الانبياء، ٢٨).

واستنادا الى هذه الآية، شفاعة الشفعاء تشمل فقط اولئك الذين بلغوا مرتبة «الارتضاء» أي القبول لدى الله سبحانه وتعالى.

و يتمثل الشرط أحيانا بالعهد عندالله: «لٰا يَمْلِكُونَ الشَّفٰاعَةَ اِلاّٰ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَالرَّحْمٰنِ عَهْداً» (مريم، ٨٧)، والمقصود من هذاالعهد الايمان بالله ورسوله.

و يتحدث القرآن عن سلب صلاحية الاستشفاع عن بعض الافراد مثل

المجرمين، كقوله تعالى: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» (غافر،١٨).

مما تقدم يتضح أن اتخاذ العهد الالهي، والوصول الى منزلة نيل رضا الله، واجتناب بعض الذنوب مثل الظلم، شروط حتمية للشفاعة.

* * *

٤ـ الشروط المختلفة للشفاعة:

آيات الشفاعة تصرح أن مسألة الشفاعة في مفهوم الاسلام مقيدة بشروط، هذه الشروط تحدد تارة الخطيئة التي يستشفع المذنب لها، و تحدّد تارة اخرى الشخص المشفوع له، كما تقيد من جهة اخرى الشفيع، وهذه الشروط بمجموعها تكشف عن المفهوم الحقيقي للشفاعة وعن فلسفتها.

ثمة ذنوب كالظلم مثلا خارجة عن دائرة الشفاعة، كما مرّ،ولو فهمنا «الظلم» بمعناه الواسع ـ كما سنرى من خلال الاحاديث ـ فان الشفاعة تقتصر على المجرمين النادمين السائرين على طريق اصلاح أنفسهم، والشفاعة فى هذه الحالة ستكون دعامة للتوبة وللندم (سنجيب اولئك الذين يتصورون أن التائب النادم لا يحتاج الى الشفاعة).

كما ان الشفاعة تشمل اولئك المرتقين الى درجة «الارتضاء» والى درجة الالتزام بالعهد الالهي كما مرّ أيضا.

الارتضاء، و اتخاذ العهد، يعنيان على المستوى اللغوي والروائي الايمان بالله والحساب والميزان والثواب والعقاب، والاعتراف بالحسنات والسيئات، و بما أنزل الله، ايمانا عميقا في الفكر، ظاهراً في العمل.. ايمانا يبعد صاحبه عن صفات الظالمين الذين لا يؤمنون بأية قيمة إنسانية، و يدفعه الى إعادة النظر في منهج حياته.

يقول تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (النساء،٦٤)، هذه الآية تجعل الاستغفار مقدمة لشفاعة رسول الله (صلّى الله عليه وآله).

و يقول: «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، قَالَ: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (يوسف، ٩٧و٩٨) آثار الندم واضحة على إخوة يوسف

في طلبهم من أبيهم.

و يقول سبحانه: «وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» (المؤمن،٧) فاستغفار الملائكة و شفاعتهم تقتصر على الافراد المؤمنين السالكين سبيل الله.

وهنا يطرح ايضاً سؤال بشأن جدوى الشفاعة للافراد المؤمنين السالكين سبيل الله، و سنجيب على ذلك في دراسة حقيقة الشفاعة.

و بشأن الشفعاء ذكر القرآن لهم شرطاً في قوله تعالى: «اِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ» (الزخرف، ٨٧). من هنا فالمشفوع له أيضا ينبغي ان يسلك طريق الحق في القول والعمل، كي يكون له ارتباط بالشفيع، وهذا الارتباط الضروري، بين الشفيع والمشفوع له، يعتبر بدوره عاملاً بنّاءاً في تعبئة الطاقات على طريق الحق.

* * *

٥ـ الشفاعة في الحديث:

في الروايات الاسلامية تعابير كثيرة تكمل محتوى الآيات المذكورة و توضّح ما خفي منها، من ذلك :

١ ـ في تفسير «البرهان» عن الامام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام)،عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) يَقُولُ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي...» راوي الحديث ابن ابي عمير يقول: فَقُلْتُ لَهُ يَابْنَ رَسُولِ اللهِ كَيْفَ يَكُونُ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ وَاللهُ يَقُولُ «وَلَا يَشْفَعُونَ اِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى» وَمَنْ يَرْتَكِبُ الْكَبَائِرَ لَا يَكُونُ مُرْتَضىً بِهِ؟ فَقَالَ: يَا اَبَا اَحْمَدَ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَرْتَكِبُ ذَنْباً اِلاَّ سَاءَهُ ذٰلِكَ وَنَدِمَ عَلَيْهِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كَفَىٰ بِالنَّدَمِ تَوْبَةً... وَمَنْ لَمْ يَنْدَمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَمْ تَجِبْ لَهُ الشَّفَاعَةُ وَ كَانَ ظَالِماً وَاللهُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ يَقُولُ «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ»[١].

صدر الحديث يتضمن أن الشفاعة تشمل مرتكبي الكبائر. لكن ذيل الحديث

---

(١) تفسير البرهان ج٣، ص٥٧.

يوضح أن الشرط الاساسى في قبول الشفاعة هوالايمان الذى يدفع المجرم الى مرحلة الندم وجبران مافات والبناء الداخلي و يبعده عن الظلم والطغيان والعصيان. (تأمل بدقة).

٢ ـ في كتاب «الكافي» عن الامام جعفربن محمدالصادق (عليه السلام) في رسالة كتبها الى أصحابه قال: «**مَنْ سَرَّهُ اَنْ يَنْفَعَهُ شَفاعَةُ الشّافِعينَ عِنْدَاللهِ فَلْيَطْلُبْ اِلَى اللهِ اَنْ يَرْضىٰ عَنْهُ**»[1].

يتبين من سياق الرواية، أن كلام الامام يستهدف اصلاح الخطا الذي وقع فيه بعض اصحاب الامام في فهم مسألة الشفاعة: و يرفض بصراحة مفهوم الشفاعة الخاطئ المشجع على ارتكاب الذنوب.

٣ ـ وعن الصادق (عليه السلام) أيضاً: «**اِذا كانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ بَعَثَ اللهُ الْعالِمَ وَالْعابِدَ، فَإذا وَقَفابَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قيلَ لِلْعابِدِ: اِنْطَلِقْ اِلَى الْجَنَّةِ، وَقيلَ لِلْعالِمِ: قِفْ تَشْفَعُ لِلنّاسِ بِحُسْنِ تَأْديبِكَ لَهُمْ**»[2].

في هذاالحديث نجد ارتباطا بين «تأديب العالم» و «شفاعته لمن أدّبهم» وهذا الارتباط يوّضح كثيرا من المسائل المبهمة في بحثنا هذا.

أضف الى ما سبق أن في اختصاص الشفاعة بالعالم وسلبها من العابد، دلالة أخرى على أن الشفاعة في مفهوم الاسلام مدرسة للتربية وتجسيد لما مرّبه الفرد من مراحل تربوية في هذاالعالم.

* * *

٦ ـ التأثير المعنوي للشفاعة:

ما ذكرناه من روايات بشأن الشفاعة هو غيض من فيض، فالروايات في هذاالمجال كثيرة تبلغ حدّالتواتر، وانما اخترنا منها ما يتناسب مع بحثنا.

النووي الشافعي[3] في شرحه لصحيح مسلم، نقل عن القاضي عياض، وهو من

---

(١) عن بحارالانوار، ج٣، ص٣٠٤ الطبعة القديمة.

(٢) الاختصاص، للمفيد، نقلاً عن البحار، ج٣، ص٣٠٥.

(٣) هو يحيى بن شرف، من علماء القرن السابع الهجري، والنووي نسبة الى مدينة «النوى» قرب دمشق.

كبار علماء أهل السنة، أنّ أحاديث الشفاعة متواترة.[١]

ابن تيمية (توفي ٧٢٨هـ) و محمدبن عبدالوهاب (توفي ١٢٠٦هـ)، مع مالهما من تعصّب و لجاج في مثل هذه الأمور، يقرّان بتواتر هذه الروايات.

ثمة كتاب دراسي متداول بين «الوهابية» هو «فتح المجيد» للشيخ عبدالرحمن بن حسن، ينقل عن «ابن القيم» مايلي:

الرابع - شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون الناربذنوبهم. والاحاديث بها متواترة عن النبي (صلّى الله عليه وآله) وقد اجمع عليها الصحابة واهل السنة قاطبة و بدعوا من انكرها و صاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال».[٢]

قبل أن ندرس الآثار الاجتماعية والنفسية لمسألة الشفاعة و فلسفتها، نلقي نظرة على الآثار المعنوية لهذه المسألة، في اطار آراء الموحدين المؤمنين بالشفاعة، فمثل هذه النظرة تمهّدالسبيل لدراستنا القادمة في حقل الشفاعة.[٣]

اختلف علماء العقائد المسلمون في كيفية التأثير المعنوي للشفاعة. فقال جمع يسمون «الوعيدية»، وهم المؤمنون بخلود مرتكبي الكبائر في جهنم: ان الشفاعة ليس لها أثر على إزالة آثار الذنوب، بل تأثيرها يقتصر على زيادة الثواب و على التكامل المعنوي.

و «التفضيلية»، وهم من يعتقد بعدم خلود مرتكبي الكبائر في جهنم، فيذهبون الى أن الشفاعة تشمل المذنبين، و تؤثر في اسقاط العقاب عنهم.

أما «الخواجه نصيرالدين الطوسي» فيؤيد الفريقين، في كتابه «تجريد الاعتقاد» و يرى وجود الاثرين للشفاعة.

«العلامة الحلي» شرح عبارة الطوسي في كتابه «كشف المراد» ولم يردّ عليها بل أورد شواهد عليها.

لو أخذنا بنظر الاعتبار مامرّ بنا بشأن معنى الشفاعة لغويا ومقارنتها بالشفاعة

---

(١) البحار، ج٣، ص٣٠٧.

(٢) فتح المجيد، ص٢١١.

(٣) ينبغي الالتفات الى أننا نعالج هذه المسألة من خلال المنطق الخاص لعلماء العقائد.

التكوينيّة، لما ترددنا في صحة ما ذهب اليه المحقق الطوسي.

ثمة رواية معروفة عن الامام الصادق (عليه السلام) هي: «مَا مِنْ اَحَدٍ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ اِلاّ وَهُوَ مُحْتَاجٌ اِلى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

واستنادا الى هذه الرواية، يحتاج الى الشفاعة كل الناس، حتى التائبون المغفور لهم، وفي مثل هذه الحالة لابدّ أن تكون الشفاعة ذات تأثيرين: في الحط من الذنوب، وفي علوّ المنزلة.

اما الروايات التي تنفي الشفاعة للصالحين، فهي تنفي ذلك النوع من الشفاعة الخاص بالمجرمين والمذنبين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ذكرنا أن الشفاعة تعني انضمام الفرد الاشرف والاقوى الى الفرد الاضعف لمساعدة هذاالضعيف، وهذه المساعدة قد تكون لزيادة نقاط القوة، وقد تكون لازالة نقاط الضعف.

في الشفاعة التكوينية نشهد هذين اللونين من الشفاعة في مسيرة حركة التكامل والنموفانّ الظواهر الاضعف تحتاج الى عوامل أقوى لازالة عوامل التخريب تارة (كحاجة النباتات الى نورالشمس لابادة الآفات)، و تارة أُخرى لزيادة نقاط القوة وسرعة التطور (كحاجة النباتات الى نورالشمس من اجل النمّو)، وهكذا الطالب يحتاج الى الاستاذ لاصلاح أخطائه، و لزيادة معلوماته.

كل ذلك يدل على أن للشفاعة أثرين، ولا تقتصر على دائرة إزالة آثار الذنب والاجرام (تأمل بدقة).

• • •

مما تقدم نفهم أن التائبين بحاجة ايضاً الى الشفاعة مع علمنا بان التوبة وحدها كافية لغفران الذنوب، و ذلك لسببين:

١ ـ التائبون بحاجة الى الشفاعة لزيادة مكانتهم المعنوية، ولتقدمهم في مضمار التكامل والارتقاء، وان كان الغفران يتحقق بالتوبة.

---

(١) نقلاً عن البحار وكتب أخرى.

٢ ـ ثمة خطاء وقع فيه كثيرون في فهم التوبة، إذ تصوروا أنّ التوبة من الذنب قادرة على ارجاع الانسان الى حالة ماقبل ارتكاب الذنب، بينما التوبة ليست ـ كما ذكرنا في موضعه ـ سوى مرحلة اولى. انها كالدواء الذي يقطع عوارض المرض، وانقطاع العوارض لايعني عودة الانسان الى حالته الطبيعية، بل يعني انتقاله الى حالة نقاهة يحتاج خلالها الى تقوية بنيته الجسمية، ليعود بعد مدة الى مرحلة ما قبل المرض.

بعبارة أخرى، للتوبة مراحل، والندم على الذنب والعزم على التطهر في المستقبل هو المرحلة الاولى للتوبة. والمرحلة النهائية تتحقق حين يعود التائب الى حالة ما قبل الذنب من كل النواحي. وفي هذه المرحلة تكون شفاعة الشافعين ذات أثر و عطاء.

افضل شاهد على هذا ما ورد في القرآن وذكرناه من قبل بشأن استغفار الرسول (صلّى الله عليه وآله) للتائبين، و توبة اخوة يوسف واستغفار يعقوب لهم، وأوضح من كل ذلك استغفار الملائكة للصالحين والمصلحين. (تأمل بدقة)!.

* * *

٧ـ فلسفة الشفاعة

مرّ بنا فيما سبق «مفهوم» الشفاعة و «اسانيدها» و نستطيع من ذلك أن نفهم بسهولة فلسفة الشفاعة على الصعيد الاجتماعي والنفسي.

إنطلاقا من مفهوم الشفاعة نستطيع أن نتلمس **الآثار التالية في المؤمنين بالشفاعة:**

مكافحة روح اليأس من أهم آثار الشفاعة في نفس المعتقدين بها. مرتكبوا الجرائم الكبيرة يعانون من وخز الضمير، كما يشعرون بيأس من عفو الله، ولذلك لا يفكّرون بالعودة ولا باعادة النظر في طريقة حياتهم الآثمة. وقد يدفعهم المستقبل المظلم الى التعنت والطغيان، والى التحلل من كل قيد تماماً، كالمريض اليائس من الشفاء الذي يتحلل من أي نظام غذائي، لاعتقاده بعدم جدوى التقيد بنظام.

والضمير الناتج عن هذه الجرائم قد يؤدي الى اختلالات نفسية، والى تحفيز الشعور بالانتقام من المجتمع الذي لوّثه. و بذلك يتبدل المذنب الى عنصر خطر، و الى مصدر قلق اجتماعي.

الايمان بالشفاعة يفتح أمام الانسان نافذة نحو النور، و يبعث فيه الامل بالعفو

والصفح، وهذاالامل يجعله يسيطر على نفسه، و يعيدالنظر في مسيرة حياته، بل و يشجعه على تلافي سيئات الماضي.

والايمان بالشفاعة يحافظ على التعادل النفسي والروحي للمذنب. و يفسح الطريق أمامه الى أن يتبدل الى عنصر سالم صالح.

من هنا يمكن القول ان الاهتمام بالشفاعة بمعناها الصحيح عامل رادع بناء، قادر أن يجعل من الفرد المجرم المذنب فردا صالحا. وانطلاقا من هذاالفهم نجد أن مختلف قوانين العالم وضعت فسحة أمل أمام المحكومين بالسجن المؤبّد باحتمال العفو بعد مدة ان اصلحوا انفسهم، كي لا يتسرب اليأس الى نفوسهم بذلك و تبديلهم الى عناصر خطرة داخل السجن أو يصابون باختلالات نفسية.

* * *

٨ـ شروط «توفّرالشفاعة»

الشفاعة بمعناها الصحيح لها قيود وشروط متعددة الجوانب، كما ذكرنا. من هنا فالمؤمنون بهذاالمبدأ لابدّ أن يسعوا لتوفير شروط الشفاعة كي يشملهم عطاؤها، و أن يجتنبوا الذنوب التي تقضي على كل أمل في الشفاعة كالظلم، و أن يستأنفوا حياة جديدة قائمة على أساس تغيير عميق في أنفسهم وأن يتوبوا من الذنب أو يهمّوا بالتوبة على الاقل، من أجل بلوغ درجة «الارتضاء» واتخاذ «العهدالالهي» (بالتفسيرالمذكور).

عليهم أن يكفوا عن مخالفة الاحكام والقوانين الالهية، أو يقللوا من هذه المخالفة ما أمكنهم، و يعمقوا في انفسهم الايمان بالله واليوم الآخر.

من جهة أخرى لابد من وجود «ارتباط» بين «المستشفع» و «الشفيع»، و لذلك لابد للمستشفع أن يسعى لايجاد نوع من التشابه والسنخية و إن كان ضعيفاً بينه و بين الشفيع.

وكما ان «الشفاعة التكوينية» لاتتم الا بوجود نوع من السنخية والتسليم والاستعداد في الموجود الاضعف، كذلك الشفاعة التشريعية لا تتحقق الا بتوفر مثل هذه المعضلات، (تأمل بدقة).

و بهذا يتضح بجلاء أن الشفاعة معناها الصحيح لها دور فعّال في تغيير وضع

المجرمين واصلاحهم.

* * *

٩ـ شبهات حول مسألة الشفاعة

ذكرنا أن بين «الشفاعة» في مفهومها المنحرف و «الشفاعة» في مفهومها الاسلامي الصحيح بوناًشاسعاً. المفهوم الاول يقوم على أساس تغيير وجهة نظر «الشفيع»، والآخر يدور حول محورالتغييرات المختلفة في وضع المستشفع.

واضح أن الشفاعة بمفهومها الاول مرفوضة لانها تقتل روح السعي والمثابرة في النفوس ... وتشجع على ارتكاب الذنوب.. وتعتبر انعكاساً عن المجتمعات المتخلفة والاقطاعية.. و تتضمن اكثر من ذلك نوعاً من الشرك والانحراف عن خط التوحيد.

لاشك أن الانسان المسلم يبتعد عن خط التوحيد لو اعتقد بامكان تقديم «وساطة» الى الله كما تقدم «الوساطات» الى اصحاب النفوذ في هذه الدنيا. لان مثل هذاالفرد قد اعتقد بشكل غير مباشر بإمكان تغيير علم الله! و بامكان خفاء أمر من أمور «المستشفع» على الله!،وبوجود مصدر يمكن أن يطفئ الانسان به غضب الله أو يكسب به ودّه و رضاه!، وبحاجة الله الى مكانة بعض عباده أو خوفه من نفوذهم!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

أما الشفاعة بمعناها الصحيح الذي ذكرناه، فلا تنطوي على هذه العيوب، بل إنها اكثر من ذلك تصلح العيوب، و تعمّق النقاط الايجابية في الكائن البشري.

هذا النوع من الشفاعة لا يشجع على ارتكاب الذنب، بل يدفع الى ترك الذنوب.

لايدعو الى التقاعس والتماهل، بل يبعث في الانسان روح الامل التي يستتبعها عادة تصعيدالارادة لتلافي أخطاء الماضي.

هذه الشفاعة لا ترتبط بالمجتمعات المتخلفة بل هي وسيلة تربوية فعّالة لاصلاح المجرمين والمذنبين والمعتدين.

ليست هذه الشفاعة بشرك ، بل هي عين التوحيد والتأكيد على التوجه الى الله والاستمداد من صفاته و اذنه وامره.

ولمزيد من التوضيح نتحدث اكثر عن مسألة الشفاعة والتوحيد.

* * *

١٠ـ الشفاعة والتوحيد:

الفهم الخاطئ لمسألة الشفاعة آثار اعتراض فئتين، على ما بين الفئتين من تضاد.

الفئة الاولى اعترضت على الشفاعة من منطلق مادي واعتبرتها عاملاً للتخدير ولاماتة روح السعي والمثابرة، وقد أجبنا على اعتراضات هذه الفئة فيما سبق.

الفئة الاخرى اعترضت على الشفاعة من منطلق السلفية واعتبرتها شركا و انحرافا عن خط التوحيد، و يمثل هذه الفئة «الوهابيون» ومن لف لفهم. والاجابة على اعتراضات الوهابيين ـ و إن كانت تحتاج الى إطالة وخروج عن طريقة التفسير ـ هي ضرورية لأسباب عديدة.

لابد من الالتفات أولاً الى أن الحركة الوهابية، التي ظهرت خلال القرنين الاخيرين في الجزيرة العربية على يد «محمدبن عبدالوهاب»، لم تتجه في أفكارها المتطرفة الجافة الى معارضة مدرسة اهل البيت (عليهم السلام) فقط، بل اصطدمت بمعظم المسلمين من أهل السنة أيضاً.

محمدبن عبدالوهاب (توفى ١٢٠٦) استقى افكاره من «ابن تيمية» (احمدبن عبدالحليم الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، أي قبل اربعة قرون تقريبا من ظهور الوهابية)، و يعتبر المنظّر لهذه الحركة.

استطاع عبدالوهاب خلال الأعوام (١١٦٠ ـ ١٢٠٦) بالتعاون مع الحكام المحليين أن ينشر دعوته بين القبائل البدوية المتنقلة في الجزيرة العربية وبَثّ فيهم تعصبا أعمى باسم الدفاع عن التوحيد ومكافحة الشرك، وعبّد البدو المتعصبين من أتباعه على طريق قمع معارضيه، واستطاع بذلك أن يكتسب قدرة سياسية و يسيطر بشكل مباشر و غير مباشر على الحكم، واراق من أجل ذلك دماء كثير من المسلمين في ارض الجزيرة العربية و خارجها.

في سنة ١٢١٦ (عشر سنوات بعد وفاة مؤسس الحركة الوهابية) هجمت جماعة

من الوهابيين على مدينة كربلاء قادمة من صحراء الجزيرة العربيـة، واستغلت فرصة سفر أهالي المدينة الى النجف الاشرف بمناسبة عيدالغدير، وارتكبت أعمالا تخريبية في حرم سيدالشهداء الحسين بن علي (عليه السلام)، وسائر المراقد الشريفة في هذه المدينة، و نهبت ما فيها من أبواب ذهبية ونفائس، وقتلت ما يقرب من خمسين شخصا قرب ضريح الحسين و خمسمائة شخص فى صحن الروضة المشرفة، كما قتلت أعداداً كبيرة في سائر انحاء المدينة، حتى بلغ عددالمقتولين في ذلك الهجوم الوهابي خمسة آلاف إنسان، ولم يسلم منهم حتى الشيوخ والعجائز والاطفال، كما نهبوا أعداداً كبيرة من البيوت.

في عام ١٣٤٤ أفتى فقهاء المدينة الخاضعون لجهاز الحكم الوهابي بهدم قبور أئمة الاسلام واولياء الله الصالحين، و نفذت هذه الفتوى في اليوم الثامن من شوّال من السنة المذكورة، وهمّ المنفذون أن يهدموا قبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أيضاً، لولا تراجعهم أمام صيحات اعتراض المسلمين.

اتباع محمدبن عبدالوهاب يتميزون على العموم بالخشونة والتصلب والسطحية واللجاج والبعد عن المنطق والتعقّل.

و هؤلاء حصروا الاسلام، عمداً أو غفلة، في إطار مكافحة عدد من الظواهر كالشفاعة و زيارة القبور والتوسل، و بذلك أبعدوا أتباعهم ومن خضع لسيطرتهم عن المسائل الاسلامية الحياتية، وخاصة فيما يرتبط بالعدالة الاجتماعية ومكافحة السيطرة الاستعمارية والتصدي للثقافة المادية و للمدارس الالحادية.

لذلك لاتجد في أوساط الوهابيين حديثاً عن هذه المسائل، بل تسود جوّهم حالة فظيعة من الغفلة والركود.

نعود الى رأي هذه الفئة بشأن الشفاعة، هؤلاء يقولون: لا يحق لاحد أن يستشفع برسول الله، و أن يقول: «يامحمد اشفع لي عندالله»، لان الله سبحانه يقول: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً» (الجن، ١٨).

وفي رسالة «كشف الشبهات» لمحمدبن عبدالوهاب نقرأ ما يلي:

فان قال ان النبي (صلّى الله عليه وآله) اعطى الشفاعة واطلبه مما اعطاه الله فالجواب ان الله اعطاه الشفاعة و نهاك عن هذا وقال: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً»، و ايضاً

فان الشفاعة اعطاها غيرالنبي فصح ان الملائكة يشفعون والاولياء يشفعون... اتقول ان الله اعطاهم الشفاعة فاطلبها منهم؟ فان قلت هذا رجعت الى عبادة الصالحين[1].

وفي رسالة «اربع قواعد» يقرر محمدبن عبدالوهاب أن التحرر من الشرك لايمكن إلاّ بالاعتراف بقواعد أربع:

قال محمدبن عبدالوهاب فى رسالة اربع القواعد ما حاصله: ان الخلاص من الشرك يكون بمعرفة اربع قواعد.

الاولى: انّ الكفار الذين قاتلهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) مقرّون بان الله تعالى هوالخالق الرازق المدبر... لقوله تعالى **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ...** (يونس،٣١)

الآية الثانية: انهم يقولون ما دعونا الأصنام وتوجهنا اليهم الا لطلب القرب والشفاعة... **وَيَقُولُونَ هٰؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِندَاللهِ** (يونس،١٨).

الثالثة: انه (صلّى الله عليه وآله) ظهر على قوم متفرقين فى عبادتهم فبعضهم يعبد الملائكة و بعضهم الأنبياء الصالحين و بعضهم الاشجار والاحجار و بعضهم الشمس والقمر فقاتلهم ولم يفرق بينهم.

الرابعة: ان مشركي زماننا اغلظ شركاً من الاولين لان اولئك يشركون فى الرخاء و يخلصون فى الشدة، وهؤلاء شركهم فى الحالتين لقوله تعالى: **فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ...** (عنكبوت،٦٥)[2]

ومن العجيب أن الوهابيين تبلغ بهم الجرأة في تكفيرالمسلمين بحيث يبيحون نهب اموال المسلم وسفك دمه بسهولة، وقد فعلوا ذلك في تاريخهم مراراً.

يقول الشيخ «سليمان بن لحمان» في كتابه «الهدية السنية»:

«ان الكتاب والسنة دلاّ على ان من جعل الملائكة والانبياء او ابن عباس او اباطالب او... وسائط بينهم و بين الله ليشفعوا لهم عندالله لاجل قربهم الى الله ـ كما يفعل عندالملوك ـ انه كافر مشرك حلال الدم والمال! وان قال اشهد ان لا اله الاّ الله

---

(١) كشف الشبهات لمحمدبن عبدالوهاب نقلاً عن رسالة البراهين الجلية ص١٧.

(٢) رسالة اربع قواعد ص٢٤ ـ ٢٧ طبع المنار بمصر (نقلاً عن كتاب كشف الارتياب ص١٦٣).

واشهد ان محمّداً رسول الله وصلّى وصام»!![1].

ومع هذاالافتاء يتضح حال المسلمين في جميع اقطار العالم الاسلامى الذين يستشفعون بهم، اقتداء بكتاب الله و سنّة نبيّه (صلّى الله عليه وآله).

روح البطش والسفك واللجاجة في هؤلاء لاتخفى على أحد، وهكذاجهلهم بالمسائل الاسلامية والقرآنية.

* * *

نظرة على منطق الوهابيين في حقل الشفاعة

يبدو مما نقلناه عن مؤسس الحركة الوهابية أن اتهام الوهابيين بالشرك للمؤمنين بالشفاعة يستند الى مسألتين:

١ ـ وجه الشبه بين المؤمنين بشفاعة الانبياء والصالحين و بين المشركين في عصر الجاهلية.

٢ ـ نهي القرآن عن عبادة غيرالله وعن دعوة فرد مع الله «فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ اَحَداً» (الجن،١٨)، والاستشفاع نوع من العبادة.

بالنسبة للمسألة الاولى، ارتكب الوهابية خطأ فظيعا، و ذلك للاسباب التالية:

اولاً ـ القرآن اقرّ منزلة الشفاعة بصراحة لجمع من الانبياء والصالحين والملائكة كما مرّ، لكنه قيدها باذن الله. وليس من المعقول إطلاقا أن يكون الله قد نهى عن الاستشفاع المشروط باذن الله، بمن قد منحهم هوسبحانه هذه المنزلة.

و صرّح القرآن بطلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم، وهكذا صرّح بطلب مثل هذا تقدم به الصحابة الى النبي (صلّى الله عليه وآله).

أليست هذه من المصاديق الواضحة لطلب الشفاعة؟! إن الاستشفاع برسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعبارة: «اشفع لنا عندالله» هي نفسها عبارة اخوة يوسف إذ قالوا لابيهم: «يا اَبانَا اسْتَغفِرْ لَنا» (يوسف،٩٧) كيف يجرأ هؤلاء على القاء تهمة الشرك على من يؤمن بما يصرّح به القرآن، بل و يستبيحون دمه وماله؟!!

---

(١) الهدية السنية ص٦٦ (نقلاً عن البراهين الجليّة ص٨٣).

لوكان هذاالعمل شركا، فلم لم ينه يعقوب بنيه عن ذلك .

ثانيا ـ لا يوجد أدنى شبه بين «عبدة الاصنام» و «الموحدّين المؤمنين بالشفاعة بإذن الله»، لان الوثنيين كانوا يعبدون الاصنام و يتخذونها شفعاء، بينما المسلمون المؤمنون بالشفاعة، لاتخطر في ذهنهم عبادة الشفعاء، بل يستشفعون بهم الى الله، وطلب الشفاعة لا ارتباط له بمسألة العبادة كما سنبيّن.

عَبَدة الاصنام كانوا يتعجبون من عبادة الاله الواحد الاحد: «أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهاً واحِداً إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ عُجابٌ» (ص،٥).

الوثنيون كانوا يجعلون الوثن في منزلة الله: «تَاللهِ إِنْ كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (الشعراء،٩٨).

الوثنيون كانوا يعتقدون بتأثير الاوثان على حياتهم ومصيرهم ووجودهم، كما تذكر كتب التاريخ، والمسلمون المؤمنون بالشفاعة يعتقدون بانفراد الله في التأثير، ولا يرون لموجود استقلالا في التأثير.

والمقارنة بين الرؤيتين مقارنة جاهلة مجافية للمنطق بشأن المسألة الثانية، علينا أولا أن نفهم معنى «العبادة»، لو فسرّنا العبادة بأنها كل لون من ألوان الخضوع والاحترام، لكان ذلك يعني حرمة الاحترام والخضوع لاحد غيرالله، وهذا ما لا يقرّه مسلم. ولو فسرّنا العبادة أنها كل الوان الطلب، فهذا يعني أن التقدم بالطلب من أية جهة هو شرك ، وهذا يخالف ضروريات العقل والدين. كما إن العبادة لايمكن فهمها على أنها كل لون من الوان اتباع فرد لفرد آخر، فاتباع الافراد لمسؤوليهم و رؤسائهم في المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية من اولى ضروريات الحياة البشرية، كما ان اتباع الانبياء وائمة الدين من الواجبات الحتمية للمتدينين.

من هنا فالعبادة لا تعنى كل ذلك ، بل هي الحدّ الاعلى للخضوع والتواضع المعبّرين عن الارتباط المطلق والتسليم بلا منازع للمعبود، و ايكال كل عواقب الامور اليه.

وهل في طلب الشفاعة من الشفعاء أثر من الآثار المذكورة للعبادة.

أما بشأن النهى عن دعوة أحد سوى الله، فلا يعني النهي عن نداء الافراد، كأن

نقول يا عليّ و يا حسن و يا أحمد، ولا يعني النهي عن الاستعانة بالافراد، لان التعاون احد الاركان الاساسية للحياة الاجتماعية، ومن الضرورات الدينية، ولم يرفضه الوهابيون أنفسهم.

أما «الدعوة» التي يمكن الاعتراض عليها فهي التي وضحها «ابن تيمية» في رسالة «زيارة القبور» اذ قال ما حاصله: «مطلوب العبد ان كان مما لايقدر عليه الا الله فسائله من المخلوق مشرك من جنس عباد الملائكة والتماثيل ومن اتخذ المسيح وامه الهين، مثل ان يقول لمخلوق حي اوميت: اغفر ذنبي او انصرني على عدوى او اشف مريضى او عافني او عاف اهلى او دابتي، او يطلب منه وفاء دينه من غير جهة معينة او غير ذلك.

وان كان مما يقدر عليه العبد فيجوز طلبه منه في حال دون حال، فان مسألة المخلوق قد تكون جائزة وقد تكون منهياً عنها قال الله تعالى: «فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ» و اوصى النبي (صلّى الله عليه وآله) ابن عباس: اذا سألت فاسئل الله، واذا استعنت فاستعن بالله. واوصى طائفة من اصحابه ان لا يسألوا الناس شيئاً، فكان سوط احدهم يسقط من كفه فلايقول لاحد ناولني اياه. وقال: فهذه المنهي عنها والجائزة طلب دعاء المؤمن لاخيه»[1].

نحن أيضاً نقول: من الشرك أن يطلب الانسان من أحد شيئاً يختص به الخالق، ومن الشرك أن يتجه الانسان في ذلك الطلب الى فرد يعتبره قادرا بشكل مستقل على تلبية ذلك الطلب. أما اذا طلب الانسان من أحد شفاعة منحها له الله، فما ذلك بشرك، بل هو عين الايمان والتوحيد، و يشهد على ذلك كلمة «مع» في قوله تعالى: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً» التي تفيد ان المنهي عنه هو دعوة شخص نعتبره في منزلة الله و نعتبره مصدرا مستقلا في التأثير. (تأمل بدقة).

° ° °

هدفنا من التأكيد على هذا الموضوع، هو أن ما اعتراه من مسخ و تحريف وفرّ الفرصة لاعداء الدين كي يطعنوا في المقدسات الدينية، كما أدّى الى ظهور تفسيرات

---

(١) زيارة اهل القبور ص١٥٢ نقلاً عن كشف الارتياب ص ٢٦٨.

واستنتاجات خاطئة لدى بعض المجموعات الاسلامية،مما جرّ بدوره الى تفرقة صفوف المسلمين.

والفهم الصحيح للشفاعة يؤدي كما رأينا الى سمّوا أخلاق المجتمع وتكاملها. و الى إصلاح الافراد الفاسدين، كما يؤدي الى قطع دابرالطعانين، والى إحلال الوحدة بين المسلمين.

نأمل من العلماء والمفكرين الاسلاميين أن يتعمّقوا في تحليل هذه المسألة قرآنيا و منطقيا، كي يسدّوا الطريق امام طعن أعداء الاسلام و يساهموا في رصّ الصفوف.

***

الآية

٤٩ ـ «وَ إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ».

التفسير

نعمة الحرية

في هذه الآية اشارة الى نعمة كبيرة أخرى، منّ بها الله سبحانه على بني اسرائيل، وهي نعمة تحريرهم من براثن الظالمين: «وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ».

القرآن يعبّر عن العذاب الذي انزله فرعون ببني اسرائيل بالفعل «يَسُومُونَكُمْ» من «سام» التي تعني في الاصل الذهاب في ابتغاء الشيء، واستعمال هذاالفعل يشير الى استمرار العذاب، والى أن بني اسرائيل كانوا دوما تحت التعذيب.

والقرآن عبّر بكلمة «البلاء» عمّا كان ينزل ببني اسرائيل من عذاب يتمثل في قتل الذكور واستخدام الاناث لخدمة آل فرعون، واستثمار طاقات بني اسرائيل لاشباع رغبات و نزوات المستكبرين.

والبلاء يعني الامتحان، كما قد يعني العقاب، لان بني اسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمة ربهم، فكان ما أصابهم من آل فرعون عقابا على كفرانهم. وذكر بعض المفسرين أن البلاء يعني النعمة أيضاً، و بذلك يكون البلاء العظيم يعني النعمة العظيمة، والمقصود منها نعمةالنجاة من آل فرعون.[1]

---

(١) يقال بلي الثوب أي خلق، و بلوته: اختبرته كاني أخلقته من كثرة اختباري له، وسميّ الغمّ بلاء من حيث إنه يُبلي الجسم، وسميّ التكليف بلاء لان التكاليف مشاقّ على الابدان ولانها اختبارات، ولان اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسارّ ليشكروا و تارة بالمضار ليصبروا، فصارت المنحة والمحنة جميعاً بلاءً. (المفردات، مادة: بلى)

على كل حال، يوم نجاة بني اسرائيل من آل فرعون يوم تاريخي مهم، ركّز عليه القرآن في مواضع عديدة، ولنا وقفات اخرى عند هذاالحدث الكبير.

من الملفت للنظر أن القرآن يسمّي ذبح الابناء واستحياء النساء عذابا. ولو عرفنا أن استحياء النساء يعني استبقاءهن، وتركهن أحياء، لا تضح لنا أن القرآن يشير الى أن مثل هذاالاستبقاء المذل هوعذاب أيضا مثل عذاب القتل. وهذاالمعنى يشير اليه الامام اميرالمؤمنين علي (عليه السلام) اذ يقول: «فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ»[1].

عملية الاماتة كانت شاملة للذكور والأناث مع اختلاف في ممارسة هذه العملية. و في عالمنا المعاصر يمارس طواغيت الارض عملية الاماتة أيضاً بأساليب أخرى، و ذلك عن طريق قتل روح الرجولة في الذكور، و دفع الاناث الى مستنقع اشباع الشهوات.

من المفسرين من ذهب الى أن سبب قتل ابناء بني اسرائيل واستحياء نسائهم ، يعودالى رؤ يا عرضت لفرعون في منامه. ولكن السبب ليس الرؤ يا وحدها ـ كماسنبيّن ذلك في تفسير الآية الرابعة من سورة القصص ـ بل هو ايضا خوف الفرعونيين من اشتداد قوة بني اسرائيل وتشكيلهم خطراً على سلطة آل فرعون.

* * *

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٥١.

الآية

٥٠ ـ «وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ، فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».

التفسير

النجاة من آل فرعون

الآية السابقة أشارت الى نجاة بني اسرائيل من براثن الفرعونيين، وهذه الآية توضح طريقة النجاة، «وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ، فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».

قضية غرق آل فرعون في البحر و نجاة بني اسرائيل، وردت في سور عديدة مثل سورة الأعراف، الآية ١٢٦، و سورة الانفال، الآية٥٤. و سورة الاسراء الآية ١٠٣. والشعراء الآية ٦٣ و٦٦ والزخرف، ٥٥. والدخان، الآية ١٧ وما بعدها .

في هذه السور ذكرت كل تفاصيل الحادث، اما هذه الآية فاكتفت بالاشارة الى هذه النعمة الالهية في معرض دعوة بني اسرائيل الى قبول الرسالة الخاتمة.[١]

حادثة الانقاذ باختصار حدثت بعد عدم استجابة فرعون والفرعونيين لدعوة موسى مع كل ما شاهدوه منه من معجزات. إذ ذاك أُمر أن يخرج مع بني إسرائيل من مصر، وعند وصولهم النيل، علموا أن فرعون وجيشه يلاحقونهم، فاعترى بني اسرائيل خوف واضطراب شديدان. فالبحر أمامهم والعدو وراء هم. وفي هذه اللحظات الحساسة، امر موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانشقت فيه طرق متعددة عبر منها بنواسرائيل، بينما التحم الماء حينما كان آل فرعون في وسطه، فغرقوا جميعا و نجا بنواسرائيل، وهم ينظرون الى هلاك أعدائهم.

---

(١) راجع التفاصيل في المجلد ١٣ تفسير، الآية ٧٧ وما بعدها من سورة طه.

الهدف من تذكير بني إسرائيل بهذا الحدث الذي بدأ بخوف شديد وانتهى بانتصار ساحق، هو دفعهم للشكر وللسير على طريق الرسالة الالهية المتمثلة في دين النبي الخاتم.

كما انه تذكير للبشرية بالامداد الالهي الذي يشمل كل أمة سائرة بجدٍ واخلاص على طريق الله.

* * *

الآيات

٥١ - «وَإِذْ واعَدْنا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ».
٥٢ - «ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».
٥٣ - «وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».
٥٤ - «وَإِذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلىٰ بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ».

التفسير

اكبر انحرافات بني اسرائيل

في هذه الآيات الأربع، تأكيد على مقطع آخر من تاريخ بني اسرائيل، وعلى اكبر انحراف اصيبوا به في تاريخهم الطويل، وهو الانحراف عن مبدأ التوحيد، والاتجاه الى عبادة العجل. وهذا التأكيد تذكير لهم بما لحقهم من زيغ نتيجة إغواء الغاوين، و تحذير لهم من تكرر هذه التجربة في مواجهة الدين الخاتم: «وَإِذْ واعَدْنا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» وهي ليالي افتراق موسى عن قومه، «ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ».

* * *

شرح هذا المقطع من تاريخ بني اسرائيل سيأتي في سورة الاعراف الآية ١٤٢ وما بعدها، وفي سورة طه الآية ٣٦ وما بعدها، وملخصه.

بعد نجاة بني اسرائيل من قبضة الفراعنة، أمر موسى بالذهاب الى جبل الطور مدة ثلاثين ليلة لتسلم الواح التوراة، ثم مُدّدت هذه الليالي الى أربعين ليلة من أجل اختبار قومه. و استغل السامريّ الدجّال هذه الفرصة، فجمع ما كان لدى بني اسرائيل من

ذهب الفراعنة ومجوهراتهم، وصنع منها عجلا له صوت خاص، و دعا بني اسرائيل لعبادته. فاتبعه اكثر بني اسرائيل، و بقي هارون ـ اخو موسى وخليفته ـ مع اقلية من القوم على دين التوحيد، وحاول هؤلاء الموحدون الوقوف بوجه هذا الانحراف فلم يفلحوا، و أوشك المنحرفون أن يقضوا على حياة هارون.

بعد أن عاد موسى من جبل الطور، تألم كثيراً لما رآه من قومه، ووبخهم بشدّة، فعاد بنواسرائيل الى رشدهم، و فهموا خطأهم، وطلبوا التوبة فجاءهم أمر السماء بتوبة ليس لها نظير، سنذكرها فيما يلي.

في الآية التالية يقول سبحانه: «**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**».

و بعدها اشارة الى ماجاء بني اسرائيل من هداية تشريعية: «**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**».

كلمتا «الكتاب» و «الفرقان» قد تشيران كلاهما الى التوراة، وقد يكون المقصود من «الكتاب» التوراة و «الفرقان» ما قدمه موسى من معاجز باذن الله، لأن الفرقان يعني في الاصل ما يفرّق بين الحق والباطل.

ثم يشير القرآن الى طريقة التوبة المطروحة على بني اسرائيل: «**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ، فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»

و «الباري» هو الخالق، و في الكلمة اشارة الى أن هذا الامر الالهي بالتوبة الشديدة صادر عمّن خلقكم وعمّن هو أعرف بما يضرّكم و ينفعكم.

* * *

ذنب عظيم وتوبة فريدة

لا شك أن عبادة عجل السامري لم تكن مسألة هينة، لان بني اسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات الله ومعجزات نبيهم موسى (عليه السلام)، ثم نسوا ذلك دفعة، وخلال فترة قصيرة من غياب النبي! انحرفوا تماماً عن مبدأ التوحيد وعن الدين الالهي.

كان لابدّ من اقتلاع جذور هذه الظاهرة الخطرة، كي لا تعود الى الظهور ثانية

خاصة بعد وفاة صاحب الرسالة.

ومن هنا كانت الأوامر الالهية بالتوبة شديدة لم يسبق لها نظير في تاريخ الانبياء، و تقضي هذه الاوامر أن تقترن التوبة باعدام جماعي لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقة تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الالهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضا، وفي ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الاصدقاء والمعارف على يديه، وما ينزل به ـ هو نفسه ـ ومن عذاب القتل.

وجاء في الاخبار أن موسى أمر في ليلة ظلماء كل المنحازين الى عبادة العجل، أن يغتسلوا و يرتدوا الاكفان و يعملوا السيف بعضهم في رقاب بعضهم.

السبب في شدة هذا الحكم ـ كما ذكرنا ـ يعود الى عظمة الذنب الذي ارتكبوه بعد كل ما شاهدوه من آيات ومعاجز، و الى أن هذا الذنب يهدّد وجود الدعوة ومستقبلها، خاصة و أن بني اسرائيل كانوا على مرّ التاريخ قوماً متعنتين لجوجين. ولا بد إذن من عقاب صارم يبق رادعا للأجيال التالية عن السقوط في هاوية الشرك . ولعل في عبار قوله تعالى: «ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ» إشارة الى هذا المعنى.

* * *

الآيتان

٥٥ - «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».

٥٦ - «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

التفسير

طلب عجيب!

هاتان الآيتان تذكّران بني اسرائيل بنعمة الهية اخرى، كما توضحان في الوقت نفسه روح اللجاج والعناد في هؤلاء القوم، وتبيان مانزل بهم من عقاب الهي، وما شملهم الله به من رحمة بعد ذلك العقاب.

تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً».

هذاالطلب قد ينم عن جهل بني اسرائيل، لان ادراك الانسان الجاهل لا يتعدّى حواسه. ولذلك يرمي الى أن يرى الله بعينه.

أو قد يحكى هذاالطلب عن ظاهرة لجاج القوم وعنادهم التي يتميزون بها دوماً.

على أي حال، طلب بنواسرائيل من نبيهم بصراحة أن يروا الله جهرة، وجعلوا ذلك شرطاً لايمانهم.

عندئذ شاء الله سبحانه أن يرى هؤلاء ظاهرة من خلقه لا يطيقون رؤيتها، ليفهموا أن عينهم الظاهرة هذه لا تطيق رؤية كثير من مخلوقات الله، فما بالك برؤية الله سبحانه!! نزلت الصاعقة على الجبل وصحبها برق شديد ورعد مهيب و زلزال مروع، فتركهم على الارض صرعى من شدة الخوف «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».

* * *

اغتم موسى لما حدث بشدّة، لان هلاك سبعين نفراً من كبار بني اسرائيل،

قد يوفر الفرصة للمغامرين من ابناء القوم أن يثيروا ضجّة بوجه نبيهم. لذلك نضرّع موسى الى الله أن يعيدهم الى الحياة، فقبل طلبه وعادوا الى الحياة: «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

هذا باختصار شرح الواقعة، و سيأتي تفصيلها في سورة الاعراف، الآية ١٥٥، و سورة النساء الآية ١٥٣.[١]

هذه القصة تبين من جانب آخر ما عاناه الانبياء من مشاكل كبرى على طريق دعوتهم. كان قومهم يطلبون منهم معاجز خاصة، وكان العناد يبلغ ببعض الاقوام حداً يطلبون فيه أن يروا الله جهرة، شرطاً لايمانهم. وحينما يواجه هذا الطلب غير المنطق بجواب الهي مناسب حاسم، تحدث للنبي مشكلة أخرى. ولولا لطف الله و تثبيته لما كان بالامكان المقاومة تجاه كل هذا العناد.

وهذه الآية تشير ضمنيا الى إمكان «الرجعة»، أي الرجوع، الى هذه الحياة الدنيا بعد الموت. لان وقوعها في موضع معين يدل على امكان الوقوع في مواضع أخرى.

ولكن عدداً من مفسري أهل السنة أوّلوا «الموت» في هذه الآية الى غير المعنى الظاهر لعدم رغبتهم في قبول «الرجعة»[٢].

* * *

---

(١) راجع المجلد السادس من هذا التفسير.

(٢) ذهب صاحب المنار الى أن المقصود بالبعث بعد الموت، منح الذرية الكثيرة لبني اسرائيل كي لا ينقطع نسلهم، وقال الآلوسي في «روح المعاني» إن الموت هنا يعني الغيبوبة، والبعث يعني صحوة بني اسرائيل من غيبوبتهم، وراح بعض يفسّر الموت بالجهل، والبعث بالتعليم. ولكن هذه المعاني كلها بعيدة عن هذه الآية والآيات المشابهة لها في سورة الاعراف، ولا تليق بمفسر ينشد فهم الحقيقة.

الآية

٥٧ - «وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَ اَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَلٰكِنْ كانُوا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

التفسير

النعم المتنوعة

بعد أن نجا بنواسرائيل من الفرعونيّين، تذكر الآيات ٢٣ - ٢٩- من سورة المائدة، أن بني اسرائيل أمروا لأن يتجهوا الى ارض فلسطين المقدسة، لكن هؤلاء أبوا الاطاعة، واصروا على عدم الذهاب، مادام فيها قوم جبارون (العمالقة)، واكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له: «فَاذْهَبْ اَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا اِنّا هٰهُنا قاعِدُونَ» (المائدة، ٢٤).

تألم موسى لهذا الموقف و دعا ربه اذ «قالَ رَبِّ اِنّي لا اَمْلِكُ اِلاّ نَفْسي وَ اَخي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقينَ» (المائده، ٢٥) فكتب عليهم التيه اربعين عاما في صحراء سيناء.

مجموعة من التائهين ندمت على ما فعلته أشد الندم، و تضرعت الى الله، فشمل الله سبحانه بني اسرائيل ثانية برحمته، وانزل عليهم نعمه التي تشير الآية الى بعضها: «وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ».

والظل له أهمية الكبرى لمن يطوي الصحراء تحت حرارة الشمس اللائحة: خاصة ان مثل هذا الظل لا يحدّ الفضاء على الانسان ولا يمنع عنه هبوب النسيم.

يبدو أن الغمام الذي تشير اليه الآية الكريمة، ليس من النوع العابر الذي يظهر عادة في سماء الصحراء، ولا يلبث أن يتفرق و يزول، بل هو من نوع خاص تفضل به الله على بني اسرائيل، ليستظلوا به بالقدر الكافي.

إضافة الى الظل وفّرالله سبحانه لبني اسرائيل بعد تيههم، الطعام الذي كانوا في أمسّ الحاجة إليه خلال أربعين عاما خلت من ضياعهم: «وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوىٰ، كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ».

لكن هؤلاء عادوا الى الكفران «وَما ظَلَمُونا وَلٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وسنشرح «المن» و«السلوى» في الوقفات.

* * *

وقفات

١ـ الحياة الجديدة بعد التحرر:

الامة التي تتحرر بعد عصر من الذل والاستضعاف والاستعباد، لا تستطيع أن تتخلى تماما عن حالتها النفسية والثقافية الموروثة عن عصر الطاغوت، ولا بد من فترة برزخية تمر بها كي تكون قادرة على إقامة حكم الله في الارض، وفق معايير الهية بعيدة عن مؤثرات عصر الطاغوت.

وسواء امتدت هذه الفترة البرزخية أربعين عاما كما حدث لبنى اسرائيل، أو أقل أو اكثر، فهي فترة عقاب إلهي هدفها التزكية والاصلاح والبناء.

وخلال فترة اربعين عاماً من «التيه» في الصحراء، تربّى جيل جديد حامل لصفات توحيدية ثورية، ومؤهل لاقامة الحكم الالهي في الارض المقدسة.

* * *

٢ـ المنّ والسّلوي:

تعددت أقوال المفسرين في معنى هاتين الكلمتين، ولا حاجة الى استعراضها جميعا، بل نكتفي بذكر معناهما اللغوي، ثم نذكر تفسيرا واحدا لهما هو في اعتقادنا أوضح التفاسير واقربها الى الفهم القرآني.

«المنّ» شيء كالطلّ فيه حلاوة يسقط على الشجر[1] أو بعبارة أخرى هو عصارة شجر ذات طعم حلو، وقيل طعم حلو ممزوج بالحموضة.

---

(١) المفردات، الراغب الاصفهاني

و «السّلوى» يعنى التسلّي، وقال بعض اللغويين وجمع من المفسرين إنه «طائر».

وروي عن النبي (صلّى الله عليه وآله): «ان الكماة من المنّ».

وقيل: «المنّ والسّلوى كلاهما اشارة الى ما أنعم الله به عليهم، وهما بالذات شيء واحد، لكن سماه منّا لأنه امتن به عليهم، وسمّاه سلوى من حيث إنه كان لهم به التسلّي»[1]. هذا المعنى الاخير اختاره بعض المفسرين المتأخرين، واقتصر عليه دون غيره من المعاني[2]، وهو مع مخالفته لرأي معظم المفسرين، يخالف ظاهر الآية حيث تقول: «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» وفي هذا التعبير دلالة واضحة على أن المنّ والسلوى نوعان من الطعام.

وتذكر التوراة أن «المنّ» حبٌّ يشبه بذر الكزبرة يتساقط على الارض ليلا، وكان بنواسرائيل يجمعونه و يصنعون منه خبزا ذا طعم خاص.

و ثمة احتمال آخر هو إن الأمطار الغزيرة النافعة التي هطلت بفضل الله على تلك الصحراء أثرت على اشجار تلك المنطقة فأفرزت عصارة حلوة استفاد منها بنو اسرائيل.

واحتمل بعضهم أن يكون «المنّ» نوعاً من العسل الطبيعي حصل عليه بنواسرائيل في الجبال والمرتفعات المحيطة بصحراء التيه. وهذا التفسير يؤيد ما ورد من شروح على العهدين (التوراة والانجيل) حيث جاء: «الاراضي المقدسة معروفة بكثرة أنواع الاوراد والازهار، ومن هنا فان مجاميع النحل تبني خلاياها في أخاديد الصخور وعلى أغصان الاشجار وثنايا بيوت الناس، بحيث يستطيع أفقر الناس أن يتناول العسل»[3].

بشأن «السلوى» قال بعض المفسرين انه العسل، وأجمع الباقون على أنه نوع من الطير، كان يأتي على شكل اسراب كبيرة الى تلك الارض، وكان بنواسرائيل يتغذون

---

(١) المفرادت، الراغب الاصفهاني

(٢) تفسير «پرتوي از قرآن» (فارسی)، الطالقاني، ج١، ص١٦٥.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ص٦١٢.

من لحومها.

في النصوص المسيحية تأييد لهذاالرأي حيث ورد في تفسير على العهدين مايلي: «إعلم أن السلوى تتحرك بمجموعات كبيرة من أفريقيا، فتتجه الى الشمال، و في جزيرة كابري وحدها يصطاد من هذا الطائر١٦ الفا في الفصل الواحد.. هذاالطائر يجتاز طريق بحرالقلزم، وخليج العقبة والسويس، و يدخل شبه جزيرة سيناء. و بعد دخوله لا يستطيع أن يطير في ارتفاعات شاهقة لشدّة مالاقاه من تعب وعناء في الطريق، فيطير على ارتفاع منخفض و لذلك يمكن اصطياده بسهولة.. وورد ذكر ذلك في سفرالخروج و سفرالاعداد من التوراة»[١].

يستفاد من هذاالنص أن المقصود بالسلوى طير خاص سمين يشبه الحمام معروف في تلك الارض.

شاءالله بفضله ومنّه أن يكثر هذاالطير في صحراء سيناء آنئذ لسدّ حاجة بني إسرائيل من اللحوم، ولم تكن هذه الكثرة من الطير طبيعية في تلك المنطقة.

* * *

٣ـ لماذا قالت الآية «أنزلنا»؟

عبرت الآية الكريمة عن نعمة تقديم المن والسلوى بالانزال، وليس الانزال دائماً ارسال الشي من مكان عال، كقوله تعالى: «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ» (الزمر، ٦).

واضح أن الانعام لم تهبط من السماء، من هنا فالانزال في مثل هذه المواضع:

إما أن يكون «نزولا مقاميا» أي نزولاً من مقام أسمى الى مقام أدنى.

أو أن يكون من «الانزال» بمعنى الضيافة، يقال انزلت فلانا: أي أضفته، والنزل (على وزن رُسُل) ما يُعدّ للنازل من الزاد، ومنه قوله تعالى: «فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ» (الواقعة، ٩٣) وقوله سبحانه: «خالِدِينَ فِيها نُزُلاً مِنْ عِنْدِاللهِ» (آل عمران، ١٩٨).

و تعبير «الانزال» للمنّ والسلوى، قد يشير الى أن بني اسرائيل كانوا ضيوف الله

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص٤٨٣.

في تلك الارض، فاستضافهم بالمن والسلوى.

و يحتمل أن يكون الانزال بمعنى الهبوط من الاعلى لان النعم المذكورة وخاصة (السلوى) تهبط الى الارض من الاعلى.

* * *

٤ـ ماهوالغمام؟

قيل: الغمام والسحاب بمعنى واحد، وقيل الغمام هوالسحاب الابيض، وذكروا في وصفه: أنه أبرد و أرق من السحاب، والغمام في الاصل من الغمّ وهو تغطية الشيء، و سميّ الغمام بهذاالاسم لأنه يغطي صفحة السماء، و سميّ الهمُّ غماً بهذا الاسم لانه يحجب القلب[1]

على أي حال، قد يشير تعبير «الغمام» الى أن بني إسرائيل، كانوا يستفيدون من ظل الغمام إضافة الى تمتعهم بالنور الكافي لبياض هذه السحبة.

* * *

(١) تفسير «روح المعاني» في تفسير الآية المذكورة، والمفردات مادة «غمّ»

الآيتان

٥٨ ـ «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ، وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

٥٩ ـ «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

التفسير

عناد بني اسرائيل

وهنا نصل الى مقطع جديد من حياة بني اسرائيل، يرتبط بورودهم الارض المقدسة. تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ»، والقرية كل مكان يعيش فيه جمع من الناس، و يشمل ذلك المدن الكبيرة والصغيرة، خلافا لمعناها الرائج المعاصر. والمقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

ثم تقول الآية: «فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا: حِطَّةٌ» أي حطّ عنا خطايانا، «نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

امرهم الله سبحانه أن يرددوا من أعماق قلوبهم عبارة الاستغفار المذكورة، و يدخلوا الباب، و يبدو أنه من أبواب بيت المقدس[1]، وقد يكون هذا سبب تسمية أحد أبواب بيت المقدس «باب الحطة».

والآية تنتهي بعبارة «وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» أي أن المحسنين سينالون المزيد من الاجر إضافة إلى غفران الخطايا.

---

(١) على رواية ابي حيان الاندلسي، نقلاً عن تفسير «الكاشف».

والقرآن يحدثنا عن عناد مجموعة من بني اسرائيل حتى في ترتيل عبارة الاستغفار، فهؤلاء لم يرددوا العبارة بل بدلوها بعبارة اخرى فيها معنى السخرية والاستهزاء، والقرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» وكانت نتيجة هذا العناد مايحدثنا عنه كتاب الله حيث يقول: «فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

و «الرجز» أصله الاضطراب ـ كما يقول الراغب في مفرداته ـ و منه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.

و يقول «الطبرسي» في «مجمع البيان» أن الرجز يعني العذاب عند أهل الحجاز، و يروي عن الرسول (صلّى الله عليه وآله) قوله بشأن مرض الطاعون: «إِنَّهُ رِجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ».[1]

و من هنا يتضح سبب تفسير «الرجز» في بعض الروايات أنه نوع من الطاعون افشا بسرعة بين بني إسرائيل و أهلك جمعاً منهم.

قد يقال إن الطاعون لا ينزل من السماء، لكن هذا التعبير قد يشير الى حقيقة انتشار هذا المرض عن طريق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون الذي هبّ بأمر الله آنذاك في بيئة بني اسرائيل.

يلفت النظر أن من عوارض الطاعون اضطراباً في المشي والكلام، وهذا يتناسب مع أصل معنى «الرجز» تماما.

ومن الملفت للنظر أيضاً أن القرآن يؤكد أن هذا العذاب نزل «عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» فقط، ولم يشمل جميع بني اسرائيل.

ثم تذكر الآية تأكيدا آخر على سبب نزول العذاب على هذه المجموعة من بني اسرائيل بعبارة: «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

والآية الكريمة بعد ذلك تبين بشكل غير مباشر سنة من سنن الله تعالى، هي ان الذنب حينما يتعمق في المجتمع ويصبح عادة اجتماعية، عند ذاك يقترب احتمال نزول العذاب الالهي

---

(١) راجع حول معنى الرجز الجزء السادس من هذا التفسير.

الآية

٦٠ - «وَ اِذِ اسْتَسْقىٰ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاٰكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتاٰ عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناٰسٍ مَشْرَبَهُمْ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِينَ».

التفسير

انفجار العيون في الصحراء

تذكير آخر بنعمة أخرى من نعم الله على بني اسرائيل، وهذا التذكير تشير إليه كلمة (اذ) المقصود منها (وَاذْكُرُوا اِذ)، وهذه النعمة أغدقها الله عليهم، حين كان بنواسرائيل في امسّ الحاجة الى الماء وهم في وسط صحراء قاحلة، فطلب موسى الماء: «وَاِذِاسْتَسْقىٰ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ»، فتقبل الله طلبه، وأمر نبيّه أن يضرب الحجر بعصاه: «فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاٰكَ الحَجَرَ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتاٰ عَشْرَةَ عَيْناً» بعدد قبائل بني اسرائيل.

وكل عين جرت نحو قبيلة، حتى «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناٰسٍ مَشْرَبَهُمْ».

كثرت الاقوال في طبيعة الحجر الذي انفجرت منه العيون، وكيفية ضربه بالعصا، والقرآن لا يزيد على ذكر ماسبق.

قال بعض المفسرين: إن هذا الحجر كان في ثنايا الجبال المطلة على الصحراء، ومنه جرت المياه قليلة أولا ثم كثرت حتى ارتوى منها كل قبائل بني اسرائل مع مواشيهم و دوابهم.

ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعية، لكن الحادثة هنا مقرونة بالاعجاز كما هو واضح.

ثمة أقوال تذكر أن ذلك الحجر كان من نوع خاص حمله بنواسرائيل معهم، ومتى احتاجوا الى الماء ضرب به موسى بعصاه فيجرى منه الماء. وليس في القرآن ما يثبت ذلك،

وإن أشارت اليه بعض الروايات.

في الفصل السابع عشر من «سفرالخروج» تذكر التوراة:

فقال الرب لموسى سر قدام الشعب وخذ معك من شيوخ اسرائيل وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب ـ ها انا اقف امامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخر فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ففعل موسى هكذا امام عيون شيوخ اسرائيل»[1].

لقد مَنّ الله على بني اسرائيل بانزال المنّ والسلوى، وفي هذه المرّة يمنّ عليهم بالماء الذى يعزّ في تلك الصحراء القاحلة، ثم يقول سبحانه لهم: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**».

وفي هذه العبارة حث لهم على ترك العناد وإيذاء الانبياء وان يكون هذا اقل شكرهم لله على هذه النعم.

• • •

وقفات

١ـ الفرق بين العثيّ والافساد

نهىٰ الله سبحانه بني اسرائيل عن الفساد بالفعل «**لَا تَعْثَوْا**»، من العثيّ وهوشدة الفساد، وتشبه في معناها «العيث»، إلاّ أنّ العيث اكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حساً، والعثيّ فيما يدرك حُكماً.[2]

وقد تشير عبارة النهي بأجمعها الى حقيقة بدء الفساد من نقطة صغيرة، واتساعها واشتدادها بعد ذلك. أي تبدا بالفساد وتنتهي بالعثيّ في الارض، وهوشدة الفساد واتساعه.

٢ـ المعاجز في حياة بني اسرائيل

قد تثير مسألة انفجار الماء من الحجر وما شابهها من المعاجز في حياة الانبياء،

---

(١) الفصل السابع عشر العدد ٦ و٥.

(٢) المفردات، ماده عثى.

تساؤلات في ذهن أولئك الذين لم يستوعبوا منطق الاعجاز. ولا نريد هنا أن نتعرض الى مسألة الاعجاز، لانها تحتاج الى بحث مستقل. و نكتفي بالقول: إن المعجزة ليست أمراً محالاً، وليست استثناءً في قانون العليّة. بل إنها خرق لما ألفناه و اعتدنا عليه، أو بعبارة أُخرى، خرق لما ألفناه في حياتنا اليومية من ارتباط بين العلة والمعلول.

و طبيعي أن تغيير مسيرالعلل والمعلولات ليس بعسيرعلى الله سبحانه، ولو خلق الله هذه العلل والمعلولات منذالبدء بشكل آخر غير ما هي عليه اليوم، لكان هذا الذي نألفه اليوم خارقا للعادة.

باختصار، خالق عالم الوجود ونظام العليّة، حاكم على ما خلق لا محكوم له. و في حياتنا اليومية صور كثيرة للاستثناءات في النظام القائم للعلل والمعلولات. و مسألة الاعجاز لا تشكل أية مشكلة عقلية أو علمية.[1]

* * *

٣ـ الفرق بين الانفجار والانبجاس

في الآية المذكورة وردالفعل «انفجر» ليعبّر عن تدفق الماء من الحجر، بينما ورد الفعل «انبجس» في الآية ١٦٠ من سورة الاعراف ليشير الى نفس الحقيقة مع فارق هو أن الاول يفصح عن شدة تدفّق الماء والثاني عن سيلانه بشكل هادئ.

لعل آية سورة الاعراف تتحدث عن المرحلة الاولى من ظهورالماء، و جريانه بشكل هادي لا يثير فزع القوم، ولا يمنعهم من السيطرة عليه، بينما تشير الآية التي نحن في صددها الى المرحلة النهائية حيث اشتد جريان الماء.

والراغب في مفرداته يفسر الانبجاس والانفجار بشكـل يتناسب مع ما اشرنا اليه اذ يقول: بجس الماء و انبجس: انفجر، لكن الانبجاس اكثر ما يقال فيما يخرج من شيءضيق. والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شي ء واسع.

* * *

---

(١) راجع لمزيد من التوضيح كتاب «رهبران بزرگ» (فارسى).

الآية

٦١ - «وَإِذْ قُلْتُمْ يٰا مُوسىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلىٰ طَعٰامٍ وٰاحِدٍ فَادْعُ لَنٰا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنٰا مِمّٰا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهٰا وَ قِثّٰائِهٰا وَ فُومِهٰا وَعَدَسِهٰا وَ بَصَلِهٰا. قٰالَ: أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟! اِهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مٰا سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبٰاءُوبِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ، ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كٰانُوا يَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَ كٰانُوا يَعْتَدُونَ».

التفسير

المطالبة بالاطعمة المتنوعة

بعد أن شرحت الآيات السابقة نِعَم الله على بني اسرائيل، ذكرت هذه الآية صورة من عنادهم وكفرانهم بهذه النعم الكبرى.

تتحدث الآية أولاً عن مطالبة بنی اسرائيل نبيهم بأطعمة متنوعة بدل الطعام الواحد (اَلْمَنّ وَالسَّلْوىٰ): «وَإِذْ قُلْتُمْ يٰا مُوسىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلىٰ طَعٰامٍ وٰاحِدٍ، فَادْعُ لَنٰا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنٰا مِمّٰا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهٰا وَقِثّٰائِهٰا وَفُومِهٰا وَعَدَسِهٰا وَبَصَلِهٰا».

فخاطبهم موسى «قٰالَ: أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟!، اِهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مٰا سَأَلْتُمْ».

و يضيف القرآن: «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَبٰاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ، ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كٰانُوا يَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَ كٰانُوا يَعْتَدُونَ».

* * *

وقفات

١ـ آراء المفسرين في كلمة «مصر»

من المفسرين من قال أن المقصود من كلمة «مصر» في الآية الكريمة هوالمفهوم العام للمدينة. وقوله سبحانه «اِهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مٰا سَأَلْتُمْ»، أي انكم الآن تعيشون في هذه الصحراء ضمن إطار منهج للاختبار و بناء الذات، وليس هذا مكان الاطعمة المتنوعة، إذهبوا الى المدن حيث التنوع في المأكولات، ولكن لا يوجد فيها المنهج المذكور.

و يستدل اصحاب هذاالرأي بأن بني اسرائيل لم يطلبوا العودة الى «مصر» موطنهم السابق ولم يعودوا اليه اطلاقا.[1]

ومنهم من اختار هذاالتفسير لمصر وأضاف اليه أن المقصود من قوله تعالى (اِهْبِطُوا..) هو أن بقاءكم في الصحراء واقتصاركم على الطعام الواحد يعودان الى ضعفكم، فكونوا أقوياء، وحاربوا الاعداء، وحرروا من سيطرتهم مدن الشام والارض المقدسة، ليتوفر لكم ما شئتم.[2]

وهناك رأي ثالث للمفسرين هو أن المقصود من «مصر» البلد المعروف. و يكون المعنى عندئذ: انكم في هذه الصحراء الخالية من الاطعمة المتنوعة تملكون الايمان والحرية والاستقلال، و إن أبيتم الا أن تكون لكم أطعمة متنوعة، فارجعوا الى مصر حيث الذل والاستعباد، لتأكلوا من فتات موائد الفراعنة. إن مشتهيات بطونكم أنستكم ما كنتم تعانون منه من ذل و استعباد، وما حصلتم اليوم عليه من حرية و رفعة وافتخار.. وماتتحملونه من حرمان يسير إنما هو ثمن لحريتكم.[3]

و يبدو أن التفسير الأول أنسب من التاليين.

* * *

---

(١) التنوين في كلمة (مصر) دليل على تنكيره، وعلى عدم اختصاصه بالارض المعروفة.

(٢) تفسير المنار، ذيل الآية المذكورة.

(٣) في ظلال القرآن.

٢ـ التنوع وطبيعة الانسان

التنوع هو ـ دون شك ـ من متطلبات البشر، وحبّ التنويع خصلة طبيعية في البشر. والانسان ـ إن استمرّ على تناول طعام معين لمدة طويلة ـ يمل ذلك الطعام. فلم اذن توجه اللوم والتقريع الى بني اسرائيل حين طلبوا الخضروات والخيار والثوم والعدس والبصل ليتخلصوا من الطعام الواحد؟!

الجواب يتضح لو علمنا أنّ **الحياة الانسانية تقوم على أساس حقائق هامة لا يمكن التخلّي عنها هي الايمان والطهر والتقوى والتحرّر.** وقد تمرّ الجماعة البشرية بمرحلة يتعارض فيها هذاالاساس الهام مع متطلبات الانسان من الطعام والشراب واللذائذ الاخرى. وهنا تصبح الجماعة أمام خيارين، إما أن تنغمس في اللذات و تترك قيمها و شرفها، أو تضحي بلذّاتها من أجل إنسانيتها و كرامتها.

بنو إسرائيل كانوا يعيشون أمام هذين الخيارين.

ولابد من الاشارة الى أن حقيقة حبّ التنويع استغلها الطامعون والمستعمرون دوماً، ليدفعوا الشعوب الى هاوية حياة استهلاكية شهوانية هابطة، يعيش الافراد فيها بين المعلف والمضجع، ناسين شخصيتهم الانسانية وغافلين عن النير الذى يطوق أعناقهم.

* * *

٣ـ هل «المن» و«السلوى» خيرالاطعمة؟

حين طلب بنو اسرائيل أطعمة متنوعة، جاءهم التقريع بالقول: «**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟!**» أي أتختارون الادنى و تتركون الافضل؟! و يبدو أن المقصود بالافضل هنا هو ما لديهم من طعام متمثل بالمن والسلوى. غير أن التفضيل الذي يطرحه القرآن هنا يعود الى الحياة بكل أبعادها، والتقريع يتجه الى بني اسرائيل لرغبتهم في التنويع مع ما قد يكشف هذا التنويع من ذلّ وهوان.

وعلى صعيد القيمة الغذائية، فان الاطعمة النباتية التى طلبها بنواسرائيل لها قيمتها الغذائية طبعا، غير أن مقدار المواد الغذائية النافعة الموجودة في «المن» ـ و هوالعسل أو مادة سكرية مقوية ـ و كذلك في لحوم السلوى، يفوق ما في الاطعمة النباتية المذكورة، كما

أن المن والسلوى أسهل هضماً من الحبوب المذكورة.[1]

ولا بأس من الاشارة الى أن «الفوم» الذى طلبه بنواسرائيل فُسِرّ بالحنطة مرة و بالثوم مرة أخرى، ولكل من المادتين قيمتها الغذائية، و يرى بعض أن تفسير الفوم بالقمح أصحّ لاستبعاد أن يطلب القوم طعاماً خالياً من القمح.[2]

* * *

٤ـ ذلة بني اسرائيل ومسكنتهم

تفيد الآية الكريمة أن بني اسرائيل «**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ**» لعاملين:

الاول ـ لكفرهم بآيات الله، وانحرافهم عن خط التوحيد.

الثاني ـ لقتلهم الانبياء بغير حق.

ظاهرة الانحراف عن خط التوحيد و ظاهرة القسوة والفضاضة، لازالتا مشهودتين حتى اليوم عند جمع من هؤلاء القوم، ولازالتا سبباً لشقاوتهم ولطيشهم وتعاستهم.[3]

في تفسير الآية ١١٢ من سورة آل عمران تحدثنا بالتفصيل عن مصيراليهود وحياتهم التعيسة، (المجلدالثالث من هذاالتفسير)

* * *

---

(١) راجع: «قرآن بر فراز قرون واعصار» (فارسى)، ص١١٢.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) نحن إذ نكتب هذه السطور، تصلنا انباء عما ارتكبه هؤلاء القوم في لبنان، من أعمال قاسية وحشية ذهب صحيتها الآلاف من المدنيين العزل، خلال مجازر وحشية قلّ أن شهد لها التاريخ نظيراً. وسيدفع هؤلاء المجرمون الثمن غاليا لفعلتهم الشنعاء هذه، «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

الآية

٦٢ ـ «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ».

التفسير

القانون العام للنجاة

بعد عرض لمقاطع من تاريخ بني اسرائيل، تطرح هذه الآية الكريمة مبدأ عاماً في التقييم وفق المعايير الالهية. وهذا المبدأ ينص على أن الايمان والعمل الصالح هما أساس تقييم الافراد، وليس للتظاهر والتصنّع قيمة في ميزان الله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ».

هذه الآية تكررت مع اختلاف يسير في سورة المائدة، الآية ٧٢ وفي سورة الحج الآية ١٧.

سياق الآية في سورة المائدة يشير الى أن اليهود والنصارى فخروا بدينهم، واعتبروا أنفسهم أفضل من الآخرين، وادّعوا بأن الجنة خاصة بهم دون غيرهم.

ولعل مثل هذا التفاخر صدر عن بعض المسلمين أيضاً، ولذلك نزلت هذه الآية الكريمة لتؤكد ان الايمان الظاهري لاقيمة له في ميزان الله، سواء في ذلك المسلمون واليهود والنصارى واتباع الاديان الاخرى. ولتقول الآية ايضاً: إن الاجر عند الله يقوم على أساس الايمان الحقيقي بالله واليوم الآخر اضافة الى العمل الصالح. وهذا الاساس هو الباعث الوحيد للسعادة الحقيقية والابتعاد عن كل خوف وحزن.

* * *

تساؤل هام!

بعض المضللين اتخذوا من الآية الكريمة التي نحن بصددها وسيلة لبث شبهة مفادها أن العمل باي دين من الاديان الالهية له أجر عندالله، وليس من اللازم أن يعتنق اليهودي أوالنصراني الاسلام، بل يكفي أن يؤمن بالله واليوم الآخر و يعمل صالحاً.

الجواب: نعلم أن القرآن يفسّر بعضه بعضا، والكتاب العزيز يقول: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» (آل عمران، ٨٥).

كما أن القرآن مليء بالآيات التي تدعوا أهل الكتاب الى اعتناق الدين الجديد، و تلك الشبهة تتعارض مع هذه الآيات. من هنا يلزمنا أن نفهم المعنى الحقيق للآية الكريمة.

و نذكر تفسيرين لها من أوضح و انسب ما ذكره المفسرون:

١ ـ لو عمل اليهود والنصارى وغيرهم من اتباع الاديان السماوية بما جاء في كتبهم، لآمنوا حتما بالنبي الخاتم صلّى الله عليه وآله، لان بشارات الظهور وعلائم النبي وصفاته مذكورة في هذه الكتب السماوية، وسيأتي شرح ذلك في تفسيرالآية ١٤٦ من سورة البقرة.

والقرآن الكريم يقول: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» (المائدة،٦٨).

وواضح أن إقامة التوراة والانجيل يتضمن الايمان بنبي الاسلام المنصوص عليه في الكتب المقدسة.

٢ ـ هذه الآية تجيب على سؤال عَرَضَ لكثير من المسلمين في بداية ظهورالاسلام، يدور حول مصير آبائهم واجدادهم الذين لم يدركوا عصرالاسلام، تُرى، هل سيؤاخذون على عدم اسلامهم و إيمانهم؟!

الآية المذكورة نزلت لتقول إن كل أمة عملت في عصرها بما جاء به نبيها من تعاليم السماء وعملت صالحاً؛ فانها ناجية، ولا خوف على افراد تلك الامة ولاهم يحزنون.

فاليهود المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهورالمسيح، والمسيحيون المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور نبي الاسلام.

وهذا المعنى مستفاد من سبب نزول هذه الآية كما سيأتي.

* * *

وقفات

١ ـ قصة سلمان الفارسي

إكمالا للبحث، لا بأس أن نذكر هنا سبب نزول هذه الآية كما جاء في جامع البيان للطبري:

«كان سلمان من جنديسابور، وكان من أشرافهم، وكان ابن الملك صديقاً له مؤاخيا، لا يقضي واحد منهم أمرا دون صاحبه. وكانا يركبان الى الصيد معا. فبينما هما في الصيد، إذ بدا لهما بيت من خباء، فأتياه، فاذاهما فيه برجل بين يديه مصحف، يقرأ فيه، وهو يبكى.

سألاه: ماهذا؟

قال: إن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه فانزلا، حتى أُعلّمكما. فنزلا اليه.

فقال لهما: هذا كتاب من عندالله، أمرفيه بطاعته، ونهى عن معصيته، فيه أن لا تزني ولا تسرق ولا تأخذ أموال الناس بالباطل، فقص عليهما ما فيه، وهو الانجيل الذي أنزله الله على عيسى.

فوقع في قلوبهما، و تابعاه، فأسلما.

وقال لهما: إن ذبيحة قومكما عليكما حرام. فلم يزالا معه كذلك يتعلّمان منه.

ثم اتفق أن كان للملك عيد، فجعل طعاما، ودعى اليه الاشراف، فأبى ابن الملك أن يحضر الوليمة، فدعاه ابوه فقال له: ما أمرك هذا؟

قال: إنا لا نأكل من ذبائحكم، انكم كفار لا تحل ذبائحكم.

قال له الملك: من أمرك بهذا؟ فأخبره أن الراهب أمر بذلك.

فدعا الراهب فقال: ماذا يقول ابني؟

قال: صدق ابنك.

قال له: لولا أن الدم فينا عظيم لقتلتك، ولكن اخرج من أرضنا. فأجّله أجلا.

قال سلمان: فقمنا نبكي عليه، فقال لهما: إن كنتما صادقين فانا في بيعة في

الموصل، مع ستين رجلاً نعبدالله فيها، فأتونا فيها، فخرج الراهب، وبقي سلمان وابن الملك، فجعل يقول لابن الملك: إنطلق بنا، و ابن الملك يقول: نعم. وجعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز. فلما أبطأ على سلمان، خرج سلمان حتى أتاهم، فنزل على صاحبه، وهو ربّ البيعة، وكان أهل تلك البيعة من أفضل الرهبان. فكان سلمان معهم يجتهد في العبادة و يتعب نفسه.

قال له الشيخ يوما: إنك غلام حدث، تتكلف من العبادة مالا تطيق، و أنا خائف أن تفتر و تعجز، فارفق بنفسك، و خفف عليها.

قال له سلمان: أرأيت الذي تأمرني به أهو أفضل أوالذي أصنع؟

قال: بل الذى تصنع.

قال: فخلّ عني، ثم إن صاحب البيعة دعاه، فقال: اني رجل أضعف عن عبادة هؤلاء، و انا أريد أن أتحول من هذه البيعة الى بيعة أخرى هم أهون عبادة من هؤلاء، فان شئت أن تقيم هاهنا فأقم، و إن شئت أن تنطلق معي فانطلق.

قال له سلمان: أي البيعتين أفضل حالاً؟

قال: هذه.

قال سلمان: فانا اكون في هذه، و أوصى صاحبُ البيعة عالم البيعة بسلمان، فكان سلمان يتعبد معهم.

ثم إن الشيخ العالم عزم أن يأتي بيت المقدس، فقال لسلمان: إن أردت أن تنطلق معي فانطلق، و إن شئت أن تقيم فاقم.

فقال له سلمان: أيهما أفضل أنطلق معك أم أقيم؟

قال: بل تنطلق معى، وانطلقا حتى أتيا بيت المقدس.

فقال الشيخ لسلمان: اُخرج فاطلب العلم، فانه يحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض. فخرج سلمان يسمع منهم، فرجع يوما حزينا. فقال له الشيخ: مالك يا سلمان؟ قال: أرى الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الانبياء واتباعهم. فقال له الشيخ: يا سلمان لاتحزن فانه بقي نبي ليس من نبي بأفضل تبعا منه، وهذا زمانه الذي يخرج فيه، ولا أراني أدركه، و أما أنت فشاب لعلك تدركه، وهو يخرج في أرض العرب، فان

أدركته فآمن به واتبعه، فقال له سلمان: فأخبرني عن علامته بشيء. قال: نعم، هو مختوم في ظهره بخاتم النبوة. وهو يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.

ثم اتفق أن افترق سلمان عن الراهب لدى عودتهما من بيت المقدس، ففقده في الطريق وبينما هو يبحث عنه إذ رآه رجلان عربيان من بني كلب، فأسراه، وأخذاه معهما الى المدينة، قال سلمان: فأصابني من الحزن شيء لم يصبني مثله قط، فاشترته امرأة من جهينة، فكان يرعى عليها هو وغلام لها يتراوحان الغنم هذا يوما وهذا يوما. فكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروج محمد (صلّى الله عليه وآله) فبينا هو يرعى يوما إذ أتاه صاحبه الذي يعقبه فقال: أعلمت أنه قد قدم اليوم المدينة رجل يزعم أنه نبي؟! فقال له سلمان: أقم في الغنم حتى آتيك . فذهب سلمان الى المدينة، فنظر الى النبي (صلّى الله عليه وآله) و دار حوله، فلما رآه النبي (صلّى الله عليه وآله) عرف ما يريد. فارسل ثوبه حتى خرج خاتمه. فلما رآه أتاه وكلمه. ثم انطلق فاشترى طعاما وجاء به، فقال له النبي: ما هذا؟ قال سلمان: هذه صدقة. قال: لاحاجة لي بها فأخرجها فليأكل المسلمون. ثم انطلق فاشترى طعاما، فأتى النبي (صلّى الله عليه وآله) فقال: ماهذا؟ قال: هدية. قال: فاقعد، فقعد فأكلا جميعا منها. فبينا هو يحدثه، اذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون و يصلون و يؤمنون بك ، و يشهدون أنك ستبعث نبيا. فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له النبي (صلّى الله عليه وآله): يا سلمان هم من أهل النار. فاشتدّ ذلك على سلمان، فانزل الله سبحانه هذه الآية.

* * *

٢ـ من هم الصابئون؟

يقول الراغب الاصفهاني: الصابئون قوم كانوا على دين نوح[١] و ذكرهم الى جانب المؤمنين واليهود والنصارى يدل على أنهم كانوا يدينون بدين سماوي و يؤمنون بالله واليوم الآخر.

واعتبر البعض أنهم مشركون، وقيل عنهم أنهم مجوس، وليسوا كذلك ، لان

---

(١) المفردات، مادة صبا.

القرآن ذكرهم الى جانب المشركين والمجوس إذ قال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...» (الحج،١٧).

واختلف المفسّرون واصحاب الملل والنحل في تشخيص هوية الصابئين، ووجه تسميتهم.

«الشهرستاني» في «الملل والنحل» يقول: الصابئة من صبأ أي انحرف عن طريق الانبياء، و هؤلاء قوم انحرفوا عن طريق الحق و دين الانبياء فهم «صابئة».

و يقول «الفيومي» في «المصباح المنير» أن «صبأ» تعني الخروج من الدين الى دين آخر.

و في معجم (دهخدا) الفارسي: الصابئون جمع صابئ وهي كلمة مشتقة من (ص ـ ب ـ ع) العبرية التي تعني الغوص في الماء (أوالتعميد)، وسقطت العين في التعريب، و تسمى هذه الطائفة التي تسكن خوزستان باسم (المغتسلة) لذلك.

دائرة المعارف الفرنسية، في المجلد الرابع، ص٢٢، ذكرت أن هذه الكلمة عبرية وتعني الانغماس في الماء أوالتعميد.

(جسينوس)الالماني يذهب الى أن هذه الكلمة عبرية ولا يستبعد أن تكون مشتقة من كلمة تعني «النجم».

صاحب كتاب «كشاف اصطلاح الفنون» يقول: «الصابئون فرقة تعبد الملائكة و يقرأون (الزبور) و يتجهون نحوالقبلة».

و جاء في كتاب «التنبيه والاشراف» نقلا عن «الامثال والحكم» ص١٦٦٦: «قبل أن يطرح (زراتشت) دعوة المجوسية على (جشتاسب)، وكان أهل هذه الديار على مذهب (الحنفاء)، وهم الصابئون، وهو دين جاء به (بوذاسب) على عهد (طهمورس)».

سبب اختلاف الآراء حول هذه الطائفة يعود الى قلة أفرادها و اصرارهم على إخفاء تعاليمهم، وامتناعهم عن الدعوة الى دينهم، واعتقادهم أن دينهم خاص بهم لا عام لكل الناس، وان نبيهم مبعوث اليهم لا لغيرهم. ولذلك أُحيطوا بكثير من الغموض واكتنفتهم الاسرار، وهم يتجهون نحوالانقراض.

الالتزام بتعاليمهم على غاية الصعوبة، ففيها انواع الاغسال والتعميدات في الشتاء

والصيف، و يميلون الى الانزواء والابتعاد عن غير ابناء دينهم و يحرمون تزوج النساء من غيرالصابئين، وكثير منهم اعتنق الاسلام نتيجة اختلاطهم بالمسلمين.

* * *

٣ـ معتقدات الصابئين

يعتقد الصابئة أن أول كتاب مقدّس سماوي نزل على آدم، و بعده على نوح، ثم على سام، ثم على «رام» ، ثم على ابراهيم الخليل، ثم على موسى، واخيراً على يحيى بن زكريا.

كتبهم المقدسة: ١ـ «كيزاربا» و يسمى ايضا «سدره» او «صحف» آدم، وفيه آراء حول كيفية بدء الخلق.

٢ ـ كتاب «ادر افشادهي» او «سدرادهي» و يتحدث عن يحيى و تعاليمه. و يعتقد الصابئة أنه موحى الى يحيى عن طريق جبرائيل.

٣ ـ كتاب «قلستا» و فيه تعاليم الزواج والزوجية. هذا الى جانب كتب كثيرة أخرى، يطول ذكرها.

يبدو مما سبق أن هؤلاء اتباع يحيى بن زكريا، الذى يسميه المسيحيون يحيى المعمّد، او يوحنا المعمّد.[١]

صاحب كتاب «بلوغ الارب» له رأي آخر بشأن الصابئة، يقول:

هم من يعتقد فى الأنواء اعتقاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم الا بنوء من الانواء و يقول مطرنا بنوء كذا...[٢]

و هؤلاء كانوا قوم ابراهيم الخليل (عليه السلام) وهم اهل دعوته وكانوا بحرّان فهى دار الصابئة وكانوا قسمين صابئة حنفاء وصابئة مشركين والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر، و يصورونها فى هياكلهم... و يتخذون لها اصناماً تخصها و يقربون لها القرابين..

---

(١) راجع لمزيد من التوضيح كتاب «آراء و عقائد بشري» (فارسى).

(٢) الأنواء جمع نوء و هوالنجم مال للغروب بلوغ الارب جزء ٢٦ ـ ص٢٢٢ ـ ٢٢٨.

و طوائف منهم يصومون شهر رمضان و يستقبلون فى صلواتهم الكعبة و يعظمون مكة و يرون الحج اليها ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير و يحرمون من القرابات فى النكاح ما يحرم المسلمون وعلى هذاالمذهب كان جماعة من اعيان الدولة ببغداد منهم هلال بن المحسن الصابى صاحب الديوان الانشائى وصاحب الرسائل المشهورة وكان مع المسلمين و يعبد معهم و يزكى و يحرم المحرمات وكان الناس يعجبون من موافقته للمسلمين وليس على دينهم،واصل دين هؤلاء فيما زعموا انهم يأخذون محاسن ديانات العالم ومذاهبهم و يخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً و عملاً ولهذا سموا صابئة اى خارجين فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين و تفصيله الا ما رأوه فيه من الحق.[١]

من مجموع ما سبق يتبين أن الصابئين كانوا في الاصل أتباع أحدالانبياء وان اختلف المحققون في تعيين نبيهم. و تبين أيضاً أن عدد هؤلاء قليل وهم في حالة انقراض.

° ° °

---

(١) بلوغ الارب ج٢ ص٢٢٣ - ٢٢٥.

الآيتان

٦٣ - «وَ إِذْ اَخَذْنٰا مِيثٰاقَكُمْ وَ رَفَعْنٰا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مٰا آتَيْنٰاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مٰا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

٦٤ - «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَلَوْلاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخٰاسِرِينَ».

التفسير

الالتزام بالميثاق

هاتان الآيتان تطرحان مسألة أخذ ميثاق بني اسرائيل بشأن العمل بالتوراة، ثم نقضهم للميثاق: «وَإِذْ اَخَذْنٰا مِيثٰاقَكُمْ وَرَفَعْنٰا فَوْقَكُمُ الطُّورَ» والطور جبل و سيأتي ذكره. وقلنا لكم: «خُذُوا مٰا آتَيْنٰاكُمْ بِقُوَّةٍ»، واجعلوا التوراة دوما نصب أعينكم: «وَاذْكُرُوا مٰا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

* * *

لكنكم نقضتم الميثاق و جعلتموه وراء ظهوركم: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَلَوْلاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخٰاسِرِينَ».

* * *

وقفات

١ـ الميثاق

المقصود من الميثاق في الآية الكريمة هو نفس ما جاء في الآية ٤٠ من هذه السورة وما سيأتي في الآيتين ٨٣ و٨٤ أيضاً. مواد هذا الميثاق عبارة عن: **توحيد الله، والاحسان الى الوالدين والاقربين واليتامى والمساكين، والقول الصالح، واقامة الصلاة، وأداء الزكاة، واجتناب سفك الدماء.** وهذه المواد وردت في التوراة كذلك.

من الآية ١٢ لسورة المائدة يتضح أيضاً أن الله أخذ ميثاق بني اسرائيل أن يؤمنوا بجميع الانبياء و يساندوهم، و أن ينفقوا في سبيل الله. وفي هذه الآية ضمان للقوم بدخول الجنة إن عملوا بهذاالميثاق.

* * *

٢ـ رفع جبل الطور

أما بشأن كيفية رفع جبل الطور في قوله تعالى: «وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ» يقول الطبرسي عن أبي زيد: حدث «هذا حين رجع موسى من الطور، فأتى بالالواح، فقال لقومه: جئتكم بالالواح وفيها التوراة والحلال والحرام فاعملوا بها. قالوا: ومن يقبل قولك؟! فأرسل الله عزوجل الملائكة حتى نتقوا (رفعوا) الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسى (ع): إن قبلتم ما آتيتكم به والا ارسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراة وسجدوا لله تعالى ملاحظين الجبل (أي وهم ينظرون الى الجبل من طرف خفي)، فمن ثمّ يسجد اليهود على أحد شقي وجوههم».

مضمون هذهالآية ورد مع تفاوت بسيط في الآية ٩٣ من سورة البقرةو١٥٤ النساء، و١١٧ الاعراف.

الطبرسي ـ كما ذكرنا ـ وجمع من المفسرين ـ يذهبون الى أن جبل الطور رفع فوق رؤوس بني اسرائيل بأمر الله، وهناك من يقول إن زلزالاً شديداً ضرب الجبل، بحيث كان يرى بنو اسرائيل ظل قمة الجبل على رؤوسهم من شدة الاهتزاز، و ترقبوا أن يسقط الجبل عليهم، لكن الزلزال هدأ بفضل الله واستقرّ الجبل.[1]

و يحتمل أيضاً أن تكون قد انفصلت من الجبل صخرة عظيمة بامرالله، وعلى أثر زلزال شديد، ومرت فوق رؤوسهم، و تصوروا أنها ستسقط عليهم.

* * *

٣ـ الالتزام والارهاب

مسألة رفع الجبل فوق بني اسرائيل لتهديدهم عند أخذالميثاق، تثير سؤالاً بشأن

---

(١) المنار، في تفسير الآية المذكورة.

إمكان تحقيق الالتزام عن طريق التخويف والارهاب.

هناك من قال: ان رفع الجبل فوقهم لاينطوي على إرهاب و تخويف أو إكراه، لان أخذ الميثاق بالاكراه لا قيمة له.

والاصح أن نقول: لا مانع من إرغام الافراد المعاندين المتمردين على الرضوخ للحق بالقوة. وهذاالارغام موقت هدفه كسر انفتهم و عنادهم و غرورهم، ومن ثم دفعهم للفكر الصحيح، كي يؤدوا واجباتهم بعد ذلك عن إرادة واختيار.

على أي حال، هذاالميثاق يرتبط بالمسائل العملية، لا بالجانب الاعتقادي، فالمعتقدات لايمكن تغييرها بالاكراه.

* * *

٤ـ جبل الطور

اختلف المفسرون في المقصود من جبل «الطور»، منهم من قال: إنه نفس الجبل الذي اُوحي فيه الى موسى. وقال آخرون: إنه اسم جنس بمعنى مطلق «الجبل» لا جبل بعينه. وجاء تعبير (الجبل) بدل كلمة الطور في قوله تعالى: «**وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ**»[1] (الاعراف، ١٧١).

* * *

٥ـ خذوا تعاليم السماء بقوّة

خاطب الله سبحانه بني اسرائيل فقال: «**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ**» وعن هذه الآية سئل الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) عن المقصود من القوة في هذه الآية:

«اَبِقُوَّةٍ بِالْاَبْدانِ اَمْ بِقُوَّةٍ فِي الْقُلُوبِ» ؟

قالَ: «بِهِما جَميعاً».[2]

وهذاالامر الالهي يتجه الى كل أتباع الاديان الالهية في كل زمان ومكان، و يطلب منهم أن يتجهزوا بالقوى المادية والقوى المعنوية معا، لصيانة خط التوحيد و إقامة حاكمية الله في الارض.

---

(١) تفسير ابى الفتوح الرازي والتفسير الكبير للرازي، ذيل الآية التي نحن بصددها.

(٢) رواه العياشي، نقلاً عن مجمع البيان.

الآيتان

٦٥ ـ «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ».

٦٦ ـ «فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ».

التفسير

عصاة يوم السبت

هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان كالآيات السابقة عن روح العصيان والتمرد المتغلغلة في اليهود، والتصاقهم الشديد بالمسائل المادية: «لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ»[1].

«فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا» اي جعلناها عبرة لتلك الأُمّة ولامم تليها «وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ».

ملخص الحادثة التي تشير اليها الآية: «أن الله سبحانه أمر اليهود أن يسبتوا ـ أي أن يقطعوا أعمالهم ـ يوم السبت، وهذا الأمر شمل طبعاً اولئك القاطنين قرب البحر الذين يعيشون على صيد الاسماك، و شاء الله أن يختبر هؤلاء، فكثرت الاسماك يوم السبت قرب الساحل بينما ندرت في بقية الأيام. طفق هؤلاء يتحايلون لصيد الاسماك يوم السبت. فعاقبهم الله على عصيانهم و مسخهم على هيئة حيوان».

وهل كان هذا المسخ جسمي أم نفسي واخلاقي؟ واين كان يسكن هؤلاء القوم؟ و بأية حيلة توسلوا للصيد؟ هذا ما سنجيب عليه وعلى غيره من المسائل المرتبطة بهذا الموضوع في المجلد السادس من هذا التفسير، لدى توضيح الآيات ١٦٣ ـ ١٦٦ من سورة

---

(١) خسأ: طرد وزجر، و يستعمل لطرد الكلب، و للطرد المقرون بالاستهانه يقال: إخسأه.

الاعراف.

وقوله تعالى: «فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» إشارة الى فورية المسخ الذي تم بامر الهي واحد.

ومن المفيد أن ننقل في هذاالمجال رواية عن الامامين الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا: «لمابين يديها» أَيْ لِمَا مَعَهَا يُنْظَرُ اِلَيْهَا مِنَ الْقُرىٰ (في زمان تلك الامة)، «وما خلفها» نحن (المسلمون) ولنا فيها موعظة.[1]

* * *

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية المذكورة.

الآيات

٦٧ ـ «وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً. قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

٦٨ ـ «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ».

٦٩ ـ «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ».

٧٠ ـ «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ. إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ».

٧١ ـ «قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا. قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ».

٧٢ ـ «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا، وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

٧٣ ـ «فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

٧٤ ـ «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

التفسير

قصة بقرة بني اسرائيل

هذه الآيات تتحدث بالتفصيل عن حادثة أُخرى من حوادث تاريخ بني اسرائيل، هذا التفصيل لم نألفه في الآيات السابقة، ولعله يعود الى ان هذه الحادثة

ذكرت في هذا الموضع ـ لا غير ـ من القرآن الكريم، و الى أنها تتضمن عِبَراً كثيرة تستوجب هذا التفصيل. من هذه الدروس: لجاج بني اسرائيل وعنادهم، و مستوى ايمانهم بكلام موسى، وأهمّ من كل هذا البرهنة على إمكان المعاد.

الحادثة (كما يبينها القرآن وكتب التفسير) على النحو التالي: قتل شخص من بني اسرائيل بشكل غامض، ولم يعرف القاتل.

حدث بين قبائل بني اسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، كل قبيلة تتهم الاخرى بالقتل. توجّهوا الى موسى ليقضي بينهم. فما كانت الاساليب الاعتيادية ممكنة في هذا القضاء. وما كان بالامكان إهمال هذه المسألة لما سيترتب عليها من فتنة بين بني اسرائيل. لجأ موسى ـ باذن الله ـ الى طريقة اعجازية لحل هذه المسألة كما ستوضحها الآيات الكريمة.[1]

يقول سبحانه في هذه الآيات: **«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً»؟!**

«قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

أي إن الاستهزاء من عمل الجاهلين، و انبياء الله مبرّأون من ذلك.

* * *

بعد أن ايقنوا جديّة المسألة، **«قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ»**. و عبارة

---

(١) في الفصل الحادي والعشرين من سفر التثنية في العهد القديم وردت اشارة عابرة لهذه القصة. وما ورد في التوراة الحالية ليس بسرد للحادثة وانما إعطاء حكم من الاحكام، وهذا نص السفر المذكور من الجملة ١ الى ٩:

«اذا وجد قتيل في الارض التي يعطيك الرب الهك لتتلكها واقعاً في الحقل لايعلم من قتله ـ يخرج شيوخك و قضاتك و يقيسون الى المدن التي حول القتيل ـ فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالنير ـ و ينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة الى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع و يكسرون عنق العجله في الوادي ـ ثم يتقدم الكهنة بنولاوى لانه اياهم اختار الرب الهك ليخدموه و يباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة و كل ضربة ـ و يغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل ايديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي ـ و يصرحون و يقولون ايدينا لم تسفك هذا الدم واعيننا لم تبصر ـ اغفر لشعبك اسرائيل الذي فديت يارب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك اسرائيل فيغفر لهم الدم ـ فتنزع الدم البريء من وسطك اذا عملت الصالح في عيني الرب».

«ربك » تتكررفي خطاب بني اسرائيل لموسى، و تنطوي على نوع من إساءة الادب والسخرية، وكأن ربّ موسى غير ربهم!!

موسى (عليه السلام) أجابهم : «قالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ» أي انها لا كبيرَة هرمة ولا صغيرة، بل متوسطة بين الحالتين. «فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ».

* * *

لكن بني اسرائيل لم يكفوا عن لجاجتهم: «قالُوا: ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها»؟

أجابهم موسى : «قالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النّاظِرِينَ» أي إنها حسنة الصفرة لا يشوبها لون آخر.

ولم يكتف بنواسرائيل بهذا، بل اصرّوا على لجاجهم، وضيّقوا دائرة انتخاب البقرة على أنفسهم.

* * *

عادوا و «قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ» طالبين بذلك مزيدا من التوضيح، متذرعين بالقول: «إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا، وَإِنّا إِنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ».

* * *

أجابهم موسى «قالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ» أي ليست من النوع المذلل لحرث الارض وسقيها.

«مُسَلَّمَةٌ» من العيوب كلها.

«لا شِيَةَ فِيها» أي لالون فيها من غيرها.

حينئذ: «قالُوا: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ».

«فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ» أي ما قاربوا الفعل حتى انتهت أسئلتهم ففعلوا.

* * *

بعد أن ذكر القرآن تفاصيل القصة، عاد فلخص الحادث بآيتين: «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيها» أي فاختلفتم في القتل وتدافعتم فيه. «وَاللهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

«فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا» أي اضربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة، كي يحيى و يخبركم بقاتله. «كَذٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتىٰ، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

* * *

و بعد هذه الآيات البينات، لم تلن قلوب بني اسرائيل، بل بقيت على قسوتها و غلظتها و جفافها: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ اَوْ اَشَدُّ قَسْوَةً».

انها أشد قسوة من الحجارة، لان بعض الحجارة تتفجر منها الانهار، أو تنبع منها المياه، أو تسقط من خوف الله: «وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْاَنْهَارُ وَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ».

لكن قلوب بني اسرائيل أشدّ قسوة من الحجارة، فلا تنفجر منها عاطفة ولا علم، ولا تنبع منها قطرة حبّ، ولا تخفق من خوف الله.

والله عالم بما تنطوي عليه القلوب وما تفعله الايدي: «وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

* * *

وقفات

١ـ اسئلة كثيرة تافهة

«السؤال» دون شك مفتاح لحل المشاكل، ووسيلة لازالة الجهل والابهام، لكنه مثل بقية الامور، إن تجاوز حدّه وجاء في غير موضعه، يدل على الإنحراف و يؤدي الى أضرار، ومن ذلك ما نراه في هذه القصة.

بنواسرائيل أُمروا أن يذبحوا بقرة. وكان بامكانهم أن يذبحوا أيّة بقرة شاؤوا، لأن الامر الالهي لم يحدّد شكل البقرة ونوعها، ولو اراد الله بقرة بعينها لحدّد مواصفاتها حين الامر. لكن الله أمرهم أن يذبحوا «بقرة» و صيغة التنكير تدل على عدم ارادة التحديد.

هؤلاء المعاندون أبوا إلاّ أن يطرحوا أسئلة متكررة، أملاً في تضييع الحقيقة وإخفاء القاتل، و بقوا يصرون على ترددهم في الذبح حتى النهاية، وهذا ما تشير اليه عبارة: «فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ».

و في الآيات ما يشير الى أن مجموعة من بني اسرائيل ـ على الاقل ـ كانت تعرف القاتل، وقد يكون القتل قد تمّ بمؤامرة بين هؤلاء الافراد، لكنهم كانوا يكتمون الامر،

ولهذا يقول سبحانه: «وَاللهُ مُخْرِجٌ ما كُنتُمْ تَكْتُمُونَ».

اضف الى ما سبق أنّ أهل العناد واللجاج يكثرون دائما من الجدل والاحتجاج على كل شيء.

وثمة قرائن في الآيات توضح أن هؤلاء القوم لم تكن لهم معرفة كاملة بالله ولا بالنبي المرسل اليهم، لذلك قالوا له بعد كل اسئلتهم: «اَلْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ»، وكأن ماجاء به حتى ذلك الوقت كان باطلاً!!

والملاحظ أن الله سبحانه ضيّق عليهم دائرة الانتخاب، واشتد بذلك عليهم التكليف كلّما زادوا في أسئلتهم، لانهم مستحقون لمثل هذا العقاب. و لذلك نرى في الاثر حثّ على السكوت عمّا سكتت عنه تعاليم السماء ففي ذلك حكمة. وعن النبي (صلّى الله عليه وآله): «اَنَّهُمْ اُمِرُوا بِاَدْنىٰ بَقَرَةٍ وَلٰكِنَّهُمْ لَمّا شَدَّدُوا عَلىٰ اَنْفُسِهِمْ شَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ»[1]

* * *

٢ ـ مدلول هذه الاوصاف

كان تكليف بني اسرائيل ـ كما ذكرنا ـ مطلقا غير مقيّد بمواصفات معيّنة. لكن لجاج هؤلاء ضيّق عليهم الدائرة و غيّر عليهم حكم التكليف.[2]

الى جانب هذه الحقيقة، ثمة حقيقة اجتماعية قد يمكن استنتاجها من الاوصاف التي ذكرت للبقرة.

يبدو أن القرآن يريد أن يبين أنّ البقرة «المحياة» ينبغي أن لا تكون «ذلولاً» أي تأبى التسليم والخضوع الاعمى. كما أنها ذات لون واحد خالص لا تشوبه الوان أخرى.

و هذا يعني أن القائد الذي يستهدف إحياء المجتمع، ينبغي أولاً أن يكون متحررا من تأثيرات الضغوط الاجتماعية، التي يمارسها اصحاب الثروة والجاه والقوّة. و أن يستسلم لله وحده دون أن تأخذه في ذلك لومة لائم، كما أن القائد يجب أن يكون مبرءاً من أي لون غيراللون التوحيدي،ومثل هؤلاء الافراد فقط يستطيعون أن يعالجوا أُمور الناس

---

(١) مجمع البيان، في تفسيرالآية المذكورة.

(٢) هذه القصة تشير الى جواز نسخ الحكم قبل العمل وفق ما تقتضيه المصلحة وتشير أيضاً الى وجود النسخ في دين موسى. كماتدل على أن التكليف قديكون له طابع العقاب. وهذه مباحث سنطرحها في محلها.

باتزان واعتدال و يبعثوا في قلوب وافكار اُمّتهم الخصب والحياة.

أما المنشدّ بنيرالدنيا والخاضع لها، والمشوب بالالوان والاهواء فلا يستطيع أن يحيى القلوب الميتة، ولا يقدر أن ينهض بدور الاحياء.

* * *

٣ـ ماهودافع القتل؟

تذكر كتب التاريخ والتفسير أن دافع القتل في هذه الحادثة إما المال، أوالزواج.

من المفسرين من قال أن ثرياً من بني اسرائيل لم يكن له وارث سوى ابن عمه. فطال عمر هذا الثري ولم يطق الوارث مزيدا من الانتظار، فقتله خفية ليحصل على أمواله. والقى جسده في الطريق، ثم بدأ بالصراخ والعويل، و شكاالأمر الى موسى.

وقال آخرون: إن القاتل أراد أن يتزوج من ابنة القتيل، فرفض ذلك، و زوّج ابنته الى أحد أخيار بني اسرائيل. فقعد له وقتله، ثم شكاالقاتل الامرالى موسى.

من الممكن أن تشير القصة الى حقيقة هي: إن كل المفاسد والجرائم مصدرها: الطمع في المال، والطمع في الجنس.

٤ـ العِبَرُ في هذه القصة

هذه القصة لها دلالات على قدرة الله اللامتناهية، وكذلك على مسألة المعاد، ولذلك وردت في الآية ٧٣ عبارة «**كَذٰلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتىٰ**» اشارة الى مسألة المعاد، وعبارة «**وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ**» تأكيد على قدرة الله وعظمته.

اضافة الى ما سبق، هذه القصة تتحدث عن سنّة من سنن الله تعالى، وهي ان الامة تستوجب غضب الله حين تصرّ على عنادها ولجاجها واستهتارها بكل شئ.

العبارات التي وردت على لسان بني اسرائيل في هذه القصة، توضّح أن هؤلاء القوم بلغوا الذروة في اهانة النبي، بل وبلغت بهم الجرأة الى اساءة الادب تجاه ربّ العالمين.

في البداية قالوا لنبيهم: «**أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً**»؟ و بذلك اتهموا نبيهم بارتكاب ذنب الاستهزاء بالآخرين.

وفي مواضع عديدة خاطبوه بعبارة «**اُدْعُ لَنَا رَبَّكَ**»، او كأن ربّ موسى غير

ربهم، مع أن موسى قد قال لهم: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ».

وقالوا له أيضاً: «أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ» و يعنون بذلك أنّ كلام موسى أدّى الى ضلالهم في تشخيص البقرة. ثمّ يخاطبوه في النهاية: «الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ».

هذه التعبيرات تدل على جهل هؤلاء القوم و تعنّتهم و غرورهم و لجاجهم.

وهذه القصة من جهة أُخرى تعلّمنا أننا ينبغي أن لا نتزمّت ولا نتشدّد في الامور كي لا يتشدّد الله معنا.

ولعل انتخاب البقرة للذبح يستهدف غسل أدمغة هؤلاء القوم من فكرة عبادة العجل.

* * *

٥ـ الاحسان الى الاب

يذكر المفسرون أنّ البقرة التي ذكرت الآيات مواصفاتها، كانت وحيدة لا تشاركها بقرة أُخرى في ذلك، و لذلك اضطر القوم الى شرائها بثمن باهض.

و يقولون إن هذه البقرة كانت ملكا لرجل صالح على غاية البرّ بوالده. هذا الرجل واتته فرصة صفقة مربحة، كان عليه أن يدفع فيها الثمن نقدا. وكانت النقود في صندوق مغلق مفتاحه تحت وسادة والده. حين جاء الرجل ليأخذ المفتاح وجد والده نائما، فأبى أن يوقظه لئلا ينزعج، ففضّل أن يترك الصفقة على ان يوقظ والده.

وقال بعض المفسرين: «كان البائع على استعداد لان يبيع بضاعته بسبعين الف نقداً، ولكن الرجل أبى أن يوقظ والده واشترى البضاعة بثمانين الفاً على أن يدفع المبلغ بعد استيقاظ والده.

وقالوا أيضاً: بعد أن استيقظ الوالد، وعلم بالامر، اهدى لولده البقرة المذكورة، فدرّت عليه ربحا عظيماً.[1]

والى هذه القصة يشير رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إذ يقول: «أُنْظُرُوا إِلَى الْبِرِّ مَا بَلَغَ بِأَهْلِهِ»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير، ج١. (٢) تفسير نورالثقلين، ج١، ص٨٨.

الآيات

۷۵ ـ «اَفَتَطْمَعُونَ اَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

۷٦ ـ «وَ اِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا: آمَنّا، وَ اِذا خَلا بَعْضُهُمْ اِلى بَعْضٍ قالُوا اَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ اَفَلا تَعْقِلُونَ؟!»

۷۷ ـ «اَ وَلا يَعْلَمُونَ اَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ».

سبب النزول

روي عن الامام ابی جعفر محمدبن علي الباقر (عليه السلام) أنه قال: «كانَ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ لَيْسُوا مِنَ الْمُعانِدينَ الْمُتَواطِئِينَ، اِذا لَقُوا الْمُسْلِمِينَ حَدَّثُوهُمْ بِما في التَّوْراةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ، فَنَهاهُمْ كُبَراؤُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ، وَ قالُوا: لا تُخْبِرُوهُمْ بِما في التَّوْراةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ فَيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ»[1].

التفسير

لا أمل في هؤلاء

كان سياق الآيات السابقة يتجه نحو سرد تاريخ بني اسرائيل، وفي هاتين الآيتين يتجه الخطاب نحوالمسلمين و يقول لهم لا تعقدوا الآمال على هداية هؤلاء اليهود، فهم مصرّون على تحريف الحقائق و نكران ما عقلوه «اَفَتَطْمَعُونَ اَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ، وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»!.

---

(۱) مجمع البيان. ج۱ص۱٤۲

وهذه عظة للمسلمين، و دفع لما قد يعتريهم من يأس نتيجة عدم استطاعتهم اقناع اليهود وجذبهم الى الدين الجديد.

الآيتان الكريمتان توضحان أن السبب في عدم استسلام هؤلاء القوم أمام المعجزة القرآنية و سائر المعاجز النبوية الاخرى، انما يعود لعناد متأصل في هؤلاء ورثوه عن آبائهم الذين سمعوا كلام الله عند جبل الطور، ثم ما لبثوا أن حرّفوه بعد عودتهم.

من عبارة «وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ..» نفهم أن بني اسرائيل لم يكونوا بأجمعهم محرفين، بل إن فريقاً منهم ـ ومن المحتمل أن يشكل عددهم اكثرية بني اسرائيل ـ كانوا هم المحرفين.

ورد في اسباب النزول أن مجموعة من بني اسرائيل حين عادوا من جبل الطور قالوا: «سمعنا أن الله قال لموسى: اعملوا باوامري قدر استطاعتكم، واتركوها متى تعذر عليكم العمل بها»! وكان ذلك اول تحريف في بني اسرائيل.

على أي حال، كان من المتوقع أن يكون اليهود أول من يؤمن بالرسالة الاسلامية بعد إعلانها لانهم اهل كتاب (خلافا للمشركين)، ولانهم قرأوا صفات النبي (صلّى الله عليه وآله) في كتبهم. لكن القرآن يوجه انظار المسلمين الى الحالة النفسية السائدة لدى هؤلاء القوم، و يوضح لهم أن الانحراف النفسي يدفع الى الاعراض عن الحقيقة، مهما كانت هذه الحقيقة واضحة بينه.

* * *

الآية التالية تلقي الضوء على حقيقة مُرّة أُخرى بشأن هذه الزمرة المنافقة وتقول: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا، قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالُوا: أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ، لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»؟!

من المحتمل أيضاً أن تتحدث هذه الآية في صدرها عن المنافقين من اليهود الذين يتظاهرون بالايمان لدى لقائهم بالمسلمين، و يبرزون انكارهم عند لقائهم بأصحابهم، بل يلومون اولئك اليهود الذين يكشفون للمسلمين عمّا في التوراة من أسرار.

هذه الآية ـ على أي حال ـ تأييد للآية السابقة، التي نهت المسلمين عن عقدالامل على إيمان مثل هؤلاء القوم.

عبارة «بِمَا فَتَحَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ» قد تعني الميثاق الالهى الذي كان محفوظاً لدى بني اسرائيل. وقد تشير الى الاسرار الالهية المرتبطة بالشريعة الجديدة.

و يتضح من الآية أن ايمان هذه الفئة المنافقة من اليهود، كان ضعيفا الى درجة أنهم تصوروا الله مثل إنسان عاديّ، وظنوا أنهم إذا أخفوا شيئاً عن المسلمين فستخفى عن الله أيضاً.

* * *

لذلك تقول الآية التالية بصراحة: «اَوَلَا يَعْلَمُونَ اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ»؟!

* * *

الآيتان

٧٨ ـ «وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ اِلاّٰ اَمانِيَّ وَ اِنْ هُمْ اِلاّٰ يَظُنُّونَ».

٧٩ ـ «فَوَيْلٌ لِلَّذينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِاَيْديهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذا مِنْ عِنْدِاللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَليلاً، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّٰا كَتَبَتْ اَيْديهِمْ، وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمّٰا يَكْسِبُونَ».

سبب النزول

عمد جمع من علماء اليهود الى تغيير صفات نبي الاسلام في التوراة، من أجل صيانة مصالحهم واستمرارالاموال التي كانت تتدفق عليهم سنويا من جَهَلَة اليهود.

وعند ظهورالنبي (صلّى الله عليه وآله) غيّروا ما ذكر له من صفات في التوراة وابدلوها بصفات أُخرى، كي يموّهوا الامر على الاميين الذين كانوا قدسمعوا من قبل بصفات النبي في التوراة.

التفسير

خطة اليهود في استغلال الجهلة!

بعد الحديث عن انحرافات اليهود في الآيات السابقة، قسّمت هاتان الآيتان اليهود على مجموعتين: اميين وعلماء محرّفين، (هناك طبعاً أقلية من علمائهم آمنت والتحقت بصفوف المسلمين).

عن المجموعة الاولى يقول تعالى: «وَمِنْهُمْ اُمِيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ اِلاّٰ اَمانِيَّ وَ اِنْ هُمْ اِلاّٰ يَظُنُّونَ».

والأُمّيّون جمع أُمّيّ، والأُمّيّ غير الدارس. وسمّوا بذلك لانهم في معلوماتهم كما ولدتهم امهاتهم، أو لشدة تعلق امّهاتهم بهم، فمنعنهم ـ جهلاً ـ عن الانفصال عنهنّ ولم يرسلنهم الى المدرسة.[١]

والاماني جمع الامنية، ولعل الآية تشير هنا الى الامتيازات الموهومة التي كان ينسبها اليهود لانفسهم، كقولهم: «**نَحْنُ اَبْنَاءُ اللهِ وَاَحِبَّاؤُهُ**» (المائده،١٨). و كقولهم: «**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ اِلاَّ اَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ**» (آل عمران،٢٤).

ومن المحتمل أيضاً أن يكون المقصود من الاماني: الآيات المحرفة التي كان علماء اليهود يشيعونها بين الاميين من الناس. وهذا المعنى ينسجم اكثر مع قوله تعالى: «**لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ اِلاَّ اَمَانِيَّ**».

وعلى أي حال عبارة: «**اِنْ هُمْ اِلاَّ يَظُنُّونَ**» دلالة واضحة على بطلان اتباع الظن في فهم اصول الدين ومعرفة مدرسة الوحي، ولا بد من التتبع والتحقيق في هذا الامر.

* * *

ثمة مجموعة اخرى من العلماء كانت تحرف الحقائق لتحقيق مصالحها، والى هؤلاء يشير القرآن: «**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِاَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ..**

«**فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ اَيْدِيهِمْ..**

«**وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ..**

ومن العبارة الاخيرة نفهم الهدف الدنيئ لهؤلاء، وعاقبتهم الوخيمة.

روي عن الامام الصادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية حديث فيه ملاحظات هامة:

واضح أن هذا الحديث لا يدور حول التقليد التعبدي في الاحكام، بل يشير الى اتباع العلماء من أجل تعلم اصول الدين، لان الحديث يتناول معرفة النبي، وهذه المعرفة من اصول الدين، ولا يجوز فيها التقليد التعبدي.

---

(١) معنى «الامّى» بحث بشكل أوفى في تفسير الآية ١٥٧ من سورة الاعراف، راجع المجلد السادس

الآيات

٨٠ ـ «وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ اِلاّ اَيّاماً مَعْدُودَةً،قُلْ اَتَّخَذْتُمْ عِنْدَاللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ؟ اَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مالا تَعْلَمُونَ؟».

٨١ ـ «بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ اَصْحابُ النّارِهُمْ فِيها خالِدُونَ».

٨٢ ـ «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ أُولئِكَ اَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

التفسير

غروروادعاء فارغ

يشير القرآن الكريم هنا الى واحدة من ادعاءات اليهود الدالة على غرورهم، هذا الغرور الذي يشكل الأساس لكثير من انحرافات هؤلاء القوم:

«وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ اِلاّ اَيّاماً مَعْدُودَةً»، ثم تجيبهم الآية بأسلوب مُفحِم: «قُلْ اَتَّخَذْتُمْ عِنْدَاللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ؟ اَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مالا تَعْلَمُونَ؟».

اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار، و أن عنصرهم متفوق على سائر الاجناس البشرية، و أن مذنبيهم لن يدخلوا جهنم سوى أيام قليلة ليتنعموا بعدها بالجنة، من مظاهر أنانية هؤلاء واستفحال ذاتياتهم.

ادعاء اليهود المذكور في الآية الكريمة لاينسجم مع أي منطق، إذ لا يمكن أن يكون بين افراد البشر أي تفاوت في نيل الثواب والعقاب أمام الله سبحانه وتعالى.

بِمَ استحق اليهود أن يكونوا مستثنين من القانون العام للعقاب الالهي؟!

الآية الكريمة تدحض مزاعمهم بدليل منطقي، و تفهمهم أن مزاعمهم هذه إما أن تكون قائمة على أساس عهد لهم اتخذوه عندالله، ولا يوجد مثل هذاالعهد، أو أن تكون

من افترائهم الكذب على الله.

* * *

ثم تبين الآية الكريمة التالية قانونا عاما يقوم على أساس المنطق وتقول: «بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولٰئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

وهذا قانون عام يشمل المذنبين من كل فئة وقوم.

* * *

و بشأن المؤمنين الاتقياء، فهناك قانون عام شامل تبينه الآية التالية: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ أُولٰئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

* * *

وقفات

١ـ كسب السيئة

الكسب والاكتساب: الحصول على الشيء عن إرادة واختيار، من هنا عبارة «بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً» إشارة الى اولئك الذين يرتكبون الذنوب عن علم وانتخاب. و تعبير الآية بكلمة «كَسَبَ» قد يكون اشارة الى المحاسبة الخاطئة العاجلة التي يرتكب المذنب على أساسها ذنبه ظانا أنه يكسب بارتكاب الذنب نفعاً، و يتحمل بتركه خسارة! والى مثل هؤلاء المذنبين تشير آية كريمة ستأتي بعد عدد من الآيات إذ يقول سبحانه: «أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ».

* * *

٢ـ احاطة الخطيئة

الخطيئة تستعمل غالبا في الذنوب التي لايرتكبها صاحبها عن عمد، لكنها وردت في هذه الآية بمعنى الذنوب الكبيرة[1]، أو بمعنى آثار الذنب في قلب الانسان و روحه[2].

---

(١) التفسير الكبير، الفخرالرازي، الآية المذكورة.

(٢) الميزان، الآية المذكورة.

مفهوم إحاطة الخطيئة يعني انغماس الفرد في الذنب الى درجة يصبح ذلك الفرد سجين ذنبه.

بعبارة أوضح، الذنوب الكبيرة والصغيرة تبدأ على شكل «فعل» ثم تتحول الى «حالة» ومع الاستمرار والاصرار تتحول الى «ملكة». وعند اشتدادها تغمر وجودالانسان وتصبح عين وجوده. عندئذ لاتجدي مع هذاالفرد موعظة ولا يؤثر فيه توجيه ولانصح، إذ إنه عَمِلَ عن اختيار على قلب ماهيته.

الآية الكريمة تتحدث عن خلود مثل هؤلاء الافراد في النار، وهذا يعني أن هؤلاء يغادرون الدنيا وهم مشركون. لان الشرك هوالذنب الوحيد الذى لا يغفره الله سبحانه: «إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (النساء،٤٨).

* * *

٣ـ عنصرية اليهود

نفهم من الآيات الكريمة أن روح التميز العنصري لدى اليهود، التي هي مبعث كثير من مشاكل الساحة العالمية اليوم، كانت راسخة لدى اليهود منذ تلك الايام. وكانوا يعتقدون بوجود تفوّق وامتياز لعنصر بني اسرائيل على سائر الاجناس البشرية الاخرى. ولازالت هذه الذهنية سائدة لدى هؤلاء القوم بعد مرور آلاف السنين على أسلافهم الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم. وهذا التعصب العنصري هوالاساس الذي تقوم عليه الدولة الصهيونية الغاصبة اليوم.

هؤلاء يعتقدون بأن عنصرهم متميز عن سائر البشر لا في هذه الدنيا فحسب، بل في الآخرة أيضاً، حيث لاينال المجرم منهم ـ على رأيهم ـ سوى عقوبة خفيفة قصيرة. وهذه التصورات المغلوطة هي التي دفعتهم الى أن يرتكبوا الوان الجرائم والموبقات.[1]

---

(١) فى تفسير الآية ١٢٢ من سورة النساء بحثنا أيضاً فى هذه الامتيازات الكاذبة (المجلد الرابع من هذا التفسير)

الآيات

٨٣ - «وَاِذْ اَخَذْنا مِيثاقَ بَني اِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ اِلاَّ اللهَ، وَبِالْوالِدَيْنِ اِحْساناً وَذِى الْقُرْبىٰ وَالْيَتامىٰ وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً، وَاَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوالزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ اِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَاَنْتُمْ مُعْرِضُونَ».

٨٤ - «وَاِذْ اَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ اَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَاَنْتُمْ تَشْهَدُونَ».

٨٥ - «ثُمَّ اَنْتُمْ هٰؤُلاءِ تَقْتُلُونَ اَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْاِثْمِ وَالْعُدْوانِ، وَاِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارىٰ تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ اِخْراجُهُمْ اَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ اِلاَّ خِزْيٌ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ اِلىٰ اَشَدِّالْعَذابِ، وَمَااللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ».

٨٦ - «أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلاهُمْ يُنْصَرُونَ».

التفسير

الناكثون

تقدم ذكر ميثاق بني اسرائيل، ولكن الآيات السابقة لم تتعرض الى تفاصيل هذاالميثاق على النحو المذكور في هذهالآيات. يشير سبحانه في هذه الآيات الى مواد هذاالميثاق، وهي بأجمعها - او معظمها - من المبادئ الثابتة في الأديان الإلهية. وهي موجودة بشكل من الاشكال في كل الاديان السماوية.

القرآن يندّد في هذه الآيات بشدّة باليهود لنقضهم هذه العهود، و يتوعدهم نتيجة لهذا النقض بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب في الآخرة.

بنود هذاالعهد الذى أقرّ به بنواسرائيل:

١ ـ التوحيد واخلاص العبودية لله «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ».

٢ ـ «وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً».

٣ ـ الاحسان الى الاقارب واليتامى والفقراء: «وَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ».

٤ ـ التعامل الصحيح مع الآخرين: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً».

٥ ـ إقامة الصلاة: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ».

٦ ـ إيتاء الزكاة: «وَآتُوا الزَّكَاةَ».

ثم تذكر الآية الكريمة نقض القوم للميثاق وعدم وفائهم بالعهد: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ».

* * *

٧ ـ عدم سفك الدماء: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ».

٨ ـ عدم إخراج بني جلدتكم من ديارهم: «وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ».

٩ ـ إفداء الأسرى، أي بذل المال لتحريرهم من الأسر (وهذا البند نفهمه من عبارة «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ»، وسيأتي ذكرها).

ثم تذكر الآية إقرار القوم بالميثاق: «ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ».

* * *

ثم يتعرض القرآن الى نقض بني اسرائيل للميثاق، بقتل بعضهم الآخر و تشريد بعضهم الآخر: «ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ».

و يشير القرآن الى تعاون بعضهم ضدالبعض الآخر: «تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ».

ثم يشير الى تناقض هؤلاء في مواقفهم، إذ يحاربون بني جلدتهم و يخرجونهم من ديارهم، ثم يفدونهم إن وقعوا في الاسر: «وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ

عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ».

فهم يفادونهم استناداً الى أوامر التوراة،بينما يشردونهم و يقتلونهم مخالفين بذلك ما أخذ الله عليهم من ميثاق: «**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**»؟!

ومن الطبيعي أن يكون هذا الانحراف سببا لانحطاط الانسان في الدنيا والآخرة: «**فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ**».

وانحرافات أيّة أمة من الامم لابدّ أن تعود عليها بالنتائج الوخيمة، ذلك لأنها محصاة عندالله سبحانه وتعالى: «**وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**».

* * *

الآية الأخيرة تشير الى تخبط بني اسرائيل و تناقضهم وخسرانهم في مواقفهم، والمصير الطبيعي الذي ينتظرهم نتيجة لذلك: «**أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**».

* * *

وقفات

١ـ اشارة تاريخية

في الآيات إشارة لتناقض بني اسرائيل في مواقف بعضهم من البعض الآخر. قيل في ذلك: «كان بنو إسرائيل إذا استضعف قوم قوماً أخرجوهم من ديارهم، وقد أخذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وأُخذ عليهم الميثاق إن أسر بعضهم بعضا أن يفادوهم. فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم، فآمنوا بالفداء ففدوا وكفروا بالاخراج من الديار فأخرجوهم».

و روي في المعنيّ بهذه الآية: «أن قريظة والنضير كانا أخوين كالاوس والخزرج فافترقوا فكانت النضير مع الخزرج وكانت قريظة مع الاوس، فاذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فاذا وضعت الحرب أوزارها فدوا أسراها تصديقا لما في التوراة، والاوس والخزرج أهل شرك يعبدون الاوثان لا يعرفون جنة ولا نارا ولا قيامة ولا كتابا، فأنبأ الله

تعالى اليهود بما فعلوه»[١].

وهكذا تسقط كل جماعة في مثل هذه التناقضات في حياتها، إن انحرفت عن خط العبودية التامة لله تعالى.

* * *

٢-الازدواجية في الالتزام

مرّ بنا أن القرآن الكريم يوبّخ اليهود بشدّة على التزامهم ببعض الاحكام الالهية وتركهم لبعضها الآخر، و ينذرهم بخزي الدنيا و بعذاب الآخرة.

هؤلاء في الواقع التزموا بما ينسجم مع مصالحهم الدنيوية من الاحكام، أما حين تقتضي مصلحتهم أن يريقوا دم الآخرين و يستضعفوهم، فلا يألون جهداً في ارتكاب كل ذلك مخالفين بذلك أهم أحكام ربّ العالمين.

التزامهم بفداء الأسرى لا ينطلق من روح تعبّدية، بل من روح مصلحية ترى أنّ من مصلحتها أن تفدي الاسرى اليوم، كي تُفدىٰ هي حين تقع بالاسر في المستقبل.

العمل بالاحكام المنسجمة مع مصالح الانسان الدنيوية، ليس دلالة على طاعة الله و عبادته، لأن الدافع لم يكن الاستجابة الى دعوة الله، بقدر ما كان استجابة لنداء الذات والمصالح الذاتية. روح الطاعة تبرز لدى التزام الانسان بما لاينسجم مع مصالحه الآنية الذاتية. وهذا هوالمعيار الذي يميّز به المؤمن عن العاصي. فالازدواجية في الالتزام بأحكام الله تعالى، دلالة على روح العصيان بل أحيانا على عدم الايمان. ومصيرها- بالتعبير القرآني- الخزي في الدنيا واشدّ العذاب في الآخرة.. ولاخزي اكبر من سقوط مثل هذه الامة السائرة على خط الازدواجية بيد الغزاة الاجانب، وهبوطها في مستنقع الذلة على الساحة العالمية.

هذه السنّة الكونية لا تقتصر على بني اسرائيل بل هي سارية في كل زمان ومكان، وتشملنا نحن المسلمين أيضا. وما أكثر الذين يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض في مجتمعاتنا اليوم! وما أشقى هؤلاء في الدنيا والآخرة!

* * *

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية المذكورة

٣-منهج البقاء وعوامل السقوط

الآيات الكريمة في معرض حديثها عن بني إسرائيل تطرح سننا كونية في بقاء الشعوب وانحطاطها.

أهم عامل لبقاء الامة و رفعتها وعزتها في المنظار القرآني، اعتماد الامة على قوة الله وقدرته الابدية وخضوعها له وحده دون سواه، وخشيته وحده دون غيره: «**لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ**».

ومن عوامل البقاء أيضاً التلاحم الاجتماعي بين أفراد الامة، وهذا ما يعبّر عنه القرآن بالإحسان الى الوالدين باعتبارهما أقرب أفراد المجتمع الى الانسان، ثم الإحسان الى ذي القربى، ثم بعد ذلك الى عامة أفراد المجتمع من الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس.

إزالة التميز الطبقي و رفع الهوة السحيقة الفاصلة بين الاغنياء والفقراء في المجتمع، عن طريق إيتاء الزكاة، من عوامل بقاء المجتمع أيضاً و رفعته.

أما عوامل السقوط، فتشير الآيات الى أنها تؤدي الى تفكّك البنية الاجتماعية، و نشوب النزاعات والحروب الداخلية بين أفراد المجتمع، و استضعاف بعضهم بعضاً.

ثم الازدواجية في الالتزام بأحكام الله تعالى عامل هام من عوامل السقوط، يدفع بالأفراد لأن يتحركوا حول محور مصالحهم الآنيّة الذاتية الضيقة، تاركين طريق العزة والرفعة والبقاء الذي رسمه الله للانسان.

* * *

الآيتان

۸۷ ـ «وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ قَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ».
۸۸ ـ «وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ».

التفسير

القلوب المغلفة

الحديث في هاتين الآيتين عن بني إسرائيل، و إن كانت المفاهيم والمعايير التي تطرحها الآيتان عامة شاملة.

تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ» ثم تذكر بعثة الانبياء بعد موسى مثل داود وسليمان و يوشع و زكريا و يحيىٰ... «وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ»، وتشير الى بعثة عيسى «وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» ، لكن تعامل بني اسرائيل كان مع كل هؤلاء الانبياء قائماً على أساس نزعات هوى النفس «أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ»؟! وكان موقفهم اما اغتيال شخصية النبي أو شخص النبي: «فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ»، لوكان اغتيال الشخصية كافياً لتحقيق أهدافهم الدنيئة اكتفوا بذلك، و إن لم يكن كافياً سفكوا دمه!!

ذكرنا في تفسير الآيات السابقة عند حديثنا عن الازدواجية في الالتزام بالاحكام الالهية، أن معيار الايمان والاستسلام هوالالتزام بما لا تهوى النفس، لان كل أصحاب الأهواء مستسلمون لما ينسجم مع ميولهم وأهوائهم.

ومن جانب آخر يستفاد من الآية أن القادة الالهيين لا يأبهون بمعارضة أصحاب الأهواء، ولو انساقوا وراء أهواء الآخرين لما كانوا قادة بل ذيليّين.

الآية التالية تذكر ما كانوا يقولونه أمام دعوة الانبياء أو دعوة النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) عن استهزاء: «**وَ قالُوا: قُلُوبُنا غُلْفٌ**» والغلف جمع أغلف أي مغلّف.

نعم، إنها كذلك مغلّفة و بعيدة عن نفوذ النور الالهي اليها، لان أصحابها لعنوا بعد التمادي في الكفر «**بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَليلاً ما يُؤْمِنُونَ**».

قد تشير الآية الى اليهود الذين كذبوا الانبياء وقتلوهم، وقد تشير الى اليهود المعاصرين للنبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) ممّن وقف بوجه الرسالة. لكنها على أي حال تبين حقيقة هامة هي: أن الانغماس في الأهواء يبعد الفرد عن الله، و يسدل الحجب على قلبه، فلا تكادالحقيقة تجد لها طريقا الى نفسه.

* * *

وقفات

١ـ رسالة الانبياء في مسيرة التاريخ

ذكرنا أن أصحاب الأهواء المنحرفين كانوا يقفون دوما بوجه دعوة الأنبياء، لانها كانت تهدد مصالحهم الآنيّة التافهة، و تحريف الرسالات الالهية أحدالسبل التي انتهجها هؤلاء المنحرفون لمحاربة الدعوة، لذلك كان لابدّ من توالي الرسل ـ على مرّ التاريخ ـ لمواصلة بقاء خط النبوّة على ظهرالارض، ولأتمام الحجة على البشرية، قال سبحانه: «**ثُمَّ اَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً**» (المؤمنون، ٤٤).

هذاالمفهوم عبّر عنه أميرالمؤمنين علي (عليه السلام) بقوله: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَ واتَرَ إِلَيْهِمْ اَنْبِياءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ ميثاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْليغِ، وَيُثيرُوا لَهُمْ دَفائِنَ الْعُقُولِ**» (نهج البلاغة، الخطبة الاولى).

هدف بعثة الأنبياء على مرّ العصور التاريخية إذن هو تذكير البشر بنعم الله سبحانه، و دعوتهم الى الالتزام بميثاق الفطرة، واحياء دعوات الانبياء السابقين.

وهنا يثار سؤال حول سبب ختم النبوة بنبي الاسلام (صلّى الله عليه وآله)، و سنجيب عليه إن شاءالله في تفسيرالآية ٤٠ من سورةالاحزاب.

* * *

٢ـ ماهو روح القدس

للمفسرين آراء مختلفة في معنى روح القدس:

١ ـ قالوا إنه جبرائيل، فيكون معنى الآية على هذا إن الله أيّد عيسى بجبرائيل. و شاهدهم على ذلك قوله تعالى: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» (النحل، ١٠٢).

ووجه تسمية جبرائيل بروح القدس، هو أن جبرائيل ملك والجانب الروحي في الملائكة أمر واضح، و اطلاق كلمة «الروح» عليهم متناسب مع طبيعتهم، و اضافة الروح الى «القُدسِ» اشارة الى طهر هذاالملك وقداسته الفائقة.

٢ ـ وقيل ان «روح القدس» هوالقوة الغيبية التي أيّدت عيسى (عليه السلام)، و بهذه القوة الخفية الالهية كان عيسى يحيى الموتى.

هذه القوة الغيبية موجودة طبعاً بشكل أضعف في جميع المؤمنين على اختلاف درجة إيمانهم. وهذا الامداد الالهي هوالذي يعين الانسان في أداء الطاعات و تحمل الصعاب، و يقيه من السقوط في الذنوب والزلات. من هنا ورد عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قوله لحسان: «لَنْ يَزالَ مَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ ما ذَبَبْتَ عَنّا» وقول بعض أئمة اهل البيت لشاعر قرأ أبياتا ملتزمة: «اِنَّما نَفَثَ رُوحُ الْقُدُسِ عَلىٰ لِسانِكَ».

٣ ـ ومن المفسرين من قال إن روح القدس هو «الانجيل»[١] و يبدو أن التفسيرين السابقين أقرب الى المعنى.

٣ـ مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين

ورد في قاموس الكتاب المقدس: «ان روح القدس هوالاقنوم الثالث من الاقانيم الثلاثة الإلهية. و يقال له (الروح)، لانه مبدع الحياة، و يسمى مقدسا لأن من أعماله تقديس قلوب المؤمنين، ولما له من علاقة بالله و بالمسيح يسمى أيضا (روح الله) و (روح المسيح)».

---

(١) تفسير المنار، ذيل الآية المذكورة.

و ورد أيضاً في هذاالقاموس تفسير آخر هو: «أما روح القدس الذي يؤنسنا فهوالذي يحثنا دوما الى قبول و فهم الاستقامة والايمان والطاعة، و يحي الاشخاص الذين ماتوا في الذنوب والخطايا، و يطهرهم و ينزههم و يجعلهم لائقين لتمجيد حضرة واجب الوجود».

وكما يلاحظ، إن عبارات قاموس الكتاب المقدس أشارت الى معنيين لروح القدس: الاول، إن روح القدس أحد الارباب الثلاثة، وهذه هي عقيدة التثليث، وهي عقيدة شرك بالله ومرفوضة والثاني، يشبه التفسير الثاني المذكور أعلاه.

٤ـقلوب غافلة محجوبة

كان اليهود في المدينة يقفون بوجه الدعوة، و يمتنعون عن قبولها، و يتذرعون لذلك بمختلف الحجج،والآية التي نحن بصددها تشير الى واحدة من ذرائعهم.

«وَقَالُوا: قُلُوبُنَا غُلْفٌ» ولا ينفذ اليها قول!!

كانوا يقولون ذلك عن استهزاء، غير أن القرآن أيّد مقالتهم، فبكفرهم ونفاقهم أُسدل على قلوبهم حجب من الظلمات والذنوب، وابتعدوا عن رحمة الله، «فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ».

وهذه المسألة تطرحها آية أخرى من قوله تعالى: «وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً» (النساء،١٥٥).

* * *

الآيتان

٨٩ ـ «وَلَمّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِاللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذينَ كَفَرُوا، فَلَمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرينَ».

٩٠ ـ «بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ اَنْفُسَهُمْ اَنْ يَكْفُرُوا بِما اَنْزَلَ اللهُ بَغْياً اَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلىٰ غَضَبٍ وَ لِلْكافِرينَ عَذابٌ مُهينٌ».

سبب النزول

روي عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: «كانَتِ الْيَهُودُ تَجِدُ في كُتُبِها أَنَّ مُهاجَرَ (مكان هجرة) مُحَمَّدٍ رَسول الله (صلّى الله عليه وآله) ما بين (جبلي) عَير و أُحد، فخرجوا يطلبون الموضع، فمرّوا بجبل يقال له حداد، فقالوا: حداد و أحد سواء، فتفرّقوا عنده، فنزل بعضهم بتيماء و بعضهم بفدك و بعضهم بخيبر، فاشتاق الذين بتيماء الى بعض اخوانهم، فمرّبهم أعرابي من قيس فتكاروا منه (أي استأجروا إبله) وقال لهم: أمرّبكم ما بين عَير و أُحد، (فعلموا أنهم أصابوا ضالّتهم) فقالوا له: إذا مررت بهما فآذنّا (أخبرنا) بهما، فلما توسط بهم أرض المدينة، قال: ذلك عَير، وهذا أُحد، فنزلوا عن ظهر إبله، وقالوا: قد أصبنا بغيتنا فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شئت، وكتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك وخيبر أنا قد أصبنا الموضع فهلمّوا الينا، فكتبوا اليهم أنّا قد استقرت بنا الدار و اتخذنا بها الاموال، وما أقربنا منكم، فان كان ذلك فما اسرعنا إليكم، واتخذوا بأرض المدينة أموالاً فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تُبعا فغزاهم، فتحصنوا منه، فحاصرهم ثمّ أمّنهم، فنزلوا عليه، فقال لهم: انى قد استطبت بلادكم، ولا أراني الا مقيما فيكم. فقالوا له: ليس لك ذلك، انها مهاجر

نبي، وليس ذلك لاحد حتى يكون ذلك، فقال لهم: فاني مخلف فيكم من أُسرتي من اذا كان ذلك ساعده و نصره، فخلف حين تراهم الاوس والخزرج، فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمد لنخرجنكم من ديارنا و أموالنا، فلما بعث الله محمداً (صلّى الله عليه وآله) آمنت به الأنصار و كفرت به اليهود، وهو قوله تعالى: (وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا...) الى آخر الآية».

نعم، هذا الفئة التي كانت تبحث بولع شديد عن منطلق البعثة المحمدية، لتكون اول من تؤمن برسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وكانت تفتخر أمام الاوس والخزرج بأنها ستكون من خاصة صحابة النبي المبعوث، اذا هي تقف ـ بسبب لجاجها وعنادها ـ الى جانب أعداء النبي، بينما التف حول الرسول من كان بعيداً عن هذه الاجواء.

التفسير

كفروا بما عرفوا من قبل

هذه الآيات تتحدث ايضاً عن اليهود ومواقفهم، هؤلاء ـ كما ورد في اسباب النزول ـ هاجروا ليتخذوا من يثرب سكنا بعد أن وجدوا فيها ما يشير الى انها ارض الرسول المرتقب، و بقوا فيها ينتظرون بفارغ الصبر النبي الذي بشرت به التوراة، كما كانوا ينتظرون الفتح والنصر على الذين كفروا تحت لواء هذا النبي، لكنهم مع كل ذلك أعرضوا عن الرسول وعن الرسالة «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وهكذا تستطيع الأهواء والمصالح الشخصية أن تقف بوجه طالب الحقيقة، مهما كان الفرد عاشقا لهذه الحقيقة و توّاقا للوصول اليها، بل تستطيع أيضاً أن تحوّل هذا الفرد الى عدوّ لدود لهذه الحقيقة.

* * *

ما أشدّ خسارة هؤلاء القوم، تركوا أوطانهم وهاموا في الارض بحثا عن علامات أرض الرسالة، ثم هاهم خسروا كل شيء و باعوا أنفسهم بأسوأ ثمن: «بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا أَنْفُسَهُمْ».

لقد ضيعوا كل شي ء لأن المبعوث لم يكن ممن شاؤوه هم، بل ممن شاءه الله: «اَنْ يَكْفُرُوا بِما اَنْزَلَ اللهُ بَغْياً اَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ».

و لذلك شملهم غضب الله المتوالي: «باءُو بِغَضَبٍ عَلىٰ غَضَبٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ».

* * *

وقفتان

١ـ صفقة خاسرة

إنه لخسران عظيم أن تتهيّأ للانسان كل سبل الهداية ثم يعرض عنها لأمور تافهة. واليهود المعاصرون للنبي الخاتم هم من أولئك، توفّرت لهم كل هذه السبل، بل تحركوا زمنا يبتغون مصدر هذه الهداية، وعثروا بعد جهد على مبتغاهم حين حطوا رحالهم بين «العير» و «أُحد» انتظاراً للنبي الموعود، ثم إذا هم يخسرون كل شي ء، ويبيعون كل شي ء حين أحسّوا أن هذا النبي المبعوث لا يحقق مصالحهم الفردية أوالفئوية.

ما أكبر الخسارة حين يبيع الانسان نفسه بهذا الشكل! بينما ليس لوجود الانسان ثمن الا الجنة كما يقول أميرالمؤمنين علي (عليه السلام): «إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلاَّ الْجَنَّةَ فَلا تَبِيعُوها إِلاَّ بِها»[1].

عبارة «اشتراء النفس» أي بيعها توحي أن الاتجاه نحو طريق الضلال بيعٌ للنفس، وكأن الكافر يبيع شخصيته الانسانية، ويصبح عبداً لاهوائه وللشيطان.

* * *

٢ـ غضب على غضب

القرآن الكريم قال عن بني اسرائيل حين تاهوا في صحراء سيناء بأنّهم «باءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ» بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء، وهؤلاء أحفادهم من اليهود المعاصرين للبعثة المحمدية باءُو بغضب على غضب، لأنهم ساروا على طريق أسلافهم في الكفر بالرسالة، وزادوا على ذلك بوقوفهم بوجه الرسول وتآمرهم على الدعوة.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة رقم ٤٥٦.

و «باءُو» بمعنى رجعوا،ـوأقاموا في المكان ـ وهنا تعني استحقاقهم لعذاب الله. فكأنهم عادوا وهم محملون بهذا الغضب الالهي، أو كأنهم اتخذوا موقفا يغضب الله.

هؤلاء القوم كانوا يعيشون أمل ظهور النبي المنقذ، قبل دعوة موسى وقبل دعوة النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله)، وكان موقفهم من الرسولين الكريمين واحدا، هوالنكول والاعراض،واستحقوا على مرّالاجيال غضب الله وسخطه.

* * *

الآيات

٩١ - «وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَالحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

٩٢ - «وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسىٰ بِالبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ».

٩٣ - «وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ أُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

التفسير

«وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ الله، قالُوا: نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا. وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ».

فهم لم يؤمنوا بالانجيل ولا بالقرآن، بل إنهم يدورون حول محورالعنصرية والمصلحية. فيجرأون على رفض الدعوة التي جاءت تصديقا لما معهم في التوراة «وَهُوَ الْحَقَّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ».

و يكشف القرآن زيف ادعائهم مرة أُخرى حين يقول لهم: «قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» هؤلاء يدّعون أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراة تبيح لهم قتل الانبياء؟!

وهذا الذي يقوله بنواسرائيل: «نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا» ينطلق من روح ذاتية فردية أو فئوية، وهي تخالف روح التوحيد. فالتوحيد يستهدف القضاءَ على كل المحاورالذاتية في حركة الانسان ومواقفه، وتكريس نشاطات الفرد حول محور العبودية لله لاغير.

بعبارة أخرى، لوكان الانصياع للاوامر الالهية متوقفا على نزولها عليهم، فهوالشرك لا الايمان، وهوالكفر لا الاسلام، ومثل هذاالانصياع ليس بدليل على الايمان قط.

وعبارة «مَا أَنْزَلَ اللهُ» تحمل مفهوم نفي كل ذاتية بشرية في الرسالة، بما في ذلك ذات النبي المرسل، فلم تتضمن العبارة اسم محمد وعيسى وموسى عليهم افضل الصلاة والسلام، بل التأكيد على الايمان بما أنزل الله تعالى.

يعرض القرآن وثيقة أخرى لادانة اليهود ولكشف زيف ادعائهم فيقول: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

ما هذاالانحراف نحو عبادة العجل بعد أن جاءتكم البينات إن كنتم في ايمانكم صادقين؟! لو كنتم آمنتم به حقا، فَلِمَ تبدّل ايمانكم الى كفر عند غياب موسى وذهابه الى جبل الطور، و بذلك ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم والاجيال المتعاقبة بعدكم؟!

* * *

في الآية الثالثة يطرح القرآن وثيقة إدانة أُخرى، فيشير الى مسألة ميثاق جبل الطور و يقول: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَاسْمَعُوا، قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا».

وما كان عصيانهم إلّاعن انغماس في حبّ الدنيا الذي تمثّل في حبّ عجل السامري الذهبي: «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ».

أايمانكم دعاكم الى كل هذه الجرائم والسيئات؟! إذن «قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»[1].

* * *

وقفتان

١ ـ عبارة «قَالُوا:سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا» ليست حكاية عمّا قالوه بألسنتهم، بل هي تعبير عن واقع عملي لهؤلاء القوم، وكناية رائعة عن انحرافهم.

---

(١) مر بنا في الآيتين ٥١، ٦٣ من هذه السورة المباركة موضوع ميثاق بني اسرائيل وخصائصه.

٢ ـ عبارة «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ» هي ايضاً كناية رائعة تعبّر عن وضع هذه الجماعة.

والأشراب له معنيان: الأحكام كقولك «أشربت البعير» إذا شددت رقبته بالحبل. و كذلك الإرواء، و يكون المعنى على الوجهين أن حبّ العجل قد غمر قلوب بني اسرائيل واستحكم في أنفسهم.

والعبارة توحي أيضا أن ما يصدر عن هؤلاء القوم من انحراف، إنما هو ظاهرة طبيعية ناتجة عن تغلغل روح الشرك في قلوبهم. والقلوب التي أُشربت الشرك لا يصدر عنها الا القتل والانكار والخيانة.

و تتبين أهمية الموضوع أكثر لو طالعنا مقدار ما أكدت عليه الديانة اليهودية من تقبيح لعملية القتل ونهي عنها فقد جاء في قاموس الكتاب المقدس، ص٦٨٧: «القتل العمدي و تقبيحه كان على درجة من الاهمية لدى بني اسرائيل، بحيث لا تبرأ ذمّة القاتل لو لجأ الى الاماكن المقدسة، بل لابد من انزال عقوبة القصاص به بأي حال من الاحوال.

هذا هو معنى قتل الانسان في نظر التوراة، فما بالك بقتل الانبياء؟

* * *

الآيات

٩٤ ـ «قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الآخِرَةُ عِنْدَاللهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ».

٩٥ ـ «وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ اَبَداً بِما قَدَّمَتْ اَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ».

٩٦ ـ «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النّاسِ عَلىٰ حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ اَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْيُعَمَّرُ اَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَبِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ اَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ».

التفسير

فئة مغرورة

يبدو من تاريخ اليهود ـ اضافة الى أحاديث القرآن عنه ـ أن هؤلاء القوم كانوا يعتبرون أنفسهم فئة متميزة في العنصر، ومتفوقة على سائر الاجناس البشرية، وكانوا يعتقدون أن الجنة خلقت لهم لالسواهم، وأن نار جهنم لن تمسهم، و أنهم أبناءالله وخاصته، وأنهم يحملون جميع الفضائل والمحاسن.

هذاالغرور الأرعن تعكسه كثير من آيات الذكر الحكيم الآية ١٨ من سورة المائدة تقول عن لسانهم: «نَحْنُ اَبْناءُ اللهِ وَاَحِبّاؤُهُ». و في الآية ١١١ من سورة البقرة نرى ادعاءً آخر لهم: «وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ اِلاّ مَنْ كانَ هُوداً اَوْنَصارىٰ»، وهكذا في الآية ٨٠ من سورة البقرة:«وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنا النّارُاِلاّ أَيّاماً مَعْدُودَةً».

هذه التصورات الموهومة كانت تدفعهم من جهة الى الظلم والجريمة والطغيان، وتبعث فيهم ـ من جهة أُخرى ـ الغرور والتكبّر والاستعلاء.

القرآن الكريم يجيب هؤلاء القوم جوابا دامغاً إذ يقول: «قُلْ اِنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الآخِرَةُ عِنْدَاللهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ اِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ».

لماذا تفرون من الموت، وكل ما في الآخرة من نعيم هو لكم كما تدّعون؟! لماذا

هذا الالتصاق بالارض وبالمصالح الذاتية الفردية، إن كنتم مؤمنين بالآخرة وبنعيمها حقاً؟!

بهذا الشكل فضح القرآن أكذوبة هؤلاء وبيّن زيف ادعائهم.

* * *

في الآية التالية تأكيد على ما سبق بشأن ابتعاد القوم عن الموت: «**وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**».

هؤلاء يعلمون ما في ملف أعمالهم من وثائق سوداء ومن صحائف إدانة، والله عليم بكل ذلك، ولذلك فهم لا يتمنون الموت، لأنه بداية حياة يحاسبون فيها على كل أعمالهم.

* * *

الآية الأخيرة تذكر انشداد هؤلاء بالأرض وحرصهم الشديد على المال والمتاع: «**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ**» وتذكر الآية أن حرصهم هذا يفوق حرص الذين أشركوا: «**وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**».

المشركون ينبغي أن يكونوا أحرص من غيرهم على جمع المال والمتاع، لكن هؤلاء من أصحاب الادعاءات الفارغة، بلغوا من الحرص ما لم يبلغه المشركون. وبلغ شغفهم بالدنيا أنه «**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**»، لجمع مزيد من متاع الدنيا، أو خوفا من عقاب الآخرة! لكن هذا العمر الذي يتمناه كل واحد منهم لا يبعده عن العذاب، ولا يغيّر من مصيره شيئاً «**وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ**» إذ كل شيء محصى لدى الله ولا يعزب عن علمه شيء: «**وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**».

* * *

وقفات

١ - المقصود من الأعوام الألف في قوله تعالى: «**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**» ليس هذا العدد المعروف بل يعني العمر الطويل المديد. فهو ليس للتعداد بل للتكثير.

وذهب بعض المفسرين الى أن العرب لم يكن تعرف آنذاك عدداً اكبر من الالف، ولم يكن لما يزيد على الألف اسم عند العرب، ولذلك كان أبلغ تعبير عن الكثرة.[١]

---

(١) المنار، ج١، ص٣٣١.

٢ ـ تنكير الحياة في تعبير الآية «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ» تفيد ـ كما ذهب الى ذلك جمع من المفسرين ـ الاستهانة والتحقير، أي إن هؤلاء حريصون حتى على أتفه حياة و أرخصها و أشقاها، و يفضلونها على الآخرة.[١]

* * *

٣ـ جرائم العنصريين

كان التعصّب العنصري وراء كثير من الحروب والمآسي التي حدثت على الساحة البشرية خلال جميع عصور التاريخ، وفي عصرنا الحديث كان التعصب العرقي الالماني عاملا فعالاً في إشعال لظى الحربين العالميتين الاولى والثانية.

واليهود يحتلون دون شك مكان الصدارة بين العنصريين المتعصبين على مرّ التاريخ وها هي دويلتهم المسماة باسرائيل أُقيمت على أساس هذه العنصرية المقيتة، وما يرتكبه هذا الكيان العنصري الصهيوني من جرائم فظيعة، إنما هو استمرار لجرائمه التاريخية الناشئة عن عنصريته البغيضة.

لقد دفعتهم عنصريتهم لأن يحتكروا حتى تعاليم موسى، و يزيلوا عنصر الدعوة من دينهم، كي لا يعتنق تعاليمهم أحد غيرهم.

وهذه النزعة الأنانية هي التي جعلت هؤلاء القوم منبوذين ممقوتين من قبل كل شعوب العالم.

التعصب العنصري شعبة من الشرك ، و لذلك حاربه الاسلام بشدّة، مؤكدا أن كل أبناء البشر من أب واحد و أم واحدة، ولا تمايز بينهم إلا بالتقوى و العمل الصالح.

* * *

٤ـ عوامل الخوف من الموت

أكثر الناس يخافون من الموت وخوفهم من الموت يعود الى عاملين:

١ ـ **الخوف من الفناء والعدم**، فالذين لا يؤمنون بالآخرة لا يرون بعد هذه الحياة استمرار لحياتهم، ومن الطبيعي أن يخاف الانسان من الفناء، وهذا الخوف يلاحق هؤلاء

---

(١) الميزان ج١ ص٢٣٠ ـ المنار ج١ ص٣٩٠.

حتى في أسعد لحظات حياتهم فيحولها الى علقم في أفواههم.

٢ ـ **الخوف من العقاب**، ومثل هذاالخوف يلاحق المذنبين المؤمنين بالآخرة، فيخافون ان يحين حينهم وهم مثقلون بالآثام والاوزار، فينالوا جزاءهم. ولذلك يودّون أن تتأخر ساعة انتقالهم الى العالم الآخر.

الانبياء العظام أحيوا في القلوب الايمان باليوم الآخر، وبذلك أبعدوا شبح الفناء والإنعدام من الاذهان، وبينوا أن الموت انتقال الى حياة أبدية خالدة منعّمة.

من جهة أخرى دعا الانبياء الى العمل الصالح، كي يبتعدالانسان عن الخوف من العقاب، ولكي يزول عن القلوب والأذهان كل خوف من الموت.

* * *

الآيتان

٩٧ - «قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ».

٩٨ - «مَنْ كانَ عَدُوّاً لِلّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ».

أسباب النزول

روي عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية،ما روي أن ابن صوريا وجماعة من يهود أهل فدك ، لما قدم النبي (صلّى الله عليه وآله) المدينة، سألوه أسئلة، وكان رسول الله يجيبهم وهم يصدّقون جوابه، من ذلك أنهم قالوا له: يا محمد كيف نومك ؟ فقد أخبرنا عن نوم النبي الذي يأتي في آخر الزمان، فقال: تنام عيناي و قلبي يقظان. قالوا: صدقت يا محمد... ثم قال له ابن صوريا: خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك و اتبعتك : أيّ ملك يأتيك بما يُنزل الله عليك ؟ قال: جبريل. قال ابن صوريا: ذاك عدونا ينزل بالقتال والشدة والحرب، و ميكائيل ينزل باليسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هوالذي يأتيك لآمنّا بك !![1].

***

التفسير

قومٌ جَدِلون

سبب نزول الآية الكريمة يبين طبيعة العناد واللجاج والجدل في اليهود، ابتداء من زمان موسى (عليه السلام) و مروراً بعصر خاتم الانبياء، وحتى يومنا هذا... يعرضون

---

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية، مع شيء من الاختصار

عن الحقّ بالوان الحجج الواهية.

حجتهم في هذا الموضع المذكور في الآية ثقل التكاليف التي يأتي بها جبرائيل، و عداؤهم لهذا الملك، و رغبتهم في أن يكون ميكائيل أمينا للوحي!! و كأن الملائكة هم مصدر الأحكام الالهية! والقرآن الكريم يصرّح بأن الملائكة ينفّذون أوامرالله ولا ينحرفون عن طاعته: «لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ» (التحريم،٦).

القرآن يجيب عن ذريعة هؤلاء: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ» وما جاء به جبرائيل يصدّق ما نزل في الكتب السماوية السابقة: «مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» وهو إضافة الى كل هذا: «وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»(البقرة،٩٧)

فالجواب ينطوي على ثلاث شعب:

أولاً ـ جبريل لا يأتي بشيء من عنده بل ما يأتي به هو «بِإِذْنِ اللهِ».

ثانياً ـ ما جاء به جبريل تصدّقه الكتب السماوية السابقة، لانطباقه على العلامات والدلالات المذكورة في تلك الكتب.

ثالثاً ـ محتوى ما جاء به جبرائيل يدلّ على أصالته و حقانيته.

* * *

الآية التالية تؤكد نفس هذا الموضوع تأكيدا مقرونا بالتهديد وتقول: «مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَميكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ»، (البقرة، ٩٨) مشيرة بذلك الى أن موقف الانسان من الله و ملائكته و رسله، ومن جبرائيل و ميكائيل،لا يقبل التفكيك ، وان الموقف المعادي من أحدهم هو معاداة للآخرين.[١]

بعبارة أخرى، الأوامر الالهية الباعثة على تكامل الانسان، تنزل عن طريق الملائكة على الرسل، وان كان بين مهمات الملائكة اختلاف،فذلك يعود الى تقسيم المسؤوليات لا الى التناقض بين المهمات. واتخاذ موقف معاد من أحدهم هو عداء لله سبحانه.

* * *

(١) الميزان، في تفسير الآية المذكورة.

جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ

ورد اسم جبريل ثلاث مرات واسم ميكال مرة واحدة في القرآن الكريم.[١] و يستفاد من الآيات أنهما ملكان مقربان من ملائكة الله تعالى. قيل ان اسم جبريل عبري يعني «رجل الله» أو «قوة الله» (جبر تعني الرجل أو القوة، وئيل بمعنى الله).

هذه الآيات الكريمة تعرّف جبريل أنه رسول الوحي الالهي الى النبي، ومنزّل القرآن على قلبه، ولواسطة الوحي اسم آخر في الآية ١٠٢ من سورة النحل هو: «رُوحُ الْقُدُسِ» أما الآية ١٩١ من سورة الشعراء فتسميه «الرُّوحُ الْأَمِينُ»، و يصرح المفسرون أن المقصود من روح القدس والروح الامين، هو جبرائيل.

وهناك أحاديث تدور حول تشكل جبرائيل بصور متعددة لدى نزوله على النبي، وكان في المدينة ينزل على صورة (دحية الكلبي) وهو رجل جميل الطلعة.

يستفاد من سورة النجم أن النبي (صلّى الله عليه وآله) شاهد جبرائيل مرتين على هيئته الاصلية.[٢]

ذكرت المصادر الاسلامية أسماء أربعة من الملائكة المقربين هم: جبرائيل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل، واعظمهم مرتبة جبرائيل.

وفي كتب اليهود ورد ذكر جبريل وميكال، ومن ذلك ما ورد في كتاب دانيال حيث وصف جبرائيل بأنه الغالب وأنه رئيس الشياطين، ووصف ميكائيل بأنه حامي قوم بني اسرائيل.[٣]

ذكر بعض المحققين أن المصادر اليهودية خالية من الدلالة على خصومة جبرائيل لهؤلاء القوم، وهذا يؤيد أن ادعاءات اليهود بشأن موقفهم من جبرائيل، لم يكن الآ ذريعة للتنصل من الاسلام إذ لا يوجد في مصادرهم الدينية ما يشير الى وجود مثل هذه العداوة بينهم و بين جبرائيل.

---

(١) اسم «جبريل» ورد مرتين في هذه الآيات و مرة في سورة التحريم الآية ٤ واسم ميكال لم يرد الا في هذا الموضع من القرآن.

(٢ و٣) اعلام القرآن، ص ٢٧٧ وص ٦٢٩

الآيات

٩٩ ـ «وَلَقَدْ اَنْزَلْنا اِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها اِلاَّ الْفاسِقُونَ».

١٠٠ ـ «اَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ».

١٠١ ـ «وَلَمّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِاللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ اُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَاَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ».

سبب النزول

قال ابن عباس: إن ابن صوريا ـ وهو من أحبار اليهود ـ قال لرسول الله (صلّى الله عليه وآله): يا محمد ما جئتنا بشيْ نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك لها، فأنزل الله هذه الآية.[١]

* * *

التفسير

الناكثون من اليهود

الآية الاولى تشير الى الآيات والعلامات والدلائل الكافية الواضحة التي توفرت لدى رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وتؤكد أن المعرضين عن هذه الآيات البينات ـ ادركوا في الواقع ـ حقّانية الدعوة، لكنهم هبّوا للمعارضة مدفوعين بأغراضهم الشخصية: «وَلَقَدْ اَنْزَلْنا اِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها اِلَّا الْفاسِقُونَ».

التفكير في آيات القرآن ينير الطريق لكل طالب حق منصف، و بمطالعة هذه الآيات يمكن فهم صدق دعوة نبي الاسلام (صلّى الله عليه وآله)، وعظمة القرآن.

---

(١) مجمع البيان، و تفسير القرطبي.

لكن هذه الحقيقة الواضحة لا يفهمها الذين انطفأ نور قلوبهم بسبب الذنوب، من هنا نرى الفاسقين الملوثين بالخطايا يعرضون عن الايمان بالرسالة.

ثم يتطرق القرآن الى صفة مجموعة من اليهود، وهي صفة النكول ونقض العهود والمواثيق، وكأنها صفة تاريخية تلازمهم على مرّ العصور «**أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**».

لقد أخذ الله ميثاقهم في جانب الطور أن يعملوا بالتوراة لكنهم نقضوا الميثاق!.

و أخذ منهم الميثاق أن يؤمنوا بالنبي الخاتم المذكور عندهم في التوراة، فلم يؤمنوا به!

و هؤلاء القوم عقدوا الميثاق مع النبي لدى هجرته المباركة الى المدينة أن لا يتواطؤوا مع أعدائه، لكنهم نقضوا العهد و تعاونوا مع مشركي مكة في حرب الاحزاب ضد المسلمين!

وهذه الخصلة في هذا الفريق من اليهود، نجدها اليوم متجسدة في الصهيونية العالمية التي تضع كل المواثيق والقرارات والمعاهدات الدولية تحت قدميها، متى ما تعرّضت مصالحها للخطر.

* * *

الآية الأخيرة تؤكد بصراحة أكثر على هذا الموضوع: «**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**».

كان أحبار اليهود يبشرون الناس قبل البعثة النبوية بالرسول الموعود و يذكرون لهم علاماته وصفاته، فلما بعث نبي الاسلام، أعرضوا عمّا جاء في كتابهم، وكانهم لم يروا ولم يقرأوا ما ذكرته التوراة في هذا المجال.

هذه هي النتيجة الطبيعية للافراد الغارقين في ذاتياتهم، هؤلاء ـ حتى في دعوتهم الى حقيقة من الحقائق ـ لا يتجردون عن ذاتياتهم، فان وصلوا الى تلك الحقيقة ووجدوها لا تنسجم مع أهوائهم، أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم.

* * *

وقفات

١ ـ واضح أن تعبير «النُّزول» أو «الإنْزالِ» بشأن القرآن الكريم، لا يعني الانتقال المكاني من الاعلى الى الأسفل، بل التعبير يشير الى علو مكانة ربّ العالمين.

* * *

٢ ـ كلمة «فاسق» من مادة «فسق» و تعني خروج النواة من الرطب. فقد تسقط الرطبة من النخلة، و تنفصل عنها النواة. و يقال عن هذا الانفصال في العربية «فسقت النواة»، ثم اطلقت الكلمة على كل انفصال عن خط طاعة الله، وعن طريق العبودية.

فكما ان النواة تفسق إذا نزعت عنهالباسها الحلو المفيد المغذي، كذلك الفاسق. تنزع عنه بفسقه كل قيمه و شخصيّته الانسانية.

* * *

٣ ـ القرآن في حديثه عن اليهود لايوبّخ الجميع بسبب ذنوب الاكثرية، بل يستعمل كلمات مثل «فريق» «اكثر» ليصون حق الاقلية المؤمنة المتقية، و طريقة القرآن هذه في حديثه عن الامم درس لنا كي لا نحيد في أحاديثنا ومواقفنا عن الحقّ والحقيقة.

* * *

الآيتان

١٠٢ ـ «وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلٰكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النّاسَ السِّحْرَ وَما أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ اَحَدٍ حَتّٰى يَقُولا اِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارّينَ بِهِ مِنْ اَحَدٍ اِلّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ مالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ اَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ».

١٠٣ ـ «وَ لَوْ اَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِاللهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ».

التفسير

سليمان وسحرة بابل

يفهم من الاحاديث أن مجموعة من الناس مارست السحر في عصرالنبي سليمان (عليه السلام)، فأمر سليمان بجمع كل أوراقهم وكتاباتهم، واحتفظ بها في مكان خاص. (لعل الاحتفاظ بها يعود الى إمكان الاستفادة منها في إبطال سحرالسحرة).

بعد وفاة سليمان عمدت جماعة الى إخراج هذه الكتابات، و بدأوا بنشرالسحر وتعليمه. واستغلت فئة هذه الفرصة فأشاعت أن سليمان لم يكن نبيا أصلا، بل كان يسيطر على مُلكه و يأتي بالامور الخارقة للعادة عن طريق هذاالسحر!

مجموعة من بني اسرائيل سارت مع هذه الموجة ولجأت الى السحر، وتركت التوراة.

عند ما ظهر النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله)، وجاءت آيات القرآن مؤيدة لنبوة سليمان، قال بعض أحبار اليهود: الا تعجبون من محمد يقول: سليمان نبي وهو ساحر!

وجاءت الآية ترد على مزاعم هؤلاء و تنفي هذه التهمة الكبرى عن سليمان (عليه السلام)[1].

* * *

الآية الاولى إذن تكشف فضيحة أخرى من فضائح اليهود وهي اتهامهم لنبي الله بالسحر والشعوذة، تقول الآية عن هؤلاء القوم: **«وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ»**.

والضمير في «وَاتَّبَعُوا» قد يعود الى اليهود المعاصرين للنبي، أو الى اولئك اليهود المعاصرين لسليمان، أو لكلا الفريقين.

والمقصود بكلمة «الشَّيَاطِينُ» قد يكون الطغاة من البشر أو من الجن أو من كليهما.

ثم تؤكد الآية على نفي الكفر عن سليمان: **«وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ»**.

فسليمان (عليه السلام) لم يلجأ الى السحر، ولم يحقق أهدافه عن طريق الشعوذة: **«وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ»**.

هؤلاء اليهود لم يستغلوا ما تعلموه من سحر الشياطين فحسب، بل أساؤوا الاستفادة أيضاً من تعليمات هاروت وماروت: **«وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ»**[2].

هاروت وماروت جاء الى الناس في وقت راج السحر بينهم وابتلوا بالسحرة والمشعوذين ،وكان هدفهما تعليم الناس سبل ابطال السحر وكما إن احباط مفعول القنبله يحتاج الى فهم لطريقه فعل القنبلة، كذلك كانت عملية احباط السحر تتطلب تعليم الناس اصول السحر، ولكنهما كانا يقرنان هذا التعليم بالتحذير من السقوط في الفتنة بعد تعلم السحر **«وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ»**.

وسقط اولئك اليهود في الفتنة، وتوغلوا في انحرافهم، فزعموا أن قدرة سليمان لم

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٢، ص١٩٢. و مجمع البيان في تفسير الآية،مع قليل من الاختلاف.

(٢) بعض المفسرين عطفوا جملة «مَا أُنزِلَ» على «مَا تَتْلُوا» وعلى هذا الاساس فسرنا الآية اعلاه، و بعضهم عطفوها على (السحر)

تكن من النبوة بل من السحر والسحرة. وهذا هو دأب المنحرفين دائماً، يحاولون تبرير انحرافاتهم باتهام العظماء بالانحراف.

هؤلاء القوم لم ينجحوا في هذا الاختبار الالهي، فاخذوا العلم من الملكين واستغلوه على طريق الافساد لا الاصلاح، لكن قدرة الله فوق قدرتهم وفوق قدرة ما تعلموه: **«فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ»**.

لقد تهافتوا على اقتناء هذا المتاع الدنيوي وهم عالمون بأنه يصادر آخرتهم **«وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ»**[1]. لقد باعوا شخصيتهم الانسانية بهذا المتاع الرخيص **«وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»**.

* * *

لقد اضاعوا سعادتهم و سعادة مجتمعهم عن علم ووعي، وغرقوا في مستنقع الكفر والانحراف **«وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»**.

* * *

وقفات

١ ـ قصة هاروت وماروت

كثر الحديث بين اصحاب القصص والاساطير عن هذين الملكين، واختلطت الخرافة بالحقيقة بشأنهما، حتى ما عاد بالامكان استخلاص الحقائق مما كتب بشأن هذه الحادثة التاريخية، و يظهر أن أصح ما قيل بهذا الشأن و أقربه الى الموازين العقلية والتاريخية هو مايلي:

شاع السحر في أرض بابل و ادّى الى إحراج الناس وازعاجهم، فبعث الله ملكين بصورة البشر، و أمرهما أن يعلما الناس طريقة احباط مفعول السحر، ليتخلصوا من شر السحرة.

كان الملكان مضطرين لتعليم الناس أصول السحر، باعتبارها مقدمة لتعليم

(١) الخَلاق يعني الخُلُق، وقد يعني الحظ والنصيب وهذا هو معنى الكلمة في الآية.

طريقة احباط السحر. واستغلت مجموعة هذه الاصول، فانخرطت في زمرة الساحرين، واصبحت مصدر أذى للناس.

الملكان حذرا الناس - حين التعليم - من الوقوع في الفتنة، و من السقوط في حضيض الكفر بعد التعلم، لكن هذا التحذير لم يؤثّر في مجموعة منهم.[1]

وهذا الذي ذكرناه ينسجم مع العقل والمنطق، و تؤيده أحاديث أئمة آل البيت (عليهم السلام). أما ما تتحدث عنه بعض كتب التاريخ و دوائر المعارف بهذا الشأن فشوب بالخرافات والاساطير، وبعيد كل البعد عمّا ذكره القرآن، من ذاك مثلاً أن الملكين أرسلا الى الأرض ليثبت لهما سهولة سقوطهما في الذنب إن كانا مكان البشر، فنزلا وارتكبا انواع الآثام والذنوب والكبائر!! والنص القرآني بعيد عن هذه الاساطير ومنزه منها.

* * *

٢ ـ لفظ هاروت وماروت

زعم بعض المحققين أن «هاروت» و«ماروت» لفظان فارسيان قديمان. وقال: ان كلمة «هوروت» تعني «الخصب»، و«موروت» تعني «عديم الموت» واسما هاروت و ماروت مأخوذان، من هذين اللفظين.[2] وهذا الاتجاه في فهم معنى الاسمين لا يقوم على دليل.

وفي كتاب «آوِستا» وردت الفاظ مثل: «هرودات» ويعني «شهر خرداد»، و كذلك «امردات» بمعنى عديم الموت، وهو نفسه اسم «شهر مرداد».[3]

وفي معجم (دهخدا) تفسير للفظين شبيه بما سبق.

وقيل في هاروت وماروت انهما من البشر ومن سكنة بابل!، وقيل أيضاً أنهما من الشياطين!! والآيات المذكورة ترفض ذلك طبعاً.

* * *

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية المذكورة. الوسائل، ج١٢، ص١٠٦ - ١٠٧.

(٢) أعلام القرآن، ص٦٥٥.

(٣) نفس المصدر.

٣ـ كيف يكون الملك معلماً للانسان؟

يبقى السؤال عن الرابطة بين الملك والانسان، وهل يمكن أن تكون بينهما رابطة تعليمية؟ الآيات المذكورة تصرح بأن هاروت وماروت علما الناس السحر، وهذا تمّ طبعاً من أجل احباط سحرالسحرة في ذلك المجتمع. فهل يمكن للملك أن يكون معلما للانسان؟

الاحاديث الواردة بشأن الملكين تجيب على هذاالسؤال، وتقول: إن الله بعثهما على شكل البشر، وهذه الحقيقة يمكن فهمها من الآية التاسعة لسورة الانعام ايضا، حيث يقول تعالى: «**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً**». (انعام،٩)

* * *

٤ـ لاقدرة لاحد على عمل دون إذن الله

نفهم من قول الله في هذه الآيات أن السحرة ما كانوا قادرين على إنزال الضرّ باحد دون إذن الله سبحانه. وليس في الأمر «جبر» ولا إرغام، بل أن هذاالمعنى يشير الى مبدأ أساس في التوحيد، وهو إن كل القوى في هذا الكون تنطلق من قدرة الله تعالى، النار إذ تحرق إنما تحرق باذن الله، والسكين إذ تقطع إنما تقطع بأمرالله. لايمكن للساحر أن يتدخل في عالم الخليقة خلافا لارادة الله.

كل ما نراه من آثار وخواص إنما هي آثار وخواص جعلهاالله سبحانه للموجودات المختلفة، ومن هذه الموجودات من يحسن الاستفادة من هذه الهبة الالهية و منهم من يسي الاستفادة منها. و «الاختيار» الذى منحه الله للانسان وسيلة لاختباره وتكامله.

* * *

٥ـ السحروتاريخه

الحديث من السحر و تاريخه طويل و نكتفي هنا بالقول إن جذوره ضاربة في أعماق التاريخ، ولكن بداياته و تطوراته التاريخية يلفّها الغموض.

و بشأن معناه يمكن القول: إنه نوع من الاعمال الخارقة للعادة، تؤثر في

وجودالانسان، وهو أحيانا نوع من المهارة والخفة في الحركة و ايهام للانظار، كما إنه أحيانا ذو طابع نفسي خيالي.

والسحر في اللغة له معنيان:

١ - الخداع والشعوذة والحركة الماهرة.

٢ - كل ما لطف و دقّ.

والراغب ذكر للفظ السحر ثلاثة معانٍ قرآنية:

الاول: الخداع و تخييلات لا حقيقةً لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الابصار عما يفعله لخفة يده، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للاسماع.

الثاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب اليه.

الثالث: هو اسم لفعل يزعمون انه من قوّته يغيّر الصوروالطبائع فيجعل الانسان حمارا ولا حقيقة لذلك[1].

نستنتج من دراسة ٥١ موضعاً من مواضع ذكر كلمة «سحر» في القرآن الكريم أن السحر ينقسم في رأي القرآن الكريم على قسمين:

١ - الخداع والشعبذة وخفة اليد وليس له حقيقة كما جاء في قوله تعالى: «**فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ**» (طه،٦٦) وقوله: «**فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ**» (الاعراف، ١١٦).

٢ - يستفاد من آيات أخرى أن للسحر أثراً واقعيا،كقوله سبحانه: «**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ**»، وقوله: «**وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ**»، كما مرّ في الآيات التي نحن بصددها.

وهل إن للسحر تأثيرا نفسيا فقط أم يتعدى ذلك الى الجسم أيضاً؟ لم تشر الآيات أعلاه الى ذلك، و يعتقد بعض الناس أن هذاالتأثير نفسي لا غير.

جدير بالذكر أن بعض ألوان السحر كانت تُمارس عن طريق الاستفادة من خواص المواد الكيمياوية والفيزياوية لخداع الناس. فيحدثنا التاريخ أن سحرة فرعون

---

(١) مفردات الراغب، مادة سحر.

وضعوا داخل حبالهم وعصيّهم مادة كيمياوية خاصّة (ولعلها الزئبق)، كانت تتحرك بتأثير حرارة الشمس أو أية حرارة أخرى، وتوحي للمشاهد أنها حيّة. وهذا اللون من السحر ليس بقليل في عصرنا الراهن.

* * *

السحرفي رأي الاسلام

اجمعت الفقهاء على حرمة تعلم السحر و ممارسته، وجاء عن أميرالمؤمنين علي (عليه السلام): «**مَنْ تَعَلَّمَ مِنَ السِّحْرِ قَلِيلاً اَوْ كَثِيراً فَقَدْ كَفَرَ وَ كَانَ آخِرُ عَهْدِهِ بِرَبِّهِ**».[1]

ولكن ـ كما ذكرناه يجوز تعلم السحر لابطال سحر السحرة، بل يرتفع الجواز أحيانا الى حد الوجوب الكفائي، لاحباط كيد الكائدين والحيلولة دون نزول الاذى بالناس من قبل المحتالين. دليلنا على ذلك حديث روي عن الامام ابي عبدالله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام):

«**كَانَ عِيسَى بْنُ شَقَفِي سَاحِراً يَأْتِيهِ النَّاسُ وَيَأْخُذُ عَلَى ذٰلِكَ الأَجْرَ فَقَالَ لَهُ جُعِلْتَ فِدَاكَ اَنَا رَجُلٌ كَانَتْ صِنَاعَتِي السِّحْرُ وَ كُنْتُ آخُذُ عَلَيْهِ الأَجْرَ وَ كَانَ مَعَاشِي وَقَدْ حَجَجْتُ مِنْهُ وَمَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِلِقَائِكَ وَقَدْ تُبْتُ اِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَهَلْ لِي فِي شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ مَخْرَجٌ فَقَالَ لَهُ اَبُوعَبْدِاللهِ حُلَّ وَلَا تَعْقُدْ**».[2]

* * *

السحرفي رأي التوراة

أعمال السحر والشعبذة في كتب العهد القديم (التوراة وملحقاتها) هي أيضاً ذميمة غير جائزة. فالتوراة تقول: «**لا تلتفتوا الى الجان ولا تطلبوا التوابع فتنجسوا بهم و انا الرب الهكم**».[3]

---

(١) وسائل الشيعة، الباب ٢٥ من ابواب مايكتسب به، حديث ٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج١٢ ص١٠٥ ح١.

(٣) الكتاب المقدس سفر لاويين الاصحاح ١٩ الرقم ٣١.

وجاء في موضع آخر من التوراة: «والنفس التى تلتفت الى الجان والى التوابع لتزنى ورائهم اجعل وجهى ضد تلك النفس واقطعها من شعبها»[1].

و يقول قاموس الكتاب المقدس:-«واضح أن السحر لم يكن له وجود في شريعة موسى، بل ان الشريعة شددت كثيراً على أولئك الذين كانوا يستمدون من السحر».

ومن الطريف أن قاموس الكتاب المقدس الذي يؤكد على أن السحر مذموم في شريعة موسى، يصرح بأن اليهود تعلّموا السحر وعملوا به خلافا لتعاليم التوراة فيقول: «.. ولكن مع ذلك تسرّبت هذه المادة الفاسدة بين اليهود، فآمن بها قوم، ولجأوا اليها في وقت الحاجة»[2].

ولذلك ذمهم القرآن، و أدانهم لجشعهم وطمعهم وتهافتهم على متاع الحياة الدنيا.

* * *

السحر في عصرنا

توجد في عصرنا مجموعة من العلوم كان السحرة في العصور السالفة يستغلونها للوصول الى مآربهم.

١ ـ الاستفادة من الخواص الفيزياوية والكيمياوية للاجسام، كما ورد فى قصة سحرة فرعون واستفادتهم من خواص الزئبق أو أمثاله لتحريك الحبال والعصيّ.

واضح أن الاستفادة من الخصائص الكيمياو ية والفيزياوية للاجسام ليس بالعمل الحرام، بل لابدّ من الاطلاع على هذه الخصائص لاستثمار مواهب الطبيعة، لكن المحرم هو استغلال هذه الخواص المجهولة عند عامة الناس لا يهام الآخرين وخداعهم و تضليلهم، مثل هذا العمل من مصاديق السحر، (تأمل بدقة).

٢ ـ الاستفادة من التنويم المغناطيسي، والهيبنوتيزم، والمانية تيزم، والتله بآتي (انتقال الافكار من المسافات البعيدة).

هذه العلوم هي أيضا إيجابية يمكن الاستفادة منها بشكل صحيح في كثير من

---

(١) الكتاب المقدس سفر لاويين الاصحاح ٢٠ الرقم ٦.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، تأليف المستر هاكس الامريكي، ص ٤٧١.

شؤون الحياة. لكن السحرة كانوا يستغلونها للخداع والتضليل.

ولو استخدمت هذه العلوم اليوم أيضاً على هذاالطريق المنحرف فهي «السحر» المحرّم.

بعبارة موجزة إن السحر له معنى واسع يشمل كل ما ذكرناه هنا وما أشرنا اليه سابقاً.

ومن الثابت كذلك أن قوة الارادة في الانسان تنطوي على طاقات عظيمة، وتزداد هذه الطاقات بالرياضات النفسية، و يصل بهاالأمر أنها تستطيع أن تؤثر على الموجودات المحيطة بها، وهذا مشهود في قدرة المرتاضين على القيام باعمال خارقة للعادة نتيجة رياضاتهم النفسية.

جدير بالذكر أن هذه الرياضات تكون مشروعة تارة وغير مشروعة تارة أخرى. الرياضات المشروعة تخلق في النفوس الطاهرة قوة إيجابية بناءة، والرياضات غير المشروعة تخلق قوة شيطانية، وقد تكون كلا القوتين قادرتين على القيام بأعمال خارقة للعادة، لكن الاولى إيجابية بناءة، والاخرى مخربة هدامة.

* * *

الآيتان

١٠٤ ـ «يٰا اَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لٰا تَقُولُوا رٰاعِنٰا وَقُولُوا انْظُرْنٰا وَاسْمَعُوا وَ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰابٌ اَليمٌ».

١٠٥ ـ «مٰا يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ اَهْلِ الْكِتٰابِ وَلاَ الْمُشْرِكينَ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللّٰهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَاللّٰهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظيمِ».

سبب النزول

روي أن الصحابة كانوا يطلبون من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لدى تلاوته الآيات و بيانه الاحكام الالهية أن يتمهّل في حديثه حتى يستوعبوا ما يقوله، وحتى يعرضوا عليه أسئلتهم، وكانوا يستعملون لذلك عبارة: «راعنا» أي أمهلنا. واليهود حوّروا معنى هذه الكلمة لتكون من «الرعونة» فتكون راعنا بمعنى اجعلنا رعناء، واتخذوا ذلك وسيلة للسخرية من النبي والمسلمين.

الآية تطلب من المسلمين أن يقولوا «انْظُرْنٰا» بدلا من «رٰاعِنٰا» لسدالطريق أمام طعن الاعداء.

وقال بعض المفسرين أن عبارة «رٰاعِنٰا» في كلام اليهود سبّة تعني «اسمع ولمّا تسمع»، وكانوا يرددون هذه العبارة مستهزئين!.

وقيل ان اليهود كانوا يقولون بدلاً من رٰاعِنٰا «راعينا»ـ(راعي + نا) و يخاطبون بذلك النبي ساخرين.[١] وليس بين هذه العلل المذكورة لنزول الآية الكريمة تناقض، فقد تكون بأجمعها صحيحة.

---

(١) تفسير القرطبي، و تفسير المنار وتفسير الفخر الرازي، ذيل الآية المذكورة.

التفسير

لا توفروا للاعداء فرصة الطعن

الآية الكريمة تخاطب المسلمين قائلة: «**يا أيّها الّذين آمنوا لا تقولوا راعِنا و قولوا انظُرنا، واسمَعُوا، و لِلكافرِينَ عذابٌ أليمٌ**».

مما سبق أن ذكرناه من سبب نزول هذه الآية الكريمة نستنتج أنّ على المسلمين أن لايوفروا للاعداء فرصة الطعن بهم، وأن لا يتيحوا لهم بفعل أو قول ذريعة يسيؤون بها الى الجماعة المسلمة. عليهم أن يتجنبوا حتى ترديد عبارة يستغلها العدوّ لصالحه. الآية تصرّح بالنهي عن قول عبارة تمكن الاعداء أن يستثمروا أحد معانيها لتضعيف معنويات المسلمين، و تأمرهم باستعمال كلمة أخرى غير تلك الكلمة القابلة للتحريف ولطعن الاعداء.

حين يشدّد الاسلام الى هذا الحد في هذه المسألة البسيطة، فان تكليف المسلمين في المسائل الكبرى واضح، عليهم في مواقفهم من المسائل العالمية أن يسدوا الطريق أمام طعن الاعداء، وأن لايفتحوا ثغرة ينفذ منها المفسدون الداخليون والاجانب للاساءة الى سمعة الاسلام والمسلمين.

جدير بالذكر أن عبارة راعنا ـ اضافة الى ما فيها من معنى آخر استغله اليهود ـ فيها نوع من سوء الادب، لانها من باب المفاعلة، و باب المفاعلة يفيد المبادلة والاشتراك ، وهي لذلك تعني: راعنا لنراعيك ، وقد نهى القرآن عن ترديدها.[1]

* * *

الآية التالية تكشف من حقيقة ما يكنّه مجموعة من اهل الكتاب والمشركين من حقد وعداء للجماعة المؤمنة: «**ما يَودُّ الّذينَ كَفَرُوا مِنْ أهلِ الكِتابِ وَلاَ المُشركِينَ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيرٍ مِنْ رَبّكُمْ**»، و سواء ودّ هؤلاء أم لم يودّوا فرحمة الله لها سنّة الهية ولا تخضع للميول والاهواء: «**وَاللهُ يَختَصُّ بِرَحمَتِهِ مَنْ يَشاءُ،وَاللهُ ذُوالفَضْلِ العَظِيمِ**».

---

(١) تفسير الفخر الرازي، والمنار، ذيل الآية المذكورة.

الحاقدون لم يطيقوا أن يروا ما شمل الله المسلمين من فضل و نعمة، وما منّ عليهم من رسالة عظيمة، ولكن فضل الله عظيم.

* * *

وقفة

مغزى قوله تعالى «يا أيّها الّذين آمنوا»

اكثر من ثمانين موضعا خاطب الله المسلمين في كتابه الكريم بهذه العبارة، وكل هذه المواضع من القرآن الكريم نزلت في المدينة، ولا وجود لهذه العبارة في الآيات المكية، ولعل ذلك يعود الى تشكل الجماعة المسلمة في المدينة، والى ظهور المجتمع الاسلامي بعد الهجرة. ولذلك خاطب الله الجماعة المؤمنة بعبارة «يا أيّها الّذين آمنوا».

وهذا الخطاب يتضمن اشارة الى ميثاق التسليم الذى عقدته الجماعة المسلمة مع ربها بعد الايمان به، وهذا الميثاق يفرض على الجماعة الطاعة والانصياع لاوامر ربّ العالمين، والاستجابة لما يأتي بعد هذه العبارة من أحكام.

جدير بالذكر أن كثيراً من المصادر الاسلامية بما في ذلك مصادر أهل السنة، روت عن الرسول (صلّى الله عليه وآله) قوله: «ما أنزل الله آيةً فيها يا أيّها الّذين آمنوا إلاّ و عليٌّ رأسها و أميرها»[1].

* * *

(١) الدر المنثور، نقلاً عن أبي نعيم في «حلية الاولياء» عن ابن عباس.

الآيتان

١٠٦ ـ «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

١٠٧ ـ «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

التفسير

الغرض من النسخ

الآية الاولى تشير أيضاً الى بعد آخر من أبعاد حملة التشكيك اليهودية ضدالمسلمين.

كان هؤلاء القوم يخاطبون المسلمين أحيانا قائلين لهم إن الدين دين اليهود وأن القبلة قبلة اليهود، ولذلك فان نبيكم يصلي تجاه قبلتنا (بيت المقدس)، وحينما نزلت الآية ١٤٤ من هذه السورة و تغيّرت بذلك جهة القبلة، من بيت المقدس الى مكة، غيّراليهود طريقة تشكيكهم، وقالوا: لوكانت القبلة الاولى هي الصحيحة، فلم هذاالتغيير؟، واذا كانت القبلة الثانية هي الصحيحة، فكل أعمالكم السابقة ـ إذن ـ باطلة.

القرآن الكريم في هذه الآية يردّ على هذه المزاعم و ينير قلوب المؤمنين.[1] و يقول: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» ... وليس مثل هذا التغيير على الله بعسير «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»؟!

* * *

الآية التالية تؤكد مفهوم قدرة الله سبحانه وتعالى وحاكميته في السماوات

(١) يحتمل أيضاً أن تشير الآية الى نسخ أحكام اسلامية اخرى، كما ذكر الفخرالرازي في تفسيره، وسيد قطب في ظلاله.

والارض و في الاحكام، فهوالبصير بمصالح عباده: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ»، و في هذه العبارة من الآية ايضاً تثبيت لقلوب المؤمنين، كي لا تتزلزل أمام حملات التشكيك هذه، و تستمر الآية في تعميق هذاالتثبيت، مؤكدة أن المجموعة المؤمنة ينبغي أن تعتمد على الله وحده، و تستند الى قوته و قدرته دون سواه، فليس في هذاالكون سند حقيقي سوى الله سبحانه: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

* * *

وقفات

١ـ هل يجوزالنسخ في الاحكام؟

النسخ في اللغة الازالة، وفي الاصطلاح تغيير حكم شرعي واحلال حكم آخر محله، من ذلك :

١ ـ المسلمون كانوا يصلون بعدالهجرة تجاه بيت المقدس، واستمروا على ذلك ستة عشر شهرا، ثم نزل الامر بتغيير القبلة، فوجب على المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبة.

٢ ـ الآية ١٥ من سورة النساء قررت معاقبة الزانية بعد شهادة أربعة شهود بامساكها في البيت حتى الوفاة، أو يجعل الله لها سبيلاً، والآية الثانية من سورة النور نسخت الآية المذكورة و بدّلت الحكم بمائة جلدة.

وهنا يطرح سؤال معروف بشأن سبب النسخ يقول: لو كان في الحكم مصلحة فلماذا نُسخ؟ وان لم يكن كذلك فلماذا شُرّع؟ لماذا لم تطرح الشريعة منذالبداية حكما غير قابل للنسخ؟

علماء الاسلام أجابوا على هذاالسؤال، وهذاالجواب باختصار وتوضيحه مايلي:

نعلم أن بعض احتياجات الانسان ثابتة لا تقبل التغيير، لانها ترتبط بفطرة الانسان وطبيعته، و بعضها الآخر تتغير بتغير الزمان وظروف البيئة، وهذه المتغيرات قد تضمن سعادة الانسان في زمن معين، لكنها تصبح عقبة أمام تقدم الفرد في زمان آخر.

قد يكون نوع من الدواء نافعاً للمريض في ظرف زمني معين، وقد لايكون نافعا ـ بل ضارا ـ في مرحلة نقاهة هذا المريض، لذلك يأمر الطبيب بدواء في وقت، ثم يأمر بقطعه والامتناع عن تناوله في وقت آخر.

قد يكون درس معين مفيداً للطالب في مرحلة دراسية معينة، لكن هذا الدرس يصبح عديم الفائدة في المراحل الدراسية التالية. المنهج التعليمي الصحيح ينبغي أن ينظم الدروس بشكل يتناسب مع حاجة الطالب في كل مرحلة من مراحله الدراسية.

هذه المسألة تتضح اكثر في اطار القانون اللازم لتكامل الانسان والمجتمع الانساني، هذا القانون لابد أن يتضمن متغيرات كي يكون المنهج التكاملي مفيداً لكل مراحل مسيرة المجتمع. و تزداد أهمية هذه التغييرات عند اندلاع الثورات الاجتماعية والعقائدية، و تزداد ضرورة مواكبة متطلبات التغيير في كل مرحلة من مراحل الثورة.

لابد من التأكيد أنّ أصول الاحكام الالهية ثابتة لا يعتريها التغيير، فالتوحيد والعدالة الاجتماعية و سائر الاصول والمبادئ المشابهة ثابتة لا تتغير، وانما يطرأ التغيير على المسائل الفرعية والثانوية.

ومن الضروري أن نؤكد أيضاً أن تكامل الدين قد يبلغ مرحلة يصبح فيها (الدين الخاتم)، و تصبح جميع أحكامه ثابتة لا تقبل التغيير (سنشرح مسألة خاتمية الرسالة في تفسير الآية ٤٠ من سورة الاحزاب).

اليهود، مع اعتراضهم على المسلمين بشأن نسخ حكم القبلة الاولى، اقرّوا النسخ في الاحكام الالهيّة، استناداً الى ما جاء في مصادرهم الدينية.

تذكر التوراة أن كل الحيوانات كانت حلاً لنوح (عليه السلام) حين نزل من سفينته، لكن هذا الحكم نُسخ في شريعة موسى، و حرّم قسم من الحيوانات[1].

* * *

٢ ـ المقصود من الآية

الآية في اللغة العلامة، وفي القرآن لها معانٍ متعددة:

١ ـ مقاطع من القرآن، مفصولة عن بعضها بعلائم خاصة، وهذا المعنى للآية نجده في قوله تعالى: «تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» (البقرة، ٢٥٢).

٢ ـ المعجزة سميت في القرآن آية كقوله سبحانه: «وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ

(١) سفر التكوين، الفصل ٩، الفقرة ٣.

تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرىٰ» (طه،٢٢).

٣ ـ الدليل على وجود الله اوالمعاد كقوله: «وَ جَعَلْنا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ» (الاسراء،١٢) وقوله: «وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، إِنَّ الَّذي أَحْياها لَمُحْيِي الْمَوْتىٰ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ» (فصلت،٣٩).

٤ ـ الاشياء البارزة الملفتة للانظار كالابنية الشاهقة، كما في قوله تعالى: «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ» (الشعراء، ١٢٨).

والمعنى المشترك بين كل هذه المعاني هو «العلامة».

وقوله سبحانه «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ...» يشير الى نسخ الاحكام، فالحكم الناسخ خير من المنسوخ أو مثله، أو إنه يشير الى نسخ معجزة الانبياء، فيكون المعنى أن معجزة النبي التالي أفصح و أوضح من معجزة النبي السابق.

ثمة روايات في تفسير هذه الآية ذكرت أن المقصود من نسخ الآية هو وفاة الامام ومجيء الامام التالي بعده، وهذا طبعا بيان مصداق من مصاديق الآية، لا تحديداً لمفهومها.

* * *

٣ـ تفسير عبارة «ننسها»

جملة «نُنْسِها» في الآية معطوفة على جملة «نَنْسَخْ» وهي من مادة «انساء» بمعنى التأخير أوالحذف من الاذهان.[١]

فما هو معنى هذه العبارة في الآية الكريمة؟

المقصود من العبارة هو: ما ننسخ من آية أو نؤخر نسخها استناداً الى مصالح معينة.. نأت بخير منها أو مثلها..

فعبارة «نَنْسَخْ» تشير الى النسخ على المدى القصير، وعباراة «نُنْسِها» الى النسخ على المدى البعيد، (لاحظ بدقة).

ثمة احتمالات اخرى ذكرت في هذا المجال لا تبلغ أهميتها ما ذكرناه.

---

(١) إن كانت بمعنى التأخير فهي من مادة (نسأ) وان كانت بمعنى الحذف من الاذهان فهي من مادة (نسي).

٤ـ تفسير «أو مِثْلِها»

سؤال آخر يطرح في هذا المجال بشأن عبارة «أو مِثْلِها»، فلو كان الحكم الناسخ مثل الحكم المنسوخ فلا فائدة من هذا التغيير، النسخ تظهر فائدته حين يكون الناسخ خيراً من المنسوخ.

والجواب على ذلك هو ان الآية الناسخة لها آثار في زمانها كتلك الآثار التي كانت للآية المنسوخة في زمانها.

بعبارة اوضح: قد يكون لحكم اليوم فوائد معينة، لكن هذه الفوائد لا تظهر لهذا الحكم غدا، ولابد أن ينسخ هذا الحكم بحكم آخر تكون له في زمن لاحق، على الاقل، نفس الفوائد التي كانت للمنسوخ في زمن سابق.

* * *

الآية

١٠٨ ـ «أَمْ تُرِيدُونَ اَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالاِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبيلِ».

التفسير

حُجج واهية

هذه الآية الكريمة، وان كانت تخاطب مجموعة من المسلمين ضعاف الايمان أوالمشركين، ترتبط أيضاً بمواقف اليهود.

لعل هذاالسؤال وجه الى الرسول بعد تغيير القبلة، و بعد حملات التشكيك التي شنها اليهود بين المسلمين و غيرالمسلمين والله سبحانه في هذه الآية الكريمة نهى عن توجيه مثل هذه الاسئلة السخيفة «أَمْ تُرِيدُونَ اَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ»؟!

مثل هذا العمل إعراض عن الايمان واتجاه نحوالكفر، ولذلك قالت الآية: «وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالاِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوآءَ السَّبِيلِ».

الاسلام طبعا لايمنع طرح الاسئلة العلمية والمنطقية، ولا يحول دون طلب المعجزة من أجل اثبات صحة الدعوة، لان مثل هذه الاسئلة والطلبات هي طريق الادراك والفهم والايمان. وهذه الآية الكريمة تشير الى اولئك الذين يتذرعون بمختلف الحجج الواهية كي يتخلصوا من حمل أعباء الرسالة.

هؤلاء كانوا قد شاهدوا من الرسول معاجز كافية لايمانهم بالدعوة وصاحبها، لكنهم يتقدمون الى النبي بطلب معاجز اقتراحية اخرى!

المعجزة ليست العوبة بيد هذا و ذاك كي تحدث وفق الميول والاقتراحات والمشتهيات، بل انها ضرورة لازمة للاطمئنان من صدق اقوال النبي (صلّى الله عليه وآله)، وليست مهمّة النبي صنع المعاجز لكل من تهوى نفسه معجزة.

ثم هناك من الاسئلة ما هو بعيد عن العقل والمنطق، كرؤية الله جهرة و كطلب اتخاذ الصنم.

القرآن الكريم ينبه في هذه الآية بأن المجموعة البشرية التي لا تسلك طريق العقل والمنطق في اسئلتها ومطالباتها، سينزل بها ما نزل بقوم موسى.

* * *

الآيتان

١٠٩ - «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ اِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ اَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِاَمْرِهِ اِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

١١٠ - «وَ اَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لاَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ اِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

التفسير

حسد وعناد

كثير من أهل الكتاب وخاصة اليهود، لم يكتفوا باعراضهم عن الدين المبين، بل كانوا يودّون أن يرتد المسلمون عن دينهم، ولم يكن ذلك الآ عن حسد يستعر في أنفسهم، تقول الآية: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ اِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ».

وامام هذه المواقف الدنيئة والنظرات الضيقة والآمال التافهة والنوايا الخبيثة التي تحملها الفئة الكافرة، يحدد الاسلام موقف الجماعة المسلمة، على أساس من رحابة الصدر وسعة الافق وبعد النظرة «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِاَمْرِهِ اِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

هذا الأمر الالهي نزل حيث كان المسلمون بحاجة الى بناء المجتمع الاسلامي. و في تلك الظروف يوجب على المسلمين أن يلجأوا الى سلاح العفو والصفح حتى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ.

كثير من المفسرين قالوا إن أمرالله في هذه الآية يعني «أمر الجهاد»، ولعل الجماعة المسلمة لم تكن على استعداد شامل لخوض معركة دامية حين نزلت هذه الآية، ولذلك قيل إن آيات الجهاد نسخت هذه الآية.

ولعل التعبير بالنسخ في هذاالموضع ليس بصحيح، لان الآية تحمل في عبارتها

الاطار الذي يحدّها بفترة زمنية محدودة.

الآية التالية تأمر المسلمين بحكمين هامّين: إقامة الصلاة باعتبارها رمز ارتباط الانسان بالله، وإيتاء الزكاة وهي أيضا رمز التكافل بين أبناء الامة المسلمة. وكلاهما ضروريان لتحقيق الانتصار على العدو: «وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ».

ثم تؤكّد الآية على خلود العمل الصالح و بقائه: «وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ». والله سبحانه عالم بالسرائر، و يعلم دوافع الاعمال، ولا يضيع عنده أجر العاملين «إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

* * *

وقفات

١ ـ «اصفحوا» من «صفح»، وصفح الشي عرضه وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجر، والامر بالصفح هوالامر بالاعراض، لكنّ عطفها على «فَاعْفُوا» يفهم أنه أمر بالاعراض لاعن جفاء بل عن عفو وسماح.

وهذا التعبير يوحي أيضاً أن المسلمين كانت لهم قدرة المقابلة وعدم الصفح، لكن الامر بالعفو والصفح يستهدف اتمام الحجة على العدوّ، كي يهتدي من هو قابل للاصلاح. بعبارة أخرى ممارسة القوة ليست المرحلة الاولى في مواجهة العدوّ بل العفو والصفح، فان لم يُجد نفعاً فالسيف.

٢ ـ عبارة «إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» قد تشير الى أن الله قادر على أن ينصر المسلمين على أعدائهم بطرق غيبية، ولكن طبيعة حياة البشر والكون قائمة على أن الاعمال لاتتم الا بالتدريج و بعد توفر المقدمات.

٣ ـ عبارة «حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» قد تكون اشارة الى توغل هؤلاء الحسدة في ذاتياتهم، فالحسد قد يتخذ احيانا شكل هدف و رسالة، لكن حسد هؤلاء لم يكن له حتى هذاالظاهر، بل كان ضيقا شخصياً.[1]

و يحتمل أيضاً أن تكون إشارة الى الحسدالكامن في نفوسهم.

---

(١) تفسير المنار، الآية المذكورة.

الآيتان

١١١ - «وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ اِلاّ مَنْ كانَ هُوداً اَو نَصارى، تِلْكَ اَمانِيُّهُمْ، قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ».

١١٢ - «بَلى مَنْ اَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ، فَلَهُ اَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ».

التفسير

احتكار الجنة!

القرآن في هاتين الآيتين يشير الى ادعاء آخر من الادعاءات الفارغة لمجموعة من اليهود والنصارى، «وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ اِلاّ مَنْ كانَ هُوداً اَوْنَصارى»[1]، ثم يجيبهم جوابا رادعا قائلا «تِلْكَ اَمانِيُّهُمْ» ثم تخاطب الآية رسول الله وتقول: «قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ».

* * *

بعد التأكيد على أن ادعاء هؤلاء فارغ لاقيمة له، وانه مجرد أمنية تخامر أذهانهم، يطرح القرآن المعيار الاساس لدخول الجنة على شكل قانون عام «بَلى مَنْ اَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ اَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ».ومن هنا فالمشمولون بهذاالقانون هم في ظلال رحمة الله «وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ».

بعبارة موجزة: الجنة ومرضاة الله والسعادة الخالدة ليست حكرا على طائفة معينة، بل هي نصيب كل من يتوفر فيه شرطان:

الاول: التسليم التام لله تعالى، أو الانصياع التام لاوامره سبحانه، وعدم

---

(١) واضح أن المقصود من «قالوا» ادعاء اليهود من جهة بأن الجنة خاصة بهم، وادعاء النصارى من جهة أخرى بأن الجنة حكرا عليهم.

التفريق بين هذه الاوامر، أي عدم ترك ذلك القسم من الأوامر الذى لا ينسجم مع المصالح الفردية الذاتية.

الثاني: وهو ما يترتب على التسليم في المرحلة الاولى، من القيام بالاعمال الصالحة والاحسان في جميع المجالات.

والقرآن، بطرحه هذه الحقيقة، يرفض بشكل تام مسألة التعصب العنصري و يكسر طوق احتكار فئة معينة للسعادة ويضع ضمنيا معيار الفوز متمثلاً بالايمان والعمل الصالح.

* * *

وقفات

١ـ «الاماني» جمع «أمنية» وهي الرجاء الذى لا يتحقق للانسان.

والآية تطرح أمنية واحدة من امنيات أهل الكتاب، ولكن هذه الامنية ـ أي أمنية احتكار الجنة ـ هي مصدر أمان أخرى، و بعبارة اخرى: امنيتهم لها فروع وامتدادات، ولذلك عبر عنها القرآن بلفظ (أماني).

* * *

٢ـ نسبت الآية الكريمة التسليم الى (الوجه): «**بَلىٰ مَنْ اَسْلَمَ وَجْهَهُ ...**»، و ذلك يعود الى أن الانسان حين يستسلم لشيء، فاوضح مظهر لهذا الاستسلام هو ان يولي وجهه تجاه ذلك الشيء. ومن المحتمل أيضاً أن «الوجه» يعني في الآية الذات، و يكون المعنى أن هؤلاء اسلموا بكل وجودهم لاوامر الله.

* * *

٣ـ الآيتان المذكورتان تعلّمان المسلمين عدم الانجراف وراء الادعاءات الباطلة غير القائمة على دليل، و تعلمهم أن يطلبوا الدليل والبرهان من صاحب الادعاء، و بذلك يسدّ القرآن الطريق أمام الانجراف الاعمى وراء التقليد، و يجعل التفكير المنطقي سائدا في المجتمع.

* * *

٤ـ ذكر عبارة «**وَهُوَ مُحْسِنٌ**» بعد طرح مسألة التسليم، اشارة الى أن الاحسان

بالمعنى الواسع للكلمة، لا يتحقق الا برسوخ الايمان في النفوس. كما تفهم العبارة أن صفة الاحسان ليست طارئة في نفوس المؤمنين، بل هي خصلة نافذة في أعماق هؤلاء.

و نفي الخوف والحزن عن أتباع خط التوحيد سببه واضح، لأن هؤلاء يخافون الله دون سواه، بينما المشركون يخشون من كل ما يهدد مصالحهم الدنيوية التافهة، بل يخشون أموراً خرافية موهومة تقلقهم و تقض عليهم مضاجعهم.

* * *

الآية

١١٣ ـ «وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارىٰ عَلىٰ شَيْءٍ، وَ قالَتِ النَّصارىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ، كَذلِكَ قالَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فيما كانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ».

سبب النزول

قال ابن عباس انه لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) آتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شَيْ، وجحد نبوة عيسى وكفر بالانجيل. فقال رجل من أهل نجران: ليست اليهود على شيْ، وجحد بنبوّة موسى وكفر بالتوراة، فانزل الله هذه الآية.[1]

* * *

التفسير

تعصّب وتناقض

فيما مرّ بنا من آيات رأينا جانبا من الادعاءات الفارغة التي اطلقها جمع من اليهود والنصارى، و رأينا أن هذه الادعاءات الفارغة تستتبعها روح احتكارية ضيقة ثم وقوع في التناقضات.

تقول الآية: «وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارىٰ عَلىٰ شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلىٰ شَيْءٍ».

عبارة «لَيْسَتْ عَلىٰ شَيْءٍ» تعني أن أفراد هذاالدين لامكانة لهم ولا منزلة لدى الله سبحانه، أو تعني أن هذاالدين لا وزن له ولا قيمة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، و تفسير القرطبي، وتفسير المنار في تفسير الآية المذكورة.

ثم تضيف الآية: «وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ».

أي إن هؤلاء لديهم الكتاب الذى يستطيع أن ينير لهم الطريق في هذه المسائل، ومع ذلك ينطلقون في أحكامهم من التعصب واللجاج والعناد!!

ثم تقول الآية: «كَذٰلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ».

وهذه الآية الكريمة تجعل أقوال هذه المجموعة من أهل الكتاب المتعصبين شبيهة بأقوال الجهلة من الوثنيين. بعبارة أخرى: هذه الآية تقرر أن المصدر الاساس للتعصب هو الجهل والبعد عن العلم، لأن الجاهل مطوّق بمحيطه المحدود، لا يقبل غيره، بل هو ملتصق بما ملأ ذهنه منذ صغره و ان كان خرافيا، و يرفض ما سواه.

ثم اختتمت الآية بالتأكيد على أن الحقائق إن خفيت في هذه الدنيا، فهي لاتخفى في الآخرة حيث تنكشف كل الاوراق: «فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وهذه الآية فيها ايضاً تثبيت للقلوب وطمأنة للنفوس، فهي تؤكد للمسلمين أن الجبهة الواسعة التي تجهزت لمحاربتهم لا تتميز بالانسجام والوحدة، بل إن مجاميعها يكفّر بعضهم بعضا، والذي يجمع بينهم على الظاهر هو الجهل، و بالتالي التعصب الناشي عن هذا الجهل.

* * *

الآية

١١٤ ـ «وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ اَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعىٰ فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ اَنْ يَدْخُلُوها اِلاّ خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْاٰخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ».

سبب النزول

روي عن ابن عباس أن الآية نزلت في «فطلوس» الرومي وجنده النصارى الذين حاربوا بني اسرائيل، واحرقوا التوراة، واسروا الابناء وهدموا بيت المقدس.

وعن ابن عباس ايضا انها نزلت في الروم، غزوا بيت المقدس وسعوا في خرابه حتى اظهر الله المسلمين عليهم.

وعن الامام الصادق (عليه السلام) انها نزلت في قريش حين حالوا دون دخول الرسول (صلّى الله عليه وآله) مدينة مكة والمسجد الحرام.

وقيل إنها نزلت في مشركي مكة ممن هدموا الاماكن التي اتخذها المسلمون للصلاة في مكة، بعد هجرة النبي (صلّى الله عليه وآله) منها.[1]

ولا يمنع أن يكون نزول الآية بسبب كل هذه الاحداث، وبذلك يكون كل واحد من اسباب النزول المذكورة قد تناول بُعْداً واحداً من أبعاد المسألة.

* * *

التفسير

أظلم الناس

أسباب النزول توضح أن الآية تتحدث عن اليهود والنصارى والمشركين، مع إن

---

(١) مجمع البيان، والميزان في تفسير الآية المذكورة.

الآيات السابقة تتحدث اكثر ما تتحدث عن اليهود و احيانا عن النصارى.

على أي حال «اليهود» بوسوستهم بشأن مسألة تغيير القبلة، سعوا الى أن يتجه المسلمون في صلاتهم نحو بيت المقدس، ليتفوقوا بذلك على المسلمين، وليحطوا من مكانة الكعبة.[1]

و «مشركو مكة» بمنعهم النبي (صلّى الله عليه وآله) والمسلمين زيارة الكعبة سعوا عملياً في هدم هذا البناء الالهي.

و «النصارى» باستيلائهم على بيت المقدس والعبث فيه سعوا في تخريبه .

القرآن يقول لهؤلاء جميعا ولكل من يسلك طريقا مشابهاً لهؤلاء: «وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ اَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعىٰ فِي خَرابِها».

القرآن الكريم أطلق على مثل هذا العمل اسم «الظلم الكبير»،وعلى العاملين اسم «أظلم الناس»وأيّ ظلم اكبر من تخريب قاعدة التوحيد وصدّ الناس عن ذكر الله؟!

ثم تقول الآية «اُولٰئِكَ ما كانَ لَهُمْ اَنْ يَدْخُلُوها اِلاّ خائِفِينَ».

اي إن المسلمين والموحدين ينبغي أن يكونوا على درجة من القوة والمقاومة بحيث لا يستطيع الظلمة أن يمدوا أيديهم الى هذه الاماكن المقدسة، ولا يستطيعون أن يدخلوها جهرة بدون خوف أو خشية.

ومن المحتمل أيضاً أن الآية تقول: ان الظلمة لن يستطيعوا أبدا أن ينجحوا في الاستيلاء على هذه المراكز العبادية، بل إنهم سوف لا يستطيعون في المستقبل أن يدخلوا هذه المساجد الاّ وهم خائفون مذعورون، تماماً كالمصير الذي لاقاه مشركو مكة بشأن المسجد الحرام.

والآية تبين بعد ذلك العقاب الذي ينتظر هؤلاء الظلمة ممن يريد أن يفصل بين الله وعباده: «لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ».

* * *

(١) تفسير الفخر الرازي، الآية المذكورة.

وقفتان

١-تخريب المساجد

مفهوم الآية المذكورة واسع-دون شك- غير محدود بزمان أو مكان معينين. انها مثل سائر الآيات التي نزلت في ظروف خاصة لكن حكمها ثابت على مرّ العصور والدهور. فكل الذين يسعون بنوع من الانواع في تخريب المساجد مشمولون بهذا الخزي والعذاب العظيم.

من الضروري أن نؤكد أن منع الذكر في مساجد الله والسعي في خرابها، لا يقتصر على هدم بنائها، بل إن كل عمل يؤدي الى القضاء على دور المسجد في المجتمع مشمول بهذه الآية.

سوف نرى في الآية **«إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ...»** (التوبة،١٨) أن المقصود من العمران - استناداً الى الاحاديث والروايات الصريحة - ليس هو تشييد البناء فحسب، بل الحضور فيها و احيائها بالذكر، هو نوع من العمران، بل أهم انواع العمران.

وفي النقطة المقابلة - اذن - يكون كل عمل يبعد الناس عن المساجد، و يبعد المساجد عن دورها ظلماً كبيرا.

ومن المؤسف أن عصرنا يشهد ظهور مجموعة جاهلة متعصبة متعنتة بعيدة عن المنطق، تطلق على نفسها اسم الوهابية تسعى في تخريب المساجد بحجة احياء التوحيد!!

هؤلاء عمدوا الى تخريب المساجد المبنية على قبور الائمة والصالحين، والتي كانت مركزا للذكر والدعاء والارتباط بالله و بخط الصالحين من آل الله. ومن الغريب أنهم يمارسون هذه الاعمال تحت عنوان مكافحة الشرك مرتكبين بذلك أفظع الكبائر.

ولو افترضنا حدوث ما يخالف الشرع في بعض هذه الأماكن الدينية من قبل الجهلة، فيجب الوقوف بوجه مثل هذه الأعمال، لا أن تتجه الجهود الى تخريب هذه القواعد التوحيدية، فهذا عمل يشبه عمل المشركين الجاهلين.

* * *

٢ـ اكبرالظلم

و مسألة أخرى تلفت النظر في هذه الآية، هي وصفها مثل هؤلاء الأفراد بأنهم أظلم الناس. وهم كذلك ، لأن تعطيل المساجد وتخريبها ومنع ذكرالله فيها، يؤدي الى ابتعاد الناس عن الدين، و بالتالي الى عواقب سيئة ومأساة اجتماعية عظيمة.

وصفة «الأظلم» ذكرها القرآن الكريم في مواضع أخرى لمذنبين آخرين، لكن كل هؤلاء المذنبين ينتهون الى خط واحد هو صدالناس عن طريق التوحيد.

سيأتي شرح ذلك أكثر في المجلد الخامس من هذاالتفسير عندالحديث عن الآية ٢١ من سورة الانعام.

* * *

الآية

١١٥ - «وَلِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَاَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ واسِعٌ عَليمٌ».

سبب النزول

اختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآية:

روي عن ابن عباس أن الآية ترتبط بتغيير القبلة، فعند ما تغيرت قبلة المسلمين من بيت المقدس الى الكعبة، بدأ اليهود يشككون قائلين: وهل من الممكن أن تتغير الكعبة؟ فنزلت الآية ترد عليهم وتقول إن المشرق والمغرب لله.

و روي أيضاً أَنَّ الآية نَزَلَتْ فِي الصَّلاةِ الْمُسْتَحَبَّةِ يَسْتَطِيعُ الِانْسانُ اَنْ يُؤَدِّيَها عَلىٰ راحِلَتِهِ اَيْنَما اتَّجَهَتِ الرّاحِلَةُ، دُونَ اشْتِراطِ الِاتِّجاهِ نَحوَالْقِبْلَةِ.

و روي عن جابر اَنَّ الرَّسُولَ (صلّى الله عليه وآله) بَعَثَ جَماعَةً في غَزْوَةٍ، فَجَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ وَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا اَنْ يَعْرِفُوا اتِّجاهَ الْقِبْلَةِ، فَصَلَّتْ كُلُّ مَجْمُوعَةٍ صَوْبَ جِهَةٍ، وَ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ، سَأَلُوا النَّبِيَّ عَنْ ذلِكَ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ (هذا الحكم له شروط طبعاً تذكره الكتب الفقهية).

ومن الممكن أن تكون أسباب النزول المذكورة كلها ثابتة للآية، أضف إلى ذلك أن كل آية في القرآن لا تنحصر بأسباب نزولها، بل ينبغي أن يؤخذ مفهومها بشكل حكم عام، و ربما استخرج منها أحكام متعددة.

* * *

التفسير

اَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ

الآية السابقة تحدثت عن الظالمين الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه و يسعون في خرابها، وهذه الآية تواصل موضوع الآية السابقة فتقول: «وَلِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ».

تؤكد هذه الآية أن منع الناس عن إحياء المساجد لا يقطع الطريق أمام عبودية الله، فشرق هذاالعالم وغربه لله سبحانه، و أينما تولوا وجوهكم فالله موجود. و تغيير القبلة تم لظروف خاصة وليس له علاقة بمكان وجودالله، فالله سبحانه وتعالى لايحده مكان ولذلك تقول الآية بعد ذلك «إِنَّ اللهَ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ».

واضح أن المقصود بالمشرق والمغرب في الآية ليس هوالجهتين الخاصتين، بل هو كناية عن كل الجهات. كأن يقول أحد مثلاً: أعداء علي سعوا للتغطية على فضائله، لكن فضائله انتشرت في شرق العالم وغربه، (أي في كل العالم). ولعل شيوع استعمال الشرق والغرب في الكلام سببه أن الانسان يتعرف أولاً على هاتين الجهتين ثم يعرف بقية الجهات عن طريق هاتين الجهتين.

و في آية أخرى يقول القرآن الكريم: «وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كٰانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشٰارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغٰارِبَهٰا» (الاعراف، ١٣٧).

* * *

وقفات

١ـ فلسفة القبلة

الله موجود في كل جهة ومكان، فلماذا وجب الاتجاه نحوالقبلة في الصلاة؟

واضح أن الاتجاه نحوالقبلة لايعني تحديد ذات الباري تعالى في مكان وفي جهة، بل إن الانسان موجود مادي، ولابد أن يصلي باتجاه معين، ثم إن ضرورة الوحدة والتنسيق في صفوف المسلمين تفرض اتجاههم في الصلاة نحو قبلة واحدة، والآ ساد الهرج والفوضى، و تفرّقت الصفوف و تشتتت.

أضف الى ذلك أن الكعبة قبلة المسلمين نقطة مقدسة ومن أقدم قواعد التوحيد، والاتجاه نحوها يوقظ في النفوس ذكريات المسيرة التوحيدية.

٢ـ عبارة «وَجْهُ اللهِ» لا تعني هذاالوجه المتعارف، بل تعني ذات الله تعالى.

٣ـ استدلت الروايات بهذه الآية على صحة الصلاة الى غيرالقبلة لسهوأواضطرار، وعلى صحة الصلاة على ظهر الراحلة.

(لمزيد من التوضيح راجع وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، باب القبلة).

الآيتان

١١٦ - «وَقالُوا اتَّخَذَاللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالأرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ».

١١٧ - «بَدِيعُ السَّمٰواتِ وَالأرْضِ وَإذا قَضىٰ أمْراً فَإنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

التفسير

خرافات اليهود والنصارى والمشركين

المسيحيون وجمع من اليهود والمشركون تبنّوا عقيدة تافهة بشأن اتخاذ الله ابنا.

قال سبحانه: «وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، وَقالَتِ النَّصارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأفْواهِهِمْ يُضاهِونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللهُ أنّىٰ يُؤْفَكُونَ». (التوبة، ٣٠).

وقال عزّ شأنه: «قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ» (يونس، ٦٨).

وهناك آيات اخرى ذكرت هذا المعتقد المنحرف.

وهذه الآية الكريمة التي نحن بصددها تقول: «وَقالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً» ثم تجيب عليهم أولاً بتنزيه الله عن هذه النسبة: «سُبْحانَهُ»، فما حاجة الله الى الولد؟ هل هو محتاج الى المساعدة أو الى بقاء النسل؟! نعم، لايمكن نسبة أي احتياج الى الله «بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالأرْضِ» وجميع الكون خاضع له «كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ».

* * *

ليس هو مالك جميع موجودات الكون فحسب، بل هو خالقها.. بل مبدعها أي موجدها دون احتياج الى مادة اولية في هذا الايجاد «بَدِيعُ السَّماواتِ وَالأرْضِ».

ما حاجة الله الى الولد وهوالنافذ الارادة في جميع الموجودات؟! «وَإذا قَضىٰ

أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (غافر،٦٨).

* * *

وقفات

١ـ دلائل نفي الولد

نسبة الولد الى الله سبحانه، هي دون شك وليدة سذاجة فكرية، قائمة على أساس مقارنة كل شيً بالوجود البشري المحدود.

الانسان يحتاج الى الولد لأسباب عديدة: فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج الى توليد المثل لاستمرار نسله.

ومن جهة أخرى هو ذو قوة محدودة تضعف بالتدريج، و يحتاج لذلك ـ وخاصة في فترة الشيخوخة ـ الى من يساعده في أعماله.

وهو أيضاً ينطوي على عواطف وحبّ للانيس، وذلك يتطلب وجود فرد أنيس في حياة الانسان، والولد يلبي هذه الحاجة.

واضح أن كل هذه الأمور لايمكن أن تجد لها مفهوما بشأن الله سبحانه، وهو خالق عالم الوجود والقادر على كل شيء، وهوالأزلي الأبدي.

أضف الى ذلك، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسما والله منزه عن ذلك.[١]

* * *

٢ـ تفسير «كُنْ فَيَكُونُ»

هذاالتعبير ورد في آيات عديدة، و يتحدث عن الارادة التكوينية لله تعالى وحاكميته في الخليقة.

بعبارة أوضح: المقصود من جملة «كُنْ فَيَكُونُ» ليس هو صدور الامر اللفظي «كُنْ» من قبل الله تعالى، بل المقصود تحقق ارادة الله سبحانه حينما تقتضي إيجاد شيً من الأشياء، صغيراً بحجم الذرة كان أم كبيرا بحجم السماوات والارض، بسيطا كان أم معقدا، دون أن يحتاج في ذلك الايجاد الى أية علة أخرى، و دون أن تكون هناك أية فترة

---

(١) هذه المسألة درسناها في سورة الانبياء الآية ٢٦، المجلد الثالث عشر من هذاالتفسير.

زمنية بين الارادة والايجاد.

لا يمكن للزمان أن يفصل بين الامر والكينونة، ولذلك فإن الفاء في جملة (فَيَكُوْنُ)، لا تدل على تأخير زمني كما هوالحال في الجمل الاخرى، بل إنها تدل فقط على التأخير في الرتبة (الفلسفة أثبتت تأخر المعلول عن العلة، وهذا التأخر ليس زمنيا بل في الرتبة ـ تأمل بدقة).

ليس المقصود أن الشيء يصبح موجوداً متى ما أراده الله ذلك، بل المقصود أن الشيء يصبح موجوداً بالشكل الذي أراده الله.

على سبيل المثال، لو أراد الله أن يخلق السماوات والارض في ستة أيام، لكان ذلك، دون زيادة أو نقص، ولو أراد أن توجد في لحظة واحدة لوجدت بأجمعها في لحظة واحدة، فذلك تابع لكيفية إراداته ولما يراه من مصلحة.

ولو شاء الله ـ مثلاً ـ أن يبقى الجنين في رحم أمه تسعة أشهر و تسعة أيام ليطوي مراحل تكامله، لما زادت هذه المدة وما نقصت. أما لو شاء أن يطوي هذا الجنين مراحل تكامله خلال لحظة واحدة لحدث ذلك قطعاً، لأن إرادته علة تامة للخليقة، ولا يمكن أن توجد فاصلة بين العلة التامة و وجود المعلول.

* * *

٣ـ كيف يوجد الشيء من العدم؟

كلمة «بَدِيعُ» من «بدع»، والابداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء منه، وفي الآية بمعنى ايجاد الشيء من غير مادة سابقة.[١]

والسؤال الذي يطرح في هذا المجال يدور حول إمكان ايجاد الشيء من العدم، فكيف يمكن للعدم، وهو نقيض الوجود، أن يكون منشأً للوجود؟ وهذه هي الشبهة التي يوردها الماديون في مسألة «الابداع» ليستنتجوا منها أن المادة الاصلية للعالم أزلية أبدية، ولا يطرأ عليها وجود وعدم إطلاقا.

---

(١) المفردات، مادة بَدَعَ.

الجواب

في المرحلة الاولى، يوجّه نفس هذا الاعتراض الى الماديين فهؤلاء يعتقدون أن مادة هذا العالم قديمة ازلية، ولم ينقص منها شيَ حتى الآن، والذي نراه يتغير هو «الصورة» وحدها، لا أصل المادة. ونحن بدورنا نسأل: كيف وجدت الصورة الحالية للمادة ولم تكن موجودة من قبل؟ هل وجدت من العدم؟ إذا كان كذلك فكيف يمكن للعدم أن يكون منشأ للوجود؟ (تأمل بدقة).

على سبيل المثال، يقول الماديون في لوحة زيتية مرسومة على ورقة أنّ زيوت التلوين كانت موجودة، ونحن نسأل: كيف وجدت هذه «الصورة» التي لم تكن موجودة من قبل؟

كل جواب يقدمونه بشأن ايجاد «الصورة» من «العدم» نقدمه نحن أيضاً بشأن إيجاده «المادة».

و في المرحلة الثانية، ينبغي التأكيد على أن خطأ الماديين ناتج عن كلمة «من». هؤلاء تصوروا قولنا: (أن العالم وجد من العدم) شبيه بقولنا (أن المنضدة وجدت من الخشب) حيث لابد من وجود الخشب أولاً لكي توجد المنضدة. بينما جملة «وجود العالم من العدم» لا تعني ذلك. بل تعني «أن العالم لم يكن موجوداً ثم وجد». وهل في هذه العبارة تضاد أو تناقض؟!

و بالتعبير الفلسفي: كل موجود ممكن (الذي لا يملك الوجود ذاتيا) له جانبان: ماهية ووجود، «الماهية» هي «المعنى الاعتباري» الذي يتساوى في نسبته للعدم والوجود. و بعبارة أخرى، الماهية هي المقدار المشترك الذى نفهمه من ملاحظة وجود شيء و عدمه. فهذه الشجرة لم تكن موجودة سابقاً وهي موجودة الآن، والشخص الفلانى لم يكن موجوداً سابقاً وهو الآن موجود، وما أسندنا اليه الحالتين (الوجود والعدم) هي «الماهية».

من هنا يكون معنى قولنا (ان الله أوجد العالم من العدم) هو أنه سبحانه نقل الماهية من حالة العدم الى حالة الوجود، وبعبارة أخرى وضع لباس «الوجود» على جسد «الماهية»[1].

---

(١) راجع لمزيد من التوضيح «آفريدگار جهان» = خالق العالم

الآيتان

١١٨ ـ «وَقالَ الَّذينَ لا يَعْلَمونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللّهُ اَوْ تَأْتينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

١١٩ ـ «اِنّا اَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشيراً وَ نَذيراً وَلا تُسْئَلُ عَنْ اَصْحابِ الْجَحيمِ».

التفسير

حجج أخرى

بمناسبة ذكر حجج اليهود في الآيات السابقة، تتحدث الآية عن حجج مجموعة أخرى من المحاججين،ويبدوأنهم المشركون العرب فتقول: «**وَقالَ الَّذينَ لا يَعْلَمونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللّهُ اَوْ تَأْتينا آيَةٌ**».

هؤلاء الجاهلون ـ اوالذين لا يعلمون ـ بتعبير الآية، طرحوا طلبين بعيدين عن المنطق، طلبوا:

١ ـ آن يكلمهم الله: «**لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللّهُ**».

٢ـ أن تنزل عليهم آية: «**اَوْ تَأْتينا آيَةٌ**».

والقرآن يجيب على هذه الطلبات التافهة قائلاً: «**كَذلِكَ قالَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**».

لو أن هؤلاء يستهدفون حقا ادراك الحقيقة، في هذه الآيات النازلةعلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) دلالة واضحة بينة على صدق أقواله، فما الداعي الى نزول آية مستقلة على كل واحد من الافراد؟! وما معنى الاصرار على أن يكلمهم الله مباشرة؟!

مثل هـذا الطلب تذكره الآية ٥٢ من سورة المدثر: «**بَلْ يُريدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ**

اَنْ يُؤْتىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً».

مثل هذا الطلب لايمكن أن يتحقق، لان تحققه ـ إضافة الى عدم ضرورته ـ مخالف لحكمة الباري سبحانه، لما يلي:

اولاً-اثبات صدق الانبياء ممكن لجميع الناس عن طريق الآيات التي تنزل عليهم.

ثانيا ـ لا يمكن للآيات والمعاجز أن تنزل على أي فرد من الافراد، فذلك يتطلب نوعا من اللياقة والاستعداد والطهارة الروحية. فالاسلاك الكهربائية تتحمل من التيار ما يتناسب مع ضخامتها. الاسلاك الرقيقة لا تتحمل التيار العالي، ولا يمكن أن تتساوى بالاسلاك الضخمة القادرة على توصيل التيّارات العالية. والمهندس يفرّق بين الاسلاك التي تستقبل التيّارات العالية من المولدات مباشرة، والاسلاك التي تنقل التيّار الواطئ داخل البيوت.

* * *

الآية التالية تخاطب النبي، و تبين موقفه من الطلبات المذكورة وتقول: «اِنّا اَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشيراً وَنَذيراً».

فسؤولية الرسول بيان الاحكام الالهية وتقديم المعاجز، و توضيح الحقائق، وهذه الدعوة ينبغي أن تقترن ببشارة المهتدين و انـذار العاصين. هذه مسؤوليتك أيها الرسول «وَلا تُسْئَلُ عَنْ اَصْحابِ الْجَحيمِ».

* * *

وقفتان

١ ـ «تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ»

مرّ علينا في الآية أن القرآن يصف الحجج الواهية التي يطرحها المعاصرون لصاحب الرسالة الخاتمة، بأنها شبيهة بتلك التي كان يتذرع بها المنحرفون من الامم السابقة، فقلوبهم متشابهة.

القرآن يشير بهذا التقريع واللوم الى أنّ مرور الزمن ينبغي أن يكون عاملاً على زيادة وعي الاجيال البشرية، وعلى تفهم هذه الاجيال اللاحقة اكثر من السابقة لتعاليم

الانبياء، لكن مرور الزمن لا يرفع مستوى المنحرفين، بل يبقىٰ خط الانحراف واحداً متشابهاً على مرّ الاجيال.

* * *

٢ـ اصلان تربويان

«البشارة» و «الانذار» أو «التشجيع» و «التهديد» من أهم الاصول اللازمة للتربية وللحركة الاجتماعية. ينبغي أن يلقى الفرد تشجيعا على أعماله الصالحة، و توبيخاً على أعماله الطالحة، كي يواصل مسيره الاول، و يرتدع عن ارتياد المسير الثاني.

«التشجيع» وحده لا يكفي لدفع الفرد والمجتمع على طريق التكامل، لفقدان الرادع عن ارتكاب المعاصي.

على سبيل المثال، نرى ارتكاب المعاصي بين النصارى الحالين أمرا عاديا، لأنهم يعتقدون بالفداء، أي بان السيد المسيح (عليه السلام) قد ضحى بنفسه لغفران ذنوب أتباعه، أو لاعتقادهم بأن أحبارهم قادرون أن يغفروا لهم ذنوبهم بسبل شتىٰ منها منحهم صكوك الغفران. مثل هؤلاء القوم يسمحون لانفسهم ارتكاب الذنوب بسهولة.

جاء في قاموس الكتاب المقدس: «... الفداء أيضاً اشارة الى كفارة دم المسيح، الذي أخذ على عاتقه كل ذنوبنا و تحمل ذنوبنا في جسده على الصليب».

هذا المنطق يجعل الافراد دون شك جزيئين على ارتكاب المعاصي.

بعبارة أخرى، أولئك الذين يرون أن التشجيع وحده كاف لتربية الانسان (طفلاً كان أم كبيراً)، و يرون ضرورة ترك التهديد والتقريع، هم خاطئون أيّما خطأ.

وهكذا أولئك الذين يعتقدون أن التربية ينبغي أن تقوم على أساس التخويف والتأنيب لاغير، ضالون في آرائهم.

الفريقان المذكوران خاطئان في فهم الانسان لم يفهما أن الانسان مجموعة من الخوف والرجاء، من حبّ الذات وكره الفناء، من تحصيل المنفعة و دفع الضرر. وهل يمكن لموجود يحمل في ذاته هذين البعدين، أن يربّىٰ وفق بعد واحد؟!

والتعادل ضروري بين هذين الجانبين، فلو تجاوز التشجيع حدّه لأدّىٰ الى التجرؤ والغفلة، ولو تعدّى التخويف حدّه لبعث على اليأس والقنوط وانطفاء شعلة الشوق

والتحرك في النفوس.

مما سبق نفهم سبب اقتران البشارة بالانذار أو «البشير» بـ «النذير» في القرآن الكريم، فتارة تقدم كلمة البشير على النذير كالآية التي نحن بصددها: «بَشيراً وَ نَذيراً» و تارة تقدم كلمة النذير كقوله تعالى في الآية ١٨٨ من سورة الأعراف: «اِنْ أنَا اِلاَّ نَذيرٌ وَ بَشيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

و لعل زيادة المواضع القرآنية التي تتقدم فيها صفة البشير تعود الى أن رحمة الله من حيث المجموع سابقة على غضبه: «يا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ».

* * *

الآيتان

۱۲۰ - «وَلَنْ تَرْضىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصارىٰ حَتّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدىٰ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُم بَعْدَ الَّذي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصيرٍ».

۱۲۱ ، «الَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ».

اسباب النزول

روي عن ابن عباس بشأن نزول الآية الاولى أن يهود المدينة ونصارى نجران، كانوا يأملون أن تكون قبلة المسلمين موافقة دائماً لقبلتهم، فلما تغيّرت قبلة المسلمين من بيت المقدس الى الكعبة يئسوا من نبي الاسلام.

ولعل بعض المسلمين لم يرق له هذا التغيير، لرغبته أن لايحدث عملاً يؤدي الى ازعاج اليهود والنصارى.[1]

الآية الاولى نزلت لتعلن للنبي أن هذه الفئة من اليهود والنصارى لا ترضى عنك بالاشتراك في قبلتهم ولا بأي شئ آخر، إلا أن تقبل كلّ ما يتبعونه.

وقيل: ان الآية نزلت إثر إصرار النبي على إرضاء أهل الكتاب طمعا في قبولهم الاسلام، فنزلت الآية لتؤكد أن رضى هؤلاء غاية لا تدرك إلا باعتناق دينهم.[2]

و بشأن نزول الآية الثانية وردت روايات مختلفة، قيل إنها نزلت فيمن التحق بجعفربن ابي طالب لدى عودته من الحبشة وهم أربعون، إثنان و ثلا ثون من أهل الحبشة

(۱) تفسير ابي الفتوح الرازي، و تفسير الفخر الرازي (مع اختلاف بسيط).

(۲) مجمع البيان، الآية المذكورة.

و ثمانية رهبان فيهم «بحيرا» الراهب المعروف. وقيل إنها نزلت في يهود اسلموا وحسن إسلامهم من أمثال: عبدالله بن سلام وسعيدبن عمرو، وتمام بن يهودا.[١]

* * *

التفسير

إرضاء هذه المجموعة محال

الآية السابقة رفعت المسؤولية عن النبي (صلّى الله عليه وآله) إزاء الضالين المعاندين. والآية أعلاه تواصل الموضوع السابق وتخاطب الرسول بالقول: «**وَلَنْ تَرْضىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصارىٰ حَتّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**».

واجبك أن «**قُلْ إِنَّ هُدىَ اللهِ هُوَالْهُدىٰ**»، هدى الله هوالهدى البعيد عن الخرافات و عن الافكار التافهة التي تفرزها عقول الجهّال، و يجب اتباع مثل هذاالهدى الخالص.

ثم تقول الآية: «**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ اَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصيرٍ**».

* * *

بعد أن ذمّ القرآن الفئة المذكورة من اليهود والنصارى، أشاد بأولئك الذين آمنوا من أهل الكتاب وانضوا تحت راية الرسالة الخاتمة «**اَلَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**» .. «**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**».

هؤلاء كانوا قد تلوا كتابهم السماوي حقاً، وكان ذلك سبب هدايتهم، فهم قرأوا فيه بشارات ظهور النبي الموعود، و قرأوا صفات هذاالنبي المنطبقة مع صفات نبي الاسلام (صلّى الله عليه وآله) والله مدحهم وأشار بهم.

* * *

وقفات

١ ـ سؤال بشأن عصمة الأنبياء

العبارة القرآنية: «**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ اَهْواءَهُمْ**» قد تثير سؤالاً بشأن عصمة الانبياء،

---

(١) تفسير ابي الفتوح الرازي، و مجمع البيان.

فهل يمكن للنبي (صلّى الله عليه وآله) ـ وهو معصوم ـ أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود والنصارى؟

في الجواب نقول: مثل هذه التعبيرات تتكرر في القرآن الكريم، ولا تتعارض مع مقام عصمة الانبياء، لأنها ـ من جهة ـ جملة شرطية، والجملة الشرطية لا تدل على تحقق الشرط.

ومن جهة أخرى، عصمة الانبياء لا تجعل الذنب على الانبياء محالاً، بل المعصوم له قدرة على ارتكاب الذنب، ولم يسلب منه الاختيار، ومع ذلك لم يتلوث بالذنوب. بعبارة أخرى المعصوم قادر على الذنب، ولكن إيمانه وعلمه وتقواه بدرجة لايتجه معها الى ذنب. من هنا فالتحذيرات المذكورة بشأنهم مناسبة تماما.

من جهة ثالثة، هذا الخطاب، و ان اتجه الى النبي قد يكون موجها الى الناس جميعاً.

* * *

٢ ـ للاسترضاء حدود

صحيح أن الانسان الرسالي يجب أن يسعى بأخلاقه الى جذب الأعداء الى صفوف الدعوة، لكن مثل هذا الموقف يجب أن يكون تجاه المخالفين المرنين الليّنين، أما الموقف تجاه المعاندين المتصلبين فينبغي أن يكون غير ذلك. لا يجوز إهدار الوقت مع هؤلاء، بل لابد من الاعراض عنهم وتركهم.

٣ ـ إِنَّ هُدَى ٱللهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ

نفهم من الآية المذكورة أن القانون الوحيد القادر على إنقاذ البشرية هو قانون الهداية الالهية، لأن علم البشر ـ مهما قدر له من التكامل ـ يبقى مخلوطا بالجهل والشك والقصور في جهات مختلفة. والهداية في ضوء مثل هذا العلم الناقص، لا يمكن أن تكون هداية مطلقة ولا يستطيع أن يضع للانسان برنامج «الهداية المطلقة» الا من له «علم مطلق» ومن هو خال من الجهل والنقص، وهو الله وحده.

* * *

٤ ـ حق التلاوة

عبر القرآن عن الفئة المهتدية من أهل الكتاب بأنهم «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ»،

وهو تعبير عميق يضع لنا خطاً واضحاً تجاه القرآن الكريم والكتب السماوية، فالناس أمام الآيات الالهية على أقسام.

قسم يكرسون اهتمامهم على أداء الالفاظ بشكل صحيح وعلى قواعد التجويد، و يشغل ذهنهم دوما الوقف والوصل والادغام والغنة في التلاوة، ولا يهتمون إطلاقا بمحتوى القرآن فما بالك بالعمل به! وهؤلاء بالتعبير القرآني «كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً» (الجمعة،٥).

وقسم يتجاوز إطار الالفاظ و يتعمق في المعاني و يدقّق في الموضوعات القرآنية، ولكن لا يعمل بما يفهم!

وقسم ثالث، وهم المؤمنون حقاً، يقرأون القرآن باعتباره كتاب عمل، ومنهجا كاملاً للحياة، و يعتبرون قراءة الالفاظ والتفكير في المعاني وادراك مفاهيم الآيات الكريمة مقدمة للعمل، ولذلك تصحو في نفوسهم روح جديدة كلما قرأوا القرآن، و تتصاعد في داخلهم عزيمة و ارادة جديدتان و استعداد جديد للاعمال الصالحة، وهذه هي التلاوة الحقة.

ورد عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية «يُرَتِّلُونَ آياتِهِ، وَ يَتَفَقَّهُونَ بِهِ، وَ يَعْمَلُونَ بِأَحْكامِهِ، وَ يَرْجُونَ وَعْدَهُ، وَ يَخافُونَ وَعِيدَهُ، وَ يَعْتَبِرُونَ بِقِصَصِهِ، وَ يَأْتَمِرُونَ بِأَوامِرِهِ، وَ يَنْتَهُونَ بِنَواهِيهِ، ما هُوَ وَاللهِ حِفْظُ آياتِهِ وَ دَرسُ حُرُوفِهِ، وَ تِلاوَةُ سُوَرِهِ وَ دَرسُ أَعْشارِهِ وَ أَخْماسِهِ[1]، حَفِظُوا حُرُوفَهُ وَ أَضاعُوا حُدُودَهُ، وَ إِنَّما هُوَ تَدَبُّرُ آياتِهِ وَالْعَمَلُ بِأَرْكانِهِ، قالَ اللهُ تَعالىٰ: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ».[2]

* * *

(١) المقصود من الاعشار والاخماس تقسيمات القرآن.

(٢) الميزان، نقلاً عن ارشاد الديلمي.

الآيتان

١٢٢ ـ «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

١٢٣ ـ «وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ».

التفسير

مرة أخرى يتجه الخطاب الالهي الى بني اسرائيل ليذكرهم بالنعم التي أحيطوا بها، وخاصة نعمة تفضيلهم على أمم زمانهم، فتقول الآية: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» اي على كل من كان يعيش في ذلك الزمان.

* * *

كل نعمة تقترن بمسؤولية، و تقترن بالتزام و تكليف الهي جديد، و لذلك قال سبحانه في الآية التالية: «وَ اتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً» .. «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ» أي غرامة أو فدية، «وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ» الا باذن الله، ولا يستطيع أحد غيرالله أن يساعد أحداً «وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ».

فكل طرق النجاة التي تتوسلون بها في هذه الدنيا مغلوقة يوم القيامة، والطريق الوحيد المفتوح أمامكم هوطريق الايمان والعمل الصالح، و طريق التوبة من الذنوب.

هذه المفاهيم مطروحة في الآيتين ٤٧ و ٤٨ من هذه السورة، حيث تعرضنا لها بالتفصيل، و نكتفي هنا بهذا القدر.

* * *

الآية

١٢٤ـ «وَإِذِ ابْتَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قٰالَ إِنِّي جاٰعِلُكَ لِلنّاٰسِ إِماٰماً، قٰالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قٰالَ لاٰ يَناٰلُ عَهْدِي الظّاٰلِمِينَ».

التفسير

الامامة قمة مفاخر ابراهيم (ع)

هذه الآية وما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبي الله الكبير ابراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، وعن بناء الكعبة واهمية هذه القاعدة التوحيدية العبادية.

والهدف من هذه الآيات ـ وعددها ثماني عشرة آية ـ ثلاثة أمور:

أولاً ـ أن تكون مقدمة لمسألة تغيير القبلة التي ستطرح بعد ذلك، كي يعلم المسلمون أن هذه الكعبة من ذكريات إبراهيم محطم الاصنام، ولكي يفهموا أن التلويث الذي طرأ على الكعبة إذ حولها المشركون الى بيت للاصنام، إنما هو تلويث سطحي لايحط من قيمة الكعبة ومكانتها.

ثانياً ـ لفضح ادعاءات اليهود والنصارى بشأن انتسابهم لابراهيم، و أنهم ورثة دينه و طريقته، ولتوضيح مدى ابتعاد هؤلاء عن ملة ابراهيم.

ثالثاً ـ لتفهيم مشركي العرب أيضاً ببعدهم عن منهج النبي الكبير محطم الاصنام، والرد على ما كانوا يتصورونه من ارتباط بينهم و بين إبراهيم.

الآية الكريمة تقول أولاً: «وَإِذِ ابْتَلىٰ إِبْراٰهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ».

هذه الفقرة من الآية تشير الى الاختبارات المتتالية التي اجتازها ابراهيم بنجاح، و تبين من خلالها مكانة ابراهيم وعظمته وشخصيته.

و بعد أن اجتاز هذه الاختبارات بنجاح استحق أن يمنحه الله الوسام الكبير «قٰالَ: إِنِّي جاٰعِلُكَ لِلنّاٰسِ إِماٰماً».

وهنا تمنّى ابراهيم أن يستمر خط الامامة من بعده، وأن لايبقى محصورا بشخصه

«قَالَ: «وَمِنْ ذُرِّيَتِي؟»

لكن الله أجابه «قَالَ: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ».

فطلب إبراهيم في استمرار خط الامامة في ذريته قد استُجيب، لكن هذا المقام لايناله الا الطاهرون المعصومون من ذريته لاغيرهم.

* * *

وقفات

١ـ المقصود من «الكلمات»

من دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم، وما أدّاه هذا النبي العظيم من أعمال جسيمة استحق ثناء الله، نفهم أن المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات والمهام الثقيلة الصعبة التي وضعها الله على عاتق إبراهيم، فحملها و أحسن حملها و أدّى ما عليه خير أداء، وهي عبارة عن:

أخذ ولده الى المذبح والاستعداد التام لذبحه، إطاعة لأمرالله سبحانه.

إسكان الزوج والولد، في واد غير ذي زرع بمكة، حيث لم يسكن فيه إنسان.

والنهوض بوجه عَبَدة الاصنام وتحطيم الاصنام، والوقوف ببطولة في تلك المحاكمة التاريخية، ثم رباطة جأشه في وسط النيران.

الهجرة من أرض عبدة الاصنام والابتعاد عن الوطن، والاتجاه نحو اصقاع نائية لاداء رسالته.. و أمثالها.[1]

كان كل واحد من هذه الاختبارات ثقيلا و صعبا حقاً، لكنه بقوة إيمانه نجح فيها جميعا و أثبت لياقته لمقام «الإمامة».

* * *

٢ـ من هو الامام

يتبين من الآية الكريمة التي نحن بصددها، أن منزلة الإمامة الممنوحة لابراهيم

---

(١) روي عن ابن عباس انه استخرج اختبارات ابراهيم من اربع سور قرآنية فكانت ثلاثين موضعاً (تفسير المنار، تفسير الآية المذكورة)، و خلاصتها ما ذكرناه.

بعد كل هذه الاختبارات، تفوق منزلة النبوة والرسالة.

ولتوضيح ذلك نقول: إن للامامة معاني مختلفة:

١ ـ الامامة بمعنى الرئاسة والزعامة في أمور الدنيا، (قال بذلك فريق من علماء أهل السنة).

٢ ـ الامامة بمعنى الرئاسة في أمور الدين والدنيا، (قال بذلك فريق آخر من علماء أهل السنة).

٣ ـ الامامة بمعنى تحقيق المناهج الدينية بما في ذلك منهج الحكم بالمعنى الواسع للحكومة، واجراء الحدود و أحكام الله، و تطبيق العدالة الاجتماعية، وتربية الافراد في محتواهم الداخلي وفي سلوكهم الخارجي. وهذه المنزلة أسمى من منزلة النبوة والرسالة، لأن منزلة النبوة والرسالة تقتصر على إبلاغ أوامر الله والبشارة والانذار، أما الامامة فتشمل مسؤوليات النبوة والرسالة إضافة الى «إجراء الاحكام» و «تربية النفوس ظاهريا و باطنيا» (واضح طبعا أن كثيرا من الانبياء كانوا يتمتعون بمنزلة الامامة).

منزلة الامامة هي في الحقيقة منزلة تحقيق أهداف الدين والهداية أي «الايصال الى المطلوب» وليست هي «إراءة الطريق» فحسب.

إضافة الى ما سبق تشتمل الامامة أيضاً على «الهداية التكوينية» أي النفوذ الروحي للامام، و تأثيره على القلوب المستعدة للهداية المعنوية (تأمل بدقة).

الامام في ذلك يشبه الشمس التي تبعث الحياة في الموجودات.

يقول سبحانه: «**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**» (الاحزاب، ٤٣).

ومن هذه الآية نفهم بوضوح أن رحمة الله الخاصة و إمداداته الغيبية عن طريق الملائكة تستطيع أن تخرج المؤمنين من الظلمات الى النور.

هذا الموضوع يصدق على الامام أيضاً، فالقوه الروحية للامام و للانبياء الحائزين على منزلة الامامة وخلفائهم، لها التأثير العميق على تربية الافراد المؤهلين، و إخراجهم من ظلمات الجهل والضلالة الى نور الهداية.

لا شك أن المراد من الامامة في الآية التي نحن بصدد تفسيرها هو المعنى الثالث

للامامة، لأنه يستفاد من آيات متعددة أن مفهوم «الامامة» ينطوي على مفهوم «الهداية»، كقوله تعالى: «**وَجَعَلْنا مِنْهُمْ اَئِمَّةً يَهْدُونَ بِاَمْرِنا لَمّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِاٰياتِنا يُوقِنُونَ**» (السجده، ٢٤).

هذه الهداية لا تعني اراءة الطريق، لأن إبراهيم كانت له قبل ذلك مكانة النبوة والرسالة، أي مكانة إراءة الطريق.

القرائن الواضحة تشير الى أن منزلة الامامة الممنوحة لابراهيم بعد الامتحانات العسيرة، واجتياز مراحل اليقين والشجاعة والاستقامة، هي غير منزلة البشارة والابلاغ والانذار.

إذن، الهداية التي يتضمنها مفهوم الامامة ماهي الآ «الايصال الى المطلوب» و «تحقيق روح الدين» و تطبيق المناهج التربوية في النفوس المستعدة.

هذه الحقيقة يوضحها باجمال حديث عميق المعنى روي عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يقول:

«**اِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالىٰ اِتَّخَذَ اِبْراهِيمَ عَبْداً قَبْلَ اَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيّاً، وَاِنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ نَبِيّاً قَبْلَ اَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولاً، وَاِنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ رَسُولاً قَبْلَ اَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلاً، وَاِنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلاً قَبْلَ اَنْ يَجْعَلَهُ اِماماً، فَلَمّا جَمَعَ لَهُ الْاَشْياءَ، قالَ: (اِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ اِماماً) قالَ: فَمِنْ عِظَمِها فِي عَيْنِ اِبْراهِيمَ قالَ: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ) قالَ: لا يَكُونُ السَّفِيهُ إِمامَ التَّقِيِّ**».[1]

ooo

٣ـ الفرق بين النبوة والامامة والرسالة

يفهم من الآيات الكريمة والمأثور عن المعصومين، أن حملة المهمات من قبل الله تعالى لهم منازل مختلفة:

١ ـ منزلة النبوة: أي استلام الوحي من الله، فالنبي هوالذي ينزل عليه الوحي، وما يستلمه من الوحي يعطيه للناس إن طلبوا منه ذلك.

---

(١) اصول الكافي، ج١، باب طبقات الانبياء والرسل والائمة، ص ١٣٣.

٢ ـ منزلة الرسالة: وهي منزلة ابلاغ الوحي ونشر أحكام الله و تربية الافراد عن طريق التعليم والتوعية. فالرسول إذن هوالمكلف بالسعي في دائرة مهمته لدعوة الناس الى الله و تبليغ رسالته، و بذل الجهد لتغيير فكري عقائدي في مجتمعه.

٣ ـ منزلة الامامة: وهي منزلة قيادة البشرية، فالامام يسعى الى تطبيق أحكام الله عمليا عن طريق إقامة حكومة الهية واستلام مقاليد الامور اللازمة. وان لم يستطع إقامة الدولة يسعى قدر طاقته في تنفيذ الاحكام.

بعبارة أخرى، مهمة الامام تنفيذ الاوامرالالهية،بينماتقتصر مهمة الرسول على تبليغ هذه الاوامر. و بتعبير آخر ايضاً، مهمة الرسول، اراءة الطريق ، ومهمة الامام «الايصال الى المطلوب» (اضافة الى المهام الثقيلة الاخرى المذكورة).

من نافلة القول أن كثيرامن الانبياء كنبي الاسلام عليه أفضل الصلاة والسلام حازوا على المنازل الثلاث، كانوا يستلمون الوحي، و يبلغون أوامرالله، و يسعون الى إقامة الحكومة و تنفيذ الاحكام، و ينهضون ـ بما لهم من تأثير روحي ـ بمهمة تربية النفوس.

الامامة ـ بعبارة موجزة ـ هي منزلة القيادة الشاملة لجميع المجالات المادية والمعنوية والجسمية والروحية والظاهرية والباطنية. الامام رئيس الدولة وزعيم المجتمع ومعلم الاخلاق و قائد المحتوى الداخلي للافراد المؤهلين. فهو بقوته المعنوية يقود النفوس المؤهلة على طريق التكامل، و بقدرته العلمية يعلم الجهلة، و بقوة حكومته أو أية قوة تنفيذية أخرى، يطبق مبادئ العدالة.

* * *

٤ ـ الامامة أوآخرمراحل مسيرة ابراهيم التكاملية

بما تقدم في بيان حقيقة الامامة يتضح أنه من الممكن أن تكون لشخص منزلة النبوة و تبليغ الرسالة، بينمالا تكون لهمنزلةالامامة. وهذه المنزلة تحتاج الى مؤهلات كثيرة في جميع المجالات، وهى المنزلة التي نالها ابراهيم بعد كل هذه الامتحانات والمواقف العظيمة، وكانت آخر مرحلة من مراحل مسيرته التكاملية.

اولئك الذين ظنوا أن الامامة هي «أن يكون الفرد لائقا ونموذجيا» فقط، ما فهموا أن هذه الصفة كانت موجودة في ابراهيم منذ بداية النبوة.

ومن قال أن المقصود من الامامة «أن يكون الفرد قدوة» فانه أن هذه صفة جميع الأنبياء منذ ابتدائهم بدعوة النبوّة، ولذلك وجب أن يكون النبي معصوماً لان أعماله قدوة للآخرين.

من هنا، فمنزلة الامامة أسمىٰ مما ذكر، بل أسمى من النبوة والرسالة، وهي المنزلة التي نالها إبراهيم من قبل الله بعد أن اجتاز الامتحان تلوالامتحان.

* * *

٥-مَن الظالم؟

المقصود من «الظلم» في التعبير القرآني «لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل) استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمة، و يقع في النقطة المقابلة للعدل: وهو وضع الشيء في محله.

فالظلم إذن وضع الشخص أوالشيء في غير ما وضع له.

لما كانت منزلة الامامة والقيادة الظاهرية والباطنية للبشرية منزلة ذات مسؤوليات جسيمة هائلة عظيمة،فان لحظة من الذنب والمعصية خلال العمر تسبب سلب لياقة هذه المنزلة عن الشخص.

لذلك نرى أئمة آل البيت (عليهم السلام) يثبتون بهذه الآية تعيّن الخلافة بعدالنبي مباشرة لعلي و إنحصارها به، مشيرين إلى أن الآخرين عبدوا الأصنام في الجاهلية، وعليّ وحده لم يسجد لصنم. و أيّ ظلم أكبر من عبادة الأصنام؟! ألم يقل لقمان لابنه: «يٰا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ اِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (لقمان،١٣)؟!

من هذه الاستدلالات ما رواه هشام بن سالم عن الامام جعفر بن محمدالصادق (عليه السلام) قال: «قَدْ كانَ اِبْراهِيمُ نَبِيّاً وَلَيْسَ بِإمامٍ، حَتّىٰ قالَ اللهُ اِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ اِماماً، قالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، فَقالَ اللهُ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ، مَنْ عَبَدَ صَنَماً أوْوَثَناً لا يَكُونُ اِماماً».[1]

وفي حديث آخر عن عبدالله بن مسعود عن النبي (صلّى الله عليه وآله): «اِنَّ اللهَ

(١) اصول الكافي، ج١، باب «طبقات الانبياء والرسل» حديث ١.

قَالَ لِإبْرَاهِيمَ: «لَا أعْطِيكَ عَهْداً لِلظَّالِمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، قَالَ: يا رَبِّ وَمَنِ الظَّالِمُ مِنْ وَلَدِيَ الَّـذِي لَا يَنَالُ عَهْدَكَ ؟ قَالَ: مَنْ سَجَدَ لِصَنَمٍ مِنْ دُونِي لَا أجْعَلُهُ إمَاماً أبَداً، وَلَا يَصْلَحُ أنْ يَكُونَ إمَاماً».[1]

٦ـ الامام يعيّنه الله

من الآية التي نفسرّها نفهم ضمنيا أن الامام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكـون معينا من قبل الله سبحانه، لما يلي:

أولاً ـ الامامة ميثاق الهي، وطبيعي أن يكون التعيين من قبل الله لأنه طرف هذا الميثاق.

ثانياً ـ الافراد الذين توجد في حياتهم لحظة ارتكاب ظلم بحقّ أنفسهم أو بحقّ الآخرين، كأن تكون لحظة شرك مثلا، لا يليقون للامامة، فالامام يجب أن يكون عمره معصوما.

وهل يعلم ذلك في نفوس الافراد الاّ الله؟!.

ولو أردنا بهذاالمعيار أن نعيّن خليفة لرسول الله (صلّى الله عليه وآله)، فلا يمكن أن يكون غير علي (عليه السلام).

جدير بالذكر أن صاحب «المنار» نقل عن أبي حنيفة قوله: أن الخلافة لا تليق الا بالعلويين، ومن هنا أجاز الخروج على حكومة العباسيين، ومن هنا أيضاً رفض منصب القضاء في حكومة خلفاء بني العباس.

و يقول صاحب المنار ايضاً: إن أئمة المذاهب الأربعة كانوا معارضين لحكام زمانهم، وكانوا يعتبرون أولئك الحكام غير لائقين لزعامة المسلمين، لأنهم ظالمون.[2]

ومن العجيب أن كثيراً من علماء أهل السنة في عصرنا هذا، يؤيدون و يدعمون الحكومات الظالمة المتجبّرة المرتبطة ارتباطا واضحا جليا بجبهة الكفر العالمية، والمفسدة في الارض إفساداً لايخفى على أحد، بل اكثر من ذلك يعتبرون هؤلاء الحكام «اولي الامر»

---

(١) امالي الشيخ المفيد، ومناقب ابن المغازلي، نقلاً عن الميزان، تفسير الآية المذكورة.

(٢) المنار، ج١، ص٤٥٧ ـ ٤٥٨.

و يركزون على وجوب طاعتهم!!

* * *

٧ـ جواب عن سؤالين

١ ـ قلنا في تفسير معنى الامامة أن عمل الامام هو «الايصال الى المطلوب» و «تنفيذ المناهج الالهية»، وهنا قد يقول قائل: إن هذاالمعنى لم يتحقق في كثير من الانبياء، بل لم يتحقق حتى بالنسبة للنبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) والائمة الاطهار في المقياس العام، فقد كان أمامهم دوما أفراد ضالون مضلون.

جوابا على ذلك نقول: تعريفنا لعمل الامام لايعني أن الامام يجرّ الامة قسراً نحوالحقّ، بل ان الافراد يستطيعون ـ وهم مختارون ـ أن يهتدوا بما يمتلكه الامام من قوة ظاهرية و باطنية، على شرط امتلاك هؤلاء الافراد للّياقة والاستعداد.

كقولنا ان الشمس خلقت لاستمرار حياة الموجودات الحية، أو ان المطر يعمل على إحياء الارض الميتة ،تأثيرالشمس والمطر له طابع عام، لكنه لا يصدق الاّ في الموجودات المستعدة لقبول هذاالتأثير.

٢ ـ التفسير المذكور للامام يستدعي أن يكون كل إمام نبيّاً ورسولاً أوّلاً، و بعد ذلك يبلغ درجة الامامة. بينما لم يكن الخلفاء المعصومون لنبيّ الاسلام (صلّى الله عليه وآله) كذلك .

نقول في الجواب: لا يلزم أن يكون الإمام قد بلغ حتماً منزلة النبوة والرسالة، فالذي اجتمعت فيه منزلة النبوة والرسالة والامامة (مثل النبي الخاتم) يمكن لخليفته أن يواصل طريق الإمامة، و ذلك حين تنتفي الحاجة الى رسالة جديدة كما هوالحال بعد خاتم الأنبياء.

بعبارة أخرى، حين تكون مرحلة استلام الوحي الالهي و تبليغ جميع الاحكام قد انتهت و بقيت المرحلة التنفيذية، فان خليفة النبي يستطيع أن يواصل الخط التنفيذي، ولا حاجة لان يكون هذه الخليفة نبياً أو رسولاً.

* * *

٨-شخصية إبراهيم المثالية

ورد اسم ابراهيم في ٦٩ موضعاً من القرآن الكريم، وتحدثت عنه آيات تتوزع بين خمس وعشرين سورة. والقرآن يثني كثيراً على هذاالنبي الكريم و يذكره بصفات جليلة عظيمة.

إنه قدوة و أسوة في كل المجالات، و نموذج للانسان الكامل.

مكانته في سُلّم معرفة الله.. ومنطقه الصريح أمام عبدة الاوثان.. ونضاله المرير ضدالجبابرة.. و تضحياته على طريق الله، وصموده الغريب أمام عواصف الحوادث والاختبارات الصعبة.. كل واحدة من هذه الصفات تشكل النموذج الاعلى للسائرين على طريق التوحيد.

ابراهيم كما يصفه القرآن من «ٱلْمُحْسِنِينَ»[١]، و من «ٱلصَّٰلِحِينَ»[٢]، ومن «القانتين»[٣]، و من «الصديقين»[٤]، ومن «إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ»[٥]، و «من الموفين بعهدهم»[٦]، ذوسخاء عظيم و شجاعة منقطعة النظير.

فى تفسير سورة ابراهيم (خاصة في القسم الاخير من السورة) سنفصل الحديث في هذاالمجال. (راجع المجلد العاشر من هذاالتفسير).

* * *

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٥

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٢.

(٣) سورة النحل، الآية ١٢٠.

(٤) سورة مريم، الآية ٤١.

(٥) سورة التوبة، الآية ١١٤.

(٦) سورة النجم، الآية ٣٧.

الآية

١٢٥ ـ «وَ اِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَ اَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ اِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنَا اِلَى اِبْرَاهِيمَ وَ اِسْمَاعِيلَ اَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

التفسير

عظمة بيت الله

بعد الاشارة الى مكانة إبراهيم في الآية السابقة، تناولت هذه الآية موضوع عظمة الكعبة التي وضع قواعدها ابراهيم، فهي تبدأ بالتذكير بعبارة «وَ اِذْ» أي أذكروا: «وَ اِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَ اَمْناً».

المثابة من الثوب أي عودة الشئ الى حالته الاولى. ولما كانت الكعبة مركزا يتجه اليه الموحدون كلّ عام، فهي محل لعودة جسمية وروحية الى التوحيد والفطرة الاولى، ومن هنا كانت مثابة. وكلمة «مَثَابَةً» تتضمن معنى الراحة والاستقرار، لأن بيت الانسان ـ وهو محل عودته الدائم ـ مكان للراحة والاستقرار، وهذا المعنى تؤكده كلمة «اَمْناً» التي تلي كلمة «مَثَابَةً» في الآية. وكلمة «لِلنَّاسِ» توضح أنه قاعدة لأمن عام لكل العالمين ولكل الشعوب المحرومة.

وهذه الصفة للبيت هي في الحقيقة استجابة لأحد مطاليب ابراهيم من ربه كما سيأتي.

ثم تضيف الآية: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ اِبْرَاهِيمَ مَصَلًّى».

اختلف المفسرون في معنى «مَقَامِ اِبْرَاهِيمَ»، قيل أن كل الحج هو مقام ابراهيم. وقيل أنه «عرفة» و «المشعر الحرام» و «الجمار الثلاث»، وقيل: كل حرم مكة مقام.

وكما يبدو من ظاهر الآية أن المقام هو مقام ابراهيم المعروف الكائن قرب

الكعبة، وذهبت الى ذلك الرّوايات وكثير من المفسرين. وعلى الحجاج أن يصلّوا خلفه بعدالطواف،ومن هنا كان هذاالمقام «مصلّى».

ثم تشير الآية الى المسؤولية المعهودة الى ابراهيم وابنه اسماعيل بشأن تطهير البيت للطائفين والمجاورين والمصلين: «وَ عَهِدْنَا اِلَىٰ اِبْرَاهِيمَ وَ اِسْمَاعِيلَ اَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

وفي التطهير قيل: إنه التطهير من لوثة وجود الاصنام. وقيل: إنه التطهير من الدنس الظاهر، كالدم وأحشاء الذبائح، التي كان يلقي بها الجهلة في البيت.

وقيل: إنه يعني اخلاص النية عند بناء البيت.

ولا دليل على تحديد مفهوم الطهارة، فهي تعني تطهير هذاالبيت ظاهرياً ومعنوياً من كل تلويث.

لذلك نجد بعض الروايات فسرت التطهير في الآية بأنه تطهير الكعبة من المشركين، و بعضها بأنه تطهير البدن و ازالة الادران.

* * *

وقفتان

١ـ الأثار الاجتماعية والتربوية للبيت الأمن

الكعبة ـ طبعاً للآية أعلاه ـ ملاذ و بيت أمن، والاسلام وضع الاحكام المشددة بشأن ابعاد هذه الارض المقدسة عن كل نزاع واشتباك وحرب واراقة دماء. وليس افراد البشر آمنين هناك فحسب، بل الحيوانات والطيور آمنة ايضا في هذه البقعة، ولا يحق لأحد أن يمسها بسوء.

و في عالم يعجّ دوما بالنزاع والصراع، يستطيع مثل هذاالمركز الأمن أن يكون له الاثر العميق في حل المشاكل وفضّ النزاعات، إذ يستطيع الفرقاء المتنازعون أن يجلسوا حول طاولة واحدة عند هذاالبيت الآمن، و يفتحوا بينهم حوارا قد يكون مقدمة لازالة الخصومات والنزاعات.

وقد يتفق أن ترغب الاطراف المتنازعة في اجراء مباحثات، لكنهم لا يتفقون

على مكان مقبول ومحترم و آمن لدى جميع الاطراف، والاسلام أقرّ مكة لتكون مركزا كهذا.

واليوم، اذ المسلمون ـ مع الاسف الشديد ـ يعانون من الوان النزاعات والاختلافات حريّ بهم أن يستفيدوا من قداسة هذاالبيت وأمنه لفتح باب المحادثات بينهم، ولرفع ما بينهم من اختلافات بفضل معنوية هذاالمكان المقدس.[1]

* * *

٢ـ بيت الله

وصفت الكعبة بأنها بيت الله، وعبرت الآية عن الكعبة بـ «بَيْتِيَ». وواضح أن الله ليس بجسم ولا يحده بيت ولايحتاج الى ذلك، وهذه الاضافة هي «اضافة تشريفية» تبين قدسية الشيء الذي ينسب الى الله، ولذلك كان شهر رمضان «شهرالله» وكانت الكعبة «بيت الله».

* * *

(١) بشأن أمن أرض مكة لنا بحث آخر في تفسير الآية ٣٥ من سورة ابراهيم. (راجع المجلد العاشر من هذاالتفسير).

الآية

١٢٦ - «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

التفسير

ابراهيم يدعو ربه

في هذه الآية توجّه ابراهيم الى ربه بطلبين هامين لسكنة هذه الارض المقدسة، أشرنا الى أحدهما في الآية السابقة. القرآن يذكّر بما قاله إبراهيم: **«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَداً آمِناً»**.

وكما ذكرنا في الآية السابقة، استجاب الله لدعاء إبراهيم، وجعل الله هذه الارض المقدسة مركزا أمنا بالمعنى الواسع لكلمة الأمن.

والطلب الآخر هو: **«وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»**.

وهكذا يطلب ابراهيم «الأمن» أولاً، ثم «المواهب الاقتصادية»، إشارة الى أنّ الإقتصاد السالم لايتحقق الاّ بعد الأمن الكامل.

و للمفسرين آراء عديدة في معنى «الثمرات»، و يبدو أن معناها واسع يشمل النعم المادية والنعم المعنوية. وعن الامام الصادق (عليه السلام): **«هِيَ ثَمَرَاتُ الْقُلُوبِ»** اشارة الى جعل قلوب الناس تهوي الى هذه الارض.

ابراهيم في دعائه إقتصر على المؤمنين بالله واليوم الآخر، ولعل ذلك كان بعد أن قال له الله سبحانه: **«لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»** ففهم أن مجموعة من ذريته سيسلكون طريق الشرك والظلم، فاستثناهم في دعائه.

والله سبحانه استجاب لابراهيم طلبه الثاني أيضاً ولكنه «**قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً**» في الدُّنيا، «**ثُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**» في الحياة الآخرة.

هذه في الواقع صفة «الرحمانية» أي صفة الرحمة العامة للباري تعالى التي تشمل كل المخلوقات، صالحهم وطالحهم. أما الآخرة فهي عالم رحمته الخاصة التي لا ينالها إلا من آمن وعمل صالحاً.

* * *

الآيات

١٢٧ - «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

١٢٨ - «رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ».

١٢٩ - «رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

التفسير

ابراهيم يبني الكعبة

نفهم بوضوح من خلال آيات الذكر الحكيم أن بيت الكعبة كان موجودا قبل ابراهيم، وكان قائماً منذ زمن آدم. تتحدث الآية ٣٧ من سورة ابراهيم عن لسان ابراهيم تقول: «رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ».

وهذه الآية تدل على أن بيت الكعبة كان له نوع من الوجود حين جاء ابراهيم مع زوجه وابنه الرضيع الى مكة.

و تقول الآية ٩٦ من سورة آل عمران: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً». ومن المؤكد أن عبادة الله واقامة أماكن العبادة لم تبدأ في زمن إبراهيم، بل كانتا منذ أن خلق الانسان على ظهر هذه الارض.

و تعبير الآية الاولى من الآيات التي نحن بصدد تفسيرها يؤكد هذا المعنى، إذ تقول: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

فابراهيم واسماعيل قد رفعا قواعد البيت التي كانت موجودة.

وفي خطبة للامام أميرالمؤمنين علي في نهج البلاغة، وهي المسماة بالقاصعة، يقول:

«ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار... فجعلها بيته الحرام ... ثم أمر آدم (عليه السلام) وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه[1] ...»[2]

القرائن القرآنية والروائية تؤيد أن الكعبة بنيت أولاً بيد آدم، ثم انهدمت في طوفان نوح، ثم اعيد بناؤها على يد إبراهيم واسماعيل.[3]

* * *

في الآيتين التاليتين يتضرع ابراهيم واسماعيل الى ربّ العالمين بخمسة طلبات هامة. وهذه الطلبات المقدّسة حين الاشتغال باعادة بناء الكعبة جامعة و دقيقة بحيث تشمل كل احتياجات الانسان المادية والمعنوية، و تفصح عن عظمة هذين النبيين الكبيرين.

قالا أولاً: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ».

ثم اضافا: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ».

وطلبا تفهم طريق العبادة: «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا»، ليعبدالله حقّ عبادته.

ثم طلبا التوبة: «وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

* * *

الآية الاخيرة تضمنت الطلب الخامس، وهو هداية الذرية «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

---

(١) أي أن يطوفوا حوله.

(٢) نهج البلاغة صبحي صالح ص٢٩٢ ـ الخطبة القاصعة)

(٣) صاحب المنار ينكر هذا الموضوع بالمرة، ويرى أن إبراهيم و إسماعيل أول من بنى الكعبة، وهذا مالا تؤيده الروايات، ولا عبارات القرآن الكريم.

وقفات

١ـهدف بعثة الانبياءـ في الآيات أعلاه، بعد أن يطلب إبراهيم واسماعيل من الله ظهور نبي الاسلام، يبينان ثلاثة أهداف لبعثته:

الاول، تلاوة آيات الله على الناس، أي إيقاظ الافكار والارواح في ظل الآيات الالهية المبشرة والمنذرة.

«يتلو» من تلا أي اتبع الشيء بالشيء، وسميت «التلاوة» كذلك لانها قراءة وفق تتابع ونظم. وهي مقدمة لليقظة والاعداد والتعليم والتربية.

ثم «تعليم الكتاب والحكمة» ولا تتحقق التربية الا بالتعليم.

لعل التفاوت بين «الكتاب» و «الحكمة» في أن الكتاب يعني الكتب السماوية، والحكمة تعني العلوم والاسرار والعلل والنتائج الموجودة في الاحكام، وهي التي يعلّمها النبي أيضاً.

ثم يطرح الهدف الاخير وهو «التزكية»

و «التزكية» في اللغة هي الانماء، وهي التطهير أيضا.

و بذلك يتلخص الهدف النهائي من بعثة الانبياء في دفع الانسان على مسيرة التكامل «العلمى» و «العملي».

ينبغي التأكيد هنا على أنّ علوم البشر محدودة، مقرونة بآلاف الفجوات المبهمة والاخطاء الكبيرة، والانسان ايضاً لا يطمئن بدقة الى معلوماته، لأنه شاهد أخطاءه و أخطاء الآخرين.

من هنا يجب أن يأتي الى الناس الانبياء، بعلومهم الحقة الخالية من الاخطاء المستمدة من مبداالوحي، ليز يلوا أخطاءهم، و يملأوا فراغات جهلهم، و يبعثوا فيهم اطمئنانا بعلمهم.

و يلزم التأكيد أيضاً على أن الشخصية البشرية تتكون من «عقل» و «غرائز»، ولذلك كان الانسان بحاجة الى «التربية» بقدر حاجته الى «العلم»، و ينبغي أن يتكامل عقله، وأن تتجه غرائزه نحو هدف صحيح.

لذلك فان الانبياء معلمون، و مربون، يزودون الناس بالعلم، و بالتربية.

* * *

٢ ـ «التعليم» مقدم أو «التربية»؟ ـ في أربعة مواضع ذكر القرآن مسألة التربية والتعليم باعتبارها هدف الانبياء، و في ثلاثة مواضع منها قُدمت «التربية» على «التعليم» (البقرة، ١٥١ ـ آل عمران، ١٦٤ ـ الجمعة،٢).

وفي موضع واحد تقدم التعليم على التربية (آية بحثنا). ونعلم أن التربية لا تتم الا بالتعليم.

لذلك حين يتقدم التعليم على التربية في الآية فانما ذلك بيان للتسلسل المنطقي الطبيعي لهما. وفي المواضع التي تقدمت فيها التربية، فقد يكون ذلك اشارة الى انها الهدف، لان الهدف الاصلي هوالتربية، وما عداها مقدمة لها.

* * *

٣ ـ **النبي من الناس** ـ تعبير «منهم» في الآية «**وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ**» يشير الى أن قادة البشرية ينبغي أن يكونوا بشراً بنفس صفات البشر الغريزية، كي يكونوا القدوة اللائقة في الجوانب العملية. ومن الطبيعي أنهم ـ لو كانوا من غيرالبشر ـ ما استطاعوا.

* * *

الآيات

١٣٠ - «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ اِبْراهِيمَ اِلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَاِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحِينَ».

١٣١ - «اِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ اَسْلِمْ قالَ اَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ».

١٣٢ -«وَوَصّىٰ بِها اِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ اِنَّ اللّٰهَ اصْطَفىٰ لَكُمُ الدِّينَ، فَلا تَمُوتُنَّ اِلاّ وَاَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

التفسير

ابراهيم الانسان النموذج

الآيات السابقة القت الضوء على جوانب من شخصية ابراهيم، فتحدثت عن بعض خدماته، و طلباته الشاملة للجوانب المادية والمعنوية.

من مجموع مامرّ نفهم أن الله سبحانه شاء أن يكون هذاالنبي، شيخ الموحدين وقدوة الرساليين، علي مرّالعصور.

لذلك تقول الآية الاولى من آيات بحثنا هذا: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ اِبْراهِيمَ اِلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ»؟!

اليس من السفاهة أن يعرض الانسان عن مدرسة الطهر والنقاء والفطرة والعقل و سعادة الدنيا والآخرة، و يتجه الى طريق الشرك والكفر والفساد وضياع العقل والانحراف عن الفطرة وفقدان الدين والدنيا؟!

ثم تضيف الآية: «وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَاِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحِينَ».

نعم، ابراهيم اصطفاه الله في الدنيا ليكون «الاسوة» و «القدوة» للصالحين.

* * *

الآية التالية تؤكد على صفة أخرى من صفات ابراهيم التي هي في الواقع أساس

بقية صفاته العظيمة وتقول: «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ».

هذا الانسان المتحرر من الانشدادات الوضيعة يسارع الى التسليم التام حال سماعه نداء ربّه: «أسلم»، ولا يتوانى في رفض كل أوهام زمانه القائمة على عبادة النجوم والشمس والقمر، فيتركها بعد أن رآها محكومة بالقوانين التي تسود الخليقة ويقول: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ». (الانعام،٧٩).

مرّ بنا في الآيات السابقة أن ابراهيم واسماعيل بعد بناء الكعبة طلبا من الله سبحانه أن يتقبل أعمالها، ثم بعد ذلك طلبا أن يمنّ عليهما الله بنعمة التسليم لوجهه الكريم: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ» ومثل هذا طلباه لذريتها: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ».

ذلك لأن الخطوة الاولى في سموّالشخصية الانسانية الطهر والاخلاص، ومن هنا أسلم ابراهيم وجهه لربه دون سواه، فكان خليل الله وكان من المصطفين.

* * *

حياة إبراهيم بأجمعها كانت مفعمة بأعمال جسيمة نادرة، نضاله المرير ضدالمشركين، صموده الكبير في قلب النيران، هذاالصمود الذي أثار اعجاب نمرود الطاغية نفسه حيث راح يردد دون وعي: «مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهاً فَلْيَتَّخِذْ إِلٰهاً مِثْلَ إِلٰهِ إِبْرَاهِيمَ»[1].

وكذلك اسكان الزوج والطفل الرضيع في تلك الارض الجافة القاحلة.. والمقدسة، و بناء الكعبة، و تقديم الولد على مذبح التضحية والفداء استجابة لامر الله تعالى.. كل واحدة من هذه الاعمال قمة من سلسلة قمم حياة ابراهيم (عليه السلام).

* * *

ووصية إبراهيم بنيه في أواخر أيام حياته تجسيد آخر لهذه الحياة الشامخة: «وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ».. فكل من إبراهيم و يعقوب وصيا أبناءهما بالقول: «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

---

(١) نورالثقلين، ج٣، ص٤٣٩.

لعلّ القرآن الكريم، بنقله وصية ابراهيم، يريد أن يقول للانسان إنه مسؤول عن مستقبل أبنائه، عليه أن يهتم بمستقبلهم المعنوي قبل أن يهتم بمستقبلهم المادي.

يعقوب كابراهيم وصّىٰ أيضا أبناءه بنفس هذه الوصايا، و أكد لأبنائه أن رمز نجاحهم يتلخص في جملة واحدة هي التسليم أمام ربّ العالمين.

ربما يعود ذكر اسم يعقوب هنا من بين سائر الانبياء، الى أن اليهود والنصارى كانوا يعتقدون بانتسابهم الى يعقوب بشكل من الاشكال، فأرادت الآية أن توضح لهم أن خط الشرك الذي يسلكونه، لا يتناسب اطلاقا مع منهج يعقوب وهو منهج التسليم المحض أمام ربّ العالمين.

الآيتان

١٣٣ ـ «اَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ اِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ اِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟ قالُوا: نَعْبُدُ اِلٰهَكَ وَ اِلٰهَ آبائِكَ اِبْراهِيمَ وَ اِسْماعِيلَ وَ اِسْحاقَ اِلٰهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

١٣٤ ـ «تِلْكَ اُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ».

سبب النزول

كان جمع من اليهود يعتقدون أن يعقوب عند ما حضرته الوفاة، اوصى بنيه أن يعتنقوا اليهودية (بتحريفاتها السائدة خلال عصر البعثة المباركة)، والله سبحانه انزل هذه الآية.[1]

• • •

التفسير

كما رأينا في سبب النزول، و ظاهر الآية يدل على ذلك أيضاً، كان جمع من منكري الاسلام ينسبون مالا ينبغي نسبته الى النبي يعقوب، والقرآن يرد عليهم بالقول: «اَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ اِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ»؟!

هذاالذي نسبوه اليه ليس بصحيح، بل الذي حدث آنذاك «اِذْ قالَ لِبَنِيهِ: ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعدي»؟

في الجواب «قالُوا: نَعْبُدُ اِلٰهَكَ وَ اِلٰهَ ابائِكَ اِبْراهِيمَ وَ اِسْماعِيلَ وَ اِسْحاقَ اِلٰهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

---

(١) تفسير ابي الفتوح الرازي، آية البحث.

من الآية يبدو أن قلقا ساور يعقوب لدن أن حضرته الوفاة بشأن مستقبل أبنائه، و عبّر عن قلقه هذا متسائلاً: «**مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي**»؟ وانما قال «**مٰا تَعْبُدُونَ..**» ولم يقل «**مَنْ تَعْبُدُونَ..**» لتلوث البيئه الاجتماعية آنذاك بالشرك والوثنية، أي بعبادة الاشياء من دون الله. فاراد يعقوب أن يفهم ما في قرارة أنفس أبنائه من ميول واتجاهات، و بعد أن استمع الجواب أطمأنت نفسه.

و يلفت النظر هنا أن اسماعيل لم يكن أبا يعقوب ولا جدّه، بل عمّه، بينما الآية استعملت كلمة «آباء»، و يتضح من ذلك أن كلمة «الاب» تطلق أيضاً على «العم» توسعاً، ومن هنا نقول بالنسبة لآزر، الذي ذكره القرآن باعتباره والد ابراهيم، أنه لايمنع أن يكون عمّ ابراهيم لا والده. (تأملّ بدقّة).

* * *

آخر آية في بحثنا، تجيب على توهمّ آخرمن توهمات اليهود، فكثير من هؤلاء كانوا يستندون الى مفاخر الآباء والاجداد وقرب منزلة اسلافهم من الله تعالى، فلا يرون بأساً في انحرافهم هم، ظانين أنهم ناجون بوسيلة أولئك الاسلاف.

يقول القرآن: «**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مٰا كَسَبْتُمْ، وَلٰا تُسْئَلُونَ عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**» .

و بذلك أرادت الآية أن توجه أنظار هؤلاء الى أعمالهم وسلوكهم و افكارهم، وتصرفهم عن الانغماس في الافتخار بالماضين.

هذه الآية ـ و إن اتجهت في الخطاب الى فئة معينة في عصرالبعثة ـ تخاطب المسلمين اليوم أيضاً و تطرح أمامهم مبدأ:

ان الفتى من يقول ها أناذا ليس الفتى من يقول كان أبي

الآيات

١٣٥ - «وَقالُوا كُونُوا هُوداً اَوْ نَصارىٰ تَهْتَدُوا، قُلْ بَلْ مِلَّةَ اِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

١٣٦ - «قُولُوا آمَنّا بِاللهِ وَما اُنْزِلَ اِلَيْنا وَما اُنْزِلَ اِلىٰ اِبْراهِيمَ وَ اِسْماعِيلَ وَ اِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَالْاَسْباطِ وَما اُوتِيَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ وَما اُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

١٣٧ - «فَاِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَاِنْ تَوَلَّوْا فَاِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

سبب النزول

عن ابن عباس ان جماعة من علماء اليهود ونصارى أهل نجران خاصموا أهل الاسلام، كل فرقة تقول إنها أحق بدين الله من غيرها فقالت اليهود نبينا موسى أفضل الانبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وقالت النصارى: عيسى أفضل الأنبياء وكتابنا الانجيل أفضل الكتب، وكل فريق منهما قال للمؤمنين: كونوا على ديننا، فانزل الله تعالى هذه الآية.

التفسير

نحن على حقّ لا غيرنا!

التمحور والانغماس في الذاتية يؤدي الى أن يحتكر الانسان الحقّ لنفسه، و يعتبر الآخرين على باطل، و يسعى الى أن يجرهم الى معتقداته.

الآية الاولى تتحدث عن مجموعة من أهل الكتاب يحملون مثل هذه النظرة الضيقة، ونقلت عنهم القول: «وَقالُوا كُونُوا هُوداً اَوْ نَصارىٰ تَهْتَدُوا».

فيردّ عليهم القرآن مؤكداً أن الأديان المحرّفة لا تستطيع إطلاقاً أن تهدي الانسان «قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

التدين الخالص هو اتباع الخط التوحيدي الخالص غيرالمشوب بالشرك . و رعاية هذاالأساس أهم معيار للتمييز بين الأديان الصحيحة والأديان المنحرفة.

يعلمنا الاسلام أن لانفرق بين الرسل، وأن نحترم رسالاتهم، لان المبادئ الاساسية للأديان الحقة واحدة، موسى وعيسى كانا أيضاً من أتباع ملة إبراهيم.. أي من أتباع الدين التوحيدي الخالص من الشرك ، و إن حرّف المغرضون من أتباعهما ما جاءا به، وجعلوه مشوبا بالشرك .و(كلامنا هذا لايتنافى طبعا مَعَ ايماننا بأن البشرية يجب أن تتبع آخر الاديان السماوية أي الاسلام).

* * *

الآية التالية تأمرالمسلمين أن «قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلَى إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

لا يجوز أن ننطلق من محورالذاتية في الحكم على هذاالنبي أو ذاك ، بل يجب أن ننظر الى الأنبياء بمنظار رسالي، و نعتبرهم جميعاً رسل رب العالمين ومعلّمي البشرية، قد أدّى كلٌ منهم دوره في مرحلة تاريخية معينة، وكان هدفهم واحدا، وهو هداية الناس في ظل التوحيد الخالص والحق والعدالة.

* * *

ثم يضيف القرآن قائلاً: «فَإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإنْ تَوَلَّوا فَإنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ».

ولو تخلى هؤلاء عن عنصريتهم و ذاتياتهم، و آمنوا بجميع أنبياء الله فقد اهتدوا أيضا، والاّ فقد ضلوا سواء السبيل.

و «الشقاق» النزاع والحرب، وفسرت في الآية بالكفر و بالضلال، و بالابتعاد عن الحق والاتجاه نحوالباطل، وكل هذه المعاني تعود الى حقيقة واحدة.

ذكر بعض المفسرين أن الآية السابقة التي ساوت بين عيسى وسائر الانبياء.

آثارت اعتراض جمع من النصارى وقالوا: إن عيسى ليس كسائر الانبياء، بل هو ابن الله، فنزلت هذه الآية لتؤكد على انحراف هؤلاء وأنهم في شقاق.

ثم تثبت الآية على قلوب المؤمنين وتبعث فيهم الثقة والطمأنينة بالقول: «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ» لاقوالهم «الْعَلِيمُ» بمؤامراتهم.

* * *

وقفات

١ـ وحدة دعوة الانبياء

في مواضع عديدة أكد القرآن على أن هدف الانبياء واحد ولا انفصال في خط النبوات، فكل الانبياء يصدرون عن منبع الوحي الالهي، ولذلك يوصي القرآن باحترام جميع الأنبياء، لكن هذا لايمنع ـ كما قلنا ـ أن تنسخ كلُّ رسالة جديدة تنزل من الله سبحانه الرسالات السابقة، والاسلام خاتم الرسالات السماوية.

أنبياءالله كالمعلمين ربّى كل منهم البشرية في فصل دراسي، و بعد انتهاء المرحلة الدراسية الخاصة به يسلم المجتمع البشري الى معلم آخر ليجتاز الافراد مرحلة دراسية أعلى. ومن هنا فالمجتمع البشري مكلّف بتحمل مسؤوليات ما يأتي به آخر نبي، وهذا لايتعارض مع كون سائر الانبياء على حق.

* * *

٢ـ من هم الاسباط؟

الاسباط جمع سبط، والاسباط احفاد يعقوب، وهم اثنا عشر سبطا من اثنى عشر ابناً أو انهم قبائل من بني اسرائيل والسبط في اللغة: الجماعة يرجعون الى أب واحد، والسبط في اللغة: الشجر، والاسباط الذين هم من شجرة واحدة، و يقال: سبط عليه العطاء، اذا تابع عليه حتى يصل بعضه ببعض.

المقصود من الاسباط ـ إذن ـ ليس ابناء يعقوب، فهؤلاء ارتكبوا جميعاً ذنباً بحق أخيهم ولا يصلحون للنبوة، بل المقصود قبائل بني اسرائيل، أو احفاد يعقوب ممن كان لهم انبياء. ولما كان بين هؤلاء الاسباط انبياء، فالآية عدتهم بين اولئك الذين نزلت عليهم آيات الله.

٣ـ الحنيف

الحنيف، من مادة حَنَفَ: أي مال عن الاديان الباطلة الى الدين الحق، و به سميت الحنيفية لانها مالت عن اليهودية والنصرانية. وعكس ذلك «جَنَفَ» أي ارتد عن الطريق المستقيم الى الانحراف.

وللمفسرين آراء في الحنيفية منها حج بيت الله، و اتباع الحق، واتباع ابراهيم، والاخلاص في العمل، وكلها ترجع الى معنى عام وشامل، وما ذكره المفسرون مصاديق لذلك.

* * *

الآيات

١٣٨ ـ «صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ».

١٣٩ ـ «قُلْ أَتُحاجُّونَنا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ».

١٤٠ ـ «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارىٰ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ».

١٤١ ـ «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ».

التفسير

التخلّي عن غير صبغة الله

بعدالدعوة التي وجهتها الآيات السابقة لإتباع الأديان بشأن إنتهاج طريق جميع الأنبياء، اول آية في بحثنا تأمرهم جميعاً بترك كل صبغة، أي دين، غير «صبغة الله»[1].

ثم تضيف الآية: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً»؟! أي لا أحسن من الله صبغة، «وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ» في اتباع ملة ابراهيم التي هي صبغة الله، وقيل المعنى: من نحن له عابدون يجب أن تتبع صبغته،لاما صَبَغَنا عليه الآباء والاجداد.[2]

و بهذا أمر القرآن بالتخلي عن الصبغات العنصرية والطائفيه والذاتية وعن كل

---

(١) «صِبْغَةَ» منصوبة على أنّها مفعول مطلق لفعل محذوف أي (اصطبغوا) صبغة الله أو أنّها بدل من «ملة ابراهيم» في الآيات المتقدمة، أو مفعول به لفعل محذوف والتقدير (اتبعوا صبغة الله) والله أعلم!

(٢) مجمع البيان، الآية.

الصبغات المفرّقة، والاتّجاه نحو صبغة الله.

ذكر المفسرون أن النصارى دأبوا على غسل أبنائهم بعد ولادتهم في ماء اصفراللون، و يسمونه غسل التعميد، ويجعلون ذلك تطهيرا للمولود من الذنب الذاتي الموروث من آدم!

القرآن يرفض هذاالمنطق الخاوي، و يقول من الافضل أن تتركوا هذه الصبغات الظاهرية الخرافية المفرقة، و تصطبغوا بصبغة الله، لتطهر روحكم.

ما اجمل تعبير «الصبغة» في هذه الآية! وما اروع هذه الدعوة الى الاصطباغ بصبغة الله!

لو حدث ذلك .. لو اختارت البشرية صبغة الله.. أي صبغة الطهر والتقوى والعدالة والمساواة والاخوّة.. صبغة التوحيد والاخلاص.. لاستطاعت أن تستأصل جذور الشرك والنفاق والتفرقة.

وعن الامام الصادق (عليه السلام): أن «صِبْغَةَ اللهِ» هِيَ ٱلإِسْلَامُ [1]، وهذا اشارة الى ما ذكرناه.

* * *

كان اليهود وغيرهم يحاجّون المسلمين بصور شتّى، كانوا يقولون: إن جميع الانبياء مبعوثون منا، و إن ديننا أقدم الاديان، و كتابنا أعرق الكتب السماوية.

وكانوا يقولون: ان عنصرنا اسمى من عنصر العرب، و نحن المؤهلون لحمل الرسالة لاغيرنا، لان العرب أهل اوثان.

وكانوا يدّعون أحيانا أنهم أبناء الله وأن الجنة لهم لا لغيرهم.

القرآن يرد على كل هذه الاقاويل و يقول: «اَتُحاجُّونَنا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ».

فالله سبحانه ليس ربّ شعب او قبيلة معينة، انه ربّ العالمين.

---

(١) نورالثقلين، ج١، ص١٣٢.

واعلموا ايضاً أن لا امتياز لاحد على غيره الآ بالاعمال وكل شخص رهن أعماله «وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ».

مع فارق هوإن كثيرا منكم مشركون «وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ».

* * *

الآية التالية تجيب على واحد آخر من هذه الادعاءات الفارغة وتقول: «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى»؟!

ثم تجيب الآية عن هذا الادعاء بشكل رائع فتقول: «قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ» ؟!

فالله أعلم أنهم ما كانوا يهودا ولانصارى.

وقد تعلمون انتم ايضا أن هؤلاء الانبياء ادوا رسالتهم قبل موسى وعيسى. وان كنتم لا تعلمون فاطلاق مثل هذه الاقوال بدون علم وتثبيت تهمة و ذنب وكتمان للحقيقة «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ».

اعلموا أنه «وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ».

حين ينتهج الانسان خط العناد واللجاج فان اعراضه عن الحقيقة لاحدّ له، ينكر ابسط المسلّمات، ويرفض اوضح الواضحات. والآية تذكر نموذجا لذلك في هذه المجموعة التي بلغ بها العناد واللجاج أن تعتبر انبياء الله، الذين سبقوا موسى وعيسى، من امثال ابراهيم واسماعيل واسحاق و يعقوب، من اليهود أوالنصارى. و بذلك يكتمون حقيقة واضحة لها ارتباط بايمان الناس و معتقداتهم، ولذلك يصف القرآن هؤلاء الذين يكتمون الحقائق بأنهم أظلم الناس، لانه لاظلم اكبر من كتمان الحقائق عن الناس عمدا، وجرّ الآخرين الى طريق الضلال.

* * *

في آخر آية من الآيات التي نحن بصددها يقول سبحانه لهؤلاء القوم العنودين الجدليين، افترضوا أن ادعاءاتكم صحيحة، فهذا لا يعود عليكم بالنفع لانه «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ، وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ».

الامة الحية ينبغي أن تعتمد على أعمالها لاعلى ذكريات تاريخها، والانسان يجب أن يستند الى فضائله لا أن يجترّ مفاخر الآباء والاجداد.

الجزء الثاني من القرآن الكريم

من الآية ١٤٢ من سورة البقرة

الآية

١٤٢ - «سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ما وَلّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها، قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».

التفسير

تغييرالقبلة

هذه الآية و آيات تالية تتحدث عن حادث مهم من حوادث التاريخ الاسلامي، كان له آثاره الكبيرة في المجتمع آنذاك .

رسول الاسلام (صلّى الله عليه وآله) صلّى صوب (بيت المقدس) بأمر ربه مدة ثلاثة عشر عاماً بعدالبعثة في مكة، و بضعة أشهر في المدينة بعدالهجرة. ثم تغيرت القبلة، وامرالله المسلمين أن يصلّوا تجاه (االكعبة).

واختلف المفسرون في المدة التي صلّى خلالها المسلمون بعدالهجرة تجاه بيت المقدس، فذكروا مددا مختلفة تتراوح بين سبعة أشهر و سبعة عشر شهرا.

كانت الجماعة المسلمة تتعرض خلال كل هذه المدة (مدة صلاة المسلمين تجاه بيت المقدس) الى لوم اليهود و تقريعهم، وكان اليهود يقولون عن المسلمين: إن هؤلاء غير مستقلين لأنهم يصلون تجاه قبلتنا، وهذا دليل أننا على حقّ.

كانت هذه الاقوال تؤلم الرسول وصحبه، فالامر الالهي يوجب ان يصلوا تجاه بيت المقدس، واليهود لاينفكّون يرشقون المسلمين بوابل تهمهم و تقريعهم. و بلغ الامر أن الرسول (صلّى الله عليه وآله) بدأ يقلب وجهه في السماء انتظارا للوحي.

واستمر الانتظار مدة، حتى نزل الوحي يأمر بتغيير القبلة، كان الرسول (صلّى الله عليه وآله) في مسجد «بني سالم» يصلي الظهر، فما أن أتمّ ركعتين حتى أمر

جبرائيل أن يأخذ بعضدالرسول و يدير وجهه تجاه الكعبة.[١]

لم يكفّ اليهود بعد هذا التغيير عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الاعلامية بشكل آخر، بدأوا يلقون التشكيكات بشأن هذاالتغيير، والقرآن الكريم يتحدث عن هذه الاعتراضات: «سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ما وَلّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها».

بدأوا يرددون: لوكانت القبلة الاولى هي الصحيحة فلِمَ هذاالتغيير؟ و ان كانت الثانية صحيحة فلماذا صلى المسلمون اكثر من ثلاثة عشر عاماً تجاه بيت المقدس؟!

والله سبحانه يجيب على هذاالاعتراض، فامر رسوله أن «قُلْ لِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فليس لمكان قداسة ذاتية، انما يكتسب قداستهباذن الله، وكل مكان ملك لله، والمهم هوالطاعة والاستسلام لربّ العالمين.

تغيير القبلة في الواقع مرحلة من مراحل الاختبار الالهي، وكل مرحلة خطوة على الصراط المستقيم نحوالهداية الالهية.

* * *

وقفات

١ ـ «السفهاء» جمع «سفيه» اطلقت في الاصل على من خفّت حركة جسمه، وقيل زمام سفيه أي كثير الاضطراب. ثم استعملت الكلمة في خفةالنفس لنقصان العقل في الامور الدينية والدنيوية.

* * *

٢ ـ ذكرنا أن مسألة «النسخ» في الاحكام و تغيير المنهج التربوي بتغير المراحل الزمانية، ليست مسألة غريبة جديدة في تاريخ الرسالات. لكن هؤلاء القوم العنودين الجدليين اتخذوا من هذاالتغييرذريعة لاعلامهم المضاد، و القرآن يجيبهم بشكل يفحمهم.

٣ ـ جملة «يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» لا تعني كما ذكرنا أن هداية الله ليس لها حساب، لأن المشيئة الالهية تنطلق من «حكمة» الله ومن محاسبات المصالح والمفاسد.

---

(١) مجمع البيان، ج ١، ص ٢٢٣.

الآية

١٤٣ - «وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً، وَمٰا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهٰا اِلاّٰ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلٰى عَقِبَيْهِ، وَ اِنْ كٰانَتْ لَكَبِيرَةً اِلاّٰ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ، وَمٰا كٰانَ اللهُ لِيُضِيعَ اِيمٰانَكُمْ، اِنَّ اللهَ بِالنّٰاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ»

التفسير

الامة الوسط

هذه الآية تشير الى جانب من أسباب تغيير القبلة، تقول أولاً: «وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً» أي كما جعلنا القبلة وسطا، كذلك جعلناكم أمة في حالة اعتدال، لا يشوبها افراط ولا تفريط في كل جوانب حياتها.

أما سبب كون قبلة المسلمين قبلة وسطاً، فلان النصارى - الذين يعيش معظمهم في غرب الكرة الارضية - يولون وجوههم صوب الشرق تقريباً حين يتجهون الى قبلتهم في بيت المقدس حيث مسقط رأس السيد المسيح. واليهود - الذين يتواجدون غالبا في الشامات و بابل - يتجهون نحوالغرب تقريبا حين يقفون تجاه بيت المقدس.

اما «الكعبة» فكانت بالنسبة للمسلمين في المدينة تجاه الجنوب، و بين المشرق والمغرب، وفي خط وسط.

وهذا ما نفهمه من عبارة «وَ كَذٰلِكَ» وان كان للمفسرين آراء أخرى في هذه العبارة.

القرآن يؤكد أن المنهج الاسلامي في كل أبعادهـ لا في بعدالقبلة فقط - يقوم على أساس التوازن والاعتدال.

والهدف من ذلك «لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً».

و «شهادة» الامة المسلمة على الناس، و «شهادة» النبي على المسلمين، قد تكون اشارة الى الأسوة والقُدْوَةِ، لان «الشهداء» ينبغي أن يكونوا من أزكى الناس وامثلهم.

فيكون معنى هذاالتعبير القرآني أن الامة المسلمة أمة نموذجيّة بما عندها من عقيدة ومنهج، تماما ككون النبي فردا نموذجياً بين ابناء الامة.

الامة المسلمة بعملها و بتطبيقها المنهج الاسلامي تشهد أن الانسان بمقدوره أن يكون رجل دين و رجل دنيا، مع أن يكون انسانا يعيش في خضم الاحداث الاجتماعية وفق معايير روحية ومعنوية. الامة المسلمة بمعتقداتها ومناهجها تشهد بعدم وجود أي تناقض بين الدين والعلم، بل إن كلا منهما يخدم الآخر.

ثم تشير الآية الى واحد آخر من أسرار تغيير القبلة فتقول: «**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**».

الآية لم تقل يتبعك بل قالت «**يَتَّبِعُ الرَّسُولَ**» اشارة الى أن هذا الاتباع انما هو تسليم لأمر الله، وكل اعتراض على ذلك انما هو عصيان و تمرد على الله، ولا يصدر ذلك الاعن مشرك جاهلي.

و عبارة «**مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**» تعني في الاصل الرجوع على مؤخر الرجل، و تعني هنا الانتكاس والتراجع.

ثم تضيف الآية: «**وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**».

لولا الهداية الالهية، لما وجدت في نفس الانسان روح التسليم المطلق أمام أوامر الله. المهم أن يكون الانسان المسلم مستسلما الى درجة لايحسّ معها بثقل مثل هذه الأوامر، بل يشعر بلذتها وحلاوتها.

وامام وسوسة الاعداء المضللين والاصدقاء الجاهلين، الذين راحوا يشككون في صحة ما سبق من العبادات قبل تغيير القبلة، تقول الآية: «**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**».

فأوامر الله مثل وصفات الطبيب لكل مرحلة من مراحل العلاج نسخة خاصة، وكلها شافية وافية تضمن سعادة الانسان وسلامته، والعمل بأجمعها صحيح لاغبار عليه.

وقفات

١ـ اسرار تغيير القبلة

تغيير القبلة من بيت المقدس الى الكعبة أثار لدى الجميع تساؤلات عديدة، اولئك الذين قالوا ان الاحكام ينبغي أن تبق ثابتة راحوا يتساءلون عن سبب هذا التغيير، فلو كانت القبلة الصحيحة هي الكعبة، فلماذا لم يؤمر المسلمون بالصلاة نحوها منذ البدء، وان كانت بيت المقدس فلِمَ هذا التغيير؟!

و أعداء الاسلام وجدوا الفرصة سانحة لبث سمومهم ولاعلامهم المضاد. قالوا إن تغيير القبلة تم بدافع عنصري، و زعموا أن النبي اتجه أولاً الى قبلة الانبياء السابقين، ثم عاد الى قبلة قومه بعد تحقيق انتصاراته! وقالوا: إن محمداً (صلّى الله عليه وآله) أراد استعطاف أهل الكتاب بانتخابه بيت المقدس قبلة له، ولما يئس منهم استبدل الكعبة بها.

واضح مدى القلق والاضطراب الذي تتركه هذه الوساوس على مجتمع لم يتغلغل نور العلم والايمان في كل زواياه، ولم يتخلص بعد تماما من رواسب الشرك والعصبية.

لذلك تصرّح الآية أعلاه أن تغيير القبلة اختبار كبير لتمييز المؤمنين من المشركين.

لا نستبعد أن يكون أحد أسباب تغيير القبلة مايلي:

لما كانت الكعبة في بداية البعثة المباركة بيتاً لاصنام المشركين، فقد أمر المسلمون موقتا بالصلاة تجاه بيت المقدس، ليتحقّق الإنفصال التام بين الجبهة الاسلامية وجبهة المشركين.

و بعد الهجرة واقامة الدولة الإسلامية والمجتمع الاسلامي، حدث الإنفصال الكامل بين الجبهتين، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار وضع القبلة، حينئذ عاد المسلمون الى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، و أعرق مركز للانبياء.

ومن الطبيعي أن يستثقل الصلاة نحو بيت المقدس لأولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصيد المعنوي لقوميتهم، و أن يستثقلوا أيضاً العودة الى الكعبة بعد أن إعتادوا على قبلتهم الاولى (بيت المقدس).

المسلمون بهذا التحوّل وُضعوا في بوتقة الاختبار، لتخليصهم مما علّق في نفوسهم

من آثار الشرك ، و لتنقطع كل انشداداتهم بماضيهم المشرك ، و لتنمو في وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامرالله سبحانه.

إن الله سبحانه ليس له مكان ومحل ـ كما ذكرنا ـ والقبلة رمز لوحدة صفوف المسلمين ولاحياء ذكريات خط التوحيد، و تغييرها لا يغيّر شيئاً، المهم هوالاستسلام الكامل أمام الله، وكسر أوثان التعصب واللجاج والانانية في النفوس.

٢ ـ الامة الوسط

«الوسط» ما توسط بين شيئين، و بمعنى الجميل والشريف، والمعنيان يعودان ظاهراً الى حقيقة واحدة لان الجمال والشرف فيما اعتدل وابتعد عن الإفراط والتفريط.

ما أجمل التعبيرالقرآني عن الامة المسلمة .. الامة الوسط.

الوسط: المعتدلة في «عقيدتها»، لا تسلك طريق «الغلو» ولا طريق «التقصير والشرك »، لا تنحومنحى «الجبر» ولا «التفويض»، لا تؤمن «بالتشبيه» في صفات الله ولا «بالتعطيل».

معتدلة في قيمها المادية والمعنوية، لا تغط في عالم المادة و تنسى المعنويات، ولا تغرق في المعنويات و تتناسى الماديات. ليست كمعظم اليهود لا يفهمون سوى المادة، وليست كرهبان النصارى يتركون الدنيا تماما.

معتدلة في الجانب العلمي.. لا ترفض الحقائق العلمية، ولا تقبل كل نعرة ترتفع باسم العلم. معتدلة في علاقاتها الاجتماعية.. لا تضرب حولها حصارا يعزلها عن العالم، ولا تفقد استقلالها وتذوب في هذه الكتلة أوتلك ، كمانرى الذائبين في الشرق والغرب اليوم!

معتدلة في سلوكها الاخلاقي.. في عباداتها.. في تفكيرها.. وفي جميع أبعاد حياتها.

المسلم الحقيقي لا يمكن اطلاقاً أن يكون انسانا ذا بعد واحد، بل هو انسان ذو أبعاد مختلفة.. مفكر، مؤمن، عادل، مجاهد، مكافح، شجاع، عطوف، واع، فعّال، ذوسماح.

عبارة الأمة الوسط توضّح من جانب مسألة شهادة الامة الاسلامية، لأن من يقف على خط الوسط يستطيع أن يشهد كل الخطوط الانحرافية المتجهة نحواليمين واليسار.

ومن جانب آخر تحمل العبارة دليلها وتقول: إِنَّما كُنْتُمْ شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ

لأنكُمْ معتدلون و أنكم أمة وَسَط[1].

* * *

٣ـ الامة الشاهدة

لو اجتمعت الصفات التي ذكرناها للامة الوسط في أمة، فهذه الامة دون شك رائدة للحق، وشاهدة على الحقيقة، لان مناهجها تشكل الميزان والمعيار لتميز الحق عن الباطل.

ورد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) قولهم: «**نَحْنُ الأُمَّةُ الوُسْطىٰ، وَنَحْنُ شُهَداءُ اللهِ عَلىٰ خَلْقِهِ وَ حُجَجُهُ فِي أَرْضِهِ... نَحْنُ الشُّهَداءُ عَلَى النّاسِ... إِلَيْنا يَرْجِعُ الغالِي وَبِنا يَرْجِعُ الْمُقَصِّرُ**»[2] مثل هذه الروايات ـ كما ذكرنا ـ لا تحدد المفهوم الواسع للآية، بل تبين المصداق الامثل للامة الوسط، وتعطي نموذجاً متكاملاً لها.

* * *

٤ـ علم الله

عبارة «**لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ..**» وامثالها من التعبيرات القرآنية، لا تعني أن الله لم يكن يعلم شيئاً، ثم علم به بعد ذلك، بل تعني تحقّق هذه الواقعيات.

بعبارة اوضح، الله سبحانه يعلم منذ الازل بكل الحوادث والموجودات، و ان ظهرت بالتدريج على مسرح الوجود. فحدوث الموجودات والاحداث لا يزيدالله علماً، بل إن هذا الحدوث تحقّق لما كان في علم الله. وهذا يشبه علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم. ثم يتحول التصميم بالتدريج الى بناء عملي. والمهندس يقول حين ينفّذ تصميمه على الارض: أريد أن أرى عمليا ما كان في علمي نظريا. (علم الله يختلف دون شك عن علم البشر اختلافاً كبيراً كما ذكرنا ذلك في بحث صفات الله، وانما ذكرنا هذا المثال للتوضيح).

عبارة «**وَإِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ**» توضح حقيقة الصعوبة في مخالفة العادة الجارية، و في التخلص من سيطرة العواطف غير الصحيحة، الا على الذين آمنوا بالله حقاً، واستسلموا لأوامره.

---

(١) المنار، تفسير الآية المذكورة.

(٢) نور الثقلين، ج ١، ص ١٣٤.

الآية

١٤٤ - «قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِم، وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ».

التفسير

كل الوجوه شطر الكعبة

ذكرنا أن بيت المقدس كان القبلة الاولى الموقتة للمسلمين. والرسول (صلّى الله عليه وآله) كان ينتظر الامر الالهي بتغيير القبلة، خاصة وان اليهود استغلّوا مسألة اشتراك المسلمين معهم في القبلة، ليوجهوا سهام اعلامهم المضاد للمجموعة المسلمة، مرددين أن المسلمين لا استقلال لهم، وانهم لا يعرفون معنى القبلة وانما اقتبسوه منّا، و أن قبولهم قبلتنا يعني اعترافهم بديننا! وامثال هذه الاقاويل.

الآية تشير الى هذه المسألة وتقول:

«قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

ذكرت الرواية ـ كما أشرنا من قبل ـ أن هذاالأمر الالهي نزل في لحظة حساسة ملفتة للانظار، حين كان الرسول والمسلمون يؤدون صلاة الظهر. فأخذ جبرائيل بذراع الرسول (صلّى الله عليه وآله) و أدار وجهه نحوالكعبة. و تذكر الرواية أن صفوف المسلمين تغيّرت على أثر ذلك و ترك النساء مكانهنّ للرجال و بالعكس. (كان اتجاه بيت المقدس نحوالشمال تقريبا، بينما كان اتجاه الكعبة نحوالجنوب)

من المفيد أن نذكر أنّ تغيير القبلة من علامات نبي الاسلام المذكورة في الكتب السابقة. فقد كان أهل الكتاب على علم بأن النبي المبعوث «يصلّي الى القبلتين».

لذلك تضيف الآية: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ».

أضف الى ذلك أن من دلائل نبوّة رسول الاسلام، تحرره من التأثر بعادات بيئته الاجتماعية، و تركه الكعبة التي كانت موضع تقديس العرب، واتجاهه نحو قبلة أقلية محدودة.

ثم تقول الآية: «وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ».

فهؤلاء الذين يكتمون ما جاء في كتبهم بشأن تغيير قبلة نبي الاسلام، و يستغلون هذه الحادثة لأثارة ضجة بوجه المسلمين، بدل أن يتخذوها دليلا على صدق دعوى النبي، سيلاقون جزاء أعمالهم، والله ليس بغافل عن أعمالهم و نياتهم.

* * *

وقفات

١ـ نظم الآيات

محتوى هذه الآية يبين بوضوح أنها نزلت قبل الآية التي سبقتها في الترتيب القرآني. ذلك لأن القرآن لم تجمع آياته حسب نزوله، بل كان ترتيب الآيات يتم استناداً الى دلائل معينة بتعيين من رسول الله و بأمر من الباري سبحانه. (ومن الدلائل مثلاً رعاية الاولوية واهمية الموضوعات).

* * *

٢ـ انتظار صعب!

يستفاد من هذه الآية أن النبي (صلّى الله عليه وآله) كان مرتبطا بالكعبة ارتباطاً خاصاً، و منتظرا لأمر تغيير القبلة، ولعلنا نستطيع أن نتلمس سبب ذلك في ارتباط النبي (صلّى الله عليه وآله) بابراهيم (عليه السلام) أضف الى ذلك أن الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، و أنه كان يعلم بوقوع هذا التغيير، وكان يترقب حدوثه.

وهنا تبرز ظاهرة الاستسلام المطلق للرسول، حيث لم يتردد على لسانه طلب بهذا الشأن، بل كان يقلب طرفه في السماء منتظرا بتلهّف نزول الوحي.

و تعبير «السماء» في الآية قد يشير الى انتظاره هبوط «جبرائيل» من الاعلى، والاّ فالله لا مكان له، وهكذا وحيه المرسل.

٣ـ معنى الشطر

يثير الالتفات أن الآية لم تأمر المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبة بل «شطر المسجد الحرام».

لعل ذلك يعود الى صعوبة بل تعذّر محاذاة الكعبة على المصلين البعيدين عن الكعبة. لذلك ذكر المسجد الحرام بدل الكعبة لانه أوسع. ثم كلمة «شطر» تعني السمت والجانب، و بذلك كان الاتجاه شطر المسجد الحرام عملاً ميسوراً للجميع، وخاصة لصفوف الجماعة الطويلة التي يزيد طولها غالباً على طول الكعبة.

بديهي أن المحاذاة الدقيقة للكعبة ـ وحتى للمسجد الحرام ـ عمل صعب على المصلين البعيدين، لكن الوقوف شطره يخلو من كل صعوبة.[1]

* * *

٤ـ خطاب عام

كل خطابات القرآن هي دون شك ـ شاملة لكل المسلمين ـ وان اتجهت الى النبي (صلّى الله عليه وآله) (اللّهم اِلاّ في مواضع دل الدليل على أنّها خاصّة بالنبي)، من هنا يطرح سؤال بشأن سبب اتّجاه الآية الّتي نحن بصددها في الخطاب الى النبي تارة تأمره أن يصلى شطر المسجد الحرام، وتارة اخرى الى عامة المسلمين.

هذا التكرار قد يعود الى أنّ تغيير القبلة مسألة مثيرة حساسة. ومن الممكن أن تؤدي الضجة التي تثيرها هذه المسألة الى اضطراب بين المسلمين، و قد يتذرع بعض في وسط هذه الضجة بأن الخطاب موجه الى النبي، فلا يصلي تجاه الكعبة. لذلك خاطبت الآية الرسول مرة وعامة المسلمين مرة أخرى لتؤكد أن هذا التغيير غير خاص بالرسول بل يشمل عامة المسلمين أيضاً.

* * *

---

(١) من المفسرين من قال إن أحد معاني «شطر»: النصف، ومن هنا فإن مفهوم «شطر المسجد الحرام» يساوي مفهوم «وسط المسجد الحرام»، و نعلم أن الكعبة تقع وسط المسجد الحرام. (التفسير الكبير، الفخر الرازي، الآية المذكورة).

٥ـ هل الهدف من هذا التغيير تحقيق رضا النبي؟

عبارة «قِبْلَةً تَرْضاها» قد توهم أن هذا التغيير تم إرضاءً للنبي، و يزول هذا التوهم لو علمنا أن بيت المقدس كان قبلة موقتة، وأن النبي كان ينتظر القبلة النهائية، و بصدور أمر التغيير وضع حدٌ لطعن اليهود، و توفرت ارضية استمالة أهل الحجاز المرتبطين ارتباطاً خاصاً بالكعبة نحو الاسلام، كما ان اعلان القبلة الاولى فصل الاسلام عن الطابع القومي، و أسقط الأصنام المتواجدة في الكعبة.

* * *

٦ـ الكعبة مركز دائرة كبرى

لو نظر شخص من خارج الكرة الارضية الى المصلين المسلمين لرأى دوائر متعدّدة بعضها داخل بعض و تضيق بالتدريج لتصل الى المركز الاصلي المتمثل بالكعبة. وهذه الصورة توضح محورية ومركزية بيت الله الحرام. وهذه ظاهرة متميزة في الاسلام دون سواه من الأديان.

جدير بالذكر أن ضرورة اتجاه المسلمين شطر المسجد الحرام كان باعثا على تطور الهيئة وعلم الجغرافيا والفلك عند المسلمين بسرعة مدهشة خلال العصور الاسلامية الاولى، لتطلب حساب السمت هذه العلوم.

* * *

الآية

۱٤٥ - «وَلَئِنْ اَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَ مَا اَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ اَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ اِنَّكَ اِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ»

التفسير

لا يرضون بأي ثمن

مرّبنا في تفسير الآية السابقة أن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لا يمكن أن يثير شبهة حول النبي، بل انه من دلائل صحة دعواه، فاهل الكتاب قد قرأوا عن صلاة النبي الموعود إلى قبلتين، لكن تعصبهم منعهم من قبول الحق.

والانسان، حين لا يواجه المسائل بذهنية مسبقة، قابل للتفاهم ولتصحيح مفاهيمه بالدليل والمنطق أو عن طريق اراءة المعجزة.

أما حينما يكون قد كوّن له رأيا مسبقا قاطعا، و خاصة حين يكون مثل هذا الفرد جاهلاً متعصباً، فلا يمكن تغيير رأيه بأي ثمن.

لذلك تقول الآية: «وَلَئِنْ اَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ».

فلا تتعب نفسك إذن، لان هؤلاء يأبون الاستسلام للحق، ولا توجد فيهم روح طلب الحقيقة.

كل الأنبياء واجهوا مثل هؤلاء الافراد، وهم إما أثرياء متنفذون، أو علماء منحرفون، أو جاهلون متعصبون.

ثم تضيف الآية: «وَمَا اَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ».

أي إن هؤلاء لا يستطيعون مهما افتعلوا من ضجيج، أن يغيروا مرة أخرى قبلة المسلمين، فهذه هي القبلة الثابتة النهائية.

وهذا التعبير القاطع الحاسم أحد سبل الوقوف بوجه الضجيج المفتعل، ومن الضروري في مثل هذه الظروف أن يعلن الانسان المسلم أمام الاعداء كلمته صريحة قوية، مؤكدا أنه لا ينثني أمام هذه الانفعالات.

ثم تقول الآية: «وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ».

لا النصارى بتابعين قبلة اليهود، ولا اليهود بتابعين قبلة النصارى.

ولمزيد من التأكيد والحسم ينذرالقرآن النبي و يقول: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ».

وفي القرآن يكثر مثل هذا اللون من الخطاب التهديدي للنبي باسلوب القضية الشرطية، والهدف من ذلك ثلاثة اشياء:

الأول ـ أن يعلم الجميع عدمَ وجود أي تمييز بين الناس في اطار القوانين الالهية، وحتى الانبياء مشمولون بهذه القوانين. ومن هنا فلو صدر عن النبي ـ على الفرض المحال ـ انحراف، فسيشمله العقاب الالهي، مع استحالة صدور ذلك عن النبي (بعبارة اخرى القضية الشرطية لا تدل على تحقق الشرط).

الثاني ـ أن يتنبه الناس الى واقعهم، فاذا كان ذلك شأن النبي، فمن الاولى أن يكونوا هم ايضاً و اعين لمسؤولياتهم، وان لا يستسلموا اطلاقاً لميول الاعداء وضجاتهم المفتعلة.

الثالث ـ ان يتضح عدم قدرة النبي على تغيير احكام الله، وعدم إمكان الطلب اليه أن يغير حكماً من الاحكام، فهو عبد أيضاً خاضع لامرالله تعالى.

* * *

الآيتان

١٤٦ ـ «اَلّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ اَبْناءَهُمْ، وَ اِنَّ فَريقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

١٤٧ ـ «اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرينَ»

التفسير

يعرفون حقّ المعرفة ولكن...

استمرار الحديث القرآن عن تعصب مجموعة من أهل الكتاب ولجاجهم، تقول الآية: «اَلّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ اَبْناءَهُمْ»

انهم يعرفون النبي و اسمه و علاماته من خلال كتبهم الدينية، «وَإِنَّ فَريقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهناك طبعاً فريق سارع لاعتناق الاسلام بعد أن رأى هذه الصفات والعلامات في نبي الاسلام، مثل عبدالله بن سلام وهو من علماء اليهود، ونقل عنه بعد اسلامه قوله: «انا أعلم به مني بابني»[1].

هذه الآية تميط اللثام في الواقع عن حقيقة هامة، هي إن صفات نبي الاسلام الجسمية والروحية وخصائصه كانت بقدر من الوضوح في الكتب السماوية السابقة، بحيث ترسم الصورة الكاملة له في أذهان المطلعين على هذه الكتب.

وهل من الممكن أن تصرح الآية بوجود اسم النبي وعلاماته في كتب أهل الكتاب، اذا لم تكن بالفعل موجودة عندهم؟! ألا يدل عدم معارضة علماء اليهود لهذا التصريح، بل اعتراف بعضهم به واستسلامهم للحق، أن اسم النبي الخاتم وصفاته

---

(١) المنار، ج٢، والتفسير الكبير للفخر الرازي.

كانت معروفة لديهم!؟

هذه الآيات ـ إذن ـ دليل على صدق دعوة الرسول وصحّة نبوته.

* * *

ثم تؤكد الآية ما سبق أن طرحته بشأن تغيير القبلة، أو بشأن احكام الاسلام بشكل عام: «ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ» أي المترددين.

و بهذه العبارة تثبت الآية على قلب النبي، وتنهاه عن أي ترديد أمام افتراءات الاعداء بشان تغيير القبلة وغيرها، و ان جندّ هؤلاء الاعداء كل طاقاتهم للمحاربة.

المخاطب في الآية شخص النبي (صلّى الله عليه وآله)، ولكن الهدف هو تربية البشرية كما ذكرنا من قبل، فمن المؤكد أن النبي المتصل بالوحي الالهي لايعتريه تردد، لان الوحي بالنسبة له ذو جانب حسّي وعين اليقين.

* * *

الآية

١٤٨ - «وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

التفسير

لكل أمة قبلة

هذه الآية الكريمة ترد على الضجة التي أثارها اليهود حول تغيير القبلة وتقول: «وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا».

كان للأنبياء على مرّ التاريخ وجهات عديدة يولونها، وليست القبلة كاصول الدين لا تقبل التغيير، ولا امراً تكوينيا لايمكن مخالفته، فلا تطيلوا الحديث في أمر القبلة و بدل ذلك «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»، لان معيار القيمة الوجودية للانسان هي أعمال البرّ والخير.

مثل هذا المعنى تضمنته الآية ١٧٧ من هذه السورة: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ».

ان كنتم تريدون اختبار المسلمين، فاختبروهم بهذاالايمان لا بمسألة تغيير القبلة.

ثم تتغير لهجة الآية الى نوع من التحذير والتهديد لاولئك المفترين والتشجيع للمحسنين فتقول: «أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً» في تلك المحكمة الكبرى حيث يتلقى كل جزاء عمله.

لا يتساوى المفترون المشاغبون المخربون مع المحسنين المؤمنين، ولابدّ من يوم ينال كل فريق جزاءه.

وقد يخال بعض أن جمع الناس لمثل هذااليوم عجيب، فكيف تجتمع ذرات

التراب المتناثرة لترتدي ثانية حلّة الحياة؟! لذلك تجيب الآية بالقول: «إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»

هذه العبارة الاخيرة في الآية بمثابة الدليل على العبارة السابقة: «أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً».

* * *

وقفتان

١- يوم يجتمع أصحاب المهدي (عليه السلام)

ورد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في تفسير «أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً» أن المقصود بهم أصحاب المهدي (عليه السلام).

من ذلك ماورد في «روضة الكافي» عن «الامام الباقر» (عليه السلام) أنه تلا الفقرة المذكورة من الآية ثم قال: «يَعْنِي أَصْحابَ الْقائِمِ الثَّلاثَمِائَةَ وَالْبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً، وَهُمْ وَاللهِ الأُمَّةُ الْمَعْدُودَةُ، قالَ: يَجْتَمِعُونَ وَاللهِ في ساعَةٍ واحِدَةٍ قَزَعَ[1] كَقَزَعِ الْخَرِيفِ»[2].

و روي عن الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) ايضاً: «وَ ذلِكَ وَاللهِ أَنْ لَوْ قامَ قائِمُنا يَجْمَعُ اللهُ إِلَيْهِ جَمِيعَ شِيعَتِنا مِنْ جَمِيعِ الْبُلْدانِ»[3].

هذا التفسير للآية دون شك يتحدث عن «بطن» الآية، والأحاديث ذكرت أن لكلام الله ظاهراً لعامة الناس، و باطناً لخاصّتهم.

بعبارة أخرى: هذه الروايات تشير الى حقيقة، هي إن الله القادر على أن يجمع الناس من ذرات التراب المتناثرة في يوم القيامة، لقادر على أن يجمع اصحاب المهدي في ساعة بسهولة، من أجل انقداح الشرارة الاولىٰ للثورة العالمية الرامية الى اقامة حكم الله على ظهر الارض، و ازالة الظلم والعدوان عن وجهها.

* * *

---

(١) أي يجتمعون كاجتماع قطع السحب الخريفية لدى هبوب الريح.

(٢) نور الثقلين، ج١، ص١٣٩.

(٣) مجمع البيان، الآية.

٢ ـ عبارة «وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا» فسرناها سابقا بانها اشارة للقبلات المتعددة للامم. ومن المفسرين من توسع في المعنى وقال انها تعبّر عن القضاء والقدر التكوينيين أيضا (تأمل بدقة)[١].

ولو خلت الآية مما يحيطها من قرائن قبلها و بعدها لأمكن مثل هذاالتفسير، لكن القرائن تدل على أن المراد هوالمعنى الاول. ولو افترضنا أن الآية تشير الى المعنى الثاني، فلا تعني اطلاقا القضاء والقدر الجبريين، بل القضاء والقدر المنسجمين مع الارادة والاختيار.[٢]

* * *

(١) تفسيرالميزان، ج١، ص٣٣١.

(٢) لمزيد من التوضيح راجع (انگيزه پيدايش مذهب) = دافع وجود الدين، فصل القضاء والقدر.

الآيتان

١٤٩ - «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ
لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

١٥٠ - «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا
كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

التفسير

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي

هذه الآيات تتابع الحديث عن مسألة تغيير القبلة و نتائجها.

الآية الاولى تأمر النبي (صلّى الله عليه وآله) وتقول: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ» .. من أية مدينة و أية ديار «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

و لمزيد من التأكيد تقول الآية: «وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ».

و تنتهي الآية بتهديد المتآمرين: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

هذه التأكيدات المتوالية في الآية و في الآية التالية تبين أن مسألة تغيير القبلة كانت صعبة و ثقيلة على مجموعة من المسلمين حديثي العهد بالاسلام، كما كانت ذريعة بيد أعداء الاسلام اللجوجين لبثّ سمومهم.

مثل هذه الحالة تتطلب دائماً موقفا قاطعاً حاسماً ينهي كل شك و ريبة، من هنا توالت التأكيدات القرآنية القارعة، لتبعث العزم واليقين في نفوس الاتباع، و تعمق اليأس والخيبة بين الأعداء. وهذا اسلوب اتبعه القرآن في مواقف عديدة.

اضافة الى ماسبق، فالتكرار في هذه الآيات يتضمن أيضاً أحكاما جديدة. على سبيل المثال، الآيات السابقة وضحت حكم القبلة في المدينة التي يسكنها المسلمون. وهذه

الآية والآية التالية أوضحت الحكم لدى السفر والخروج من المدن والديار.

* * *

الآية التالية كررت الحكم العام بشأن التوجه الى المسجد الحرام في أي مكان: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

صحيح أن هذه العبارة القرآنية تخاطب النبي (صلّى الله عليه وآله)، لكنها تقصد دون شك مخاطبة عامة المسلمين، ولمزيد من التأكيد تخاطب الجملة التالية المسلمين وتقول: «وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

ثم تشير الآية الى ثلاث مسائل هامة:

١ ـ الجام المعارضين ـ تقول الآية: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ».

قبل تغيير القبلة كانت ألسنة المعارضين من اليهود والمشركين تقذف المسلمين بالتهم والحجج، اليهود يعترضون قائلين: إن النبي الموعود يصلي الى قبلتين، وليس لهذه العلامة وجود في محمد (صلّى الله عليه وآله)، والمشركون يعترضون على النبي (صلّى الله عليه وآله) قائلين: كيف ترك محمدٌ الكعبة وهو يدعي أنّه بعث لإحياء ملة ابراهيم. هذا التغيير أنهى كل هذه الأعتراضات.

لكن هذا لايمنع الافراد اللجوجين المعاندين أن يصروا على مواقفهم وأن يرفضوا كل منطق لذلك تقول الآية «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ».

فهؤلاء لا يستقيمون على طريق، حتى اتجهتم صوب بيت المقدس للصلاة اتهموكم بالذيلية وعدم الاصالة، وحين عدلتم الى الكعبة وصفوكم بعدم الثبات!

هؤلاء المفترون ظالمون حقا.. ظالمون لانفسهم، وظالمون لمن يقطعون عليه طريق الهداية.

٢ ـ حين وصفت الآية هؤلاء المعاندين أنهم ظالمون، فقد يثير هذا الوصف خوفا في نفوس البعض لذلك قالت الآية: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي».

وهذه الفقرة من الآية تطرح اصلا عاماً أساسيا من أصول التربية التوحيدية الاسلامية، هو عدم الخوف من أي شيء سوى الله (أو بعبارة أصح الخوف فقط من معصية الله)، واذا ترسخ هذا المبدأ التربوي في نفوس الجماعة المسلمة فلن تفشل ولن

تنهزم قط.

أما المتظاهرون بالاسلام فهم يخافون من «الشرق» تارة، ومن «الغرب» تارة أخرى، ومن «المنافقين الداخلين» ومن «الاعداء الخارجين» ومن كل شيئ سوى الله. وهؤلاء دائماً أذلاّء ضعفاء مهزومون.

٣ ـ و آخر هدف ذكر لتغيير القبلة هو اتمام النعمة: «وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

تغيير القبلة كان في الواقع نوعا من التربية والتكامل والنعمة للمسلمين كي يتعرفوا على الانضباط الاسلامي و يتخلصوا من التقليد والتعصب، فالله سبحانه أمر المسلمين في البداية أن يصلوا تجاه بيت المقدس كي تنعزل صفوف المسلمين ـ كما قلنا ـ عن صفوف المشركين الذين كانوا يقدسون الكعبة. و بعدالهجرة و اقامة الدولة الاسلامية صدرالامر بالصلاة نحوالكعبة... نحو أقدم بيت توحيدي، و بذلك تحقق اجتياز مرحلة من مراحل تكامل المجتمع الاسلامي.

***

الآيتان

١٥١ ـ «كَمٰا اَرْسَلْنٰا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيٰاتِنٰا وَ يُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتٰابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مٰالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ»

١٥٢ ـ «فَاذْكُرُونِي اَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلٰا تَكْفُرُونَ»

التفسير

مهمّة رسول الله

ذكرت الفقرة الأخيرة من الآية السابقة أن أحد أسباب تغيير القبلة هو إتمام النعمة على الناس وهدايتهم، والآية أعلاه ابتدأت بكلمة «كما» إشارة الى أن تغيير القبلة ليس هو النعمة الوحيدة التي انعمها الله عليكم، بل منّ عليكم بنعم كثيرة «كَمٰا اَرْسَلْنٰا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ».

وكلمة «منكم» قد تعني أن الرسول بشرٌ مثلكم، والانسان وحده هو القادر على أن يكون مربيّ البشر وقدوتهم وأن يتحسس آمالهم وآلامهم، و تلك نعمة كبرى أن يكون الرسول بشراً «مِنْكُمْ».

وقد يكون المعنى أنه من بني قومكم ووطنكم، فالعرب الجاهليون قوم متعصبون عنصريون، وما كان بالامكان أن يخضعوا لنبي من غير قومهم، كما قال سبحانه في الآيتين: ١٩٨ و١٩٩ من سورة الشعراء: «وَلَوْ نَزَّلْنٰاهُ عَلىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ».

كان هذا طبعا للمرحلة الاولى من الدعوة، وفي المراحل التالية ألغيت مسائل العنصر والوطن (الجغرافي)، و ربّى الاسلام أبناءه على أساس مبادئ «العالميّة» و «الانسانية».

بعد ذكر هذه النعمة يشير القرآن الى أربع نعم عادت على المسلمين ببركة

هذاالنبي:

١ - «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا»، و يتلو من التلاوة، أي من إتيان الشيء متواليا، والإتيان بالعبارات متوالية (و بنظام صحيح) هي التلاوة.

النبي إذن يقرأ عليكم آيات الله متتالية، لتنفذ الى قلوبكم، ولأعداد أنفسكم الى التعليم والتربية.

٢ - «وَيُزَكِّيكُمْ»

و «التزكية» هوالزيادة والانماء. أي إن النبي بفضل آيات الله يزيدكم كما لأ ماديا ومعنويا، و ينّمي أرواحكم، و يربّي في أنفسكم الطهر والفضيلة، و يزيل ألوان الرذائل التي كانت تغمر مجتمعكم في الجاهلية.

٣ - «وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ»

التعليم طبعا مقدم بشكل طبيعي على التربية، ولكن القرآن - كما ذكرنا - يقدم التربية في مواضع تأكيدا على أنها هي الهدف النهائي.

الفرق بين «الكتاب» و «الحكمة» قد يكون بلحاظ أن الكتاب إشارة الى آيات القرآن والوحي الالهي النازل على النبي بشكل إعجازي، والحكمة حديث النبي وتعاليمه المسماة بالسنة.

وقد يكون الكتاب إشارة الى أصل التعاليم الاسلامية والحكمة إشارة الى أسرارها وعللها و نتائجها.

ومن المفسرين من احتمل أن «الحكمة» إشارة الىٰ الحالة والملكة الحاصلة من تعاليم الكتاب. و بامتلاكها يستطيع الفرد أن يضع ألامور في نصابها.[1]

صاحب «المنار» يرفض أن يكون معنى الحكمة «السنة»، و يستدل على رفضه بالآية الكريمة «ذٰلِكَ مِمَّا أَوْحىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ» (الاسراء،٣٩).

لكننا نعتقد أن الحكمة لها معنى واسع يشمل الكتاب والسنة معاً، أما استعمالها القرآني مقابل «الكتاب» (كما في هذه الآية) فيشير الى أنها «السنة» لاغير.

---

(١) في ظلال القرآن، ج١، ص١.

٤ ـ «**وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**» وهذاالموضوع طرحته الفقرات السابقة من الآية، حيث دار الحديث عن تعليم الكتاب والحكمة. لكن القرآن عاد فأكد ذلك في فقرة مستقلة تنبيهاً على أن الأنبياء هم الذين بيّنوا لكم المعارف والعلوم، ولولاهم لخفي كثير من ذلك عليكم. فهم لم يكونوا قادة اخلاقيين واجتماعيين حسب، بل كانوا هداة طريق العلم والمعرفة، و بدون هدايتهم لم يكتب النضج للعلوم الانسانية.

* * *

بعد استعراض جانب من النعم الالهية في الآية، تذكر الآية التالية أن هذه النعم تستدعي الشكر، و بالاستفادة الصحيحة من هذه النعم يؤدي الا نسان حقّ شكرالباري تعالى: «**فَاذْكُرُونِي اَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونَ**».

واضح أن عبارة «**فَاذْكُرُونِي اَذْكُرْكُمْ**» لا تشير الى معنى عاطفي بين الله وعباده كما يقول الناس لبعضهم ذلك. بل تشير الى أصل تربوي وتكويني، أي اذكروني... اذكروا الذات المقدسة التي هي معدن الخيرات والحسنات والمبرات و لتطهر أرواحكم و أنفسكم و تكون قابلة لشمول الرحمة الالهية. ذكركم لهذه الذات المقدسة يجعل تحرككم أكثر اخلاصا ومضاء وقوة واتحاداً.

كذلك المقصود من «الشكر وعدم الكفران» ليس تحريك اللسان بعبارات الشكر، بل المقصود استثمار كل نعمة في محلها و على طريق نفس الهدف الذي خلقت له، كي يؤدي ذلك الى زيادة الرحمة الالهية.

* * *

وقفتان

١ ـ اقوال المفسرين في تفسير «فَاذْكُرُونِي اَذْكُرْكُمْ» للمفسرين آراء متنوعة في تفسير هذه الآية، وفي بيان كيفية ذكر العبد وذكرالله.

الفخرالرازي في تفسيره الكبير لخصها في عشرة:

١ ـ اذكروني «بالاطاعة» كي اذكركم «برحمتي» والشاهد على ذلك قوله تعالى: «**وَاَطِيعُوااللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**» (آل عمران، ١٣٢).

٢ ـ اذكروني «بالدعاء» كي اذكركم «بالاجابة»، دليل ذلك قوله تعالى:

«اُدْعُوني اَسْتَجِبْ لَكُمْ».

٣ - اذكروني «بالثناء والطاعة» لاذكركم «بالثناء والنعمة».

٤ - اذكروني في «الدنيا» لا ذكركم في «الآخرة».

٥ - اذكروني في «الخلوات» كي اذكركم في «الجمع».

٦ - اذكروني «لدى وفور النعمة» لا ذكركم في «الصعاب».

٧ - اذكروني «بالعبادة» لا ذكركم «بالعون»، الشاهد على ذلك قوله: «اِيّاكَ نَعْبُدُ وَ اِيّاكَ نَسْتَعِينُ».

٨ - اذكروني «بالمجاهدة» لا ذكركم «بالهداية»، الشاهد على ذلك قوله سبحانه في الآية ٦٩ من سورة العنكبوت: «وَالَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا».

٩-اذكروني «بالصدق والاخلاص» لاذكركم «بالخلاص ومزيداً للاختصاص».

١٠ - اذكروني «بالربوبية» لا ذكركم بالرحمة. دليل ذلك مجموع آيات سورة الحمد.[1]

كل واحدة من التفاسير المذكورة هي طبعا مظهر من مظاهر المعنى الواسع للآية. ولا تقتصر هذه المظاهر على ما سبق فيشمل المعنى أيضاً: اذكروني «بالشكر» لا ذكركم «بزيادة النعمة» كما ورد في قوله سبحانه: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزيدَنَّكُمْ» (ابراهيم،٧).

كل ذكر لله - كما قلنا - له أثر تربوي في وجودالانسان،إذ يجعل روحه مستعدة لنزول بركات جديدة متناسبة مع طريقة الذكر.

* * *

٢ - ما هو ذكرالله؟ - من المؤكد أن ذكرالله ليس بتحريك اللسان فقط، بل اللسان ترجمان القلب، الهدف هوالتوجه بكل الوجود الى ذات الباري سبحانه، ذلك التوجّه الذي يصون الانسان من الذنب و يدعوه الى الطاعة.

من هنا ورد في أحاديث عديدة عن المعصومين: أن ذكرالله ليس باللسان

---

(١) التفسير الكبير، الفخرالرازي، ج٤، ص١٤٤، مع شئ من التصرف.

حسب ومن ذلك حديث عن الرسول (صلّى الله عليه وآله) يوصي به علياً قائلاً: «ثَـلاثٌ لا تُطيقُها هٰذِهِ الأُمَّةُ: الْمُواساةُ لِلْأخِ في مالِهِ وَإنْصافُ النّاسِ مِنْ نَفْسِهِ، وَذِكْرُاللهِ عَلىٰ كُلِّ حالٍ، وَلَيْسَ هُوَسُبْحانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلهِ وَلا إلٰهَ إلاّ اللهُ واللهُ أكْبَرُ، وَلٰكِنْ إذا وَرَدَ عَلىٰ ما يَحْرُمُ عَلَيْهِ خافَ اللهَ تَعالىٰ عِنْدَهُ وَتَرَكَهُ»[١].

على أي حال، لا ينبغي أن نغفل عن الروعة في هذاالاقتران... الله سبحانه على عظمته وجلاله وجبروته يقرن ذكره بذكر عبده الضعيف المحدود الصغير انه تكريم ما بعده تكريم للانسان.

* * *

(١) كتاب الخصال، نقلاً عن تفسير نورالثقلين، ج١، ص١٤٠.

الآيتان

١٥٣ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

١٥٤ - «وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ».

النزول

روي عن ابن عباس بشأن نزول الآية الثانية إنها نزلت في قتلى بدر، وعددهم أربعة عشر، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. و بعد إنتهاء الغزوة صدر عن بعض المسلمين تعبير «الأموات» بشأن هؤلاء الشهداء فنهت الآية عن ذلك.

* * *

التفسير

الشهداء أحياء

الآيات السابقة عرضت مفاهيم التعليم والتربية والذكر والشكر، وهي مفاهيم ذات معنى واسع جدا، و تتضمن أغلب التعاليم الدينية، و في الآية الأولى من آيتي بحثنا دارالحديث حول الصبر الذى لا تتحق المفاهيم السابقة بدونه.

تقول الآية اولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ».

واجهوا المشاكل والصعاب بهاتين القوتين، فالنصر حليفكم: «إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

خلافا لما يتصور بعض الناس «الصَّبْر» لايعني تحمل الشقاء وقبول الذلة والاستسلام للعوامل الخارجية، بل الصبر يعني المقاومة والثبات أمام جميع المشاكل والحوادث.

لذلك قال علماء الاخلاق إن الصبر على ثلاث شعب:

الصبر على الطاعة: أي المقاومة أمام المشاكل التي تعتري طريق الطاعة.

الصبر على المعصية: أي الثبات أمام دوافع الشهوات العادية وارتكاب المعصية.

الصبر على المصيبة: أي الصمود أمام الحوادث المرّة وعدم الانهيار وترك الجزع والفزع.

قلّما كرر القرآن موضوعا و أكد عليه كموضوع «الصبر»، ففي سبعين موضعا قرآنيا تقريبا دار الحديث عن الصبر. بينها عشرة تختص بالنبي (صلّى الله عليه وآله).

تاريخ العظماء يؤكد أن أحد عوامل انتصارهم بل أهمها صبرهم واستقامتهم. والافراد الفاقدون لهذه الصفة سرعان ما ينهزمون و ينهارون. ويمكن القول أن دورهذا العامل في تقدم الافراد والمجتمعات يفوق دورالامكانات والكفاءات والذكاء ونظائرها.

من هنا طرح القرآن هذاالموضوع بعبارات مؤكدة كقوله تعالى: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (الزمر، ١٠).

وفي موضع آخر يقول سبحانه بعد أن ذكر الصبر أمام الحوادث: «إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (لقمان، ١٧).

من خصائص الصبر أن بقية الفضائل لايكون لها قيمة بدونه لأن السند والرصيد في جميعها هوالصبر، لذلك يقول أميرالمؤمنين علي (عليه السلام): «وَ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسَ مَعَهُ وَلَا فِي إِيمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ».[1]

الروايات الاسلامية ذكرت أن اسمى مراحل الصبر ضبط النفس عند توفر وسائل المعاصي والذنوب.

الآية التي يدور حولها بحثنا تؤكد للجماعة المسلمة الثائرة في صدرالاسلام خاصة أن الاعداء يحيطونهم من كل حدب وصوب، وتأمرهم أن يستعينوا بالصبر أمام الحوادث، فنتيجة ذلك استقلال الشخصية والاعتماد على النفس والثقة بالذات في كنف الايمان

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٨٢.

بالله. و تاريخ الاسلام يشهد بوضوح أن هذاالأصل كان أساس كل الانتصارات.

الموضوع الآخر الذي أكدت عليه الآية أعلاه باعتباره السند الهام الى جانب الصبر هو «الصلاة». و روي أن عليا (عليه السلام) «كَانَ اِذٰا اَهٰالَهُ اَمْرٌ فَزِعَ قٰامَ اِلَى الصَّلاٰةِ ثُمَّ تَلاٰ هٰذِهِ الآيَةَ: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاٰةِ...»[١]

ولا عجب في ذلك، فالانسان حين يرى نفسه أمام عواصف المشاكل المضنية، و يحس بضعفه في مواجهتها، يحتاج الى سند قوي لامتناه يعتمد عليه. والصلاة تحقق الارتباط بهذا السند، و تخلق الطمأنينة الروحية اللازمة لمواجهة التحديات.

فالآية أعلاه تطرح مبدأين هامين: الاول ـ الاعتماد على الله ومظهره الصلاة، والآخر ـ الاعتماد على النفس، وهوالذي عبرت عنه الآية بالصبر.

* * *

و بعد ذكر الصبر والاستقامة تتحدث الآية التالية عن خلود الشهداء، الذين يجسّدون أروع نماذج الصابرين على طريق الله.

تقول الآية: «وَلاٰ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبِيلِ اللهِ اَمْوٰاتٌ» ثم تؤكد هذاالمفهوم ثانية بالاستدراك «بَلْ اَحْيٰاءٌ وَلٰكِنْ لاٰ تَشْعُرُونَ».

في كل حركة ـ أساسا ـ تنزوي مجموعة محبّة للعافية، و تبتعد عن الأمة الثائرة، ولا تكتفي هي بالتقاعس والتكاسل، بل تسعى الى تثبيط عزائم الاخرين و بثّ الرخوة والتماهل في المجتمع. ما أن تظهر حادثة مؤلمة حتى يعربون عن أسفهم و ينقمون على الحركة التي أدت الى هذه الحادثة، غافلين أن كل هدف مقدس يحتاج الى تضحيات، و تلك سنة كونية.

القرآن الكريم يتحدث عن مثل هذه الفئة كراراً و يؤنّبهم بشدّة.

ثمة أفراد من هؤلاء كانوا يتظاهرون بالتأسف والتألم على (موت) شهيد من شهداء الاسلام في المعركة، و يبعثون بذلك القلق والاضطراب في النفوس.

والله سبحانه يرد على هذه الأقاويل السامة بالكشف عن حقيقة كبرى هي إن

---

(١) الكافي، نقلاً عن الميزان، ج١، ص١٥٤.

الذين يضحون بأنفسهم في سبيل الله ليسوا بأموات... هؤلآء أحياء... و يتمتعون بنعم الله و رضوانه، لكن البشر المحدودين في عالم الحسّ لا يدركون هذه الحقائق.

* * *

وقفات

١ـ خلود الشهداء

للمفسرين آراء مختلفة في معنى حياة الشهداء وخلودهم. ظاهر الآية يشير دون شك الى أنهم يتمتعون بنوع من الحياة البرزخية الروحية لأن أجسامهم قد تلاشت. فهم يعيشون تلك الحياة بجسم مثالي ـ [١] كما يقول الامام الصادق (عليه السلام). [٢]

من المفسرين من قال إنها «حياة غيبية» خاصة بالشهداء لا تتوفر لدينا تفاصيلها وخصائصها.

وقيل إن الحياة المذكورة في الآية تعني الهداية، والموت يعني الضلال، فتكون الآية قد نهت عن وصف الشهداء بالضلالة، بل هم مهتدون. وقيل إن الشهداء أحياء لأن هدفهم حي و رسالتهم حية.

لكن التفسير الأول للحياة اقرب الى ظاهر الآية، ولا حاجة لأن نتكلف التفسيرين التاليين. فهم يحيون حياة برزخية روحانية يتنعمون فيها بالقرب من رحمة الله و بأنواع نِعَمه..

* * *

٢ـ الشهادة سعادة في الاسلام

قرر الاسلام مسألة الشهادة و بين منزلتها العظيمة، في الآية أعلاه و آيات أخرى، لتكون عاملاً فعّالاً هامًا على ساحة المواجهة بين الحق والباطل. وهذا العامل أمضى من أي سلاح وأقوى من كل المؤثرات، وهو قادر على أن يجابه أخطر الأسلحة وأفتكها في عصرنا الراهن، وتجربة الثورة الاسلامية في إيران أثبتت ذلك بوضوح. وقد

---

(١) سنشرح ذلك في تفسير الآية ١٠٠ من سورة (المؤمنون).

(٢) تفسير نور الثقلين ج٣، ص٥٥٩.

شاهدنا بأم أعيننا انتصار المندفعين نحوالشهادة ـ بالرغم من ضعف امكاناتهم المادية ـ على أعتى القوى المتجبّرة.

ولو ألقينا نظرة على تاريخ الاسلام، والملاحم التي سطرها المسلمون في جهادهم الدامي، والتضحيات التي قدمها المجاهدون على طريق الرسالة، لالفينا أن الدافع الاساس لكل هذه التضحيات هو درس الشهادة الذي لقنه الاسلام لابنائه، و بموجبه آمنوا أن الشهادة على طريق الله، و طريق الحق والعدالة، لا تعني الفناء، بل السعادة والحياة الخالدة.

المقاتلون الذين تلقوا مثل هذاالدرس في مثل هذه المدرسة الكبرى، لا يقاسون بالمقاتلين العادين الذين يحاربون لصيانة أرواحهم. أولئك يحاربون من أجل الرسالة، و يندفعون بشوق عظيم نحو كسب وسام الشهادة.

* * *

٣ـ الحياة البرزخية و بقاء الروح

هذه الآية تثبت بوضوح بقاء الروح والحياة البرزخية للبشر (الحياة بعد الموت وقبل البعث)، وتردّ بصراحة على أولئك الذين ينكرون تعرض القرآن للحياة البرزخية و بقاء الروح.

سنفصّل الحديث في هذاالموضوع، وفي موضوع خلودالشهداء ومنزلتهم العظيمة، في المجلد الثالث من هذاالتفسير عند تناولنا الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

* * *

الآيات

١٥٥ - «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ».

١٥٦ - «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»

١٥٧ - «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ»

التفسير

الدنيا دار اختبار الهي

بعد ذكر مسألة الشهادة في سبيل الله، والحياة الخالدة للشهداء، و مسألة الصبر والشكر.. وكلها من مظاهر الاختبار الالهي، تعرضت هذه الآية للاختبار الالهي العام، ولمظاهره المختلفة، باعتباره سنة كونية لا تقبل التغيير: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ».

ولما كان الانتصار في هذه الاختبارات، لا يتحقق الا في ظل الثبات والمقاومة، قالت الآية بعد ذلك: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ».

فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الامتحانات.. لا غيرهم.

* * *

الآية التالية تعرّف الصابرين وتقول: «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

الاقرار التام بالعبودية المطلقة لله، يعلمنا أن لا نحزن على مافاتنا، لأنه سبحانه مالكنا و مالك جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إياها، و إن استوجبت المصلحة أخذها منا، وفي المنح والسلب مصلحة لنا.

والالتفات المستمر الى حقيقة عودتنا الى الله سبحانه، يشعرنا بزوال هذه الحياة، و بأن نقص المواهب المادية ووفورها غرض زائل، ووسيلة لارتقاء الانسان على سلم تكامله، فاستشعار العبودية والعودة في عبارة «اِنّا لِلّهِ وَاِنّا اِلَيْهِ راجِعُونَ» له الأثر الكبير في تعميق روح المقاومة والاستقامة والصبر في النفس.

واضح أن المقصود من قول هذه العبارة، ليس ترديدها باللسان فقط، بل استشعار هذه الحقيقة، والإلتفات إلى ما تنطوي عليه من توحيد و إيمان.

* * *

وآخر آية في بحثنا هذا، تتحدث عن الألطاف الإلهية الكبرى، التي تشمل الصابرين الصامدين المتخرجين بنجاح من هذه الامتحانات الالهية: «أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوٰاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ»[1].

هذه الصلوات والرحمة تجعل هؤلاء على بصيرة من أمرهم، في مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق والاخطار، لذلك تقول الآية: «وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ».

و بهذه العبارات المختصرة المقتضية، يطرح القرآن مسألة الامتحان الكبير بأبعاده المختلفة، و عوامل النجاح فيه و نتائجه.

* * *

وقفات

١ـ لماذا الاختبار الإلهي؟

في مجال الاختبار الالهي تطرح بحوث كثيرة، و أول ما يتبادر للذهن في هذا المجال، هو سبب هذا الاختبار. فنحن نختبر الأفراد لنفهم ما نجهله بشأنهم. فهل الله سبحانه وتعالى بحاجة الى مثل هذا الاختبار لعباده، وهو العالم بكل الخفايا والأسرار؟! وهل هناك شيء خفي عنه حتى يظهر له بهذا الإمتحان؟!

والجواب أن مفهوم الإختبار الإلهي يختلف عن الإختبار البشري.

---

(١) قيل إن الصلوات هنا ألوان التكريم والتأييد ورفعة المقام، وعن ابن عباس أنها غفران الذنوب (المنار، ج٢، ص٤٠) ، و واضح أن الصلوات لها مفهوم واسع يشمل هذه الأمور وسائر النعم الالهية.

اختباراتنا البشرية، هي كما ذكرت آنفا تستهدف رفع الإبهام والجهل، والإختبار الالهي قصده «التربية».

في اكثر من عشرين موضعاً تحدث القرآن عن الاختبار الالهي، باعتباره سنة كونية لا تنقض، من أجل تفجير الطاقات الكامنة، و نقلها من القوة الى الفعل، و بالتالي فالإختبار الإلهي من أجل تربية العباد، فكما أن الذهب يتخلص من شوائبه عند وضعه في التيزاب، كذلك الانسان يخلص و ينق في خضّم الحوادث، و يصبح أكثر قدرة على مواجهة الصعاب والتحديات.

الاختبار الالهي يشبه عمل زارع خبير، ينثرالبذور الصالحة في الأرض الصالحة، كي تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعة و تبدأ بالنمو، ثمّ تصارع هذه البذرة كل المشاكل والصعاب بالتدريج، و تقاوم الحوادث، المختلفة كالرياح العاتية والبرد الشديد والحراللافح، لتخرج بعد ذلك نبتة مزهرة أو شجرة مثمرة، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب.

ومن أجل تصعيد معنويات القوات المسلحة، يؤخذ الجنود الى مناورات وحرب اصطناعية، يعانون فيها من مشاكل العطش والجوع والحر والبرد والظروف الصعبة والحواجز المنيعة.

وهذا هو سرّ الاختبارات الالهية.

يقول سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز: «وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما في صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما في قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» (آل عمران، ١٥٤).

و يقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في بيان سبب الاختبارات الالهية: «... وَإنْ كانَ سُبْحانَهُ أعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أنْفُسِهِمْ، وَلٰكِنْ لِتَظْهَرَ الأَفْعالُ الَّتي بِها يُسْتَحَقُّ الثَّوابُ وَالْعِقابُ».[١]

أي ان الصفات الكامنة لايمكن أن تكون وحدها معيارا للثواب والعقاب، فلابدّأن تظهر من خلال أعمال الانسان، والله يختبر عباده ليتجلّى ما يضمرونه في

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٩٣.

أعمالهم، ولكي تنتقل قابليّاتهم من القوة الى الفعل، و بذلك يستحقون الثواب أوالعقاب.

لولم يكن الاختبار الالهي لما تفجرت هذه القابليات، ولما أثمرت الكفاءات، وهذه هي فلسفة الاختبار الالهي في منطق الاسلام.

* * *

٢ـ الاختبار الالهي عام

نظام الحياة في الكون نظام تكامل و تربية، وكل الموجودات الحية تطوي مسيرة تكاملها، حتى الاشجار تعبّر عن قابلياتها الكامنة بالأثمار، من هنا فان كل البشر، حتى الانبياء، مشمولون بقانون الاختبار الالهي كي تنجلي قدراتهم.

الامتحانات تشمل الجميع و إن اختلفت شدّتها، يقول سبحانه: «**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**» (العنكبوت،٢).

القرآن يعرض نماذج لاختبارات الأنبياء إذ يقول: «**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ**» (البقرة،١٢٤).

و يقول في موضع آخر بشأن اختبار سليمان: «**فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ: هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ...**» (النمل، ٤٠).

* * *

٣ـ طرق الاختبار

ذكرت الآية أعلاه نماذج مما يختبر به الانسان، كالخوف والجوع والأضرار المالية والموت.. لكن سبل الاختبار الالهي لا تنحصر بما تقدم، فذكر القرآن منها في مواضع أخرى: البنين، والانبياء، وأحكام الله، بل حتى بعض ألوان الرؤيا: «**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ**» (الانبياء، ٣٥).

نعلم أن الناس إزاء الاختبارات الإلهية على نوعين: نوع فائز في الإمتحان، ونوع خاسر.

فحيثما تسوء حالة «الخوف» مثلا، ترى جماعة يتراجعون كي لايصيبهم سوء، فينفضون أيديهم من المسؤولية، أو يلجأون الى المداهنة أوالتماس الأعذار، كقولهم الذي يحكيه القرآن: «**نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ**» (المائدة،٥٢).

و ثمة جماعة تقف كالطود الاشمّ أمام كل المخاوف، و تزداد توكلاً وايماناً، وهؤلاء الذين يقول عنهم القرآن: «اَلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ اِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ ايمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»[١]

وهكذا موقف الناس من ألوان الامتحانات الأخرى، و يعرض القرآن نماذج لموقف الناجحين والفاشلين في الاختبار الالهي، سنتناولها في مواضعها.

* * *

٤ ـ عوامل النجاح في الامتحان

من المهم للانسان المسلم التوّاق الى اجتياز الاختبار الالهي بنجاح، أن يفهم سبل النجاح في هذا الاختبار، والقرآن يعرض هذه السبل في القسم الأخير من آية بحثنا و في آيات أخرى:

١ ـ أهمّ عامل للانتصار، أشارت اليه الآية بعبارة: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» ، فالآية تبشر بالنجاح أولئك الصابرين المقاومين، مؤكدة أن الصبر رمز الإنتصار.

٢ ـ استشعار العبودية التامة لله سبحانه، والرجوع اليه، يجعل كل المشاكل والصعاب عرضاً عابرا و سحابة صيف، وهذا الاستشعار تضمنته عبارة: «اِنَّا لِلّهِ وَاِنَّا اِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

«كلمة الاسترجاع» هذه خلاصة كل دروس التوحيد، والانقطاع الى الله، والاعتماد على ذاته المقدسة في كل شيء وفي كل زمان. و أولياء الله ينطلقون من هذا التعليم القرآني، فيسترجعون لدى المصائب كي لا تهزم الشدائد، و كي يجتازوا مرحلة الإختبار بسلام في ظل الإيمان بمالكية الله والرجوع إليه.

قال أميرالمؤمنين علي (عليه السلام) في تفسير الاسترجاع: «اِنَّ قَوْلَنَا: اِنَّا لِلّهِ اِقْرَارٌ عَلىٰ اَنْفُسِنَا بِالْمُلْكِ، وَقَوْلَنَا: وَاِنَّا اِلَيْهِ رَاجِعُونَ اِقْرَارٌ عَلىٰ اَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ»[٢].

٣ ـ الاستمداد من قوة الايمان والألطاف الالهية، عامل مهم آخر في اجتياز

---

(١) (آل عمران، ١٧٣).

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٩٩.

الاختبار دون اضطراب وقلق وفقدان للتوازن. ومثل هؤلاء السائرين على طريق الله بايمان، ينالون الهداية الالهية في اختيار الطريق الصحيح، يقول سبحانه: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» (العنكبوت، ٦٩).

٤ ـ التدقيق في تاريخ الاسلاف، وإمعان النظر في مواقفهم من الاختبارات الالهية، عامل مؤثر في إعداد الانسان لاجتياز الامتحان الالهي بنجاح.

لو عرف الانسان بأن ما أصيب به ليس حالة شاذّة، و إنما هو قانون عام شامل لكل الافراد والجماعات، لهان الخطب عليه، و لتفهم الحالة بوعي، ولاجتاز المرحلة بمقاومة وثبات. و لذلك يثبّت الله سبحانه على قلب نبيّه والمؤمنين باستعراض تاريخ الماضين، وما واجهه الأنبياء، والفئات المؤمنة من محن ومصائب خلال مراحل دعوتهم، يقول سبحانه: «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ» (الانعام، ١٠).

و يقول: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا» (الانعام، ٣٤).

٥ ـ الالتفات الى حقيقة علم الله سبحانه بكل مجريات الأمور، عامل آخر في التثبيت و زيادة المقاومة.

المتسابقون في ساحة اللعب، يشعرون بالارتياح حينما يعلمون أنهم في معرض أنظار أصدقائهم من المتفرجين، و يندفعون بقوّة أكثر في تحمل الصعاب.

إذا كان تأثير وجود الاصدقاء كذلك، فما بالك بتأثير استشعار رؤية الله لما يجري بالانسان وهو على ساحة الجهاد والمحنة؟! ما أعظم القوّة التي يمنحها هذا الاستشعار لمواصلة طريق الجهاد و تحمل مشاقّ المحنة!

حين واجه نوح أعظم المصائب والضغوط من قومه وهو يصنع الفلك، جاءه نداء التثبيت الالهي ليقول له: «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا» (هود، ٣٧).

وعبارة «بِأَعْيُنِنَا» كان لها ـ دون شك ـ وقع عظيم في نفس هذا النبي الكريم، فاستقام وواصل عمله حتى المرحلة النهائية.

وَرَدَ عن سيّد الشهداء الحسين بن علي (عليه السلام) أَنَّهُ قَالَ بعد أن تفاقم الخطب أمامه في كربلاء، واستشهد أصحابه وأهل بيته:

«هَوَّنَ عَلَيَّ ما نَزَلَ بِي آنَّهُ بِعَيْنِ اللهِ».[١]

* * *

٥ـ الاختبار بالخير والشرّ

الامتحان الالهي لايجري عن طريق الحوادث الصعبة القاسية فحسب، بل قد يمتحن الله عبده بالخير و بوفور النعمة، كما يقول سبحانه: «وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» (الانبياء، ٣٥).

و يقول سبحانه على لسان نبيّه سليمان: «هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبّي لِيَبْلُوَنِي ءَاَشْكُرُ اَمْ أَكْفُرُ» (النمل، ٤٠).

وهنا ينبغي أن نشير الى عدة مسائل:

أولاً ليس من الضروري أن يُختبَر جميع الناس بجميع وسائل الإختبار، بل من الممكن أن يكون إختبار كل فئةٍ بلون من الإمتحان يتناسب مع الوضع الفردي والاجتماعي لتلك الفئة.

ومن الممكن أن يجتاز الانسان بعض الإمتحانات، بينما يفشل في إمتحانات أخرى.

وقد يكون امتحان فرد من الأفراد موضع امتحان فرد آخر، كأن يكون موت ولدٍ لانسان موضع امتحان أصدقائه وأقاربه، ليُرى مدى اتخاذهم موقف المواساة من صاحبهم.

و اخيراً فالاختبار الالهي ـ كما ذكرنا ـ شامل عام يدخل في نطاقه حتى الأنبياء، بل إن اختبارهم بسبب ثقل مسؤوليتهم أشدّ بكثير من اختبار الآخرين.

القرآن الكريم يعرض صورا لاختبارات شديدة مرّ بها الأنبياء، و بعضهم مرّ بمراحل طويلة شاقة قبل وصوله إلى مقام الرسالة، كي يكون على أتم الإستعداد لتحمل أعباء قيادة أمته.

و بين أتباع مدرسة الأنبياء نماذج رائعة للصابرين المحتسبين، كل واحد منهم قدوة

---

(١) بحارالانوار، ج٤٥، ص٤٦.

على ساحة الإمتحان الإلهي.

فقد روى «أَنَّ أُمَّ عقيل كَانَتْ اِمْرَأَة في الْبَادِيَة فَنَزَلَ عَلَيْهَا ضَيْفَانِ وَ كَانَ وَلَدُهَا عَقِيلٌ مَعَ الْإِبِلِ فَأُخْبِرَتْ بِأَنَّهُ ازْدَحَمَتْ عَلَيْهِ الْإِبِلُ فَرَمَتْ بِهِ فِي الْبِئْرِ فَهَلَكَ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلنَّاعِي انْزِلْ وَاقْضِ ذِمَامَ الْقَوْمِ وَ دَفَعَتْ اِلَيْهِ كَبْشاً فَذَبَحَهُ وَ اَصْلَحَهُ وَ قَرَّبَ اِلَى الْقَوْمِ الطَّعَامَ فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ وَ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ صَبْرِهَا (قَالَ الرَّاوِي) فَلَمَّا فَرَغْنَا خَرَجَتْ اِلَيْنَا وَ قَالَتْ يَا قَوْمِ هَلْ فِيكُمْ مَنْ يُحْسِنُ مِنْ كِتَابِ اللهِ شَيْئاً فَقُلْتُ نَعَمْ قَالَتْ: فَاقْرَأْ عَلَيَّ آيَاتٍ اَتَعَزَّى بِهَا عَنْ وَلَدِي فَقَرَأْتُ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ اَلَّذِينَ اِذَا اَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا اِنَّا لِلّهِ وَ اِنَّا اِلَيْهِ رَاجِعُونَ اِلَى قَوْلِهِ الْمُهْتَدُونَ».

«فَقَالَتْ اَلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ ثُمَّ صَفَّتْ قَدَمَيْهَا وَصَلَّتْ رَكَعَاتٍ ثُمَّ قَالَتِ اَللّٰهُمَّ اِنِّي فَعَلْتُ مَا اَمَرْتَنِي فَانْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي. وَلَوْبَقِيَ اَحَدٌ لِاَحَدٍ ـ قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَبَقِيَ ابْنِي لِحَاجَتِي اِلَيْهِ ـ فَقَالَتْ لَبَقِيَ مُحَمَّدٌ (صلى الله عليه وآله) لِاُمَّتِهِ فَخَرَجْتُ».[1]

***

(١) سفينة البحار، ج٢ ص٧.

الآية

١٥٨ ـ «إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِاللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ اَوِاعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ اَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ».

النزول

كان المشركون في الجاهلية يأتون مكة لأداء مناسك الحج، وكانت هذه المناسك ذات أصل إبراهيمي مع شيء كثير من التحريف والخرافات والشرك . كانوا أيضاً يقفون بعرفات و يضحون و يطوفون و يسعون بين الصفا والمروة، ولكن بشكل خاص بالجاهلين.

وجاء الاسلام و أصلح هذه المناسك و طهرّها مما علق بها من تحريف، و أقرّ ما كان صحيحا منها.

والجاهليون كانوا يطوفون بين الصفا والمروة، و قد وضعوا ـ استناداً الى الروايات ـ على الصفا صنما اسمه «أساف» و على المروة صنما آخر سموه «نائلة» وكانوا يتمسحون بهما لدى السعي، من هنا خال المسلمون أن السعي بين الصفا والمروة عمل غير صحيح، وكرهوا أن يفعلوا ذلك الآية المذكورة نزلت لتعلن أن الصفا والمروة من شعائرالله، و تلويثها بالشرك على يدالجاهلين لا يبرر إعراض المسلمين عن السعي بينهما.

واختلف المفسرون في وقت نزول الآية، منهم من قال إنها نزلت في (عمرة القضاء) في السنة السابقة للهجرة، وكان من شروط النبيّ (صلّى الله عليه وآله) مع المشركين في هذه السفرة رفع الصنمين من الصفا والمروة، وقد عملوا بهذاالشرط، لكنهم أعادوهما الى محلها. وهذا أدّى الى كراهة المسلمين السعي بين الصفا والمروة، فنزلت الآية لتنهاهم عن هذه الكراهة.

وقيل إنّها نزلت في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة. ومن المؤكد أن مكة

كانت في هذه السنة خالية من الأصنام. ومن هنا يلزمنا أن نعتبر كراهة المسلمين السعي بين الصفا والمروة بسبب السوابق التاريخية لهذين المكانين حيث انتصب فيهما «أساف ونائلة».

التفسير

أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر

هذه الآية الكريمة تستهدف إزالة ما علق في ذهن المسلمين بشأن الصفا والمروة كما مرّ في النزول، و تقول للمسلمين: «**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ**».

ومن هذه المقدمة تخرج الآية بنتيجة هي: «**فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**».

لا ينبغي أن تكون أعمال المشركين الجاهلين عاملاً على إيقاف العمل بهذه الشعيرة، وعلى تقليل أهمية هذين المكانين.

ثم تقول الآية أخيراً: «**وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**».

فالله يشكر عباده المتطوعين للخير بأن يجازيهم خيراً، وهو سبحانه عالم بسرائرهم، يعلم من تعلّق قلبه بهذه الأصنام ومن تبرّأ منها.

* * *

وقفات

١ ـ الصفا والمروة

الصفا والمروة اسمان لجبلين صغيرين في مكة، يقعان اليوم بعد توسيع المسجد الحرام، في الضلع الشرقي للمسجد، في الجهة التي يقع فيها الحجر الاسود ومقام ابراهيم.

يفصل بين الجبلين ٤٢٠ مترا تقريبا، والمسعى اليوم بدل بصالة كبيرة مسقّفة ذات طابقين يسعى الحجاج فيهما، و ارتفاع الصفا خمسة عشر مترا، والمروة ثمانية أمتار.

واللفظان اليوم علمان لهذين الجبلين، وفي الأصل الصفا هي الصخرة الملساء القوية المختلطة بالحصى والرمل، والمروة الصخرة القوية المتعرّجة.

والشعائر جمع شعيرة اي العلامة، و شعائرالله أي العلامات التي تذكّر الانسان بالله، و تعيد الى الاذهان ذكريات مقدسة.

و «اعتمر» أي أدى العمرة، والعمرة في الأصل الملحقات الاضافية في البناء، وفي الشريعة تطلق على الاعمال الخاصة، التي يؤديها المسلم الى جانب أعمال الحج، أو يؤديها لوحدها في العمرة المفردة. و بينها و بين أعمال الحج أوجه اشتراك وافتراق.

* * *

٢ ـ من أسرار السعي بين الصفا والمروة

صحيح أن قراءة تاريخ حياة عظماء التاريخ يدفع الانسان إلى الاقتداء بهم، لكن هناك طريقاً أكثر تأثيراً، وهو مشاهدة المعالم الأثرية التي كافح عليها هؤلاء الرجال، و سجلوا فيها بطولاتهم.

هذه المعالم هي في الواقع تاريخ حيّ ناطق، يستطيع أن يُحلّق بالانسان عبر القرون والاعصار، ليجعله يعيش مع الحوادث الماضية بكل مشاعره.

الاثر التربوي لهذه المشاهدات أعمق بكثير من تأثير الكتب والخطب وأمثالها.. فهنا الشعور لا الإدراك ، والتصديق لا التصور، والعينية لا الذهنية.

من جهة أخرى، قلّ أن يوجد بين الأنبياء نبيّ كابراهيم (عليه السلام)، خاض ألوان النضال و تعرض لأنواع الامتحان، حتى قال القرآن عمّا اختبر به: **«إِنَّ هٰذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ»** (الصافات، ١٠٦).

وهذه المعاناة الطويلة التي عاشها إبراهيم هي التي أهلته لأن ينال مقام **«الامامة»**.

مناسك الحج تجسّد في الأذهان دورة كاملة من مشاهد كفاح إبراهيم ومراحل تكامله التوحيدي و عبوديته وتضحياته واخلاصه.

لو فهم المسلمون ـ لدى أدائهم مناسك الحج ـ روح الحج و أسراره، و تعمّقوا في جوانبه «الرّمزية» لكان الحج دورة تربوية في حقل معرفة الله والنبوة والشخصية الانسانية.

بعد هذه المقدمة نعود الى الخلفيّة التاريخية للصّفا والمروة.

ابراهيم (عليه السلام) بلغه الكبر ولم يُرزق ولداً، فدعى ربّه أن لا يتركه فردا، فاستجاب له، و رزقه من جاريته هاجر ولداً سمّاه «إسماعيل».

لم تستطع «سارة» زوجته الاولى أن تطيق الحالة الجديدة، وقد رزق ابراهيم ولداً من غيرها، فأمرالله إبراهيم أن يهاجر بالطفل والام الى مكة حيث الأرض القاحلة الجدبة آنذاك، ويسكنهما هناك .

امتثل إبراهيم أمر ربه، و ذهب بهما الى صحراء مكة وأسكنهما في تلك الأرض، وهمّ بالرجوع، فضجّت زوجته بالبكاء، إذ كيف تستطيع أن تعيش امرأة وحيدة مع طفل رضيع في مثل هذه الارض؟!

بكاء هاجر و معه بكاء الطفل الرضيع هزّ إبراهيم من الأعماق، لكنه لم يزد على أن ناجى ربّه قائلاً: «**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**» (ابراهيم، ٣٧) ، ثم ودّع زوجه وطفله بحزن و ألم عميقين.

لم يمض وقت طويل حتى نفد طعام الأمّ وماؤها، وجفّ لبنها. بكاء الطفل أضرم في نفس الأمّ نارا، و دفعها لأن تبحث بقلق واضطراب عن الماء. اتجهت أولاً الى جبل «الصفا» فلم تجد للماء أثرا، لفت نظرها بريق ماء عند جبل «المروة» فأسرعت اليه فوجدته سرابا، ثم رأت وهي عندالمروة بريقا لدى الصفا أسرعت اليه فما وجدت شيئاً، وهكذا جالت سبع مرات بين الصفا والمروة بحثا عن الماء. وفي النهاية، و بعد أن أشرف الطفل على الموت، انفجرت عند رجله فجأة عين زمزم، فشرب الطفل وأمه ونجيا من الموت المحقق.

الماء رمزالحياة، وانفجار العين جرّالطيور من الآفاق نحو هذه الارض، والقوافل شاهدت حركة الطيور، فاتجهت هي أيضاً نحوالماء و ببركة هذه العائلة تحولت أرض مكة الى مركز كبير عظيم.

و يقع جوار الكعبة حجر اسماعيل حيث مدفن تلك المرأة وابنها، وعلى الحاج أن يضمه الى البيت في طوافه، أي يجب على الحجاج أن يطوفوا خارج هذا الحجر وكأنه جزء من الكعبة.

في الصفا والمروة درس في التضحية بكل غال و نفيس، حتى بالطفل الرضيع، من أجل المبدأ والعقيدة.

والسعي بينهما يعلمنا أن نعيش دائماً أمل النجاح والانتصار، حتى في أشدّ لحظات الشدّة، فهاجر بذلت سعيها وجاءها رزق الله من حيث لا تحتسب.

السعي بين الصفا والمروة يقول لنا: إن هاتين الشعيرتين كانتا يوماً وكراً لصنمين من أصنام العرب، و أصبحتا اليوم معلمين من معالم التوحيد بفضل جهاد رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، من حق جبل الصفا أن يفخر و يقول: انا أول منطلق لدعوة رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، فحينما كانت مكة تغط في ظلمات الشرك بزغ من عندي فجر الهداية: اعلموا أيها الساعون بين الصفا والمروة أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) صعد يوما على هذا الجبل ليدعو الناس الى الله، فلم يجبه أحد، واليوم فان الآلاف المؤلفة تجيب الدعوة و تحج بيت الله على النهج المحمدي الابراهيمي. و إنه لدرس لكم يعلمكم أن تسيروا على طريق الحقّ دونما يأس، و إن قلّ الناصر والمجيب.

السعي بين الصفا والمروة يقول لنا: إعرفوا قدر نعمة هذا الدين وهذا المركز التوحيدي، فثمة أفراد حفظوا الشريعة و شعائرها لنا بدمائهم على مرّ التاريخ.

من أجل إحياء كل تلك الأحاسيس والمشاعر في النفوس، أمر الله الحجيج أن يسعوا سبع مرات بين الصفا والمروة.

أضف الى ما تقدم أن السعي يقضي على كبر الانسان وغروره، فلا أثر للتبختر والتصنع في السعي، بل لابدّ من قطع هذه المسافة ذهاباً ومجيئاً مع كافة الناس، و بنفس لباس الناس، و بهرولة أحيانا!! و لذلك ورد في الروايات أن السعي إيقاظ للمتكبرين.

على أية حال، بعد أن ذكرت الآية ان الصفا والمروة من شعائر الله، أكدت عدم وجود جناح على من يطوّف بهما، والطواف بين الصفا والمروة هو السعي بينهما، لأن الحركة التي يعود فيها الانسان الى حيث ابتدا هي طواف و إن لم تكن الحركة دائرية.

* * *

٣ ـ جواب على سؤال

لفظ (لاجناح) يشير الى عدم حرمة السعي بين الصفا والمروة وجواز ذلك، و قد

يسأل سائل عن سبب وجوب السعي في الفقه الاسلامي، بينما الآية تبيحه فقط؟

الجواب على هذا السؤال نفهمه بوضوح من سبب نزول الآية. فالمسلمون كرهوا السعي بين الصفا والمروة، بعد أن شاهدوا بأم أعينهم مدى عيش المشركين بهذا المكان، ومدى تلويثهم إياه بالاصنام. فخالوا أن من غير اللائق بالمسلم أن يسعى في هذا المكان.

جاءت الآية لتقول لهم: انّ الصفا والمروة من شعائر الله، و عبارة (لاجناح)[1] لازالة ما تصوروه من كراهة لهذا العمل.

و ثمة تعبيرات مشابهة ذكرها القرآن لأحكام أخرى كصلاة المسافر في قوله تعالى: «**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ**» (النساء، ١٠١).

و نعلم أن القصر واجب في صلاة المسافر، لا جائز. بشكل عام قد تستعمل كلمة (لاجناح) لازالة التوهم بحرمة الشئ أو بكراهته، وهذا المعنى يؤكده حديث عن الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) في كتاب «من لا يحضره الفقيه».

* * *

٤ـ معنى التطوع

التطوع في اللغة: قبول الطاعة والانصياع للأوامر، وفي الفقه يطلق على الأعمال المستحبة، من هنا أغلب المفسرين يذهبون الى تفسير «**وَمَن تطوع..**» بالحج المستحب والعمرة المستحبة أوالطواف أو أي عمل مستحب آخر. فالعبارة تعني إذن أن الله شاكر لمن يعمل الخيرات تمثلاً أوامره سبحانه، والله عليم بكل هذه الأعمال.

ومن المحتمل أيضاً أن تكون العبارة تأكيدا لما سبقها، و يكون المقصود بالتطوع حينئذٍ قبول الطاعة في أداء الأعمال الشاقة.

معنى العبارة، على هذا، على الحجاج السعي بين الصفا والمروة بكل ما فيه من

---

(١) (الجناح) في الاصل الميل نحو اتجاه معين، وقيل للذنب جناح لانه يميل بالانسان عن طريق الحق. (قاله الراغب في المفردات).

مشاق ورغم كراهتكم لذلك... هذه الكراهة الناتجة عن سوء تصرف الجاهلين بهذاالمكان المقدس.

٭٭٭

٥ـ شكرالله

ينبغي الالتفات هنا الى عبارة الشاكر في الآية، وهوتعبير في غاية الروعة، و إنه لتكريم ما بعده تكريم للانسان، أن يشكره الله على أعماله الخيّرة.

وحين يكون الله شاكراً لعبده على برّه، فن الأولىٰ أن يكون العبد شاكراً لربه على نعمه التي لاتحصىٰ، و شاكراً لمن أحسن اليه من العباد.

٭٭٭

الآيتان

١٥٩ ـ «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ».

١٦٠ ـ «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

النزول

روي عن ابن عباس، أن عددا من المسلمين سألوا أحبار اليهود عن مسائل في التوراة قد ترتبط بظهور النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) ، فأبى الأحبار أن يجيبوا وكتموا ما عندهم من علم.[1]

***

التفسير

حرمة كتمان الحق

الآية ـ و إن خاطبت كما في أسباب النزول، علماء اليهود ـ غير محدودة بمخاطبيها، بل تبين حكماً عاماً بشأن كاتمي الحق.

الآية الكريمة تتحدث عن هؤلاء بشدة وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ».

فالله سبحانه وعباده الصالحون وملائكته المقربون يلعنون من يكتم الحق، و بعبارة أخرى، كل أنصار الحق يغضبون على من كتم الحق. و أية خيانة للعالم أكبر من خيانة

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول، ص٢٢.

كتمان آيات الله المودعة عندهم، من أجل مصالحهم الشخصية ولتضليل الناس.

و عبارة «مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنّاهُ لِلنّاسِ في الْكِتابِ» إشارة الى أن هؤلاء الأفراد يصادرون في الواقع جهودالأنبياء و تضحيات أولياء الله الصالحين، وهو ذنب عظيم.

والفعل (يلعن) تكرر في الآية للتأكيد، واستعمل بصيغة المضارع لبيان استمرار اللعن، ومن هنا فانّ لعنة الله ولعنة اللاعنين تلاحق هؤلاء الكاتمين لآيات الله باستمرار، و ذلك أقسى العقاب.

«البينات» و «الهدى» لها معنى واسع يشمل كل وسائل الهداية والتوعية والايقاظ و إنقاذ الناس.

* * *

لما كان القرآن كتاب هداية، فانه لا يغلق منافذ الأمل والتوبة أمام الأفراد، ولا يقطع أملهم في العودة مهما ارتكسوا في الذنوب، لذلك تبين الآية التالية طريق النجاة من هذاالذنب الكبير وتقول: «اِلاَّ الَّذينَ تابُوا وَ اَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَاُولئِكَ اَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اَنَا التَّوّابُ الرَّحيمُ».

عبارة «اَنَا التَّوّابُ الرَّحيمُ» جاءت بعد عبارة «فَاُولئِكَ اَتُوبُ عَلَيْهِمْ» للدلالة على كثرة محبةاللهوسبق عطفه على عباده التائبين. فيقول الله سبحانه لهؤلاء: إن تبتم، أي عدتم الى نشرالحقائق، فانا أعود أيضاً الى إغداق الرحمة والمواهب عليكم.

ومن الملفت للنظر، أن الله لم يقل أنه يقبل التوبة ممن تاب، بل يقول: من تاب فأنا أيضاً أتوب عليه، والفرق في التعبيرين واضح، فالثاني فيه من التودّد والتحنن واغداق اللطف مالا يمكن وصفه.

ثم استعمال الضمير (انا) في هذاالموضع يستهدف نوعا من التودّد والاستعطاف لا يوجد في ضمير (نحن).

وكلمة «توّاب» صيغة مبالغة تبعث الأمل في نفوس المذنبين و تبعد عنهم اليأس، خاصة و انها اقترنت بكلمة (رحيم).

* * *

وقفات

١ـ مفاسد كتمان الحق

كتمان الحقائق من المسائل التي ماتت منها المجتمعات البشرية على مرّ التاريخ، وكان لها دوما آثار سيئة عميقة، استمرت قرونا واعصارا. و يتحمل تبعة هذه المساوئ دون شك ، أولئك العلماء الذين يعلمون تلك الحقائق و يكتمونها.

لعل القرآن لم يهدد و يذمّ فئة كما هدّد و ذم هذه الفئة الكاتمة للحقائق. و لِمَ لا؟ فان عمل هؤلاء يجرّ أجيالاً متعاقبة الى طريق الضلال والفساد، كما ان نشر الحقائق يدفع بالامم الى طريق الهداية والصلاح.

البشرية توافق للحقائق بفطرتها وكتمان الحقائق عنها يعني صدّ البشرية عن طريق تكاملها الفطري المرسوم لها.

لو أن علماء اليهود والنصارى أعلنوا ما عندهم من حقائق بشأن النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله)، ونشروا ماجاء في العهدين من بشائر حول رسول الاسلام، لانضوى أهل الكتاب تحت راية الاسلام، ولاصبحوا مع المسلمين أمة واحدة.

كتمان الحقائق لا ينحصر دون شك في كتمان علامات النبوة والبشائر بالنبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله)، بل يشمل كتمان كل حقيقة تستطيع أن تدفع الناس إلى الفهم الصحيح بالمعنى الواسع لهذه الكلمة.

السكوت في مواضع يجب أن ينطلق فيها اللسان قد يكون من مصاديق كتمان الحق، و ذلك يكون في موارد يحتاج الناس فيها بشدّة الى فهم الحقائق، و يستطيع العلماء فيها أن يلبّوا هذه الحاجة.

بعبارة أخرى نشر الحقائق التي يعاني منها الناس لا يتوقف على السؤال وما يذهب اليه صاحب المنار من أن كتمان الحقائق يكون في مواضع السؤال ليس بصحيح. خاصة وأن القرآن لا يتحدث عن كتمان الحقائق فحسب، بل يتحدث في مواضع أخرى عن تبيين الحقائق أيضاً. وهذا يردّ على أولئك الذين يلتزمون جانب الصمت أمام الانحرافات، بحجة عدم وجود سائل يطرح عليهم سؤالاً بشأن تلك الانحرافات. يقول

سبحانه:

«وَ إِذْ اَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ»

(آل عمران، ١٨٧).

جدير بالذكر أن إلهاءَ الناس بالمسائل الفرعية، لصرف أنظارهم عن المسائل الاساسية الحياتية نوع من كتمان الحقائق. و إذا لم يشمله فرضا تعبير «كتمان الحقائق» فهو مشمول حتما بملاك و فلسفة كتمان الحق.

* * *

٢ـ كتمان الحق في الأحاديث

جملت الأحاديث بشدّة أيضا على كاتمي الحق، فروي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِلِجامٍ مِنْ نارٍ».[١]

و نعيد هنا القول أن ابتلاء الناس بمسألة يحل محل السؤال. و بيان الحقائق في هذه الحالة واجب.

وَ سئل الامام أميرالمؤمنين علي (عليه السلام):

«مَنْ شَرُّ خَلْقِ اللهِ بَعْدَ إِبْلِيسَ وَ فِرْعَونَ؟ قالَ: اَلْعُلَماءُ إِذا فَسَدُوا، هُمُ الْمُظْهِرُونَ لِلأَباطِيلِ، اَلْكاتِمُونَ لِلْحَقائِقِ، وَفِيهِمْ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُونَ»[٢].

* * *

٣ـ معنى اللعن

اللعن في الأصل: الطرد والابعاد الممزوج بالغضب والاستياء. فاللعن الالهي إذن إبعاد الانسان عن رحمة الله و عن جميع المواهب المغدقة على عباده.

وما قيل بشأن تقسيم اللعن الى لعن في الآخرة، وهوالعذاب والعقوبة، ولعن في الدنيا وهو سلب التوفيق، إنما هو من قبيل بيان المصداق لا حصر اللعن بهذين القسمين.

---

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية.

(٢) الاحتجاج للطبرسي، نقلاً عن نورالثقلين، ج٢ ص١٣٩.

وكلمة (اللاعنون) لها معنى واسع لا يقتصر على الملائكة والمؤمنين، بل يشمل كل الموجودات التي تتحدث بلسان القال أوالحال. وفي بعض الروايات نرى أن كل الموجودات تدعو لطالب العلم كقول المعصوم: ﴿وَإِنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ﴾[1].

وان استغفرت هذه الموجودات لطالب العلم،فن الطبيعي أن تلعن كاتمه.

* * *

٤ ـ كلمة (توّاب) صيغة مبالغة من تاب: عاد، و تبين حقيقة انفتاح باب التوبة أمام الانسان، حتى ولو انخدع الانسان بوساوس الشيطان بعد توبته، فيستطيع أن يتوب ثانية، و يعود الى الله، فالله توّاب، ولا يجوز اليأس من رحمته.

* * *

---

(١) أصول الكافي، ج١، باب ثواب العالم والمتعلم.

الآيات

١٦١ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

١٦٢ - «خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ».

١٦٣ - «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ».

التفسير

الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ

تحدثت الآيات السابقة عن نتيجة كتمان الحقائق، وهذه الآيات تكمل الموضوع السابق، و تتناول جزاء الذين يواصلون طريق الكفر والكتمان والعناد الى آخر عمرهم.

تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

هؤلاء ايضاً مثل كاتمي الحق، مستحقون للعنة الله والملائكة وجميع الناس، مع اختلاف هو إن هؤلاء المصرّين على الكفر حتى نهاية حياتهم لارجعة لهم طبعاً ولا توبة.

* * *

ثم تقول الآية التالية إن هؤلاء الكفار المصرين على كفرهم حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم «خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ».

* * *

ولما كان التوحيد ينهي كل هذه المصائب فالآية الثالثة تطرح هذا الأصل و تقول: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ».

ثم تؤكد هذا الأصل وتقول: «لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ».

بعد ذلك تصف الآية الله بأنه «الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ» لتقول إن الله الذي تشمل

رحمته العامة كل الموجودات، ورحمته الخاصة المؤمنين، هواللائق بالعبودية لا الموجودات المحتاجة.

* * *

وقفات

١ ـ يوضح القرآن في مواضع متعدّدة، أن الذين ماتوا على كفرهم لانجاة لهم، وهذا أمر طبيعي، لأن سعادة الحياة الآخرة و شقاءها، نتيجة مباشرة لما ادّخره الانسان من أعمال في هذه الحياة. ومن أحرق جناحيه في الحياة الدنيا بنار الكفر والانحراف لا يستطيع طبعا أن يحلق في الآخرة، ولا بدّ من سقوطه في درك الجحيم. وواضح أيضاً أن هذاالفرد سيبقى على وضعه هذا في عالم الآخرة، لأن ذلك العالم ليس عامل الحصول على وسيلة.

هذا يشبه إنساناً فقأ عينيه عمداً، فلا بدّ له أن يعيش أعمىٰ طول حياته.

و بديهي أن هذا مصيرالكافرين الذين سلكوا طريق الكفر عن علم وعمد.

(سنوضح مسألة الخلود أكثر في تفسير الآيتين ١٠٧و١٠٨ من سورة هود، في المجلد التاسع من هذاالتفسير).

* * *

٢ ـ الآية الثالثة في بحثنا هذا تبين أحدية الله بشكل ينفي كل شرك وانحراف.

قد نرى أحيانا موجودات متفردة في صفة من صفاتها، لكن هذه الموجودات تتفرد في صفة أو عدة صفات. أما الله فهو أحد في ذاته، وأحد في صفاته، وأحد في أفعاله، أحديته لا تقبل التعدد عقلا، انه أحد أزلي و أبدي لا تؤثر الحوادث على أحديته. إنه أحد في الذهن وخارج الذهن. إنه أحد في أحديته!

* * *

٣ـ ألايكفي لعن الله؟!

الآية أعلاه ذكرت أن الذين ماتوا وهم كفار، مشمولون بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وهنا قد يسأل سائل: أليست لعنة الله كافية؟

الجواب واضح، فلعنة الملائكة والناس زيدت على لعنة الله للتأكيد، و لبيان

كراهية الناس لمثل هؤلاء المذنبين.

ولو قيل لِمَ ذكرت الآية (الناس) بشكل عام، بينما يوجد بين الناس من هم شركاء في الجريمة، وهؤلاء لا يلعنون أولئك المجرمين؟

والجواب: أن هؤلاء أيضا كارهون لأعمال أولئك، فهؤلاء يكرهون مثلا كتمان الحقائق عنهم، و يلعنون من يستر عنهم الحقيقة، لكنهم يفعلون هم أيضاً هذه السيئة إن اقتضت مصلحتهم ذلك.

* * *

الآية

١٦٤ - «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

التفسير

مظاهر عظمة الله في الكون

آخر آية في المبحث الماضي دارت حول توحيد الله، وهذه الآية تقدم الدليل على وجود الله ووحدانيته.

قبل أن ندخل في تفسير الآية، لابد من مقدمة موجزة. حيثما كان «النظم والانسجام»، فهو دليل على وجود العلم والمعرفة، وأينما كان «التنسيق» فهو دليل على الوحدة. من هنا، حينما نشاهد مظاهر النظم والانسجام في الكون من جهة، والتنسيق ووحدة العمل فيه من جهة أخرى، نفهم وجود مبدأ واحد للعلم والقدرة صدرت منه كل هذه المظاهر.

حينما نمعن النظر في الأغشية الستة للعين الباصرة و نرى جهازها البديع، نفهم أن الطبيعة العمياء الصماء لا يمكن إطلاقا أن تكون مبدأ مثل هذا الاثر البديع، ثم حينما ندقق في التعاون والتنسيق بين هذه الأغشية، والتنسيق بين العين بكل اجزائها و بين جسم الانسان، والتنسيق الفطري الموجود بين الانسان و بين سائر البشر، والتنسيق بين بني البشر و بين كل مجموعة نظام الكون، نعلم أن كل ذلك صادر من مبدأ واحد، وكل ذلك من آثار قدرة ذات مقدسة واحدة.

ألا تدل القصيدة الجميلة العميقة المعنى على ذوق الشاعر و قريحته؟!

ألا يدلّ التنسيق الموجود بين قصائد الديوان الواحد على أنها جميعا صادرة من قريحة شاعر مقتدر واحد؟

بعد هذه المقدمة نعود الى تفسير الآية هذه الآية الكريمة تشير الى ستة أقسام من آثار النظم الموجود في عالم الكون، وكل واحد آية تدل على وحدانية المبدأ الاكبر.

١ـ«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...»

من العلامات الدالة على ذات الله المقدسة وعلى قدرته وعلمه و وحدانيته، السماء و كرات العالم العلوي، أي هذه المليارات من الشموس المشرقة والنجوم الثابتة والسيارة، التي ترى بالعين المجردة أو بالتلسكوبات، ولا يمكن رؤية بعضها بأقوى أجهزة الإرصاد لبعدها الشاسع... الشاسع للغاية، والتي تنتظم مع بعضها في نظام دقيق مترابط.

وهكذا الأرض بما على ظهرها من حياة، تتجلّى بمظاهر مختلفة وتتلبس بلباس آلاف الأنواع من النبات والحيوان.

ومن المدهش أن عظمة هذاالعالم وسعته وامتداده تظهر أكثر كلما تقدّم العلم، ولا ندري المدى الذي سيبلغه العلم في فهم سعة هذاالكون!

يقول العلم لنا اليوم: إن في السماء آلافاً مؤلفة من المجرات، و منظومتنا الشمسيّة جزء من واحدة من المجرات، وفي مجرتنا وحدها مئات الملايين من الشموس والنجوم الساطعة، وحسب دراسات العلماء يوجد بين هذه الكواكب مليون كوكب مسكون، بمليارات الموجودات الحية! حقاً ما أعظم هذاالكون! وما أعظم قدرة خالقه!!

٢ـ«وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ..»

من الدلائل الأخرى على ذاته المقدسة وصفاته المباركة تعاقب الليل والنهار، والظلمة والنور بنظام خاص، فينقص أحدهما بالتدريج ليزيد في الآخر، وما يتبع ذلك من تعاقب الفصول الاربعة، وتكامل النباتات و سائر الأحياء في ظل هذا التكامل.

لو انعدم هذاالتغيير التدريجي، أو انعدم النظام في هذاالتدريج، أو انعدم تعاقب الليل والنهار لانمحت الحياة من وجه الكرة الارضية، ولو وجدت ـ فرضاً ـ لأصابتها

الفوضى والخبط.[١]

٣ـ«وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ».

الانسان يمخر عباب البحار والمحيطات بالسفن الكبيرة والصغيرة، مستخدماً هذه السفن للسفر و لنقل المتاع. وحركة هذه السفن وخاصة الشراعية منها تقوم على عدة أنظمة:

الاول، نظام هبوب الرياح على سطح مياه الكرة الارضية، فهناك الرياح القارية التي تهبّ من القطبين الشمالي والجنوبي نحو خطّ الاستواء و بالعكس. وهناك الرياح الاقليمية التي تهب وفق نظام معين، وتعتبر قوة طبيعية لتحريك السفن نحو مقاصدها.

وهكذا خاصية القوة الدافعة التي يسلطها الماء على الأجسام الغاطسة فيه، فيجعل هذه السفن تطفو على سطح الماء.

أضف الى ذلك خاصة القطبين المغناطيسين للكرة الأرضية، التي تساعد البحارة باستخدام البوصلة أن يعرفوا اتجاههم في وسط البحار، إضافة الى استفادتهم من نظام حركة الكواكب في معرفة جهة السير.

كل هذه الأنظمة تساعد على الاستفادة من الفلك[٢]، و تعطي دليلا محسوساً على قدرة الله وعظمته، و تعتبر آية من آيات وجوده.

استعمال المحركات الوقودية بدل الأشرعة في السفن اليوم، لم يقلل أهمية هذه الظاهرة بل زادها عجبا و دهشة، إذ نرى اليوم السفن العملاقة التي تشبه مدينة بجميع مرافقها، تطفو على سطح الماء و تتنقل بفنادقها وساحات لعبها وأسواقها... على ظهر البحار والمحيطات.

٤ ـ «وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا

---

(١) «الاختلاف» قد يعني التعاقب أي مجئ شئ و ذهاب آخر، وقد يعني الزيادة والنقصان في الليل والنهار، وعلى المعنيين تتحدث الآية عن نظام خاص للّيل والنهار لا يمكن أن يكون قائماً على الصدفة.

(٢) الفلك. هي السفينة أوالسفن، فاللفظ مفرد وجمع.

مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ..»

من مظاهر قدرة الله وعظمته المطر الذي يحي الأرض، فتهتز ببركته وتنمو فيها النباتات و تحيا الدواب بحياة هذه النباتات، وكل هذه الحياة تنتشر على ظهرالارض من قطرات ماء لاحياة فيها.

٥ - «وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ...»، لا على سطح البحار والمحيطات لحركة السفن فحسب، بل على اليابسة أيضاً لتلقيح النباتات و لتلطيف الجوّ، ولمنع تراكم السموم في الفضاء.

٦ - «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ..» والسحب المتراكمة في أعالي الجو، المحمّلة بمليارات الاطنان من المياه، والمتحركة من نقطة الى أخرىٰ، من مظاهر عظمة الله سبحانه، اضافة الى أن هذاالودق (المطر) الّذى يخرج من خلال السحاب يحي الأرض و بحياة الارض تحيا النباتات والحيوانات والانسان، ولولا ذلك لتحولت الكرة الارضية الى أرض مقفرة موحشة. وهذا مظهر آخر لعلم الله سبحانه وقدرته.

وكل تلك العلامات والمظاهر «لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، لا للغافلين الصم البكم العمي.

* * *

الآيات

١٦٥ - «وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ اَنْداداً، يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ، وَالَّذينَ آمَنُوا اَشَدُّ حُبّاً لِلهِ، وَلَوْ يَرَى الَّذينَ ظَلَمُوا اِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ اَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَميعاً وَ اَنَّ اللهَ شَديدُ الْعَذابِ».

١٦٦ - «اِذْ تَبَرَّاَ الَّذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذينَ اتَّبَعُوا وَرَاَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْاَسْبابُ».

١٦٧ - «وَقالَ الَّذينَ اتَّبَعُوا لَوْ اَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّاَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنّا كَذلِكَ يُريهِمُ اللهُ اَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَما هُمْ بِخارِجينَ مِنَ النّارِ».

التفسير

أئمة الكفر يتبرؤون من أتباعهم!

تناولت الآيات السابقة دلائل وجود الله سبحانه واثبات وحدانيته، عن طريق عرض مظاهر لنظام الكون. وهذه الآيات تتحدث عن أولئك الذين أعرضوا عن كل تلك الدلائل الواضحة، و ساروا على طريق الشرك والوثنية وتعدّد الآلهة.. عن أولئك الذين يحنون رؤوسهم تعظيماً أمام الآلهة المزيفة، و يتعشقونها و يشغفون بها حبالا يليق الآ بالله سبحانه مصدر كل الكمالات وواهب جيع النعم.

تقول الآية: «وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ اَنْداداً».[1]

ولم يتخذ المشركون هؤلاء الأنداد للعبادة فحسب، بل «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ».

«وَالَّذينَ آمَنُوا اَشَدُّ حُبّاً لِلهِ»، لأنهم أصحاب عقل وادراك ، يفهمون أن الله

---

(١) الانداد جمع (ند) وهو (المثل)، وقال جمع من علماء اللغة، هو المثل المشابه في الجوهر، أي إن المشركين كانوا يعتقدون بأن هذه الأنداد تحمل الصفات الالهية!

سبحانه مصدر كل الكمالات، وهو وحده اللائق بالحبّ، ولا يحبون شيئاً آخر إلاّ من أجله. غمر الحبّ الالهي قلبهم حتى أصبحوا يرددون مع أمير المؤمنين علّى (عليه السلام): «فَهَبْنِي صَبَرْتُ عَلىٰ عَذابِكَ، فَكَيْفَ اَصْبِرُ عَلىٰ فِراقِكَ»؟![1].

الحبّ الحقيقي يتجه دائما نحو نوع من الكمال، فالانسان لا يحب العدم والنقص، بل يسعى دوما وراء الوجود والكمال، ولذلك كان الأكمل في الوجود والكمال أحق بالحبّ.

الآية أعلاه تؤكد أن حبّ المؤمنين لله أشدّ من حبّ الكافرين لمعبوداتهم.

ولم لا يكون كذلك ؟! فلا يستوى من يحبّ عن عقل و بصيرة ومن يحبّ عن جهل و خرافة و تخيّل.

حبّ المؤمنين ثابت عميق لا يتزلزل، وحبّ المشركين سطحي تافة لا بقاء له ولا استمرار.

لذلك تقول الآية: «وَلَوْيَرَى الَّذينَ ظَلَمُوا، اِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ، اَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَميعاً وَاَنَّ اللهَ شَديدُ الْعَذابِ» لرأوا سوءَ فعلهم و سوءَ عاقبتهم[2].

* * *

في هذه اللحظات تزول حجب الجهل والغرور والغفلة من أمام أعينهم، وحين يرون أنفسهم دون ملجأ أو ملاذ، يتجهون الى قادتهم ومعبوديهم، ولات حين ملاذ بغير الله «اِذْ تَبَرَّاَ الَّذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذينَ اتَّبَعُوا، وَرَاَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْاَسْبابُ».

واضح أن المعبودين هنا ليسوا الاصنام الحجرية أو الخشبية، بل الطغاة الجبابرة الذين استعبدوا الناس، فقدم لهم المشركون فروض الولاء والطاعة، واستسلموا لهم دون قيد أو شرط.

* * *

هؤلاء الغافلون المغفّلون حين يروا ما حلّ بهم يمنّون أنفسهم: «وَقالَ الَّذينَ

---

(١) من دعاء علي (عليه السلام) المروي على لسان كميل بن زياد. المعروف بدعاء (كميل).

(٢) هذا على تفسير «لو» شرطية وجوابها محذوف، ومن المفسرين من قال ان (لو) هنا للتمني.

اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا». لكنها أمنية لا تتحقق، وعبّرت آية أخرى عن مثل هذا التمني على لسان كافر يقول لمعبوده المزيف: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ» (الزخرف، ٣٨).

ثم تقول الآية: «كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ».

ليس لهم الآ أن يتحسّروا، يتحسّرون على أموالهم التي كنزوها و استفاد منها غيرهم.. وعلى فرصة الهداية والنجاة التي هيئت لهم فلم يستثمروها.. وعلى عبادتهم لآلهة زائفة بدل عبادة الله الواحد الأحد.

لكنها حسرة باقية.. فاليوم يوم الجزاء على ما جنته يدالانسان من أخطاء، وليس يوم تلافي الاخطاء.

* * *

الآيتان

١٦٨ ـ «يٰا اَيُّهَا النّاسُ كُلُوا مِمّا فِي الْاَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ اِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»

١٦٩ ـ «اِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ وَاَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ»

النزول

عن ابن عباس أن طوائف من العرب مثل ثقيف وخزاعة، حرموا على أنفسهم بعض النباتات والحيوانات دونما دليل، (ونسبوا التحريم الى الله أيضا)، فنزلت الآيتان تنهاهم عن ذلك.

* * *

التفسير

خطوات الشيطان!

ذمّت الآيات السابقة الشرك والمشركين، وأحد أنواع الشرك إيكال أمر التقنين والتشريع وتقرير الحلال والحرام الى غير الله.

الآية أعلاه اعتبرت هذا العمل شيطانيا وقالت: **«يٰا اَيُّهَا النّاسُ كُلُوا مِمّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً، وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ اِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»**.

تكرر في القرآن طلب الاستفادة من الأطعمة، وورد الطلب عادة مقيّداً بالحلال وبالطيّب.

و «الحلال» ما أبيح تناوله، والطيب ما طاب ووافق الطبع السليم، ويقابله «الخبيث» الذي يشمأز منه الانسان.

و «الخطوات» جمع «خطوة» وهي المرحلة التي يقطعها الشيطان للوصول الى هدفه و للتغرير بالناس.

عبارة «لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» تكررت خمس مرات في القرآن الكريم، وكانت في موضعين بشأن الاستفادة من الأطعمة والرزق الالهي. وهي تحذير من استهلاك هذه النعم الالهية في غير موضعها. وحثّ على الاستفادة منها على طريق العبودية والطاعة لا الفساد والطغيان في الارض.

النهي عن اتباع خطوات الشيطان في استثمار مواهب الطبيعة، توضحه آيات أخرى تنهى أيضاً عن الافساد في استثمار ما وهبه الله للناس، كقوله تعالى: «كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (البقرة،٦٠). و كقوله سبحانه «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ» (طه، ٨١).

هذه المواهب والامكانات ينبغي أن تكون طاقة دافعة نحوالطاعة لا وسيلة لارتكاب الذنوب.

عبارة «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» تكررت في القرآن بعدالحديث عن الشيطان، كي تحفّز الانسان، و تجعله متأهبا لمجابهة هذا العدوّ اللدود الظاهر.

* * *

الآية التالية تؤكد على عداء الشيطان، وعلى هدفه المتمثل في شقاء الانسان، و تقول: «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

منهج الشيطان يتلخص في ثلاثة أبعاد هي السوء، والفحشاء، والتقوّل على الله.

الفحشاء من «الفحش» وهو كل عمل خارج عن حدّالاعتدال، و يشمل كل المنكرات والقبائح المبطنة والعلنية. و استعمال اليوم بمعنى الاعمال المنافية للعفّة هو من قبيل استعمال اللفظ الكلي في بعض مصاديقه.

عبارة «تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» قد تشير الى تحريم بعض الاطعمة المحللة، كما مرّ بنا في سبب النزول. وهوعمل بعض القبائل العربية في الجاهليّة، وقيل إن رواسبه كانت باقية في ذهن بعض المسلمين الجدد.[1]

وقد يتسع معناها ليشمل الشرك والتشبيه بالله أيضاً.

---

(١) الميزان، ج١، ص٤٢٥.

على أية حال، العبارة تشير الى القول غيرالقائم على العلم، وهو قول شيطاني مذموم، خاصة إذا كان متضمنا نسبة شيء الى الله.

الاسلام يحثّ دوما على الانطلاق من العقل والمنطق في اتخاذ المواقف وفي اصدار الأحكام، ولو كان دأب أفراد المجتمع ذلك لزال من المجتمع الشقاء.

كل ما دخل في الأديان الالهية من تحريف ومسخ إنما كان على يد أفراد بعيدين عن المنطق، والجانب الاكبر من الانحرافات العقائدية يعود الى عدم رعاية هذاالاصل، لذلك كان محوراً من محاورالنشاط الشيطاني والخطوات الشيطانية في المجتمعات البشرية.

* * *

وقفات

١ـ أصل الحليّة

هذه الآية تدل أن الأصل في كل الاغذية الموجودة على ظهرالارض الحلية، والمستثناة هي الاغذية المحرمة. من هنا فان الحرمة تحتاج الى دليل لا الحلية. وهذا ما يقتضيه أيضاً طبيعة الخليقة،إذ لابدّ من وجود تنسيق بين القوانين التشريعية والقوانين التكوينية.

بعبارة أوضح ما خلقه الله لابدّ أن ينطوي على فائدة لعباده. من هنا فلا معنى أن يكون الأصل الأولي للاطعمة على ظهرالارض التحريم. فكل غذاء إذن حسب هذه الآية الكريمة حلال مالم تثبت حرمته بدليل صحيح، ومادام لا يشكل ضرراً على الفرد والمجتمع.

* * *

٢ـ الانحرافات تدريجية

عبارة «خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» قد تشير الى مسألة تربوية دقيقة، هي إنّ الانحرافات تدخل ساحة الانسان بشكل تدريجي، لا دفعي فوري. فتلوّث شاب بالقمار أو بالمخدرات يتم على مراحل:

يشترك أولا متفرجاً في جلسة من جلسات الخمارين أوالمقامرين، ظانا أنه عمل اعتيادي لا ضيرفيه.

ثم يشترك في القمار للترويح عن النفس (دون ربح او خسارة)، أو يتناول شيئاً من المخدرات بحجة رفع التعب أوالمعالجة أو أمثالها من الحجج.

و في الخطوة الاخرى يمارس العمل المحرم قاصداً أنه يمارسه موقتاً.

وهكذا تتولى الخطوات واحدة بعد أخرى و يصبح الفرد مقامراً محترفا أو مدمنا خطراً.

وساوس الشيطان تدفع بالفرد على هذه الصورة التدريجية نحو هاوية السقوط. وليست هذه طريقة الشيطان الاصلي فحسب، بل كل الأجهزة الشيطانية تنفذ خططها المشؤومة على شكل «خُطوات»، لذلك يحذّر القرآن كثيرا من اتخاذ الخطوة الاولى على طريق الانزلاق.

جدير بالذكر أن الأعمال الخرافية غيرالقائمة على أساس منطقي، اعتبرتها النصوص الاسلامية من «خُطُوٰاتِ الشَّيْطٰانِ».

بشأن رجل أقسم أن يذبح ابنه قال الامام جعفربن محمد الصادق (عليه السلام): «ذٰلِكَ مِنْ خُطُواتِ الشَّيْطٰانِ»[1].

وعن الامام محمدبن علي الباقر (عليه السلام): «كُلُّ يَمِينٍ بِغَيْرِاللهِ فَهُوَمِنْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ».[2]

و عن الامام الصادق أيضاً: «اِذٰا حَلَفَ الرَّجُلُ عَلىٰ شَيْءٍ وَالَّذِى حَلَفَ عَلَيْهِ اِتْيٰانُهُ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِهِ فَلْيَأْتِ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ وَلاٰ كَفَّارَةَ لَهُ وَاِنَّمٰا ذٰلِكَ مِنْ خُطُوٰاتِ الشَّيْطٰانِ»[3].

* * *

٣ـ الشيطان عدوّ قديم

الآية الكريمة وصفت الشيطان أنه «عَدُوٌّ مُبِينٌ»، و ذلك إمّا لعدائه لآدم بعد أبىٰ السجود له، وخسر كل شيً على أثر ذلك. و إما بسبب إغوائه الواضح لبني البشر و دفعهم على طريق الاجرام. وواضح أن هذاالدفع لا يصدر إلا من عدوّ لدود.

أو لأن الشيطان أعلن عداءه صراحة للانسان، و عاهد نفسه على إغوائهم إذ

(١و٢و٣) تفسير الميزان، ج١ صفحه ٤٢٨.

قال: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ».

* * *

٤ـ طريقة الوسوسة الشيطانية

الآية الكريمة تحدثت عن أمر الشيطان: فقالت: «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ...» وهذا الأمر هو الوسوسة الشيطانية. وقد يطرح سؤال بشأن هذه الأوامر الشيطانية، إذ لا يحسّ الانسان بأمر خارجي يصدر اليه حين يرتكب السيئات، ولا يتلمس سعيا شيطانيا لا ضلاله.

الجواب هو أن هذه «الوسوسة» تأثير خفي عبّرت عنه بعض الآيات بالايحاء:

«وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ» (الانعام، ١٢١). والايحاء من «الوحي» الذي هو تأثير غيبي خفي أو التأثيرات اللاواعية أحيانا.

و ثمة فرق بين «الالهام الالهي» و «الوسوسة الشيطانية» هو إن الإلهام الإلهي لانسجامه مع الفطرة الانسانية و مع تركيب الجسم والروح. يترك في النفس حالة انبساط و انشراح.

بينما الوسوسة الشيطانية لتناقضها مع الفطرة الانسانية السليمة، تجعل القلب يحسّ بظلام وانزعاج و ثقل. و إن لم يحدث فيه مثل هذا الاحساس قبل ارتكاب السيئة فإنه يحسّ بها بعد الارتكاب. هذا هو الفرق بين الالهامات الشيطانية والالهامات الالهية.

* * *

الآيتان

١٧٠ ـ «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ».

١٧١ ـ «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ».

التفسير

التقليد الأعمى

تشير الآية الى منطق المشركين الواهي في تحريم ما أحلّ الله، و تقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ، قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا».

و يدين القرآن هذاالمنطق الخرافي، القائم على أساس التقليد الأعمى لعادات الآباء والاجداد، فيقول: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ».

أي إن اتباع الآباء صحيح لو أنهم كانوا على طريق العقل والهداية.أما إذا كانوا لايعقلون ولا يهتدون، فما اتباعهم إلا تركيزللجهل والضلال.

الانسان الجاهلي لا يستند الى قاعدة ايمانية يحسّ معها بوجوده و بشخصيته و بأصالته، لذلك يستند الى مفاخر الآباء و عاداتهم و تقاليدهم، ليصطنع له شخصية كاذبة و أصالة موهومة. وهذه عادة الجاهليين قديماً وحديثا.

الاسلام أدان المنطق الرجعي القائم على تقديس ما عليه الآباء والأجداد، لأنه ينفي العقل الانساني. و يرفض تطوّر التجارب البشرية، و يصادر الموضوعية في معالجة قضايا السلف.

هذا المنطق الجاهلي يسود اليوم في بقاع مختلفة من عالمنا، و يظهر هنا وهناك بشكل «صنم» يوحي بعادات وتقاليد خرافية مطروحة باسم «آثار الآباء» و مؤمراة

بأسم الحفاظ على المآثر القوميّة والوطنية، مشكّلا بذلك أهم عامل لانتقال الخرافات من جيل الى جيل آخر.

لا مانع طبعاً من تحليل عادات الآباء و تقاليدهم، فما انسجم منها مع العقل والمنطق حُفِظ، وما كان وهما و خرافة لُفِظ. المقدار المنسجم مع العقل والمنطق من العادات والتقاليد يستحق الحفظ والصيانة باعتباره تراثا قوميا. أما الاستسلام التام الاعمى لتلك العادات والتقاليد فليس الآ الرجعية والحماقة.

جدير بالذكر أن الآية أعلاه تتحدث عن آباء هؤلاء المشركين وتقول عنهم إنهم لا يعلمون، ولا يهتدون. وهذا يعني إمكان الاقتـداء باثنين: بمن كان يملك الفكر والعقل والعلم، ومن كان قد اهتدى بعلم عالم آخر.

أما أسلاف هؤلاء فلم يكونوا يعلمون، ولم يكونوا قد اهتدوا بمن يعلم.

***

الآية التالية تبين سبب تعصّب هؤلاء واعراضهم عن الانصياع لقول الحق تقول: **«وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ اِلاّ دُعاءً وَنِداءً»**. أي كمثل الذي يصوّت بما لا يسمع من البهائم الآ الصياح. بعبارة واضحة إن مثل الذين كفروا في دعائك اياهم، أي مثل الداعي لهم الى الايمان، كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم التى لا تفهم وانما تسمع الصوت. و بعبارة أوضح: كما إن الانعام لا يحصل لها من دعاء الراعي الآ السماع دون تفهّم المعنى، فكذلك الكفار لا يحصل لهم من دعائك اياهم الى الايمان الاالسماع دون تفهّم المعنى، لانهم يعرضون عن قبول قولك و ينصرفون عن تأمله، فيكونون بمنزلة من لم يعقله ومن لم يفهمه. وهذا كما تقول العرب: فلان يخافك كخوف الاسد، أي كخوفه من الاسد.[1]

ثم تضيف الآية لمزيد من التأ كيد والتوضيح أن هؤلاء **«صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ»**.

و لذلك يتمسكون بالتقاليد الخاطئة لآبائهم، و يعرضون عن كل دعوة بنّاءة.

---

(١) مجمع البيان، تفسير الآية.

وقيل في تفسير الآية أيضاً إن معناها: مثل الذين يدعون أصنامهم و آلهتهم الكاذبة كالذي يدعوا البهائم، لاالحيوانات تفهم النداء ولا تلك الاصنام، لأن هذه الاصنام صمّاء بكماء عمياء لا تعقل.

أكثر المفسرين على التفسير الاول للآية، والروايات الاسلامية تؤيده.

* * *

وقفتان

١ ـ **سبل المعرفة** ـ يحتاج الانسان في ارتباطه بالخارج دون شك الى سبل، تسمّى سبل المعرفة. أهم هذه السبل العين والأذن للرؤية والسماع، واللسان للسؤال.

لذلك، بعد أن تصف الآية هؤلاء بأنهم صم بكم عمى، تستنتج باستعمال فاء التفريع وتقول: «**فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**».

من هنا يقرر القرآن أن أساس العلوم العين والأذن واللسان، العين والاذن للفهم المباشر، واللسان لاقامة الارتباط بالآخرين وكسب علومهم.

والفلسفة أثبتت أيضاً حقيقة انطلاق العلوم غيرالحسية أيضا من العلوم الحسيّة، وهو بحث واسع لا مجال هنا لشرحه. (لمزيد من التوضيح في حق نعمة سبل المعرفة راجع المجلد الحادي عشر من هذاالتفسير، في شرح الآية ٧٨ من سورة النحل).

* * *

٢ ـ نعق، و نَغَقَ الغراب: إذا صوّت دون أن يمدّ عنقه، فاذا مدّ عنقه وحركها ثم صاح قيل: نَعَبَ.

ثم توسّعوا في نعق لتشمل كل صوت تنادى به البهائم، وواضح أن هذه البهائم لا تفهم شيئا من هذا النداء، و إن أبدت ردّ فعل تجاه هذاالنداء، فانما هو لدويّ هذاالصوت و طريقة أدائه الخاصة.

الآيتان

١٧٢ - «يٰا اَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ اِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ».

١٧٣ - «اِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزيرِ وَمٰا اُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِاللّٰهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَلٰا عٰادٍ فَلٰا اِثْمَ عَلَيْهِ اِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحيمٌ».

التفسير

الطيبات والخبائث

القرآن ينهج أسلوب التأكيد والتكرار بأشكال مختلفة في معالجته للانحرافات المزمنة. وفي هذه الآيات عودة الى مسألة تحريم المشركين في الجاهلية لبعض الأطعمة دونما دليل. مع فارق هو أن الخطاب يتجه في هذه الآيات إلى المؤمنين، بينما خاطبت الآيات السابقة جميع الناس.

تقول الآية: «يٰا اَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاكُمْ، وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ اِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ».

هذه النعم الطيبة المحللة المتناسبة مع الفطرة الانسانية السليمة، قد خلقت لكم، فلم لا تستفيدون منها؟!

هذه الاطعمة تمنحكم القوة على أداء مهامكم، و تذكركم بشكر خالقكم وعبادته.

لو قارنا هذه الآية بقوله تعالى: «يٰا اَيُّهَا النّٰاسُ كُلُوا مِمّٰا فِي الْاَرْضِ» (الآية ١٦٨ من هذه السورة) لألفتت نظرنا مسألتان:

تقول الآية هنا: «مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاكُمْ»، بينما تقول تلك «مِمّٰا فِي الْاَرْضِ». ولعل هذاالاختلاف يشير الى أن النعم الطيبة مخلوقة أصلاً للمؤمنين، وغيرالمؤمنين

يتناولون هذه الأطعمة ببركة المؤمنين، فالبستاني يسقي أشجاره و أغراسه، بينما تستفيد من هذاالماء أيضاً الأعشاب والنباتات الطفيلية.

والأخرى، أن الآية تقول لعامة الناس: «كُلُوا.. وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» وهذه الآية تخاطب المؤمنين وتقول: «كُلُوا... وَاشْكُرُوا لِلَّهِ» أي لا تكتفي هذه الآية بالطلب من المؤمنين أن لا يسيئوا الاستفادة من هذه النعم، بل تحثهم على حسن الاستفادة منها.

فالمتوقع من الناس العاديين أن لا يذنبوا في استهلاك هذه النعم،بينما المتوقع من المؤمنين أن يستثمروها في أفضل طريق.

وقد يثير تكرار التأكيد في القرآن الكريم على الاستفادة من الاطعمة الطيبة، تساؤلاً بشأن سبب هذاالتكرار. أما لو عدنا الى تاريخ العصر الجاهلي لفهمنا السبب. فالجاهليون قد حرّموا على أنفسهم بعض الاطعمة دونما دليل، و تناقلت أجيالهم هذاالتحريم و كأنّه وحي منزل، و نسبوه أحيانا بصراحة الى الله، والقرآن استهدف اقتلاع جذور هذه الأفكار الخرافية من أذهانهم.

ثم إن التركيز على كلمة «طيب» يتضمن أيضاً دعوة الى اجتناب ما خبث من الأطعمة، كالميتة والمفترسات والحشرات، و كالمسكرات السائقة بين الناس بشدّة آنذاك .

في تفسير الآية ٣٢ من سورة الاعراف تحدثنا بالتفصيل عن استثمار المؤمنين الأطعمة الطيبة والزينة المعقولة (المجلد السادس من هذاالتفسير).

* * *

الآية التالية تبين بعض ألوان الأطعمة المحرمة، و تقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ».

تذكر الآية ثلاثة أنواع من اللحوم المحرمة إضافة الى الدم، وهي من أكثر المحرمات انتشارا في ذلك العصر، في بعضها خبث ظاهر لايخفى على أحد، كالميتة والدم ولحم الخنزير، وفي بعضها خبث معنوي كالتي ذبحت من أجل الاصنام.

الحصر في الآية بكلمة «إنما» هو «حصر إضافي» لا يستهدف منه بيان جميع

المحرمات، بل نفي ما ابتدعوه بشأن بعض اللحوم المحللة. بعبارة أخرى، هؤلاء الجاهليون حرّموا بعض الأطعمة الطيبة استناداً الى ماتوارثوه من خرافات و أوهام، لكنهم بدلا من ذلك كانوا يعمدون عند قلة الطعام الى أكل الميتة أو الخنزير أوالدم.

القرآن يقول لهؤلاء إن هذه هى الاطعمة المحرمة لا تلك (وهذا هو معنى الحصر الاضافي).

ولما كانت بعض الضرورات تدفع الانسان الى تناول الاطعمة المحرمة حفظا لحياته، فقد استثنت الآية هذه الحالة وقالت: «فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ».

ومن أجل أن تقطع الآية الطريق أمام من يتذرع بالاضطرار، أكدت على كون المضطر «غير باغ» و «لاعاد». والباغي هوالطالب، والمراد هنا طالب اللذة، والعادي هوالمتجاوز للحد، أي المتجاوز لحدّ الضرورة. فالرخصة هنا إذن لمن لا يريد اللذة في تناول هذه الاطعمة، ولا يتجاوز حدّالضرورة اللازمة لنجاته من الموت.

و لأن معنى البغي الظلم أيضا، ذهب بعض المفسرين الى أن الرخصة ممنوحة لاولئك الذين يضطرون خلال سفر محلل، لا خلال سفرالمعصية.

فالمسافرون لهدف ينطوي على ذنب ومعصية، لا رخصة لهم في تناول الأطعمة المحرمة حتى ولو اضطروا الى ذلك، ولو تناولوها لازدادوا إثما.

بعبارة أخرى، هؤلاء العاصون قد يستوجب عليهم عقلا في أسفارهم المحرمة أن يتناولوا شيئاً من الأطعمة المحرمة لدى الاضطرار، لكن هذاالوجوب لا يرفع عنهم المسؤولية لأنهم أجبروا على ذلك وهم على مسير خاطيء.

وهناك روايات تذكر أن الآية تشير الى السائرين على طريق الخروج على أمام المسلمين، فهؤلاء مستثنون من هذه الرخصة. وهذه الروايات تشير في الواقع الى نفس الحقيقة المذكورة، وهكذا الامر في أحكام صلاة المسافر، فالمسافر يقصر الصلاة في السفر، الا ما كان سفراً حراماً، و لذلك يستدلّ بعبارة (غير باغ ولا عاد) للحكمين معاً، حكم صلاة المسافر، وحكم ضرورة تناول اللحوم المحرمة.[1]

---

(١) روي عن الامام الصادق (عليه السلام) انّ (الباغي) هُوَالذَّاهِبُ لِلصَّيْدِ عَلىٰ سَبِيلِ التَّنَزُّهِ، و ←

وقفات

١ ـ فلسفة تحريم اللحوم المحرمة

الاغذية المحرمة التي ذكرتها الآية الكريمة أعلاه، لها ـ كسائر المحرمات الالهية ـ فلسفتها الخاصة. وقد شرّعت انطلاقا من خصائص الانسان جسميا و روحيا. والروايات الاسلامية ذكرت علل بعض هذه الاحكام، والعلوم الحديثة أماطت اللثام أيضاً عن بعض هذه العلل.

على سبيل المثال، روي عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: **«... اَمَّا الْمَيْتَةُ فَاِنَّهُ لَمْ يَنَلْ مِنْها اَحَدٌ اِلاَّ ضَعُفَ بَدَنُهُ، وَ ذَهَبَتْ قُوَّتُهُ، وَانْقَطَعَ نَسْلُهُ، وَلا يَمُوتُ آكِلُ الْمَيْتَةِ اِلاَّ فُجاءَةً»**.[1]

ولعل هذه المفاسد تعود الى أن جهاز الهضم لا يستطيع أن يصنع من الميتة دما سالماً حيا، إضافة الى أن الميتة مرتع أنواع الميكروبات، والاسلام اعتبر الميتة نجسة، كي يبتعد عنها المسلم فضلاً عن عدم تناولها.

والمحرّم الثاني في هذه الآية «الدم»، وشرب الدم له مفاسد أخلاقية وجسمية، فهو وسط مستعد تماما لتكاثر أنواع الميكروبات.

الميكروبات التي تدخل البدن تتجه أول ما تتجه الى الدم، و تتخذه مركزا لنشاطها، و لذلك اتخذت الكريات البيضاء مواقعها في الدم للوقوف بوجه توغل هذه الأحياء المجهرية في الدم المرتبط بكل أجزاء الجسم.

وحين يتوقف الدم عن الحركة و تنشلّ الحياة فيه، يتوقف نشاط الكريات البيض أيضا، و يصبح الدم بذلك وسطا صالحا لتكاثر الميكروبات دون أن تواجه عقبة في التكاثر. و لذلك نستطيع القول إن الدم ـ حين يتوقف عن الحركة ـ يكون أكثر أجزاء

(الْعـادي) هُـوَالسّارِقُ. وَ هـٰذانِ مُسْتَثْنَيانِ مِنْ رُخْصَةِ آكِلِ الْمَيْتَةِ وَقَصْرِ الصَّلاٰةِ (وسائل الشيعة، ج٥، ص٥٠٩).

(١) وسائل الشيعة، ج١٦ ص ٣١٠.

جسم الانسان والحيوان تلوثا.

ومن جهة أخرى ثبت اليوم في علم الأغذية، أن الأغذية لها تأثير على الأخلاق والمعنويات عن طريق التأثير في الغدد و إيجاد الهورمونات. ومنذ القديم ثبت تأثير شرب الدم على تشديد قسوة الانسان، وأصبح ذلك مضرب الأمثال. لذلك نرى الرواية عن الامام جعفر بن محمد (عليه السلام) تقول:

امّا الدم فانه يورث القسوة في القلب و قلّة الرأفة والرحمة حتى لا يؤمن ان يقتل ولده و والديه ولا يؤمن على حميمه ولا يؤمن على من يصحبه.[١]

ثالث المحرمات المذكورة في الآية «لحم الخنزير»

الخنزير ـ حتى عند الاوربيين المولعين بأكل لحمه ـ رمز التحلل الجنسي. وهو حيوان قذر للغاية، و تأثير تناول لحمه على التحلل الجنسى لدى الانسان مشهود.

حرمة تناول لحمه صرحت بها شريعة موسى (عليه السلام) أيضاً، وفي الأناجيل شُبّه المذنبون بالخنزير، كما ان هذا الحيوان مظهر الشيطان في القصص.

ومن العجيب أن أناساً يرون بأعينهم قذارة هذا الحيوان حتى إنه يأكل عذرته، و يعلمون احتواء لحمه على نوعين خطرين من الديدان، ومع ذلك يصرّون على أكله.

دودة «التريشين» التي تعيش في لحم هذا الحيوان تتكاثر بسرعة مدهشة، و تضع في الشهر خمسة عشر الف بيضة، و تسبب للانسان امراضا متنوعة كفقر الدم، والغثيان، وحمّى خاصة، والاسهال، وآلام المفاصل، و توتر الاعصاب، والحكّة، و تجمع الشحوم داخل البدن، والاحساس بالتعب، وصعوبة مضغ الطعام و بلعه، والتنفس و...

وقد يوجد في كيلو واحد من لحم الخنزير (٤٠٠) مليون دودة من هذه الديدان!! ولذلك أقدمت بعض البلدان الاوربية في السنوات الماضية على منع تناول لحم هذا الحيوان.

وهكذا تتجلّى عظمة الاحكام الالهية بمرور الأيام أكثر فأكثر.

ولو افترضنا أن العلم تطور بحيث استطاع أن يقضي على ديدان هذا الحيوان، فان

---

(١) الوسائل، ج١٦، ص٣١٠.

أضراره الأخرى ستبقىٰ. وقد ذكرنا أن للأطعمة تأثيراً على أخلاق الانسان عن طريق تأثيرها على الغدد والهورمونات. من هنا تبق للحم الخنزير خطورته في التأثير على التحلل الجنسي للآكلين، وهي صفة بارزة في هذاالحيوان.

و لعل تناول لحم هذا الحيوان واحد من عوامل التحلّل الجنسي في اوربا.

رابع المحرمات في الآية «مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِاللهِ» ،وهي الحيوانات التي يذبح على غير اسم الله، كالتي كانت تقدم للاصنام في الجاهلية.

و تحريم لحوم هذه الحيوانات له جانب معنوي واخلاقي وتربوي، فهذه اللحوم تبعد الانسان عن الله، ولها تأثير نفسي و تربوي سلبي على الآكل، لانها من سنن الشرك والوثنية و تعيد الى الذهن تلك التقاليد الخرافية.

* * *

٢ ـ **التكرار والتأكيد** ـ تحريم المواد الاربع المذكورة تكرر في أربع سور من القرآن، سورتين مكيتين (الانعام ـ ١٤٥ و النحل-١١٥)، و سورتين مدنيتين (البقرة- ١٧٣ والمائدة ـ ٣).

يبدو أن تحريم هذه اللحوم أعلن أولاً في أوائل البعثة، ثم أعلن ثانية في أواخر إقامة الرسول (صلّى الله عليه وآله) في مكة، و تكرر الإعلان ثالثة في أوائل الهجرة الى المدينة، ثم أعيد التأكيد رابعة في أواخر عمرالرسول في سورة المائدة وهي آخر سورالقرآن.

كل هذا التأكيد يعود الى أهمية الموضوع و الى ما في هذه المواد من أخطار جسمية و روحية، و الى اتساع نطاق تلوث الناس آنئذ بها.

* * *

٣ ـ **حقن الدم** ـ واضح أن تحريم تناول الدم في الآية لا يشمل موارد الاستفادة المعقولة من هذه المادة مثل حقن الدم لانقاذ الجرحى والمرضى كما لا يتوفر لدينا دليل على حرمة بيع الدم وشرائه في هذه الموارد، لأنها موارد استفادة عقلائية مشروعة عامة.

* * *

الآيات

١٧٤ ـ «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

١٧٥ ـ «أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ»

١٧٦ ـ «ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ»

النزول

أجمع المفسرون على نزول هذه الآية في أهل الكتاب، وقيل إنها نزلت خاصة في علماء اليهود. فقد كانوا قبل ظهورالاسلام يبشرون بصفات النبي المرتقب و بعلاماته. و بعد البعثة خاف هؤلاء الاحبار على مصالحهم فكفّوا عن طريقتهم السابقة، وكتموا ما عندهم في التوراة من صفات النبي، فنزلت الآيات تؤنّبهم.

* * *

التفسير

ادانة كتمان الحقّ أيضاً

هذه الآيات تأكيد على ما مرّ في الآية ١٥٩ بشأن كتمان الحقّ. وهي ـ وان كانت تخاطب أحباراليهود ـ لها مفهوم عام، لا يقتصر ـ كما ذكرنا مراراً ـ على سبب نزولها. فسبب النزول ـ في الواقع ـ وسيلة لبيان الاحكام الكلية العامة، ومصداق من مصاديق الحكم الكلي للآية.

فكل الذين يكتمون أحكام الله وما يحتاجه الناس من حقائق، طلباً للرّئاسة

أوالثروة، قد ارتكبوا خيانة كبرى، وعليهم أن يعلموا أنهم باعوا حقيقة نفيسة بثمن بخس، وهي تجارة خاسرة.

الآية الاولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ».

هذه الهدايا والعطايا التي ينالونها من هذاالطريق نيران محرقة تدخل بطونهم.

هذا التعبير يوضح ضمنيا مسألة تجسيم الأعمال، في الآخرة، وتدل أن الاموال المكتسبة عن هذاالطريق المحرّم، هي في الواقع نيران تدخل في بطونهم ستتجسّم بشكل واقعي في الآخرة.

ثم تتعرض الآية الى عقاب معنوي سينال هؤلاء أشدّ من العقاب المادي، وتقول: «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

و في موضع آخر ذكر القرآن مثل هذااللون من العقاب لأولئك الذين ينكثون عهدالله من أجل مصالح تافهة، فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِاللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». (آل عمران،٧٧).

يستفاد من هذه الآية والآية التالية أن واحدة من أعظم المواهب الالهية في الآخرة ان يكلم الله المؤمنين تلطفاً بهم. أي إن المؤمنين سينالون في الآخرة نفس المنزلة التي نالها أنبياء الله في الدنيا، و سيلتذون بما التذ به الانبياء من تكليم الهي... و اية لذة أعظم من هذه اللذة؟!

أضف الى ذلك إن الله ينظر اليهم بعين لطفه، و يطهرهم بماء عفوه و رحمته، و اية نعمة أعظم من هذه النعمة؟!

بديهي أن تكليم الله عباده لايعني أن الله جسم وله لسان، بل إنه بقدرته الواسعة يخلق في الفضاء أمواجاً صوتية خاصة قابلة للسمع والادراك ، (كما كلم الله موسى عند جبل الطور)، أو انه يتكلم مع خاصة عباده بلسان القلب عن طريق الالهام.

على أية حال، هذااللطف الالهي الكبير، وهذه اللذة المعنوية المنقطعة النظير، للعباد المخلصين الذين ينطقون بالحق و يعرّفون الناس بالحقائق، و يلتزمون بعهودهم

ومواثيقهم، ولا يضحون برسالتهم من أجل مصالحهم المادية.

وقد يسأل سائل عن تكليم الله المجرمين يوم القيامة، استناداً الى ما ورد في الآيات كقوله تعالى: «قَالَ اخْسَؤُا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» (المؤمنون - ١٠٨). وهذا جواب من الله لاولئك الذين يطلبون الخروج من النار. ومثل هذا الحوار نجده في الآيتين ٣٠ و٣١ من سورة الجاثية.

والجواب أن المقصود من التكليم في آيات بحثنا، هو تكليم عن لطف وحبّ واحترام، لا عن تحقير وطرد و عقوبة فذلك من أشدّ الجزاء.

من الواضح أن عبارة «يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً» لا تعني السماح بأن يشتروا به ثمنا باهضا، فالمقصود أن الثمن المادّي مهما زاد فهو تافة لا قيمة له أمام كتمان الحقّ، حتى ولو كان الثمن الدنيا ومافيها.

* * *

الآية التالية تحدد وضع هذه المجموعة و تبين نتيجة صفقتها الخاسرة وتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ».

فهؤلاء خاسرون من ناحيتين: من ناحية تركهم الهداية واختيار الضلالة، ومن ناحية حرمانهم من رحمة الله واستحقاقهم بدل ذلك العقاب الالهي، وهذه مبادلة لا يقدم عليها إنسان عاقل.

لذلك تتحدث الآية عن هؤلاء بلغة التعجب و تقول: «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ»؟!

* * *

آخر آية في بحثنا تقول إن ذلك التهديد والوعيد بالعذاب لكاتمين الحق، يعود الى أن الله أنزل القرآن بالدلائل الواضحة، حتى لم تبق شبهة لأحد: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ».

مع ذلك فان زمرة محرفة تعمد الى كتمان الحقائق صيانة لمصالحها، و تثير الاختلاف في الكتاب السماوي لتتصيد في الماء العكر.

مثل هؤلاء الذين يثيرون الاختلاف في الكتاب السماوي بعيدون عن الحقيقة:

«وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ».

كلمة «شقاق» تعني في الاصل الشق والانفصال، ولعل المراد به أن الايمان والتقوى ونشر الحقائق رمز وحدة المجتمع الانساني، أما الخيانة وكتمان الحقائق فعامل التفرقة والتبعثر والانشقاق لا الانشقاق السطحي... بل البعيد.

* * *

الآية

۱۷۷ ـ «لَيْسَ الْبِرَّ اَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيّينَ، وَآتَى الْمالَ عَلىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتامىٰ وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبيلِ وَالسّائِلينَ وَفِي الرِّقابِ، وَاَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ اِذا عاهَدُوا وَالصّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ، أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»

النزول

تغيير القبلة أثار بين الناس ضجة، وخاصة بين اليهود والنصارى الذين كانوا يرون في أتباع المسلمين لقبلتهم سند افتخار لهم. القرآن الكريم رد في الآية ١٤٢ من هذه السورة على اعتراضاتهم، وفي هذه الآية يطرح المعيار الصحيح لتقييم المجموعة البشرية.

* * *

التفسير

أساس البرّ

ذكرنا في تفسير آيات تغييرالقبلة، أن النصارى كانوا يتجهون في عباداتهم نحوالشرق واليهود نحوالغرب، وقرراللهُ الكعبة قبلة للمسلمين، وكانت في اتجاه الجنوب وسطا بين الاتجاهين.

ومرّ بنا الحديث عن الضجّة التي أثيرت بين أعداء الاسلام والمسلمين الجدد بشأن تغيير القبلة.

الآية أعلاه تخاطب هؤلاء و تقول: «لَيْسَ الْبِرَّ اَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

«البرّ» في الأصل التوسّع، ثم أطلق على أنواع الاحسان، لأن الانسان بالإحسان يخرج من إطار فانه ليتسع و يصل عطاؤه الى الآخرين.

و «البَرّ» بفتح الباء، فاعل البرّ، وهي في الأصل الصحراء والمكان الفسيح، واطلقت على المحسن بنفس اللحاظ السابق.

ثمّ يبين القرآن أهم أصول البرّ والاحسان وهي ستة، فيقول: «**وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ**».

هذا هوالأساس الأوّل: الإيمان بالمبدأ، والمعاد، والملائكة المأمورين من قبل الله، والمنهج الالهي، والنبيّين الدعاة الى هذاالمنهج. والايمان بهذه الامور يُضيء وجود الانسان، و تخلق فيه الدافع القوي للحركة على طريق البناء والأعمال الصالحة.

جدير بالذكر أن الآية تقول: «**وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ...**» ولم تقل ولكن البَرّ بفتح الباء، أو البار بصيغة اسم الفاعل. أي إن الآية استعملت المصدر بدل الوصف، وهذا يفيد بيان أعلى درجات التأكيد في اللغة العربية. فحين يقول أحد: عليّ عدل، فهو يقصد أنه عادل للغاية وحين يقول: بني أمية ذلّ الاسلام، فيعني أن كل وجودهم ذلّ للاسلام.

ثم تذكر الآية الانفاق بعدالايمان، وتقول: «**وَآتَى الْمالَ عَلىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتامىٰ وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ**».

إنفاق المال ليس بالعمل اليسير على الجميع، خاصة إذا بلغ الإنفاق درجة الايثار، لأن حبّ المال موجود بدرجات متفاوتة في كل القلوب. و عبارة «**عَلىٰ حُبِّهِ**» إشارة الى هذه الحقيقة. هؤلاء يندفعون للانفاق رغم هذاالحبّ للمال من أجل رضاالله سبحانه.

الآية عددت ستة أصناف من المحتاجين الى المال:

ذكرت بالدرجة الاولى ذوي القربى، ثم اليتامى والمساكين، ثم أولئك الذين اعترتهم الحاجة موقتا كابن السبيل وهوالمسافر المحتاج، ثم تذكر الآية بعد ذلك السائلين إشارة الى أن المحتاجين ليسوا جميعا أهل سؤال. فقد يكونون متعففين لا تبدو على سيمائهم الحاجة، لكنهم في الواقع محتاجون، وعن هؤلاء قال القرآن في موضع آخر: «**يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**» (البقرة - ٢٧٣).

والأصل الثالث من أصول البرّ: إقامة الصلاة: «وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ». والصلاة إن أداها الفرد بشروطها و حدودها، و باخلاص وخضوع، تصده عن كل ذنب و تدفعه نحو كل سعادة وخير.

والاصل الرابع أداء الزكاة والحقوق المالية الواجبة: «وَآتَى الزَّكَاةَ».

فالآية سبق أن ذكرت الانفاق المستحب، وهنا تذكر الانفاق الواجب. بعض الناس يكثر من المستحبات في الانفاق و يتساهل في الواجب، و بعضهم يلتزم بالواجب فقط ولا ينفق درهما في إيثار. والمحسنون الحقيقيون هم الذين ينفقون في المجالين معاً.

يلفت النظر أن الآية ذكرت عبارة «عَلَىٰ حُبِّهِ» بعدالانفاق المستحب. ولم تذكر ذلك مع الزكاة الواجبة. ولعل ذلك يعود الى أن أداء الحقوق الواجبة وظيفة إلهية و اجتماعية، والفقراء ـ في منطق الاسلام ـ شركاء في أموال الاغنياء، و دفع المال للشريك لا يحتاج الى العبارة المذكورة.

الخامس من الأصول: الوفاء بالعهد: «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا»، فالثقة المتبادلة رأس مال الحياة الاجتماعية. و ترك الوفاء بالعهد من الذنوب التي تزلزل الثقة وتوهن عرى العلاقات الاجتماعية، من هنا وجب على المسلم أن يلتزم بثلاثة أمور تجاه المسلم والكافر، و ازاء البرّ والفاجر، وهي: الوفاء بالعهد و أداء الأمانة و احترام الوالدين.[1]

الاساس السادس والأخير من أسس البرّ في نظرالاسلام: الصبر: «وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ».[2]

ثم تؤكد الآية على أهمية الأسس الستة وعلى عظمة من يتحلّى بها، فتقول: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».

صدقهم يتجلّى في انطباق أعمالهم وسلوكهم مع إيمانهم و معتقداتهم، و تتجلى

---

(١) اصول الكافي، ج٢، باب البر بالوالدين، ص١٢٩، حديث ٥.

(٢) البأساء من البؤس وهوالفقر، والضراء تعني الألم والمرض، وحين البأس أي حين الحرب (مجمع البيان الآية).

تقواهم في التزامهم بواجبهم تجاه الله و تجاه المحتاجين والمحرومين وكل المجتمع الانساني.

والصفات الست المذكورة تشمل الاصول الاعتقادية والاخلاقية والمناهج العملية. فتضمنت الآية كل أسس العقيدة، و أشارت الى الانفاق والصلاة والزكاة بين المناهج العملية، وهي أسس ارتباط المخلوق بالخالق، والمخلوق بالمخلوق. و في الحقل الاخلاقي ركزت الآية على الوفاء بالعهد، وعلى الصبر والاستقامة والثبات، وهي أساس كل الصفات الأخلاقية السامية.

* * *

الآيتان

١٧٨ - «يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلىٰ الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالأُنْثىٰ بِالأُنْثىٰ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أخيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأداءٌ إلَيْهِ بِإحْسانٍ ذٰلِكَ تَخْفيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ، فَمَنِ اعْتَدىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذابٌ ألِيمٌ».

١٧٩ - «وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الألْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

النزول

شاع بين القبائل العربية انتقام قبيلة من قبيلة أخرى، ولم يكن لهذا الانتقام حدود، ففد يقتل رجل فتهدد قبيلته قتل كل رجال قبيلة القاتل، فنزلت الآية وشرعت حكم القصاص.

وهذا الحكم الاسلامي جاء ليقرر الموقف من عرفين قائمين عندالعرب، عرف يرى حتمية القصاص، وعرف يرى حتمية الدية. فجاءت الآية لتقرر القصاص عند عدم موافقة أولياء المقتول على أخذ الدية، وإن وافقوا فالدية.

* * *

التفسير

في القصاص حياة

الآيات السابقة طرحت المنهج الاسلامي في «البرّ»، وهنا يقدّم القرآن الكريم - وهكذا في الآيات التالية - مجموعة من الأحكام الإسلامية، إكمالاً لبيان المنهج الاسلامي في الحياة.

تبدأ هذه الأحكام من مسألة حفظ حرمة الدماء، وهي مسألة هامة في الحياة الاجتماعية، فتنفي العادات والتقاليد الجاهلية، وتقول للمؤمنين: «يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلىٰ».

عبارة «كُتِبَ عَلَيْكُمْ» تبيّن أهمية الموضوع، و توحي بالتأ كيد عليه، وذكرت في آيات أخرى بشأن الصوم والوصيّة، ولا يكتب من المسائل عادة الاّ ما كان قاطعاً و جاداً.

و «القصاص» من «قصّ»، يقال قصّ أثره: أي تلاه شيئا بعد شيئ. ومنه القصاص لأنه يتلوا أصل الجناية و يتبعه، وقيل هو أن يفعل بالثاني مثل ما فعله هو بالأول، مع مراعاة المماثلة، ومنه أخذ القصص كأنه يتبع آثارهم شيئاً بعد شيء.[1]

الآية كما ذكرنا تستهدف بيان الموقف الصحيح من الجرم، ولفظ القصاص يدلّ على إنزال عقوبة بالمجرم مماثلة لما ارتكبه هو، لكن الآية لا تكتفي بذلك بل بينت التفاصيل فقالت: «اَلْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالْاُنْثىٰ بِالْاُنْثىٰ».

سنوضح إن شاءالله مسألة قصاص الأنثى بالأنثى، و نبيّن أنّ الرجل قاتل المرأة يمكن إنزال عقوبة القتل بحقّه ضمن شروط.

ثم تبين الآية أنّ القصاص حق لأولياء المقتول، وليس حكماً الزامياً إن شاؤوا أن يعفوا و يأخذوا الدية، وإن شاؤوا ترك الدية أيضاً فلهم ذلك، و تقول: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ اَخِيهِ شَيْءٌ» فبعد تبدل حكم القصاص عند عفو أولياء المقتول الى دية «فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ» أي فعل العافي اتباع بالمعروف، وهو أن لا يُشدّد في طلب الدية و ينظر من عليه الدية، «وَاَدَاءٌ اِلَيْهِ بِاِحْسانٍ» أي على المعفوّعنه أن يبادر الى دفع الدية عند الإمكان، و أن لا يماطل.

التوصية الى من له الدية أن لا يشدّد في طلبه، و أن يستوفي حقّه بشكل معقول..

وعلى من عليه الدية أن يؤديها باحسان، و أن لا يسوّف و يماطل.

ثم تؤكد الآية على ضرورة الالتزام بحدود ما أقرّه الله، وعدم تجاوز هذه الحدود: «ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ، فَمَنِ اعْتَدىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذابٌ اَلِيمٌ».

وهذا الامر بالقصاص و بالعفو يشكل تركيباً انسانيا منطقيا. فهو من جهة يدين

---

(١) مجمع البيان، الآية.

التقاليد السائدة في الجاهلية الأولى والجاهليات التالية الى يومنا هذا، القاضية بالإنتقام للمقتول الواحد بقتل الآلاف.

ومن جهة أخرى، يفتح باب العفو أمام المذنب، مع الحفاظ على احترام الدم وردع القاتلين.

ومن جهة ثالثة، لا يحقّ بعدالعفو وأخذ الدية، للطرفين التعدي، خلافا للجاهليين الذين كانوا يقتلون القاتل أحيانا حتى بعدالعفو و أخذالدية.

* * *

الآية التالية قصيرة العبارة وافرة المعنى، تجيب على كثير من الاسئلة المطروحة في حقل القصاص، و تقول: «**وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**».

هذه الآية بكلماتها العشر، تضع الاطار العام ـ ببلاغة و فصاحة متناهيتين ـ للقصاص في الاسلام، و تبين أن القصاص ليس انتقاماً، بل السبيل الى الحياة ، الحياة الانسانية.

إنه يضمن حياة المجتمع، إذ لو انعدم حكم القصاص، و تشجّع القتلة القساة على تعريض أرواح الناس للخطر ـ كما هوالحال في البلدان التي ألغت حكم القصاص ـ لارتفعت إحصائيات القتل والجريمة بسرعة.

وهو من جهة أخرى، يصون حياة القاتل ، بعد أن يصدّه الى حدّ كبير عن ارتكاب جريمته.

كما أنه يصون المجتمع من الإنتقام والإسراف في القتل على طريقة التقاليد الجاهلية. وهو بذلك يصون حياة المجتمع.

و عبارة «**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**» تحذير من كل عدوان لتكميل هذاالحكم الإسلامي العادل الحكيم.

* * *

وقفـات

١ـ القصاص والعفوتركيب عادل

النظرة الاسلامية نظرة شمولية في كل المجالات، قائمة على احتساب جميع جوانب

الامر الذي تعالجه. مسألة صيانة دم الابرياء، عالجها الاسلام بشكل دقيق بعيد عن كل افراط أو تفريط، لا كما عالجتها الديانة اليهودية المحرّفة التي اعتمدت القصاص، ولا الديانة المسيحية المحرّفة التي ركزت على العفو.. لأن في الاولى خشونة وانتقاماً، و في الثانية تشجيعا على الاجرام.

ولو افترضنا أنّ القاتل والمقتول أخوان أو قريبان أو صديقان، فإن الاجبار على القصاص يدخل لوعة أخرى في قلب أولياء المقتول، خاصّة إذا كان هؤلاء من ذوي العواطف الإنسانية المرهفة. و تحديد الحكم بالعفو يؤدي الى تجرّؤالمجرمين وتشجيعهم.

لذلك ذكرت الآية حكم القصاص باعتباره اساساً للحكم، ثم ذكرت الى جانبه حكم العفو.

بعبارة أوضح، لأولياء المقتول أن ينتخبوا أحد ثلاثة أحكام:

١ ـ القصاص.

٢ ـ العفو دون أخذ الدية.

٣ ـ العفو مع اخذ الدية (وفي هذه الحالة تشترط موافقة القاتل أيضاً).

* * *

٢ ـ هل يتعارض القصاص مع العقل والعواطف الانسانية؟

ثمة فئة يحلو لها أن توجه إلى الإسلام ـ دون تفكير ـ إعتراضات وكثير شبهات، خاصة بالنسبة لمسألة القصاص. تقول:

١ ـ الجريمة لا تزيد على قتل انسان، والقصاص يؤدّي إلى تكرار هذا العمل الشنيع.

٢ ـ القصاص ينمّ عن روح الإنتقام والتشفيّ والقسوة، و يجب ازالة هذه الروح عن طريق التربية، بينما يعمّق القصاص هذه الروح.

٣ ـ القتل لا يصدر عن إنسان سالم، لا بدّ أن يكون القاتل مصابا بمرض نفسي، و يجب علاجه، والقصاص ليس بعلاج.

٤ ـ قوانين النظام الاجتماعي يجب أن تتطور مع تطور المجتمع. ولا يمكن لقانون سُنّ قبل أربعة عشر قرنا أن يطبق اليوم.

٥ ـ من الأفضل الاستفادة من القاتل بتشغيله في معسكرات العمل الاجباري، و بذلك نستمدّ طاقاته ونصون المجتمع من شروره.

هذا ملخص ما يوجه للقصاص من اعتراضات.

* * *

الجواب

لو أمعنا النظر في آيات القصاص، لرأينا فيها الجواب على كل هذه الاعتراضات: «وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ».

فالحياة الاجتماعية لا يمكن أن تطوي مسيرتها الحياتية التكاملية، دون اقتلاع العوامل المضرّة الهدامة فيها. ولما كان القصاص في هذه المواضع يضمن استمرار الحياة والبقاء، فان الشعور بضرورة القصاص أودع على شكل غريزة في وجود الانسان.

انظمة الطب والزراعة والرعي قائمة على أساس هذاالأصل العقلي، وهو إزالة الموجودات المضرة الخطرة. فنرى الطب يجيز قطع العضو الفاسد إذا شكل خطورة على بقية أعضاء الجسد، و تقتلع النباتات والأغصان المضرة من أجل استمرار نموالنباتات المفيدة بشكل صحيح.

أولئك الذين يرون في الاقتصاص من القاتل قتلا لشخص آخر، ينظرون إلى المسألة من منظار فردي. ولو أخذوا بنظر الاعتبار مصلحة المجتمع، وعلموا ما في القصاص من دور في حفظ سائر أفراد المجتمع و تربيتهم، لأعادوا النظر في أقوالهم.

إزالة مثل هؤلاء الأفراد الخطرين المضرين من المجتمع، كقطع العضو الفاسد من جسد الانسان، و كقطع الغصن المضر من الشجرة. ولا أحد يعترض على قطع ذلك العضو وهذا الغصن. هذا بشأن الاعتراض الاول.

و بشأن اعتراض الثاني، لابدّ من الالتفات الى أن تشريع القصاص لا ارتباط له بمسألة الانتقام. لان الهدف من الانتقام إطفاء نارالغضب المتأججة لمسألة شخصية، بينما القصاص يستهدف الحيلولة دون إستمرار الظلم في المجتمع، و حماية سائر الابرياء.

و بشأن الاعتراض الثالث القائل إن القاتل مريض نفسيا، ولا تصدر هذه الجريمة من إنسان طبيعي، لابدّ أن نقول: هذا الكلام صحيح في بعض المواضع،

والاسلام لم يشرع حكم القصاص للقاتل المجنون وامثاله، ولكن لا يمكن اعتبار المرض عذراً لكل قاتل، إذ لا يخفى ما يجرّ اليه ذلك من فساد، ومن تشجيع القتلة على ارتكاب جرائمهم.

لوصح هذا الاستدلال بالنسبة للقاتل، لصح أيضاً بشأن جميع المعتدين على حقوق الآخرين. لأن الانسان العاقل المعتدل لا يعتدي إطلاقا على الآخرين. و بذلك يجب حذف كل القوانين الجزائية، ويجب إرسال المعتدين والمجرمين الى مستشفيات الامراض النفسية بدل السجون.

أما أدعاء عدم إمكان قبول قانون القصاص اليوم بسبب تطور المجتمع، و بسبب قدم هذا القانون، فمردود أمام إحصائيات الجرائم الفظيعة التي ترتكب في عصرنا الراهن، و أمام التجاوز الوحشية التي تنتشر في بقاع مختلفة من عالمنا بسبب الحروب وغير الحروب.

ولو أتيح للبشرية أن تقيم مجتمعاً إنسانيا متطوراً تطورا حقيقيا، فان مثل هذا المجتمع يستطيع أن يلجأ الى العفو بدل القصاص، فقد أقرّ الاسلام ذلك، ومن المؤكد أن المجتمع المتطور في آفاقه الانسانية سيعضل عفو القاتل. أما في مجتمعاتنا المعاصرة حيث ترتكب فيها أفظع الجرائم تحت عناوين مختلفة، فان الغاء قانون القصاص لا يزيد في جرائم المجتمع إلا اتساعاً و ضراوة.

وحول حفظ القتلة في السجون، فان هذه العملية لا تحقق هدف الاسلام من القصاص. فالقصاص ـ كما ذكرنا ـ يستهدف حفظ حياة المجتمع، والحيلولة دون تكرار القتل والجريمة. السجون وأمثالها لا تستطيع أن تحقق هذا الهدف (خاصة السجون الحالية حيث هي أفضل من أكثر بيوت المجرمين). ولا أدل على ذلك من ارتفاع احصائيات جرائم القتل خلال فترة قصيرة، في البلدان التي ألغت حكم الإعدام. ولو كانت أحكام السجن عرضة للتقلّص بسبب أحكام العفو ـ كما هو السائد اليوم ـ فان المجرمين يعمدون الى إرتكاب جرائمهم دون تخوّف أو تردّد.

* * *

٣ـ هل انتقص قانون القصاص المرأة؟

قد يظن بعض أن قانون القصاص الاسلامي قد انتقص المرأة ، حين قرّر أن

«الرجل» لا يقتل «بالمرأة»، أي إن الرجل ـ قاتل المرأة ـ لا يقتص منه.

وليس الأمر كذلك، مفهوم الآية لا يعني عدم جواز قتل الرجل بالمرأة، بل ـ كما هو مبين في كتب الفقه ـ يجوز لأولياء المقتولة أن يطلبوا القصاص من الرجل القاتل، بشرط أن يدفعوا نصف ديته.

بعبارة أخرى: المقصود من عدم قصاص الرجل بالمرأة، هوالقصاص دون شرط، أما إذا دُفعت نصف ديته فيجوز قتله.

واضح أن دفع نصف دية الرجل القاتل، لا يعني إنتقاص الإسلام للمرأة، بل يعني جبران الضرر المالي الذي يصيب عائلة الرجل القاتل بعد قتله، (تأمل بدقة).

و لمزيد من التوضيح نقول: الرجال يتحملون غالباً مسؤوليات إعالة الاسرة،و يؤمنون نفقاتها الاقتصادية، ولا يخفى الفرق بين أثر غياب الرجل و غياب المرأة على العائلة اقتصاديا، ولولم يراع هذا الفرق لاصيبت عائلة المقتص منه بأضرار مالية، ولوقعت في حرج اقتصادي، و دفع نصف الدية يحول دون تزلزل تلك العائلة اقتصادياً. ولا يسمح الاسلام أن يتعرض أفراد أسرة لخطر اقتصادي و تغمط حقوقهم تحت شعار «المساواة».

قد تكون أمرأة في أسرتها عضوة فعالة اقتصاديا اكثر من الرجل، ولكن الاحكام والقوانين لا تقوم على أساس الحالات الاستثنائية بل على أساس الوضع العام، وفي هذه الحالة يجب أن نقارن كل الرجال بكل النساء. (تأمل بدقة).

* * *

٤ ـ يلفت النظر أيضاً في الآية عبارة «مِنْ أَخِيهِ»، فالقرآن يركز على مفهوم الأخوة بين المسلمين، حتى يطلق هذاالتعبير على القاتل. و بهذا التعبير يضرب القرآن على وترالعاطفة الأخوية بين المسلمين، كي يشجع أولياء المقتول على العفو!!

هذا طبعا بالنسبة للقاتل الذي انزلق في هاوية الجريمة، في ظروف عصبية خاصة، و ندم بذلك على فعلته. أما المجرمون الذين يفخرون بجرائمهم، ولا يشعرون بندم على ما ارتكبوه فلا يستحقون اسم الأخ ولا العفو.

* * *

الآيات

۱۸۰ ـ «كُتِبَ عَلَيْكُمْ اِذا حَضَرَ اَحَدَكُمُ الْمَوْتُ اِنْ تَرَكَ خَيْراً اَلْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالْاَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوف حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ».

۱۸۱ ـ «فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَاِنَّما اِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ اِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

۱۸۲ ـ «فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً اَوْاِثْماًفَاَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا اِثْمَ عَلَيْهِ اِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»

التفسير

الوصية بالمعروف

الآيات السابقة ذكرت تشريع القصاص، وهذه الآيات تذكر تشريع الوصية، باعتباره جزأً من النظام المالى، و تذكر ذلك بأسلوب الحكم الإلزامي فتقول: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ اِذا حَضَرَ اَحَدَكُمُ الْمَوْتُ اِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالْاَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ».

ثم تضيف الآية أن هذه الوصية كتبت «حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ».

ذكرنا أن تعبير «كُتِبَ عَلَيْكُمْ» يدل على الوجوب، من هنا كان هذاالتعبير وقع بحث لدى المفسرين في هذه الآية، ولهم فيها أقوال مختلفة:

١ ـ جاء في الآية الكريمة بشأن كتابة الوصية كونها «حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ»، من هنا فانها مستحبة استحباباً مؤكداً، ولو كانت واجبة لقالت الآية: «حَقّاً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

٢ ـ قيل أيضاً: إن هذه الآية نزلت قبل نزول أحكام الارث، و كانت الوصية آنئذ واجبة، كي لا يقع نزاع بين الورثة. ثم نسخ هذاالوجوب بعد نزول آيات الارث، و

اصبح حكماً استحبابيا. وفي تفسير «العيّاشي» حديث يؤيّد هذاالاتجاه.

٣ ـ يحتمل أيضاً أن يكون حديث الآية عن موارد الضرورة والحاجة، أي حين يكون الانسان مدينا، أو في ذمته حق، والوصية واجبة في هذه الحالات.

يبدو أن التفسير الأول أقرب من بقية التفاسير.

يلفت النظر أن الآية الكريمة عبرت عن المال بكلمة «خَيْر» فقالت: «اِنْ تَرَكَ خَيْراً». وهذا يعني أن الاسلام يعتبر الثروة المستحصلة عن طريق مشروع، والمستخدمة على طريق تحقيق منافع المجتمع ومصالحه خيرا و بركة. و يرفض النظرات الخاطئة التي ترى الثروة شراً ذاتيا، و يردّ على أولئك المتظاهرين بالزهد، القائلين أن الزهد مساو للفقر، مسببّين بذلك ركود المجتمع الاسلامى اقتصاديا، و مؤدين بمواقفهم الإنزوائية الى فسح المجال لاستثمار الطامعين خيرات أمتهم.

هذا التعبير يشير ضمنياً الى مشروعية الثروة، لأن الأموال غيرالمشروعة ليست خيراً بل شراً و و بالاً.

و يستفاد من بعض الروايات أن تعبير «خَيراً» يراد به الأموال الموفورة، لأن المال اليسير لا يحتاج الى وصية، و يستطيع الورثة أن يقسّموه بينهم حسب قانون الإرث. بعبارة أخرى المال اليسير ليس بشيء يستدعي أن يفصل الانسان ثلثه عن طريق الوصية.[1]

وجملة «اِذا حَضَرَ اَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» تبيّن آخر فرصة للوصيّة، وهذه الفرصة الأخيرة إن فا تت أيضا فلا فرصة بعدها.. أي لا مانع أن يكتب الانسان وصيته قبل ذلك، بل يستفاد من الروايات أن هذا عمل مستحسن.

ولا قيمة لتلك التصورات المتشائمة من كتابة الوصية، فالوصية، إن لم تكن باعثا على طول العمر، لا تبعث اطلاقا على تقريب أجل الانسان! بل هي دليل على بعد النظر و تحسّب الاحتمالات.

تقييد الوصية «بِالْمَعْرُوفِ» إشارة الى أن الوصية ينبغي أن تكون موافقة للعقل

(١) تفسير نورالثقلين، ج١، ص ١٥٩.

من كل جهة، لأن «اَلْمَعْرُوف» هوالمعروف بالحُسْنِ لدى العقل. يجب أن تكون الوصية متعقلة في مقدارها و في نسبة توزيعها، دون أن يكون فيها تمين، و دون أن تؤدي الى نزاع و انحراف عن أصول الحق والعدالة.

* * *

حين تكون الوصية جامعة للخصائص المذكورة فهي محترمة و مقدسة، وكل تبديل و تغيير فيها محظوروحرام. لذلك تقول الآية التالية: «فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ».

ولا يظننّ المحرفون المتلاعبون أن الله غافل عمّا يفعلون، كلاّ «إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

و لعل هذه الآية تشير الى أن تلاعب «الوصيّ» (وهوالمسؤول عن تنفيذ الوصية) لا يصادر أجر الموصي.فالموصي ينال أجره، والاثم على الوصي المحرّف في كمّية الوصية أو كيفيتها أو في أصلها.

و يحتمل أيضاً أن الآية تبرئ ساحة الورثة الذين قسم بينهم الإرث في حالة عدم التزام الوصيّ بمفاد الوصية. وتقول إن الورثة (الذين لا يعملون بتلاعب الوصي) لا إثم عليهم، بل الإثم على الوصيّ المحرّف ولا تناقض بين التفسيرين، فالآية تجمع التفسيرين معا.

* * *

بيّن القرآن فيما سبق الأحكام العامة للوصية، و أكد على حرمة كل تبديل فيها، ولكن في كل قانون إستثناء، و الآية الثالثة من آيات بحثنا هذا تبين هذاالاستثناء و تقول: «فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

الاستثناء يرتبط بالوصية المدونة بشكل غير صحيح، وهنا يحق للوصي أن ينبّه الموصي على خطئه إن كان حيّاً، و أن يعدّل الوصيّة إن كان ميتاً، وحدّد الفقهاء مواضع جواز التعديل فيما يلي:

١ ـ اذا كانت الوصيّة تتعلق بأكثر من ثلث مجموع الثروة، فقد أكدت نصوص

المعصومين على جواز الوصية في الثلث، وحظرت مازاد على ذلك.[١]

من هنا لو وصىّ شخص بتوزيع كل ثروته على غيرالورثة الشرعيين فلا تصح وصيته، وعلى الوصي أن يقلل ذلك الى حدّالثلث.

٢ ـ اذا كان في الوصية ما يؤدي الى الظلم والاثم، كالوصية باعانة مراكز الفساد، أو الوصية بترك واجب من الواجبات.

٣ ـ إذا أدت الوصية الى حدوث نزاع وفساد و سفك دماء، وهنا يجب تعديل الوصية بإشراف الحاكم الشرعي.

عبرت الآية «بالجَنَف» عن الإنحرافات التي تصيب الموصي في وصيته عن سهو، و «بالاثم» عن الانحرافات العمدية.

عبارة «إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تشير الى ما قد يقع فيه الوصي من خطأ غير عمدي عند ما يعدّل الوصية المنحرفة، وتقول: إن الله يعفوعن مثل هذا الخطأ.

* * *

وقفات

١ـفلسفةالوصية

الارث يوزع حسب القانون الاسلامي بنسب معينة على عدد محدود من الأقارب، وقد يكون بين الأقارب والأصدقاء والمعارف من له حاجة ماسة الى المال، ولكن لا سهم له في قانون الارث. وقد يكون بين الورثة من له حاجة أكبر الى المال من بقية الورثة.

من هنا وضع الاسلام قانون الوصية الى جانب قانون الارث، و أجاز للمسلم أن يتصرّف في ثلث امواله (بعدالوفاة) بالشكل الذي يرشد لملء هذا الفراغ.

أضف الى ما سبق، قد يرغب إنسان أن يعمل بعد مماته، الخيرات التي ما أتيح له أن يعملها في حياته، ومنطق العقل يفرض أن لا يحرم هذاالشخص من مثل هذاالعمل الخيري.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٣، ص٣٦١ (كتاب أحكام الوصايا، الباب العاشر).

الوصية غير محصورة بالموارد المذكورة طبعاً، بل على الانسان أن يشخّص في وصيته ما لديه من أمانات وما عليه من ديون و أمثالها، حتى لا يبق في أمواله شئ مبهم من حقوق الناس و حقوق الله.

النصوص الإسلامية أكّدت على ضرورة الوصية كثيراً، من ذلك ما روي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «مٰا يَنْبَغِي لِامْرِئٍ مُسْلِمٍ اَنْ يَبِيتَ لَيْلَةً اِلاّ وَوَصِيَّتُهُ تَحْتَ رَأْسِهِ»[1].

والمقصود بوضع الوصية تحت الرأس إعدادها و تهيئتها طبعاً.

و في رواية أخرى: «مَنْ مٰاتَ بِغَيْرِ وَصِيَّةٍ مٰاتَ مَيْتَةً جٰاهِلِيَّةً»[2].

* * *

٢ـ العدالة في الوصية

في الروايات الاسلامية تاكيد وافر على «عدم الجور» و «عدم الضرار» فى الوصية، يستفاد منها جميعاً أنّ تعدي الحدود الشرعية المنطقية في الوصية عمل مذموم ومن كبائر الذنوب.

روي عن الامام الباقر (عليه السلام): «مَنْ عَدَلَ فِي وَصِيَّتِهِ كٰانَ كَمَنْ تَصَدَّقَ بِهٰا فِي حَيٰاتِهِ، وَمَنْ جٰارَ فِي وَصِيَّتِهِ لَقِيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ»[3].

والجور في الوصيـة هوالوصية بأكثر من الثلث، وحرمان الورثة من حقهم المشروع، أوالتمييز بين الورثة بسبب عواطف شخصية سطحية. و أوصت النصوص الاسلامية أيضاً بعدم الوصية بالثلث إن كان الورثة فقراء محتاجين، و تقليل النسبة الى الربع و الى الخمس.[4]

موضوع العدالة في الوصية يبلغ درجة من الأهمية نراها في هذه الرواية: «اَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصٰارِ تَوَفّٰى وَلَهُ صِبْيَةٌ صِغٰارٌ وَلَهُ سِتَّةٌ مِنَ الرَّقِيقِ فَاَعْتَقَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِ وَلَيْسَ لَهُ

(١و٢) وسائل الشيعة، ج١٣، ص٣٥٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٣، ص٣٥٩.

(٤) وسائل الشيعة، ج١٣، ص ٣٦٠.

مالٌ غَيْرَهُمْ فَلَمّا عَلِمَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) سَأَلَ قَوْمَهُ ما صَنَعْتُمْ بِصاحِبِكُمْ قالُوا دَفَنّاهُ قالَ: اَما اِنّي لَوْ عَلِمْتُهُ ما تَرَكْتُكُمْ تَدْفِنُونَهُ مَعَ اَهْلِ الإِسْلامِ تَرَكَ وُلْدَهُ صِغاراً يَتَكَفَّفُونَ النّاسَ»[1].

* * *

٣ ـ الوصايا الواجبة والمستحبة.

الوصية وان كانت مستحبة بطبيعة حالها ـ كما اشرنا اليه ـ ولكن قد تكون واجبة لامور طارئة مثل ان يكون على الانسان حقوق واجبة للناس او لله قصّر في ادائها او كانت عنده امانات و ديون او مثل ذلك بحيث لولم يوص كان رضاته فيها و اهم من الكل ان يكون للانسان مكانة خاصة في المجتمع لولم يوص لمن بعده وقعت اضطرابات وامور موسفة كوصية النبي (صلّى الله عليه وآله) لمن بعده.

* * *

٤ ـ الوصية قابلة للتغيير خلال الحياة.

القوانين الاسلامية أجازت للموصي أن يعيد النظر في وصيته مادام على قيد الحياة. و جواز هذا التغيير يشمل الوصي وكيفية الوصية. ذلك لأن مرور الزمان قد يغيّر نظرات الموصي، و يغير المصالح المرتبطة بالوصية.

* * *

٥ ـ جدير بالذكر أن الانسان ينبغي أن يجعل وصيته وسيلة لتلافي ما مضى من تقصير، و أن يتودّد بها إلى من جفاه من أقاربه أيضاً. وفي الروايات أن قادة الاسلام كانوا يوصون خاصة لمن جفاهم من أقاربهم و يخصصون لهم مبلغاً من المال، كي يعيدوا ما انقطع من أواصر الودّ، و يحررون عبيدهم، أو يوصون بتحريرهم.

* * *

(١) سفينة البحار، ج٢ ص٦٥٩ مادّة وصى.

الآيات

١٨٣ - «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

١٨٤ - «أَيّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذينَ يُطيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

١٨٥ - «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ، يُريدُاللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُريدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوااللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

التفسير

الصوم مدرسة التقوى

في سياق طرح مجموعة من الاحكام الاسلامية، تناولت هذه الآيات أحكام واحدة من أهم العبادات، وهي عبادة الصوم، و بلهجة مفعمة بالتأكيد قالت الآية: «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

ثم تذكر الآية مباشرة فلسفة هذه العبادة التربوية، في عبارة قليلة الالفاظ، عميقة المحتوى، و تقول: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

نعم، الصوم - كما سيأتي شرح ذلك - عامل فعّال لتربية روح التقوى في جميع المجالات والابعاد.

لما كانت هذه العبادة مقرونة بمعاناة و صبر على ترك اللذائذ المادية، وخاصة في فصل الصيف، فان الآية طرحت موضوع الصوم بأساليب متنوعة، لتهيئ روح الانسان

لقبول هذاالحكم.

تبتدئ الآية أولاً بأسلوب خطابي وتقول: «يا اَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا» وهو نداء يفتح شغاف القلب، ويرفع معنويات الانسان، ويشحذ همته، وفيه لذة قال عنها الامام الصادق (عليه السلام): «لَذَّةُ ما فِي النِّداءِ أَزالَ تَعَبَ الْعِبادَةِ وَالعَناءِ»[1].

ثم تبين الآية أن الصوم فريضة كتبت أيضا على الامم السابقة.

ثم تبين الآية فلسفة الصوم وما يعود به على الإنسان من منافع، لتكون هذه العبادة محبوبة ملتصقة بالنفس.

* * *

الآية التالية تتجه أيضاً الى التخفيف من تعب الصوم وتقول:

«اَيّاماً مَعْدُوداتٍ» فالفريضة لا تحتل الاّ مساحة صغيرة من أيام السنة.

ثم تقول: «فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً اَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ اَيّامٍ أُخَرَ»، فالمريض والمسافر معفوان من الصوم، وعليهما أن يقضيا صومهما في أيام أخرى.

ثم تصدر الآية عفوا عن الطاعنين في السن، وعن المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم، وترفع عنهم فريضة الصوم ليدفعوا بدلها كفارة، فتقول: «وَ عَلَى الَّذينَ يُطيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكينٍ»[2].

ثم تقول الآية: «فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ»[3] أي من تطوع للاطعام أكثر من

---

(١) مجمع البيان فى تفسير الآية.

(٢) «يطيقونه» من «الطوق» وهوالحلقة التي تلق على العنق، أو توجد عليه بشكل طبيعي (كطوق الحمام)، ثم أطلقت الكلمة على نهاية الجهد والطاقة، والضمير في «يطيقونه» يعود على الصوم، أي الذين يبذلون غاية طاقتهم لدى الصوم، أو بعبارة أخرى: الذين يجهدهم الصوم ويثقل عليهم، وهم الطاعنون في السن والمرضى الذين لا يرجى علاجهم، فهؤلاء معفوون من الصوم وعليهم أن يدفعوا الفدية بدل ذلك (وعلى المرضى الذين يشفون أن يقضوا صومهم).

وقيل «اَلَّذينَ يُطيقُونَه» يعني الذين كانوا يطيقونه، ولم يعودوا اليوم قادرين على الصوم (وهذا المعنى جاء في بعض الروايات).

(٣) قيل في عبارة «تَطَوَّعَ خَيْراً» إنها إشارة الى الصوم المستحب، وقيل أيضاً: إنها تأكيد على أن الصوم ينبغي أن يكون عن رغبة وطواعية، لاعن إجبار وإكراه.

ذلك فهو خيرٌ له.

و أخيراً تبين الآية حقيقة هي: «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

استدل بعض بهذه الآية على أن الصوم كان في بداية التشريع واجبا تخييريا، وكان المسلمون مخيرين بين الصوم والفدية، ثم نسخ هذاالحكم بعد أن تعوّد المسلمون على الصوم و أصبح واجبا عينيّا، ولكن ظاهر الآية يدلّ على تأكيد آخر على فلسفة الصوم، وعلى أن هذه العبادة ـ كسائر العبادات ـ لا تزيدالله عظمة أو جلالاً، بل تعود كل فوائدها على الناس.

الشاهد على ذلك ما جاء في القرآن من تعبير مشابه لذلك، كقوله سبحانه بعد ذكر وجوب صلاة الجمعة: «ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (الجمعة، ٩).

وقوله تعالى: «وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (العنكبوت، ١٦).

و بهذا تبين أن عبارة «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ» موجهة الى كل الصائمين لا الى مجموعة خاصة.

❊ ❊ ❊

آخر آية في بحثنا تتحدث عن زمان الصوم و بعض أحكامه ومعطياته تقول: «شَهْرُ رَمَضَانَ» هوالشهر الذي فرض فيه الصيام.

وهو «الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُدًى لِلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ».

ثم تؤكد ثانية حكم المسافر والمريض وتقول: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ»[1].

تكرار حكم المسافر والمريض في هذه الآية والآية السابقة، قد يكون سبب كراهية بعض المسلمين أن لا يصوموا أيام شهر رمضان حتى ولو كانوامرضى أو مسافرين.

---

(١) اي من كان في حضر فليصم شهر رمضان، و قيل إن جلة «مَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ» تعني رؤية الهلال، وهو بعيد، والحق ما ذكرناه و روايات أئمة اهل البيت تؤيد ذلك.

والقرآن بهذاالتكرار يفهم المسلمين أن الصوم في حالة السلام والحضر حكم الهي، والافطار في حال السفر والمرض حكم الهي أيضاً لا تجوز مخالفته.

و في آخر الآية اشارة أخرى الى فلسفة تشريع الصوم، تقول «يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ». فالصوم ـ و إن كان على الظاهر نوعا من التضييق والتحديد ـ مؤدّاه راحة الانسان و نفعه على الصعيدين المادي والمعنوي، (و سيأتي تفصيل ذلك في بحث فلسفة الصوم).

ولعل هذه العبارة إشارة الى أن الأوامر الالهية ليست كأوامر الحاكم الظالم، ففي الصوم رخص حيثما كان فيه مشقة على الصائم، لذلك رفع تكليف الصوم ـ على أهميته ـ عن المريض والمسافر والضعيف.

ثم تقول الآية: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» أي يلزم على كل إنسان سليم أن يصوم شهراً، فذلك ضروري لتربية جسمه ونفسه. لذلك وجب على المريض والمسافر أن يقضي مافاته من شهر رمضان ليكمل العدّة، وحتى الحائض ـ التي أعفيت من قضاء الصلاة ـ غير معفوّة عن قضاء الصوم.

والعبارة الأخيرة من الآية تقول: «وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلىٰ ما هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» لتكبروه على ما وفرّ لكم من سبل الهداية، ولتشكروه على ما أنعم عليكم.

الشكر في الآية مسبوق بكلمة «لَعَلَّ»، لكن التكبير مؤكد بشكل قاطع غير مسبوق بترجّ. وقد يعود الاختلاف في التعبير الى أن عبادة (الصوم) هي على كل حال تكبير لله و تعظيم له سبحانه، أما الشكر ـ وهو انفاق النعم في مواضعها والاستفادة من الآثار العملية للصوم ـ فله شروط أهمها الاخلاص التام، وفهم حقيقة الصوم، والاطلاع على أبعاده و أعماقه.

* * *

وقفات

١ ـ الآثار التربوية والاجتماعية والصحيّة للصوم

للصوم أبعاد متعددة و آثار غزيرة مادية ومعنوية في وجودالانسان، و أهمها البعد الاخلاقي، التربوي.

من فوائد الصوم الهامة «تلطيف» روح الانسان، و «تقوية» ارادته، و «تعديل» غرائزه.

على الصائم أن يكف عن الطعام والشراب على الرغم من جوعه وعطشه، وهكذا عليه أن يكف عن ممارسة العمل الجنسي، ليثبت عمليا أنه ليس بالحيوان الاسير بين المعلف والمضجع، و أنه يستطيع أن يسيطر على نفسه الجامحة وعلى أهوائه و شهواته.

الأثر الروحي والمعنوي للصوم يشكل أعظم جانب من فلسفة هذه العبادة.

مثل الانسان الذي يعيش الى جوار أنواع الاطعمة والاشربة، لا يكاد يحس بجوع أو عطش حتى يمدّيده الى مالذّ وطاب كمثل شجرة تعيش الى جوار نهر وفيرالمياه، ما أن ينقطع عنها الماء يوما حتى تذبل وتصفّر.

اما الاشجار التي تنبت بين الصخوروفي الصحارى المقفرة، و تتعرض منذ أوائل انباتها الى الرياح العاتية، و حرارة الشمس المحرقة حيناً، و برودة الجوّ القارصة حيناً آخر، و تواجه دائما أنواع التحديدات، فانها اشجار قوية صلبة مقاومة.

والصوم له مثل هذاالأثر في نفس الانسان، فبهذه القيود الموقتة يمنحه القدرة وقوة الارادة و عزيمة الكفاح، كما يبعث في نفسه النور والصفاء بعد أن يسيطرا على غرائزه الجامحة.

بعبارة موجزة ، الصوم يرفع الانسان من عالم البهيمية الى عالم الملائكة، و عبارة «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» تشير الى هذه الحقائق.

وهكذا الحديث المعروف: «اَلصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ»[1] يشير الى هذه الحقائق.

و عن علي (عليه السلام) عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنه سئل عن طريق مجابهة الشيطان، قال: «الصَّوْمُ يُسَوِّدُ وَجْهَهُ، وَالصَّدَقَةُ تَكْسِرُ ظَهْرَهُ، وَالْحُبُّ فِي اللهِ وَالْمُواظِبَةُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَقْطَعُ دابِرَهُ، وَالإِسْتِغْفارُ يَقْطَعُ وَتِينَهُ».[2]

و في نهج البلاغة عرض لفلسفة العبادات، و فيه يقول أميرالمؤمنين علي

---

(١) بحارالانوار ج٩٦ ص٢٥٦.

(٢) بحارالانوار، ج٩٦، ص٢٥٥.

(عليه السلام): «وَالصِّيامَ ابْتِلاءً لِإِخْلاصِ الْخَلْقِ»[١].

و روي عن النبي (صلّى الله عليه وآله) قال: «اِنَّ لِلْجَنَّةِ باباً يُدْعَى الرَّيّانُ، لا يَدْخُلُ فِيها اِلاّ الصّائِمُونَ»

يقول المرحوم الصدوق في «معاني الاخبار» معلقا على هذاالحديث: إنما سمي هذاالباب بالريّان لأن مشقة الصائم إنما تكون في الاغلب من العطش، وعند ما يدخل الصائمون من هذاالباب يرتوون حتى لا يظمأوا بعده أبدا.[٢]

الأثر الاجتماعي للصوم لا يخفى على أحد. فالصوم درس المساواة بين أفراد المجتمع. الموسرون يحسّون بما يعانيه الفقراء المعسرون، وعن طريق الاقتصاد في استهلاك المواد الغذائية يستطيعون أن يهبوا لمساعدتهم.

قد يمكن تحسيس الاغنياء بما يعانيه الفقراء عن طريق الكلام والخطابة، لكن المسألة حين تتخذ طابعا حسّيا عينيًا لها التأثير الأقوى والأبلغ. الصوم يمنح هذه المسألة الهامة الاجتماعية لونا حسيا، لذلك يقول الامام الصادق (عليه‌السلام) في جواب عن سؤال بشأن علة الصوم: «اِنَّما فَرَضَ اللهُ الصِّيامَ لِيَسْتَوِيَ بِهِ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَ ذٰلِكَ اِنَّ الْغَنِيَّ لَمْ يَكُنْ لِيَجِدَ مَسَّ الْجُوعِ فَيَرْحَمِ الْفَقِيرَ، وَ إِنَّ الْغَنِيَّ كُلَّما اَرادَ شَيْئاً قَدَرَ عَلَيْهِ فَاَرادَ اللهُ تَعالىٰ اَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَ اَنْ يُذِيقَ الْغَنِيَّ مَسَّ الْجُوعِ وَالاَلَمِ، لِيَرِقَّ عَلَى الضَّعِيفِ وَيَرْحَمَ الْجائِعَ»[٣].

ترى، لو أن الدول الغنية في العالم صامت عدة أيام في السنة و ذاقت مرارة الجوع، فهل يبقى في العالم كل هذه الشعوب الجائعة؟!

* * *

الآثارالصحية للصوم

أهمية «الامساك» في علاج أنواع الامراض ثابتة في الطب القديم والحديث.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢٥٢.

(٢) بحار الانوار، ج٩٦، ص٢٥٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج٧، اول كتاب الصوم، ص٣.

البحوث الطبية لا تخلو عادة من الحديث عن هذه المسألة، لأن العامل في كثير من الأمراض الإسراف في تناول الأطعمة المختلفة. المواد الغذائية الزائدة تتراكم في الجسم على شكل مواد دهنية، و تدخل هي والمواد السكرية في الدم، وهذه المواد الزائدة وسط صالح لتكاثر أنواع الميكروبات والامراض، وفي هذه الحالة يكون الإمساك أفضل طريق لمكافحة هذه الامراض، و للقضاء على هذه المزابل المتراكمة في الجسم.

الصوم يحرق الفضلات والقمامات المتراكمة في الجسم، وهو في الواقع عملية تطهير شاملة للبدن، اضافة الى أنه استراحة مناسبة لجهاز الهضم و تنظيف له، وهذه الاستراحة ضرورية لهذا الجهاز الحساس للغاية، والمنهمك في العمل طول أيام السنة.

بديهي أن الصائم ينبغي أن لايكثر من الطعام عند «الإفْطار» و «السُّحُور» حسب تعاليم الإسلام، كي تتحقق الآثار الصحية لهذه العبادة، والاّ فقد تكون النتيجة معكوسة.

العالم الروسي «الكسي سوفورين» يقول في كتابه:

«الصوم سبيل ناجح في علاج أمراض فقرالدم، وضعف الأمعاء، والإلتهابات البسيطة والمزمنة، والدمامل الداخلية والخارجية، والسل، والا سكليروز، والرماتيزم، والنقرس والاستسقاء، وعرق النساء، والخزاز (تناثر الجلد)، وامراض العين، ومرض السكر، و أمراض الكلية، والكبد والأمراض الأخرى.

العلاج عن طريق الإمساك لا يقتصر على الأمراض المذكورة، بل يشمل الامراض المرتبطة بأصول جسم الانسان وخلاياه مثل السرطان والسفليس، والسل والطاعون أيضاً».[1]

عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: «**صُومُوا تَصِحُّوا**»[2].

وعنه (صلّى الله عليه وآله) أيضاً: «**اَلْمِعْدَةُ بَيْتُ كُلِّ داءٍ وَالْحِمْيَةُ رَأْسُ كُلِّ دَوَاءٍ**» (بحار الانوار، المجلد ١٤ من الطبعة القديمة).

---

(١) كتاب «الصوم طريقة حديثة لعلاج الامراض» ص ٦٥، الطبعة الأولى.

(٢) بحارالانوار، ج٩٦، ص ٢٥٥.

٢ـ الصوم في الامم السابقة

يظهر من النصوص الموجودة في التوراة والانجيل، أن الصوم كان موجودا بين اليهود والنصارى، و كانت الامم الاخرى تصوم في أحزانها و مآسيها، فقد ورد في «قاموس الكتاب المقدس»: «الصوم بشكل عام وفي جميع الاوقات كان متداولاً في أوقات الاحزان والنوائب بين جميع الطوائف والملل والمذاهب»[١].

و يظهر من التوراة أن موسى (عليه السلام) صام أربعين يوما، فقد جاء فيها: «اَقَمْتُ فِى الْجَبَلِ اَرْبَعِينَ نَهاراً وَ اَرْبَعِينَ لَيْلَةً لاٰ آكُلُ خُبْزاً وَلاٰ اَشْرَبُ مٰاءً»[٢].

وكان اليهود يصومون لدى التوبة والتضرع الى الله: «اليهود كانوا يصومون غالباً حينما تتاح لهم الفرصة للاعراب عن عجزهم و تواضعهم أمام الله، ليعترفوا بذنوبهم عن طريق الصوم والتوبة، وليحصلوا على رضا حضرة القدس الالهي»[٣].

«الصوم الاعظم مع الكفارة كان على ما يبدو خاصا بيوم من أيام السنة بين طائفة اليهود، طبعاً كانت هناك أيام اخرى موقتة للصوم بمناسبة ذكرى تخريب اورشليم وغيرها»[٤]

السيد المسيح (عليه السلام) صام أيضاً أربعين يوماً كما يظهر من «الانجيل»: «ثم اصعد يسوع الى البرية من الروح ليجرّب من ابليس فبعدما صام اربعين نهاراً و اربعين ليلة جاع اخيراً»[٥]

و يبدو من نصوص إنجيل «لوقا» أن حوارتي السيد المسيح صاموا أيضاً.[٦]

و جاء في قاموس الكتاب المقدس أيضاً: «.. من هنا كانت حياة الحوارتين والمؤمنين مملوءة بالابتعاد عن اللذات و بالأتعاب و بالصوم».[٧]

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٢٧.

(٢) التوراة، سفر التثنية، الفصل ٩، الرقم ٩.

(٣و٤) قاموس الكتاب المقدس، ص٤٢٨.

(٥) انجيل متى، الإصحاح الرابع، الرقم ١ و٢.

(٦) انجيل لوقا، الإصحاح الخامس، الرقم ٣٥ ـ ٣٣.

(٧) قاموس الكتاب المقدس، ص٤٢٨.

بهذا نستطيع أن نجد في نصوص الكتب الدينية القديمة (حتى بعد تحريفها) شواهد على ما جاء في القرآن الكريم «كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

* * *

٣ـ امتياز شهر رمضان

هذا الشهر ـ إنما اختير شهرا للصوم ـ لأنه يمتاز عن بقية الشهور. والقرآن الكريم بيّن مزية هذا الشهر في الآية الكريمة بأنه «الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآن» أي القرآن الذي يفصل الصالح عن الطالح و يضمن سعادة البشرية. وفي الروايات الاسلامية أن كل الكتب السماوية: «التوراة» و«الانجيل» و «الزبور» و «الصحف» و «القرآن» نزلت في هذا الشهر.[1] فهو إذن شهر تربية و تعليم، لان التربية غير ممكنة دون تعليم صحيح، ومنهج الصوم التربوي يجب أن يكون مرافقاً لوعي عميق منطلق من تعاليم السماء لتطهير الانسان من كل إثم.

في آخر جمعة من شهر شعبان، القى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) خطبة أعدّ فيها المسلمين لاستقبال شهر رمضان المبارك قال فيها:

«اَيُّهَا النّاسُ اِنَّهُ قَدْ اَقْبَلَ اِلَيْكُمْ شَهْرُاللهِ بِالْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، شَهْرٌ هُوَعِنْدَاللهِ اَفْضَلُ الشُّهُورِ، وَاَيّامُهُ اَفْضَلُ الْاَيّامِ، وَلَيالِيهِ اَفْضَلُ اللَّيالي، وَساعاتُهُ اَفْضَلُ السّاعاتِ، هُوَشَهْرٌدُعِيتُمْ فِيهِ اِلى ضِيافَةِ اللهِ، وَجُعِلْتُمْ فِيهِ مِنْ اَهْلِ كَرامَةِ اللهِ. اَنْفاسُكُمْ فِيهِ تَسْبِيحٌ، وَنَوْمُكُمْ فِيهِ عِبادَةٌ، وَعَمَلُكُمْ فِيهِ مَقْبُولٌ، وَدُعاؤُكُمْ فِيهِ مُسْتَجابٌ، فَاسْأَلُوااللهَ رَبَّكُمْ بِنِيّاتٍ صادِقَةٍ، وَقُلُوبٍ طاهِرَةٍ اَنْ يُوَفِّقَكُمْ لِصِيامِهِوَ تِلاوَةِ كِتابِهِ، فَاِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ غُفْرانَ اللهِ في هذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ، وَاذْكُرُوا بِجُوعِكُمْ وَعَطَشِكُمْ فِيهِ جُوعَ يَوْمِ الْقِيامَةِ وَعَطَشِهِ، وَتَصَدَّقُوا عَلى فُقَرائِكُمْ وَ مَساكِينِكُمْ، وَ وَقِّرُوا كِبارَكُمْ، وَارْحَمُوا صِغارَكُمْ، وَصِلُوا اَرْحامَكُمْ، وَاحْفَظُوا اَلْسِنَتَكُمْ، وَغُضُّوا عَمّا لا يَحِلُّ النَّظَرُاِلَيْهِ اَبْصارَكُمْ، وَعَمّا لا يَحِلُّ الْاِسْتِماعُ اِلَيْهِ

---

(١) وسائل الشيعة، ج٧، أبواب احكام شهر رمضان، الباب ١٨، الحديث ١٦.

اَسْماعَكُمْ، وَتَحَنَّنُوا عَلىٰ اَيْتامِ النّاسِ يُتَحَنَّنُ عَلىٰ اَيْتامِكُمْ...»[١].

* * *

٤ـ قاعدة «لاحرج»

آيات بحثنا فيها إشارة الى أن الله يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، وهذه الاشارة تدور طبعا هنا حول موضوع الصوم و فوائده وحكم المسافر والمريض، لكن أسلوبها العام يجعلها قاعدة تشمل كل الاحكام الاسلامية، ويصيّر منها سنداً لقاعدة «لاحرج» المعروفة.

هذه القاعدة تقول: لا تقوم قوانين الاسلام على المشقة، و إن أدّى حكم إسلامي الى حرج و مشقة، فانه يرفع عنه موقتا، و لذلك أجاز الفقهاء التيمّم لمن يشق عليه الوضوء، والصلاة جلوساً لمن يشق عليه الوقوف.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول سبحانه: «**هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**» (الحج، ٧٨).

وعن الرسول (صلّى الله عليه وآله) قال: «**بُعِثْتُ عَلَى الشَّرِيعَةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ**».

* * *

(١) وسائل الشيعة، ج٧، الباب ١٨ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٢٠.

الآية

١٨٦ - «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ».

النزول

سأل رجل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن الله سبحانه، أهو قريب ليناجيه بصوت خفي أم بعيد ليدعوه بصوت مرتفع؟ فنزلت الآية.[1]

* * *

التفسير

سلاح اسمه الدعاء

بعد أن ذكرت الآيات السابقة مجموعة هامة من الاحكام الإسلامية، تناولت هذه الآية موضوع الدعاء باعتباره أحد وسائل الارتباط بين العباد والمعبود سبحانه. و مجيئ هذه الآية في سياق الحديث عن الصوم، يعطيه مفهوماً جديدا، إذ أن الدعاء والتقرب الى الله روح كل عبادة.

هذه الآية تخاطب النبي وتقول: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ».

أقرب مما تتصورون، أقرب منكم اليكم «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (ق، ١٦).

ثم تقول الآية: «أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ».

إذن «فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي، وَلْيُؤْمِنُوا بِي، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ».

و يلفت النظر في هذه الآية، أن الله سبحانه أشار الى ذاته المقدسة سبع مرات، و أشار الى عباده سبعا! مجسداً بذلك غاية لطفه و قربه و ارتباطه بعباده.

---

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية.

روى عبدالله بن سنان عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: «اَلدُّعاءُ يَرُدُّ الْقَضاءَ بَعْدَ ما اُبْرِمَ اِبْراماً فَاَكْثِرْ مِنَ الدُّعاءِ فَاِنَّهُ مِفْتاحُ كُلِّ رَحْمَةٍ وَنَجاحُ كُلِّ حاجَةٍ وَلا يُنالُ ما عِنْدَاللهِ عَزَّوَجَلَّ اِلاّ بِالدُّعاءِ وَاِنَّهُ لَيْسَ بابٌ يُكْثَرُ قَرْعُهُ اِلاّ يُوشَكُ اَنْ يُفْتَحَ لِصاحِبِه»[1].

نعم، إنه قريب منّا، و كيف يبتعد وهو سبحانه «يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» (الانفال، ٢٤).

* * *

وقفات

١ـفلسفة الدعاء

اولئك الجاهلون بحقيقة الدعاء و آثاره التربويّة والنفسية، يطلقون أنواع التشكيك بشأن الدعاء.

يقولون: الدعاء عامل مخدّر، لأنه يصرف الناس عن الفعّالية والنشاط وعن تطوير الحياة، و يدفعهم بدلاً من ذلك الى التوسّل بعوامل غيبية.

و يقولون: إن الدعاء تدخّل في شؤون الله، والله يفعل ما يريد، و فعله منسجم مع مصالحنا، فما الداعي الى الطلب منه والتضرّع اليه»؟!

و يقولون أيضاً: إنّ الدعاء يتعارض مع حالة الإنسان الراضي بقضاء الله المستسلم لإرادته سبحانه!

هؤلاء ، كما ذكرنا، يطلقون هذاالتشكيك لجهلهم بالآثار التربوية والنفسية والاجتماعية للدعاء، فالإنسان بحاجة أحياناً الى الملجأ الذي يلوذ به في الشدائد، والدعاء يضيئ نورالأمل في نفس الانسان.

من يبتعد عن الدعاء يواجه صدمات عنيفة نفسية واجتماعية.

وعلى حد تعبير أحد علماء النفس المعروفين:

---

(١) اصول الكافي، ج٢ كتاب الدعاء (باب ان الدعاء يرد البلاء) الحديث ٧.

«ابتعاد الامة عن الدعاء يعني سقوط تلك الامة! المجتمع الذي قمع في نفسه روح الحاجة الى الدعاء سوف لا يبقى مصونا عادة من الفساد والزوال.

ومن نافلة القول أنه من العبث الاكتفاء بالدعاء لدى الصباح و قضاء بقية اليوم كالوحش الكاسر، لابد من مواصلة الدعاء، ومن اليقظة المستمرة، كي لا يزول أثره العميق من نفس الانسان».[1]

و اولئك الذين يصفون الدعاء بأنه تخديري لم يفهموامعنى الدعاء، لأن الدعاء لا يعني ترك العلل والوسائل الطبيعية واللجوء بدلها الى الدعاء، بل المقصود أن نبذل نهاية جهدنا للاستفادة من كل الوسائل الموجودة، بعد ذلك إن انسدت أمامنا الطرق، و أعيتنا الوسيلة، نلجأ الى الدعاء، و بهذا اللجوء الى الله يحيى في أنفسنا روح الأمل والحركة، ونستمد من عون المبدأ الكبير سبحانه.

الدعاء إذن لا يحل محل العوامل الطبيعية.

«الدعاء ـ إضافة الى قدرته في بث الطمأنينة في النفس ـ يؤدي الى نوع من النشاط الدماغي في الانسان، والى نوع من الانشراح والانبساط الباطني و أحيانا الى تصعيد روح البطولة والشجاعة فيه. الدعاء يتجلى بخصائص مشخصة فريدة .. صفاء النظرة، وقوة الشخصية، والانشراح والسرور، والثقة بالنفس، والاستعداد للهداية، واستقبال الحوادث بصدر رحب، كل هذه مظاهر لكنز عظيم دفين في نفوسنا. وانطلاقا من هذه القوة يستطيع حتى الافراد المتخلفون أن يستثمروا طاقاتهم العقلية والاخلاقية بشكل أفضل، و اكثر. لكن الافراد الذين يفهمون الدعاء حق فهمه قليلون جداً ـ مع الأسف ـ في عالمنا اليوم».[2]

مما تقدم نفهم الرد على من يقول أن الدعاء يخالف روح الرضا والتسليم، لأن الدعاء ـ كما ذكرنا ـ نوع من كسب القابلية على تحصيل سهم أكبر من فيض الله اللامتناهي.

---

(١) الدعاء، الطبيب وعالم النفس الشهير «الكسيس كاريل».

(٢) الدعاء الكسيس كاريل.

بعبارة أخرى، الانسان ينال بالدعاء لياقة أكبر للحصول على فيض الباري تعالى. وواضح أن السعي للتكامل ولكسب مزيد من اللياقة هو عين التسليم أمام قوانين الخليقة، لا عكس ذلك.

أضف الى ذلك، الدعاء نوع من العبادة والخضوع والطاعة، والانسان ـ عن طريق الدعاء ـ يزداد ارتباطاً بالله تعالى، وكما ان كلّ العبادات ذات أثر تربويّ كذلك الدّعاء له مثل هذا الاثر.

والقائلون أن الدعاء تدخل في أمر الله وأن الله يفعل ما يشاء، لا يفهمون أن المواهب الالهية تغدق على الانسان حسب استعداده وكفاءته و لياقته، وكلّما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

لذلك يقول الامام الصادق (عليه السلام): «**اِنَّ عِنْدَاللهِ عَزَّوَجَلَّ مَنْزِلَةً لا تُنالُ اِلاّ بِمَسْأَلَةٍ**»[1].

و يقول أحد العلماء: «حينما ندعو فاننا نربط أنفسنا بقوة لامتناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها»[2].

و يقول: «إنّ أحدث العلوم الانسانية ـ أعنى علم النفس ـ يعلّمنا نفس تعاليم الانبياء، لماذا؟ لأن الاطباء النفسانيين أدركوا أن الدعاء والصلاة والايمان القوي بالدين يزيل عوامل القلق والاضطراب والخوف والهيجان، التي هي الباعث على اكثر من نصف أمراضنا»[3].

* * *

٢ ـ المفهوم الحقيقي للدعاء

علمنا أنّ الدعاء إنّما يكون فيما خرج عن دائرة قدرتنا، بعبارة أخرى الدعاء المستجاب هو ما صدر لدى الاضطرار و بعد بذل كل الجهود والطاقات «**اَمَّنْ يُجيبُ**

---

(١) اصول الكافي، ج٢، ص ٣٣٨، باب فضل الدعاء والحثّ عليه، حديث ٣.

(٢) آئين زندگى (فارسى) ص ١٥٦.

(٣) ن . م، ص ١٥٢.

الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ» (النمل، ٦٢). يتضح من ذلك أن مفهوم الدعاء طلب تهيئة الاسباب والعوامل الخارجة عن دائرة قدرة الانسان، وهذاالطلب يتجه به الانسان الى من قدرته لامتناهية ومن يهون عليه كل أمر.

هذا الطلب، طبعا، يجب أن لا يصدر من لسان الانسان فقط، بل من جميع وجوده، واللسان ترجمان جميع ذرات وجود الانسان و أعضائه وجوارحه.

يرتبط القلب والروح بالله عن طريق الدعاء ارتباطا وثيقا، و يكتسبان القدرة عن طريق اتصالهما المعنوي بالمبدأ الكبير، كما تتصل القطرة من الماء بالمحيط الواسع العظيم.

جدير بالذكر أن هناك نوعا آخر من الدعاء يردده المؤمن حتى فيما اقتدر عليه من الامور، ليعبّر به عن عدم استقلال قدرته عن قدرة الباري تعالى، وليؤكد أن العلل والعوامل الطبيعية إنما هي منه سبحانه، و تحت إمرته. فإن بحثنا عن الدواء لشفاء دائنا، فإنّما نبحث عنه لأنّه سبحانه أودع في الدواء خاصية الشفاء (هذا نوع آخر من الدعاء أشارت اليه الروايات الاسلامية أيضاً).

بعبارة موجزة: الدعاء نوع من التوعية و إيقاظ القلب والعقل، وارتباط داخلي بمبدأ كل لطف و احسان، لذلك نرى أميرالمؤمنين عليا (عليه السلام) يقول: «لَا يَقْبَلُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ دُعَاءَ قَلْبٍ لَاهٍ»[١].

وعن الامام الصادق (عليه السلام): «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً بِظَهْرِ قَلْبٍ سَاهٍ»[٢].

* * *

٣ـ شروط استجابة الدعاء

دراسة شروط استجابة الدعاء توضّح لنا كثيرا من الحقائق الغامضة في مسألة الدعاء، و تبين لنا آثاره البناءة، والروايات الاسلامية تذكر شروطا لاستجابة الدعاء منها:

(١و٢) أصول الكافي، ج٢، ص ٣٤٢، باب الاقبال على الدعاء، الحديث ١.

١ ـ ينبغي لمن يدعو أن يسعى أولاً لتطهير قلبه و روحه، و أن يتوب من الذنب، و أن يستلهم العطاء من حياة قادة البشرية الالهيين.

عن الامام الصادق (عليه السلام): «**اِيّاكُمْ اَنْ يَسْأَلَ اَحَدُكُمْ رَبَّهُ شَيْئاً مِنْ حَوائِجِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ حَتّٰى يَبْدَأَ بِالثَّناءِ عَلَى اللهِ، وَالْمِدْحَةِ لَهُ وَالصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ وَ آلِهِ، وَالْاِعْتِرافِ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ الْمَسْأَلَةُ**»[1].

٢ ـ أن يسعى الداعي إلى تطهير أمواله من كل غصب وظلم، و أن لا يكون طعامه من حرام. عن رسول‌الله (صلّى الله عليه وآله) قال: «**مَنْ اَحَبَّ اَنْ يُسْتَجابَ دُعاؤُهُ فَلْيَطِبْ مَطْعَمُهُ وَ مَكْسَبُهُ**»[2].

٣ـ أن لا يفترق الدعاء عن الجهاد المستمرّضدّ كل ألوان الفساد، لأنّ الله لا يستجيب ممن ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، عن النبي (صلّى الله عليه وآله): «**لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لَتَنْهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، اَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ شِرارَكُمْ عَلىٰ خِيارِكُمْ فَيَدْعُو خِيارُكُمْ فَلا يُسْتَجابُ لَهُمْ**».[3]

ترك هذه الفريضة الالهية (فريضة المراقبة الاجتماعية) يؤدي الى خلوّ الساحة الاجتماعية من الصالحين، وتركها للمفسدين، و عند ذاك لا أثر للدعاء، لان هذاالوضع الفاسد نتيجة حتمية لأعمال الانسان نفسه.

٤ ـ العمل بالمواثيق الالهية ـ الايمان والعمل الصالح والامانة والصلاح من شروط استجابة الدعاء، فمن لم يف بعهده أمام بارئه لا ينبغي أن يتوقع من الله استجابة دعائه.

جاء رجل الى أميرالمؤمنين علي (عليه السلام)، وشكا له عدمَ استجابة دعائه، فقال الامام:

«**اِنَّ قُلُوبَكُمْ خانَتْ بِثَمانِ خِصالٍ:**

اَوَّلُها: اِنَّكُمْ عَرَفْتُمُ اللهَ فَلَمْ تُؤَدُّوا حَقَّهُ كَما اَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَما اَغْنَتْ عَنْكُمْ مَعْرِفَتُكُمْ شَيْئاً.

(١و٢) سفينة البحار، ج١، ص٤٤٨ و٤٤٩.

(٣) نفس المصدر السابق.

وَالثَّانِيَةُ: إِنَّكُمْ آمَنْتُمْ بِرَسُولِهِ ثُمَّ خَالَفْتُمْ سُنَّتَهُ، وَأَمَتُّمْ شَرِيعَتَهُ فَأَيْنَ ثَمَرَةُ إِيمَانِكُمْ؟!

وَالثَّالِثَةُ: إِنَّكُمْ قَرَأْتُمْ كِتَابَهُ الْمُنْزَلَ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَعْمَلُوا بِهِ، وَقُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ثُمَّ خَالَفْتُمْ!

وَالرَّابِعَةُ: إِنَّكُمْ قُلْتُمْ تَخَافُونَ مِنَ النَّارِ، وَأَنْتُمْ في كُلِّ وَقْتٍ تَقْدُمُونَ إِلَيْهَا بِمَعَاصِيكُمْ فَأَيْنَ خَوْفُكُمْ؟!

وَالْخَامِسَةُ: إِنَّكُمْ قُلْتُمْ تَرْغَبُونَ في الْجَنَّةِ، وَأَنْتُمْ في كُلِّ وَقْتٍ تَفْعَلُونَ مَا يُبَاعِدُكُمْ مِنْهَا فَأَيْنَ رَغْبَتُكُمْ فِيهَا؟

وَالسَّادِسَةُ: إِنَّكُمْ أَكَلْتُمْ نِعْمَةَ الْمَوْلَى فَلَمْ تَشْكُرُوا عَلَيْهَا!

وَالسَّابِعَةُ: إِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِعَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ، وَقَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً، فَعَادَيْتُمُوهُ بِلَا قَوْلٍ، وَوَالَيْتُمُوهُ بِلَا مُخَالَفَةٍ.

وَالثَّامِنَةُ: إِنَّكُمْ جَعَلْتُمْ عُيُوبَ النَّاسِ نُصْبَ أَعْيُنِكُمْ وَعُيُوبَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ تَلُومُونَ مَنْ أَنْتُمْ أَحَقُّ بِاللَّوْمِ مِنْهُ فَأَيُّ دُعَاءٍ يُسْتَجَابُ لَكُمْ مَعَ هٰذَا، وَقَدْ سَدَدْتُمْ أَبْوَابَهُ وَطُرُقَهُ؟ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا أَعْمَالَكُمْ وَأَخْلِصُوا سَرَائِرَكُمْ وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَسْتَجِيبُ اللهُ لَكُمْ دُعَاءَكُمْ»[1].

* * *

هذاالحديث يقول بصراحة: إن وعدالله باستجابة الدعاء وعد مشروط لا مطلق. مشروط بتنفيذ المواثيق الالهية، و ان ابتعد الانسان عن نقض المواثيق الثمانية المذكورة، فله أن يتوقع استجابة الدعاء، والاّ فلا.

العمل بالامور الثمانية المذكورة، باعتبارها شروطا لاستجابة الدعاء، كاف لتربية الانسان ولاستثمار طاقاته على طريق مثمر بنّاء.

* * *

٥ ـ من الشروط الاخرى لاستجابة الدعاء العمل والسعي عن علي

---

(١) نفس المصدر السابق.

(عليه السلام): «اَلدّاعِي بِلا عَمَلٍ كَالرّامِي بِلا وَتَرٍ»[١].

الوتر بحركته يدفع السهم نحوالهدف، وهكذا دورالعمل في الدعاء.

* * *

من مجموع شروط الدعاء المذكورة نفهم أن الدعاء لايغنينا عن التوسل بالعوامل الطبيعية، بل اكثر من ذلك يدفعنا الى توفير شروط إستجابة الدعاء في أنفسنا، و يحدث بذلك تغييراً كبيراً في حياة الانسان و تجديداً لمسيرته، واصلاحاً لنواقصه.

أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الاسلامي أنه مخدّر؟!

* * *

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٣٣٧.

الآية

١٨٧ - «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلىٰ نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ باشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُباشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوها، كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آياتِهِ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

سبب النزول

روي أن الأكل كان محرّما في شهر رمضان بالليل بعدالنوم، وكان النكاح حراماً بالليل والنهار في شهر رمضان. وكان رجل من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقال له مطعم بن جبير شيخاً ضعيفا، وكان صائماً، فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلما انتبه قال لأهله: قد حُرّم عليّ الاكل في هذه الليلة. فلما أصبح حضر حفر الخندق فأغمي عليه، فرآه رسول الله فرقّ له.

وكان قوم من الشباب ينكحون بالليل سرّاً في شهر رمضان، فأنزل الله هذه الآية فأحلّ النكاح بالليل في شهر رمضان والاكل بعدالنوم الى طلوع الفجر.[١]

***

التفسير

رخصة في أحكام الصوم

مرّ بنا في سبب نزول الآية أن النكاح كان محرّماً في ليالي شهر رمضان اضافة

---

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية.

الى نهاره، و أن الاكل والشرب كانا محرمين في الليل أيضاً بعدالنوم، و لعل ذلك كان اختبارا للجيل الاسلامي الأوّل وإعدادًا له كي يتقبل احكام الصوم الثابتة.

الآية الكريمة تتضمن أربعة أحكام اسلامية في حقل الصوم والاعتكاف. تقول أولاً: «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ [١] إِلىٰ نِسائِكُمْ».

ثم تذكر الآية سبب الحكم فتقول: «هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ»

واللباس يحفظ الجسم من الحر والبرد وأنواع الاخطار من جهة، و يستر عيوب الجسم من جهة أخرى، أضف الى أنه زينة للانسان، و تشبيه الزوج باللباس يشمل كل هذه الجوانب.

الزوجان يحفظ كل منهما الآخر من الانحراف والعيوب، و يوفّر كل منهما سبل الراحة والطمأنينة للآخر، وكل منهما زينة للآخر.

هذا التعبير يوضّح غاية الارتباط المعنوي بين الرجل والمرأة و مساواتهما في هذاالمجال، فالتعبير جاء للرجل كما جاء للمرأة، بدون تغيير.

ثم يبين القرآن سبب تغيير هذا القانون الالهي و يقول: «عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ».

فالله سبحانه وسّع عليكم الأمر و خفّفه، وجعل فيه رخصة بلطفه و رحمته، كي لا تتلوثوا بالذنوب.

«فَالْآنَ باشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللهُ لَكُمْ».

و هذاالأمر لا يعني طبعاً الوجوب، بل هو رخصة بعدالمنع، أو هو بتعبير الاصوليين «الامر عقيب الحظر» ، و يدل على الجواز.

عبارة «وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللهُ لَكُمْ» إشارة الى أن الاستفادة من هذه الرخصة الكائنة في مسير قوانين الخلقة وحفظ النظام و بقاء النسل لا مانع فيها.

ثم تبين الآية الحكم الثاني و تقول: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ».

---

(١) الرفث: هوالحديث المكشوف عن المسائل الجنسية، واستعير لمعنى الجماع كما في الآية.

للمسلم ـ إذن ـ أن يأكل و يشرب في الليل، حتى اذا طلع الفجر يمسك .

و تبين الآية الحكم الثالث: «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ».

هذه الجملة تأكيد على حظر الاكل والشرب والنكاح في أيام شهر رمضان للصائمين، و تشير الى أن الحظر يبدأ من طلوع الفجر و ينتهي عند الليل.

تطرح الآية بعد ذلك الحكم الرابع وتقول: «وَلا تُباشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ».

هذا الحكم يرتبط بالاعتكاف، وهو شبيه بالاستثناء من الحكم السابق، ففي الاعتكاف الذي لا تقلّ مدّته عن ثلاثة أيام، لا يحق للمعتكف الصائم أن يباشر زوجته لا في الليل ولا في النهار.

في ختام الآية عبارة تشير الى كل ما ورد فيها من أحكام تقول: «تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوها» لأن الاقتراب من الحدود يبعث على الوسوسة، وقد يدفع الانسان الى تجاوز الحدود والوقوع في الذنب.

نعم، «كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آياتِهِ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

* * *

وقفات

١ـ الحدود الالهية

بعد أن ذكرت الآية الكريمة بعض أحكام الصوم والاعتكاف، عبّرت عن هذه الأحكام بالحدود الالهية، و هي الحدود بين الحلال والحرام.. بين الممنوع والمجاز. ومن الملفت للنظر أن الآية لم تقل لا تتجاوزوا هذه الحدود، بل قالت: «فَلا تَقْرَبُوها»، لأن الاقتراب منها يؤدي الى إثارة الوساوس، وقد يؤدي أحيانا الى تجاوز هذه الحدود.

لذلك نهى الإسلام عن الولوج في مناطق تؤدي الى إنزلاق الانسان في المحرمات، كالنهي مثلاً عن الاشتراك في مجالس شرب الخمر حتى مع سبق الإصرار على عدم التلوث بالخمرة، أوالنهي عن الاختلاء بالمرأة الأجنبية.

هذا النهي ورد في النصوص الاسلامية تحت عنوان «حماية الحمى».

ورد عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: «اِنَّ حِمَى اللهِ مَحارِمُهُ، فَمَنْ

يَرْتَعُ حَوْلَ الْحِمىٰ يُوشَكُ اَنْ يَقَعَ فِيهِ».[1]

من هنا فالمتقون لا يبتعدون عن الوقوع في المحرمات حسب، بل يسعون الى عدم الاقتراب من حدود السقوط.

* * *

٢ ـ **الاعتكاف** ـ العكوف والاعتكاف أصله اللزوم، يقال: عكفت بالمكان، أي أقمت به ملازماً له، وهو في الشرع اللبث في المساجد للعبادة، و أقله ثلاثة أيام يصوم خلالها المعتكف و يكفّ عن بعض المباحات.

هذه العبادة لها الاثر العميق على تصفية الروح والقرب من الله، وذكرت كتب الفقه آدابها وشروطها، هذه العبادة مستحبة، وقد تتخذ أحيانا في ظروف استثنائية طابع الوجوب. في الآية التي نبحث فيها ورد ذكر أحد شروط الاعتكاف وهو حظر النكاح ليلا ونهاراً، وهذه الاشارة جاءت لارتباطها بمسألة الصوم.

* * *

٣ ـ **طلوع الفجر** ـ الفجر في الاصل شقّ الشيء شقا واسِعاً، وسمّى الصبح فجراً لأنه فَجَرَ الليل.

و عبّرت الآية عن الفجر أيضاً باسلوب «**حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْاَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْاَسْوَدِ**». ومن الظريف أن «عدي بن حاتم» قال للنبي: اني وضعت خيطين من شعر أبيض واسود فكنت أنظر فيهما فلا يتبين لي، فضحك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتى رؤيت نواجذه ثم قال: «**يَا ابْنَ حاتَمٍ اِنَّما ذٰلِكَ بَياضُ النَّهارِ وَ سَوادُ اللَّيْلِ فَابْتِداءُ الصَّوْمِ مِنْ هٰذَا الْوَقْتِ**».[2]

وهذاالتعبير يوضّح أيضاً الفرق بين الصبح الصادق والصبح الكاذب. لان الفجر فجران: الفجر الكاذب وهو على شكل عمود من الضوء يظهر في السماء كذَنَب السرحان (الثعلب)، و بعده يظهر الفجر الصادق وهو بياض شفّاف أفقي يظهر في أفق السماء،

---

(١) تفسير الصافي، في تفسير الآية المذكورة.

(٢) مجمع البيان، في تفسير الآية.

كخيط ابيض يظهر الى جوار الخيط الاسود. وهذا هوالصبح الصادق و به يتعلق حكم الصوم والصلاة. ولا يشبه الفجر الكاذب.

٤ ـ التقوى ، هي الأول والآخرـ في أول آية ترتبط باحكام الصوم ورد ذكر التقوى على أنها الهدف النهائي للصوم، و في آخر آية أيضاً وردت عبارة **«لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»** وهذا يؤكد أن كل مناهج الاسلام وسيلة لتربية الروح والتقوى والفضيلة والارادة والاحساس بالمسؤولية.

وآخر دعوانا أن الحمدلله ربّ العالمين

فهرس الجزء الأول

المقدمة ٣

سورة الحمد ١٣

خصائصها ١٥

محتوى السورة ١٧

لماذا سمّيت فاتحة الكتاب؟ ١٩

سؤال وجواب ٢٠

تفسير الآية: ١ ٢٢

هل البسملة من سورة الحمد؟ ٢٥

لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالى ٢٧

الرحمة الالهية الخاصّة والعامّة ٢٨

لِمَ لمْ ترد بقية صفات الله في البسملة؟ ٣٠

تفسير الآية: ٢ ٣٢

رفض الآلهة ٣٥

ربوبيّة الله طريق لمعرفة الله ٣٧

تفسير الآية: ٣ ٣٨

تفسير الآية: ٤ ٣٨

مبدأ الإيمان بيوم القيامة ٣٨

تفسير الآية: ٥ ٤١

الانسان بين يدي الله ٤١

وقفات ٤٢

تفسير الآية: ٦ ٤٤

السير على الصراط المستقيم ٤٤

ما هو الصراط المستقيم؟ ٤٦

تفسير الآية: ٧ ٤٨

هٰهنا خطّان منحرفان ٤٨

وقفتان ٤٨

سورة البقرة ٥١

محتوى سورة البقرة ٥٢

فضيلة هذه السورة ٥٢

تفسير الآيتين: ١ ـ ٢ ٥٤

تحقيق في «الحروف المقطعة» في القرآن ٥٤

الأدب في العصر الجاهلي ٥٥

شاهد ناطق ٥٥

لماذا الارشارة الى البعيد؟ ٥٧

معنى «الكتاب» ٥٧

ماهي «الهداية»؟ ٥٨

لماذا اختصت الهداية بالمتقين؟ ٥٩

تفسير الآيات: ٣ ـ ٥ ٦٠

خصائص المؤمنين ٦٠

١ ـ الإيمان بالغيب ٦٠

٢ ـ الارتباط بالله ٦٢

٣ ـ الارتباط بالناس ٦٣

٤ ـ الإيمان بالأنبياء ٦٤

٥ ـ الايمان بيوم القيامة ٦٥

مواصلة طريق الإيمان والعمل ٦٦

ماهي حقيقة التقوى؟ ٦٧

تفسير الآيتين: ٦ ـ ٧ ٦٨

سلب قدرة التشخيص و مسألة الجبر ٦٩
لماذا يصرّ الأنبياء على هداية العصاة؟ ٧٠
الختم على القلوب ٧١
«القلب» في القرآن ٧٢
لماذا استعملت قلوب و أبصار بصيغة الجمع،والسمع بصيغة المفرد؟ ٧٣
تفسيرالآيات: ٨ ـ ١٦ ٧٤
ظهور النفاق و أسبابه ٧٧
ضرورة معرفة المنافقين في كلّ مجتمع ٧٨
سعة معنى «النفاق» ٧٩
تآمر المنافقين ٨٠
خداع الضمير ٨١
التجارة الخاسرة ٨٣
تفسيرالآيات: ١٧ ـ ٢٠ ٨٤
مثالان رائعان لوصف حالة المنافقين ٨٤
تفسيرالآيتين: ٢١ ـ ٢٢ ٨٩
نِعَم الأرض والسماء ٩٠
الشرك في أشكال مختلفة ٩٣
تفسيرالآيتين: ٢٣ ـ ٢٤ ٩٥
لماذا يحتاج الأنبياء الى المعجزة؟ ٩٧
الخلود والعالميّة ٩٨
هل تحدّى القرآن؟ ٩٨
هل جيئ بمثله؟ ٩٩
شهادات حول القرآن ١٠١
تفسيرالآية: ٢٥ ١٠٤
الايمان والعمل ١٠٥
الأزواج المطهّرة ١٠٦
النعم الماديّة والمعنويّة في الجنّة ١٠٦

تفسير الآية: ٢٦ ١٠٨
أهمية المثال في بيان الحقائق ١١٠
لماذا التمثيل بالبعوضة؟ ١١١
هداية الله و إضلاله ١١٢
تفسير الآية: ٢٧ ١١٤
الخاسرون الحقيقيّون ١١٤
أهمّية صلة الرحم في الاسلام ١١٦
القطع بدل الوصل ١١٧
تفسير الآيتين: ٢٨ ـ ٢٩ ١١٨
نِعمة الحياة ١١٨
التناسخ أو عودة الأرواح ١٢١
السماوات السبع ١٢١
عظمة الكائنات ١٢٣
تفسير الآيات: ٣٠ ـ ٣٣ ١٢٥
الانسان خليفة الله في الارض ١٢٥
الملائكة في بودقة الاختبار ١٢٨
جواب على سؤالين ١٢٩
تفسير الآيات: ٣٤ ـ ٣٦ ١٣١
لماذا أبىٰ إبليس؟ ١٣٢
هل كان السجود لله أم لآدم؟ ١٣٣
ماهي جنّة آدم؟ ١٣٥
ماهو ذنب آدم؟ ١٣٦
المقارنة بين معارف القرآن والتوراة ١٣٧
المقصود من الشيطان في القرآن ١٤٠
لماذا خلق الشيطان؟ ١٤١
تفسير الآيات: ٣٧ ـ ٣٩ ١٤٣
عودة آدم الى الله ١٤٣

الكلمات التي تلقّاها آدم ١٤٤
سبب تكرار جملة «اهبطوا» ١٤٥
من هم المخاطبون في جملة «اهبطوا»؟ ١٤٥
تفسير الآية: ٤٠ ١٤٦
ذكر النِعَم الإلهية ١٤٦
اليهود في المدينة ١٤٧
ميثاق بني إسرائيل ١٤٨
وفاء الله بعهده ١٤٨
لماذا سمّي اليهود «بني إسرائيل»؟ ١٤٩
تفسير الآيات: ٤١ ـ ٤٣ ١٥١
جشع اليهود ١٥١
هل القرآن يصدّق ما جاء في التوراة والإنجيل؟ ١٥٣
تفسير الآيات: ٤٤ ـ ٤٦ ١٥٧
ما هو لقاء الله؟ ١٥٩
سبيل التغلّب على الصعاب ١٦٠
تفسير الآيتين: ٤٧ ـ ٤٨ ١٦١
أوهام اليهود ١٦١
القرآن ومسألة الشفاعة ١٦٣
المفهوم الحقيقي للشفاعة ١٦٤
الشفاعة في عالم التكوين ١٦٥
مستندات الشفاعة ١٦٦
الشروط المختلفة للشفاعة ١٦٧
الشفاعة في الحديث ١٦٨
التأثير المعنوي للشفاعة ١٦٩
فلسفة الشفاعة ١٧٢
شروط توفّر الشفاعة ١٧٣
شبهات حول مسألة الشفاعة ١٧٤

الشفاعة والتوحيد ١٧٥
نظرة على منطق الوهابيّين في حقل الشفاعة ١٧٨
تفسيرالآية: ٤٩ ١٨٢
نِعمة الحرية ١٨٢
تفسيرالآية: ٥٠ ١٨٤
النجاة من آل فرعون ١٨٤
تفسيرالآيات: ٥١ ـ ٥٤ ١٨٦
أكبر انحرافات بني إسرائيل ١٨٦
ذنب عظيم و توبة فريدة ١٨٧
تفسيرالآيتين: ٥٥ ـ ٥٦ ١٨٩
طلب عجيب! ١٨٩
تفسيرالآية: ٥٧ ١٩١
النِعم المتنوّعة ١٩١
الحياة الجديدة بعدالتحرر ١٩٢
المنّ والسلوى ١٩٢
لماذا قالت الآية «أنزلنا»؟ ١٩٤
ما هو الغمام؟ ١٩٥
تفسيرالآيتين: ٥٨ ـ ٥٩ ١٩٦
عناد بني إسرائيل ١٩٦
تفسيرالآية: ٦٠ ١٩٨
انفجار العيون في الصحراء ١٩٨
الفرق بين العثيّ والإفساد ١٩٩
المعاجز في حياة بني إسرائيل ١٩٩
الفرق بين «الانفجار» و «الانبجاس» ٢٠٠
تفسيرالآية: ٦١ ٢٠١
المطالبة بالأطعمة المتنوّعة ٢٠١
آراء المفسّرين في كلمة «مصر» ٢٠٢

التنوّع وطبيعة الإنسان ٢٠٣
هل المنّ والسلوى خيرالأطعمة؟ ٢٠٣
ذلّة بني إسرائيل ومسكنتهم ٢٠٤
تفسيرالآية: ٦٢ ٢٠٥
القانون العامّ للنجاة ٢٠٥
تساؤل هام ٢٠٦
قصة سلمان الفارسي ٢٠٧
من هم الصابئون؟ ٢٠٩
معتقدات الصابئين ٢١١
تفسيرالآيتين: ٦٣ ـ ٦٤ ٢١٣
الميثاق ٢١٣
رفع جبل الطور ٢١٤
الإلتزام والإرهاب ٢١٤
جبل الطور ٢١٥
خذوا تعاليم السماء بقوّة ٢١٥
تفسيرالآيتين: ٦٥ ـ ٦٦ ٢١٦
عصاة يوم السبت ٢١٦
تفسيرالآيات: ٦٧ ـ ٧٤ ٢١٨
قصة بقرة بني إسرائيل ٢١٨
أسئلة كثيرة تافهة ٢٢١
ما هو دافع القتل؟ ٢٢٣
العِبَر في هذه القصّة ٢٢٣
الإحسان الى الأب ٢٢٤
تفسيرالآيات: ٧٥ ـ ٧٧ ٢٢٥
لا أمل في هؤلاء ٢٢٥
تفسيرالآيتين: ٧٨ ـ ٧٩ ٢٢٨
خطّة اليهود في استغلال الجهلة ٢٢٨

تفسيرالآيات: ٨٠ ـ ٨٢ ٢٣٠
غرور و ادّعاء فارغ ٢٣٠
كسب السيّئة ٢٣١
إحاطة الخطيئة ٢٣١
عنصرية اليهود ٢٣٢
تفسيرالآيات: ٨٣ ـ ٨٦ ٢٣٣
الناكثون ٢٣٣
إشارة تاريخية ٢٣٥
الازدواجيّة في الالتزام ٢٣٦
منهج البقاء وعوامل السقوط ٢٣٧
تفسيرالآيتين: ٨٧ ـ ٨٨ ٢٣٨
القلوب المغلّفة ٢٣٨
رسالة الأنبياء في مسيرة التاريخ ٢٣٩
ما هو «روح القدس»؟ ٢٤٠
مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين ٢٤٠
قلوب غافلة محجوبة ٢٤١
تفسيرالآيتين: ٨٩ ـ ٩٠ ٢٤٢
كفروا بما عرفوا من قبل ٢٤٣
صفقة خاسرة ٢٤٤
غضب على غضب ٢٤٤
تفسيرالآيات: ٩١ ـ ٩٣ ٢٤٦
عنصرية اليهود ٢٤٦
وقفتان ٢٤٧
تفسيرالآيات: ٩٤ ـ ٩٦ ٢٤٩
فئة مغرورة ٢٤٩
وقفات ٢٥٠
جرائم العنصريين ٢٥١

عوامل الخوف من الموت	٢٥١
تفسير الآيتين: ٩٧ ـ ٩٨	**٢٥٣**
قوم محجاجون	٢٥٣
جبرئيل و ميكال	٢٥٥
تفسير الآيات: ٩٩ ـ ١٠١	**٢٥٦**
الناكثون من اليهود	٢٥٦
وقفات	٢٥٨
تفسير الآيتين: ١٠٢ ـ ١٠٣	**٢٥٩**
قصّة «هاروت» و «ماروت»	٢٦١
لفظ «هاروت» و «ماروت»	٢٦٢
كيف يكون الملك معلماً للإنسان؟	٢٦٣
لا قدرة لأحد على عمل دون إذن الله	٢٦٣
«السحر» و تاريخه	٢٦٣
«السحر» في رأي الاسلام	٢٦٥
«السحر» في التوراة	٢٦٥
«السحر» في عصرنا	٢٦٦
تفسير الآيتين: ١٠٤ ـ ١٠٥	**٢٦٨**
لا توفّروا للأعداء فرصة الطعن	٢٦٩
وقفة	٢٧٠
تفسير الآيتين: ١٠٦ ـ ١٠٧	**٢٧١**
هل يجوز النسخ في الأحكام	٢٧٢
تفسير الآية: ١٠٨	**٢٧٦**
حجج واهية	٢٧٦
تفسير الآيتين: ١٠٩ ـ ١١٠	**٢٧٨**
حسد و عناد	٢٧٨
وقفات	٢٧٩
تفسير الآيتين: ١١١ ـ ١١٢	**٢٨٠**

احتكار الجنّة ٢٨٠

وقفات ٢٨١

تفسير الآية: ١١٣ ٢٨٣

تعصّب و تناقض ٢٨٣

تفسير الآية: ١١٤ ٢٨٥

أظلم الناس ٢٨٥

تخريب المساجد ٢٨٧

أكبر ظلم ٢٨٨

تفسير الآية: ١١٥ ٢٨٩

فلسفة القبلة ٢٩٠

تفسير الآيتين: ١١٦ ـ ١١٧ ٢٩١

خرافات اليهود والنصارى والمشركين ٢٩١

دلائل نفي الولد ٢٩٢

معنى «كن فيكون» ٢٩٢

كيف يوجد الشيء من العدم؟ ٢٩٣

تفسير الآيتين: ١١٨ ـ ١١٩ ٢٩٥

حجج أُخرى ٢٩٥

تشابهت قلوبهم ٢٩٦

أصلان تربويّان ٢٩٧

تفسير الآيتين: ١٢٠ ـ ١٢١ ٢٩٩

إرضاء الضالّين محال ٣٠٠

عصمة الأنبياء ٣٠٠

للاسترضاء حدود ٣٠١

هدى الله ٣٠١

حقّ التلاوة ٣٠١

تفسير الآيتين: ١٢٢ ـ ١٢٣ ٣٠٣

تفسير الآية: ١٢٤ ٣٠٤

الإمامة قمّة مفاخر إبراهيم ٣٠٤
المقصود من الكلمات ٣٠٥
من هوالامام؟ ٣٠٥
الفرق بين النبوّة والإمامة والرسالة ٣٠٧
الإمامة أو آخر مراحل مسيرة إبراهيم التكامليّة ٣٠٨
مَن الظالم؟ ٣٠٩
الإمام يعيّنه الله ٣١٠
سؤالان ٣١١
شخصيّة إبراهيم المثاليّة ٣١٢
تفسيرالآية: ١٢٥ **٣١٣**
عظمة بيت الله ٣١٣
الآثار الاجتماعيّة والتربويّة للبيت الآمن ٣١٤
بيت الله ٣١٥
تفسيرالآية: ١٢٦ **٣١٦**
إبراهيم يدعو ربّه ٣١٦
تفسيرالآيات: ١٢٧ ـ ١٢٩ **٣١٨**
إبراهيم يبني الكعبة ٣١٨
هدف بعثة الأنبياء ٣٢٠
التعليم والتربية ٣٢١
النبيّ من الناس ٣٢١
تفسيرالآيات: ١٣٠ ـ ١٣٢ **٣٢٢**
إبراهيم الانسان النموذج ٣٢٢
تفسيرالآيتين: ١٣٣ ـ ١٣٤ **٣٢٥**
تفسيرالآيات: ١٣٥ ـ ١٣٧ **٣٢٧**
نحن على حقّ لاغيرنا ٣٢٧
وحدة دعوة الأنبياء ٣٢٩
من هم الأسباط؟ ٣٢٩

الخيف ٣٣٠

تفسيرالآيات: ١٣٨ ـ ١٤١ ٣٣١

اتّبعوا صبغة الله ٣٣١

نهاية الجزء الأوّل من كتاب الله العزيز ٣٣٣

تفسيرالآية: ١٤٢ ٣٣٧

تغييرالقبلة ٣٣٧

وقفات ٣٣٨

تفسيرالآية: ١٤٣ ٣٣٩

أسرار تغيير القبلة ٣٤١

الأُمّة الوسط ٣٤٢

الأُمّة الشاهدة ٣٤٣

علم الله ٣٤٣

تفسيرالآية: ١٤٤ ٣٤٤

كلّ الوجوه شطرالكعبة ٣٤٤

نظم الآيات ٣٤٥

انتظار صعب ٣٤٥

معنى الشطر ٣٤٦

خطاب عام ٣٤٦

الهدف من التغيير ٣٤٧

الكعبة مركز دائرة كبرى ٣٤٧

تفسيرالآية: ١٤٥ ٣٤٨

لا يرضون بأيّ ثمن ٣٤٨

تفسيرالآيتين: ١٤٦ ـ ١٤٧ ٣٥٠

يعرفون حقّ المعرفة ٣٥٠

تفسيرالآية: ١٤٨ ٣٥٢

لكلّ أُمّة قِبلة ٣٥٢

يوم يجتمع أصحاب المهدي (ع) ٣٥٣

تفسير الآيتين: ١٤٩ ـ ١٥٠	٣٥٥
تفسير الآيتين: ١٥١ ـ ١٥٢	٣٥٨
مهمّة رسول الله (ص)	٣٥٨
أقوال المفسّرين في «اذكروني أذكركم»	٣٦٠
تفسير الآيتين: ١٥٣ ـ ١٥٤	٣٦٣
الشهداء أحياء عند ربّهم	٣٦٣
خلود الشهداء	٣٦٦
الشهادة سعادة في الإسلام	٣٦٦
تفسير الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧	٣٦٨
الدنيا دار اختبار إلهي	٣٦٨
لماذا الاختبار الإلهي؟	٣٦٩
الاختبار الإلهي عامّ	٣٧١
طرق الاختبار	٣٧١
عوامل النجاح في الامتحان	٣٧٢
الاختبار بالخير والشر	٣٧٤
تفسير الآية: ١٥٨	٣٧٦
أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر	٣٧٧
الصفا والمروة	٣٧٧
من أسرار السعي بين الصفا والمروة	٣٧٨
جواب على سؤال	٣٨٠
معنى التطوّع	٣٨١
شكر الله	٣٨٢
تفسير الآيتين ١٥٩ ـ ١٦٠	٣٨٣
حرمة كتمان الحق	٣٨٣
مفاسد كتمان الحق	٣٨٥
كتمان الحق في الأحاديث	٣٨٦
معنى اللعن	٣٨٦

تفسير الآيات: ١٦١ ـ ١٦٣ ٣٨٨
وقفات ٣٨٩
تفسير الآية: ١٦٤ ٣٩١
مظاهر عظمة الله في الكون ٣٩١
تفسير الآيات: ١٦٥ ـ ١٦٧ ٣٩٥
تفسير الآيتين: ١٦٨ ـ ١٦٩ ٣٩٨
خطوات الشيطان ٣٩٨
أصل الحلّية ٤٠٠
الانحرافات تدريجية ٤٠٠
الشيطان عدوّ قديم ٤٠١
طريقة الوسوسة الشيطانيّة ٤٠٢
تفسير الآيتين: ١٧٠ ـ ١٧١ ٤٠٣
التقليد الأعمى ٤٠٣
وقفتان ٤٠٥
تفسير الآيتين: ١٧٢ ـ ١٧٣ ٤٠٦
الطيّبات والخبائث ٤٠٦
فلسفة تحريم اللحوم المحرّمة ٤٠٩
تفسير الآيات: ١٧٤ ـ ١٧٦ ٤١٢
إدانة كتمان الحق ٤١٢
تفسير الآية: ١٧٧ ٤١٦
أساس البرّ ٤١٦
تفسير الآيتين: ١٧٨ ـ ١٧٩ ٤٢٠
في القصاص حياة ٤٢٠
القصاص والعفو تركيب عادل ٤٢٢
هل القصاص يتعارض مع العقل والعواطف الانسانية؟ ٤٢٣
هل انتقص قانون القصاص المرأة؟ ٤٢٥
تفسير الآيات: ١٨٠ ـ ١٨٢ ٤٢٧

الوصيّة بالمعروف ٤٢٧
فلسفة الوصيّة ٤٣٠
العدالة في الوصيّة ٤٣١
تفسيرالآيات: ١٨٣ ـ ١٨٥ ٤٣٣
الصوم مدرسة التقوى ٤٣٣
الآثار التربويّة والاجتماعيه والصحيّة للصوم ٤٣٦
الصوم في الأمم السابقة ٤٤٠
امتياز شهر رمضان ٤٤١
قاعدة «لاحرج» ٤٤٢
تفسيرالآية: ١٨٦ ٤٤٣
سلاح اسمه «الدعاء» ٤٤٣
فلسفة الدعاء ٤٤٤
المفهوم الحقيقي للدعاء ٤٤٦
شروط استجابة الدعاء ٤٤٦
تفسيرالآية: ١٨٧ ٤٥١
رخصة في أحكام الصوم ٤٥١
الحدود الإلهيّة ٤٥٣
الاعتكاف ٤٥٤
طلوع الفجر ٤٥٤
التقوى هي الأوّل والآخر ٤٥٥

VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 057499350